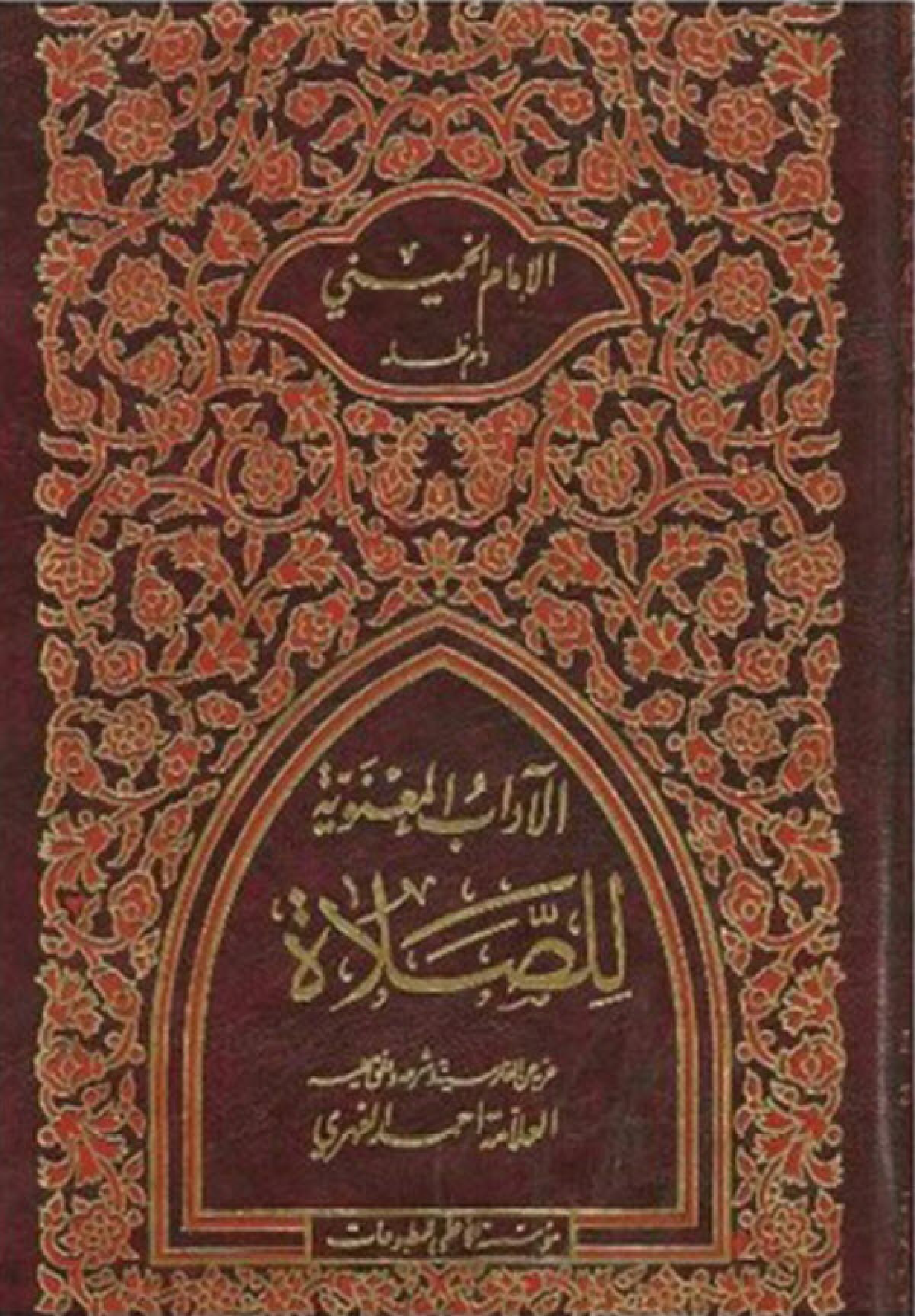

الإمام الخميني
دام ظله
الآداب المعنوية
للصلاة
عربه عن الفارسية وشرحه وعلق عليه
العلامة احمد الفهري
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات


الآداب المعنوية
للصلاة

الطبعة الثانية
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الآداب المعنوية

للصلاة

لسماحة آية الله العظمى

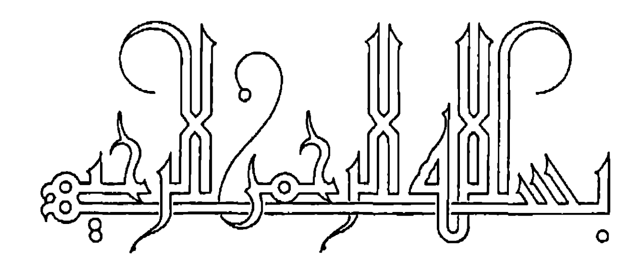
الإمام الخميني

دام ظله

عربه عن الفارسية وشرحه وعلق عليه
حجة الإسلام والمسلمين
العلامة أحمد الفهري

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص. ب ٧١٢٠




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله المعصومين خلفاء الله ..

وبعد ، لقد عيّن الله جلت عظمته بمقتضى تجلّيه باسم الربوبية سلسلة عبادات جسمية وواجبات أخلاقية تهدف جميعا الى تربية الانسان والوصول به الى كماله اللائق له . فالانسان في ظلّ العمل بهذه العبادات وتطبيق هذه الواجبات الأخلاقية يستطيع الوصول الى الكمال الذي خلق له ، ويحصل على نصيبه من اللذائذ الروحية والمعنوية في عالميّ الدنيا والآخرة .

١ ـــ إن الانسان ما دام أسيرا للرذائل الأخلاقية والممارسات القبيحة والسيئة فستظل قواه المعنوية والروحانية في عالم الاستعداد ولا تنتقل إلى عالم الفعلية ، وما لم تدخل قواه هذا العالم ولم تتفجّر قابلياته فإنه سيظل عاجزا عن إدراك اللذائذ المعنوية لأنه لا يمتلك السنخية مع عالم المعنى ، ومثله في ذلك الأميّ الذي يوضع في مكتبة تحوي نفائس المخطوطات وأمهات الكتب في مختلف العلوم البشرية ، أو يكون برفقة

فيلسوف قادر على حلّ معضلات الفلسفة ، فهل ترى يستفيد هذا الأميّ من هذه الكتب ، أو من هذا العالم شيئا ؟ .
بالتأكيد لا .

٢ ـ ليس للخالق العظيم تبارك وتعالى أيّ هدف شخصي في خلق العالم ، فبحكم غناه الذاتي وعدم احتياجه المطلق ، لا يمكن وجود هدف ترجع فائدته إليه ويعود نفعه عليه ، ولكن مع ذلك فان من المسلّم به أن الخلق ليس عبثا ولا يمكن لأحد أن يدّعي أن عالم الوجود وبحره المتلاطم وبناء الوجود العظيم لا هدف له . قال تعالى :« **ما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون** » (الدخان ـ ٣٨) . ومهما كان الهدف من الخلق ... فإن الانسان من بين المخلوقات قد أُوجد لهدف أعلى ومقام أسمى ، مقام يمكن للانسان فقط أن يتحمله لا الارض بجبالها الشاهقة ولا السماء بمنظوماتها ومجرّاتها « **إنّا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا** » (الاحزاب ـ ٧٢) .فلم تستطع السماء حمل ثقل الامانة ، ولكن الانسان الظلوم الجهول حملها ، والآية الكريمة المباركة : « **واصطنعتك لنفسي...** » (طه ـ ٤١) تتضمن سرّا من هذا الهدف الذي تحترق من لهيبه أصحاب القلوب الحبيّة احتراق الفراش بشعلة الشمع وتسليمه روحه[1] .

٣ ـ للوصول الى هذا التكامل ، أسست مدارس وقررت تعاليم من قبل المتصدين لتربية البشر ومدّعيها من الانبياء وغيرهم ولسنا الآن في مقام دراسة هذا البحث وهو خارج عن هدفنا وما يمكننا أن نعبّر به اجمالا

نتيجة الدراسة العميقة في هذا المجال هو أن نقول بأنها جميعا لا تخلو من إفراط وتفريط ولم تستطع أن تشبع غريزة حبّ الكمال الموجودة في فطرة البشر ، وأمّا الانبياء والسفراء الالهيون فقد قرّروا أن طريق التكامل هي العبودية لله عزّ وجلّ ولا سبيل اليه غيرها وقد أكدوا وبالغوا حتى أنه روي عن أحدهم عليهم السلام أنه قال : « العبودية جوهرة كنهها الربوبية »[1] . وجاء في الحديث الصحيح الذي ذكره الفريقان السنّة والشيعة عن رسول الله ﷺ « **ما تقرّب إليّ عبد بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه وإنه ليتقرّب إليّ بالنافلة حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها** »[2] .فنتيجة شدّة تقرّب العبد الى الله هي أن يصل الى الحدّ الذي يكون الحق تعالى سمعه وبصره ولسانه .

٤ ـــ من بين العبادات الصلاة التي تعني-إحدى الفرائض الاسلامية الكبيرة ، وهي أعلى صفّ في مدرسة الاسلام التربوية .

إنّ تشريع هذه العبادة الكبيرة إنما هو لايجاد العلاقة بين العبد والحق تعالى وإحكام مباني العبودية .

إن الصلاة تعطي قدرة للمصلّي ليقاوم في مواجهة الذنوب والاحداث كأنه بنيان مرصوص كما أشار اليه سبحانه في قوله « **واستعينوا بالصبر والصلاة** » (البقرة ــ ٤٥) .

كثيرا ما يسأل لماذا العبادة ؟ ولاي جهة شرّعت ؟ هل الله بحاجة الى عبادتنا لكي نعبده ؟ فالسائل يتصوّر أن لله سبحانه في تكليفنا العبادة هدفا شخصيا ، وأنّ عبادتنا لتأمين ذاك الهدف ، وهذا خطأ عظيم ، إن العبادة ليست لأجل رفع الحاجة عن جنابه

المقدّس وإن طاعتنا لا تنفع حضرته المقدسة كما أن عصياننا لا يضرّها كما قال عليّ عليه السلام في مقدّمة خطبة همّام : « **ان الله تعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيّا عن طاعتهم آمنا من معصيتهم لانه لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضرّه معصية من عصاه** »[3] بل الهدف من العبادة التربية والتزكية للروح والنفس والمقصود منها إبراز القدرة الكامنة في الروح التي تنشأ من العبودية والغرض منها رفع الظلمات الداخلية من صفحة القلب وتنويره بالأنوار الملكوتية وتهيئة الروح لقبول التجليات الالهية وإشراق نور العشق للحق تعالى .

٥ ــ وكثير من المصلّين يصلّون ولكن لا يدرون لماذا يصلّون ؟ وماذا ينتفعون من الصلاة ؟ وما تصنع الصلاة بأرواحهم وأنفسهم ؟ وبعبارة أوضح حيث إنهم لا يدرون لماذا يصلّون وهم عن المقصد الأصلي للصلاة غافلون فلهذا لا ينتفعون بها ، وهذه العبادة العظيمة الجليلة إما أنها لا تؤثّر في نفوسهم أصلا أو أن أثرها ان كان فقليل غير محسوس . كما قال الرسول الاكرم ﷺ « **نقر كنقر الغراب** »[4] فيبدأون بالصلاة مع الغفلة ويختمونها بالغفلة . ومن المعلوم أن الصلاة بهذه الصفة لا تكون منوّرة للقلب ولا مقوّية للروح ، ولذا نرى في أنفسنا أننا بعد ما صلّينا سنين لا ننتهي عن الفحشاء والمنكر ، مع أن القرآن ينصّ بأن الصلاة تنهىٰ عنهما ، ولا نقدر أن نكف أنفسنا عن معصية صغيرة فيتبيّن أن صلاتنا ليست بصلاة وفقا للقاعدة المقرّرة في المنطق ، فإنّا إذا قلنا بأن النار تحرق فنقيضها هو ما لم يحرق فليس بنار ، كذلك إذا ذكر القرآن « إن الصلاة تنهى عن

الفحشاء والمنكر » (العنكبوت ـ ٤٥) فما لم يَنْهَ فليس بصلاة ، بل لا بدّ أن نقول : إنه صورة محضة تشبه الصلاة .

فلأجل الجواب عن هذه الاسئلة وجبران هذه النواقص صنّف العلماء العظام كتبا في أسرار هذه العبادة ، وآدابها القلبية والمعنوية(*) منها الكتاب الحاضر وهو كتاب لم يكتب مثله في هذا الموضوع ويكفي للقارىء العيان عن البيان ، وليس لمثلي أن يعرّف كتابا ألّفه العارف بالله المرجع الاعلم الاورع آية الله العظمى الامام الخميني قائد الثورة الاسلامية ومؤسس جمهوريتها أدام الله ظلّه على رؤوس المسلمين . فترجمته الى العربية لتكون فائدته أعمّ وأشمل ، وقد بذلت جهدي في الترجمة ألا يتغيّر المعنى حتى بكلمة ، وأدّيت الأمانة ما استطعت ، وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وأنا العبد المفتاق الى رحمة الله

أحمد الفهري

تنويـه ______________

المراجع والحواشي المشار اليها بالارقام وضعت في نهاية كل فصل وشروح الحواشي المشار اليها بالنجوم وضعت بعدها مباشرة .

المراجع والحواشي

١ ــ مصباح الشريعة .

٢ ــ في الاصول الكافي ج١ ص٣٥٢ ذكر هذا الحديث بسند صحيح .

٣ ــ نهج البلاغة لعلي عليه السلام في خطبة يذكر فيها المتقين تسمى خطبة همّام .

٤ ــ كتاب وسائل الشيعة باب الصلاة .

٥ ــ كأسرار الصلاة للشهيد الثاني زين الدين المولود في سنة ٩١١ هـ والمتوفىٰ في ٩٦٦ هـ (ظسو) ، وكأسرار الصلاة للحكيم العارف الجليل القاضي سعيد القُمّي المتوفى في ١١٠٤ هـ (غقد) . وأسرار الصلاة للعارف الزاهد والفقيه الكامل الحاج ميرزا جواد التبريزي المنتقل الى جوار رحمة الله تعالى في يوم عيد الأضحى سنة ١٣٤٣ هـ (غشمج)في « قُمّ » . وجمع آخر من العلماء .

شروح الحواشي

« الكلمات الواردة بعد كل عام من أعوام الوفاة في هذا الكتاب والموضوعة بين قوسين تشير الى العام وفق حساب الجمل في اللغة العربية . وللأحرف العربية أرقام مرتبة حسب الترتيب الابجدي بحيث تعتبر الاحرف العشرة الاولى مساوية للارقام (١) الى (١٠) والارقام التي تليها من (٢٠) الى (١٠٠) ثم من (١٠٠) الى (١٠٠٠) فالعام ٩٦٦ يساوي الجملة « ظسو » باعتبار الظاء تساوي (٩٠٠) والسين تساوي (٦٠) والواو تساوي (٦) .

مدخل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن الى قيام يوم الدين .

اللهم إن أقدامنا قاصرة عن الوصول الى جناب قدسك . وإن أيدينا قاصرة عن النيل الى ذيل أُنسِك ، وإن حجب الشهوات والغفلات قد حجبت بصائرنا عن جمالك الجميل وإن الأستار الكثيفة الناشئة من حبّ الدنيا ومن أعمالنا الشيطانية قد صيّرت قلوبنا مهجورة عن التوجّه الى عزّ جلالك . إن صراط الآخرة لدقيق وإن طريق الانسانية لحديد ونحن المضطرّون في فكرتنا كالعنكبوت قديد ونحن الحائرون كدود القزّ قد نسجنا لانفسنا سلاسل الشهوات والآمال فها نحن فيها مقيّدون وعن عالم الغيب ومحفل الانس بالمرة آيسون . اللهم الا أن تبرق لابصارنا وقلوبنا بارقة إلهية فتنورنا وتجذبنا بجذبة غيبية تذهلنا بها عن أنفسنا .

« إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل الى معدِن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك .»[1] .

وبعد ففي الايام الماضية أعددت رسالة وأودعت فيها ما تيسّر لي من أسرار الصلاة ، وحيث إنها لا تناسب أحوال عامة الناس ، خطر ببالي أن أضع في سلك التحرير شطرا من الآداب القلبية ، لهذا المعراج الروحاني لعلها تكون للاخوة في سبيل الايمان ذكرا وتترك في قلبي القاسي منها أثرا ، وأعوذ بالله تعالى من تصرّف الشيطان وحصول الخذلان إنه وليّ قدير .

ورتّبته على مقدمة ومقالات وخاتمة .

المراجع والحواشي

١ ــ من المناجاة الشعبانية للأئمة المعصومين عليهم السلام .

المقدمة

أما المقدمة فاعلم : ان للصلاة غير هذه الصورة لمعنى ، ولها دون هذا الظاهر لباطنا . وكما أن لظاهرها آدابا يؤدي عدم رعايتها الى بطلان الصلاة الصورية أو نقصانها ، فان لباطنها آدابا قلبية باطنية يلزم من عدم رعايتها بطلان أو نقص في الصلاة المعنوية ، كما أنه برعاية تلك الآداب تكون الصلاة ذات روح ملكوتي ، والمصلّي بعدما راقب الآداب الباطنية واهتمّ بها يمكن أن يكون له نصيب من السرّ الالهي المودع في صلاة أهل المعرفة وأصحاب القلوب الذي هو قرّة عين لأرباب السلوك ، وحقيقة معراج قرب المحبوب . وما ذكرنا من أن للصلاة باطنا وصورة غيبية مضافا الى أنه موافق لضرب من البرهان ومطابق لمشاهدات أصحاب السلوك والرياضة تدل عليه آيات وأخبار كثيرة ، إما على نحو العموم بحيث تشمل جميع العبادات والاعمال ، أو على نحو خاص وفي موارد خاصة . ونحن نذكر بعضا منها نبارك هذه الاوراق بذكرها :

منها ، قوله تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمدا بعيدا[1] . فالآية الشريفة تدل على أن كل أحد يرى أعماله خيرها وشرها حاضرا، ويشاهد صورتها الباطنية

الغيبية . كما أنه يقول في الآية الشريفة الاخرى : « ووجدوا ما عملوا حاضرا »[2] وفي آية ثالثة : « فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره »[3] فهذه الآيات تدلّ على أن الانسان يعاين ويشاهد الاعمال نفسها[4] .

وأما الأحاديث الشريفة في هذا المقام فهي أكثر من أن تحتويها هذه الصفحات ونكتفي بذكر بعضها .

منها ما في الوسائل بإسناده الى ابي عبد الله الصادق عليه السلام قال :

« من صلّى الصلوات المفروضات في أول وقتها وأقام حدودها رفعها الملك الى السماء بيضاء نقية تقول : حفظك الله كما حفظتني استودعتني ملكا كريما . ومن صلاّها بعد وقتها من غير علّة ولم يقم حدودها رفعها الملك سوداء مظلمة وهي تهتف به ضيّعتني ، ضيّعك الله كما ضيّعتني ، ولا رعاك الله كما لم ترعني » .

فإن هذه الرواية تدل على أن ملائكة الله سبحانه ترفع الصلاة الى السماء إمّا بصورة نقيّة بيضاء وهي ما اذا أتى بها المصلّي في أول وقتها ولاحظ آدابها فتدعو له بدعاء الخير ، وإما بصورة سوداء مظلمة وذلك إذا أخّرها من غير عذر عن وقتها ، ولم يقم حدودها ، فتدعو حينئذ على المصلي .

وهذه الرواية مضافا الى أنها تدل على الصورة الغيبية الملكوتية تدل على حياتها أيضا . كما أن البرهان ايضا قائم على هذا والآيات تدل عليه كقوله تعالى « وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان »[5] . وقد وردت روايات أخر تدل بمضمونها على ما تضمنته الرواية المذكورة وذكرها يوجب التطويل ، فعن الصادق[6] عليه السلام :

« اذا دخل المؤمن في قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره والبرّ مظلّ عليه ويتنحى الصبر ناحية فاذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة والزكاة والبرّ : دونكم صاحبكم فان عجزتم عنه فأنا دونه » .

وهذه الرواية الشريفة رواها في الكافي الشريف بطريقتين ، ورواها الشيخ الصدوق[٧] رحمه الله في ثواب الاعمال ودلالتها على وجود الصور الغيبية البرزخية وحياتها وشعورها واضحة ، والاحاديث في أن القرآن يتمثل بصورة ملكوتية وكذلك الصلاة كثيرة (راجع الحاشية رقم٤) .

وأما ما ذكرنا من أن للصلاة وسائر العبادات آدابا قلبية سوى هذه الاداب الصورية تكون الصلاة بدونها ناقصة او غير مقبولة اصلا في جنابه تعالى ، فسيذكر عند عدّ الآداب القلبية ان شاء الله .

ولكن ما لابدّ من التنبيه عليه ها هنا ان من أعلى مراتب الخسران والضرر ، الاقتناع بصورة الصلاة وقشرها والحرمان من بركاتها وكمالاتها الباطنية التي توجب السعادات الابدية بل انها توجب جوار ربّ العزّة ومرقاة للعروج الى مقام الوصول بوصل المحبوب المطلق الذي هو غاية آمال الاولياء ومنتهى أمنية اصحاب المعرفة وأرباب القلوب ، بل هو قرّة عين سيد الرسل صلى الله عليه وآله . ويا لها من حسرة تعجز عقولنا عن ادراكها ولا تدركها الا بعد الخروج من هذه النشأة والورود في المحاسبة الالهية وما دمنا في حجاب عالم الملك وخدر الطبيعة فاننا لا نقدر أن ندرك شيئا من ذاك العالم (وانما مددنا أيدينا الى النار من مكان بعيد[٨] فأيّ حسرة وندامة وضرر وخسران أعلى من أن ما هو وسيلة للكمال والسعادة للانسان ودواء للآلام والنقائص

القلبية ، وهو في الحقيقة الصورة الكمالية الانسانية يصير بحيث بعدما أتعب الانسان نفسه في سبيله أربعين سنة أو خمسين سنة لا يستفيد منه فائدة روحانية. وليس هذا فحسب بل صار سببا للكدورات القلبية والحجب الظلمانية ، وما كان قرة العين للرسول الاكرم ﷺ يصير موجبا لضعف بصيرتنا ، فوا حسرتاه على ما فرّطت في جنب الله .

أيّها العزيز شمّر ذيل الهمّة وابسط يد الطلب وأصلح حالاتك مهما تتحمّل من التعب والمشقة وحصّل الشرائط الروحية لصلاة أهل المعرفة واستفد من هذا المعجون الالهي الذي اكتشف بالكشف التامّ المحمدي لمعالجة الآلام والنقائص النفسانية بأسرها ، وارتحل ما دام الوقت باقيا من هذا المنزل المظلم ودار الحسرة والندامة والجبّ العميق ألا وهو البعد عن الساحة المقدسة الربوبية جلّ وعلا ، وتخلّص منهما وأوصل نفسك الى معراج الوصال وقرب الكمال فإن غير الصلاة من الوسائل لمنقطع ان انقطعت هذه الوسيلة « ان قبلت قبل ما سواها وان ردّت ردّ ما سواها » . ونحن نبيّن الاداب الباطنية لهذا السلوك الروحاني بمقدار الميسور والمقتضى ، فلعلّ لاهل الايمان يكون نصيب منها ، ولعل هذا يكون موجبا للرحمة الالهية والتوجّه الغيبيّ بالنسبة الى هذا المتوقّف عن طريق السعادة والانسانية والمغلول في سجن الطبيعة والانانية إنّه وليّ الفضل والعناية ..

المراجع والحواشي

١ ــ آل عمران ٣

٢ ــ الكهف ٤٩

٣ ــ الزلزلة ٧

٤ ــ ومن جملة الآيات الدالّة على وجود الصور الغيبية الملكوتية قوله تعالى : « وانّ جهنّم لمحيطة بالكافرين » (العنكبوت٥٤) .. فان اسم الفاعل ظاهر في الفعلية ، فجهنّم المحيطة فعلا بالكفّار هي الصورة الغيبية للعقائد الباطلة والصفات الرذيلة والاعمال السيئة ..

ومنها قوله تعالى : « وما تقدّموا لأنفسكم تجدوه عند الله » (المزمل٢٠) . فان ظاهرها رجوع الضمير الى (ما) في (ما تقدموا) من دون تقدير الجزاء وأمثاله ، فان التقدير خلاف الظاهر ..

وكذلك قوله تعالى : « يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه » (النبأ٤٠) بنفس البيان المتقدم في الآية المتقدمة .. ومنها قوله تعالى « إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا » (النساء١٠)

وفي الحديث : « ان العمل الصالح ليذهب الى الجنة فيمهّد لصاحبه كما يبعث الرجل غلاما فيفرش له ، ثم قرأ عليه الصلاة والسلام : أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلانفسهم يمهدون » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الذي يشرب في آنية الذهب والفضة انما يجرجر في جوفه نار جهنم ».. وقال عليه الصلاة والسلام : « من علّق سوطا بين يدي سلطان جائر جعل ذلك السوط يوم القيامة ثعبانا من نار طوله سبعون ذراعا يسلّطه الله عليه يوم القيامة في نار جهنّم وبئس المصير » .

« وقال عليه الصلاة والسلام : « اجتنب الغيبة فانها إدام كلاب أهل النار » .

وقال جبرائيل لرسول الله صلى الله عليه وآله « اعمل ما شئت فانك ملاقيه » والروايات الدالّة على تجسّم الاعمال وان لها صورة ملكوتية كثيرة جدا ذكرنا في المقام منها ما يكون نموذجا ولما فيه من المطالب المفيدة .. ومن الروايات الدالّة على المقصود ما رواه في عدّة الداعي(*) عن يعقوب الاحمر قال : قلت لابي عبد الله الصادق عليه السلام : « جعلت فداك انه قد أصابني هموم وأشياء لم يبق من الخير الا وقد تفلّت مني منه طائفة ، حتى القرآن لقد تفلّت مني طائفة منه .. قال : ففزع عند ذلك حين ذكرت القرآن . ثم قال : ان الرجل ينسى السورة من القرآن فيأتيه يوم القيامة حتى يشرف عليه من درجة من بعض الدرجات فيقول : السلام عليك ، فيقول وعليك السلام من أنت ؟ فيقول أنا سورة كذا وكذا ضيّعتني وتركتني أمّا لو تمسّكت بي بلغت لك هذه الدرجة » .

ومنها ما في الوافي(**) أن رجلا قال لابي عبد الله عليه السلام: «ان ابي قد كبر جدّا فنحن نحمله اذا أراد الحاجة .. قال عليه السلام : ان استطعت أن تلي ذلك فافعل ولقّمه بيدك فانه جنّة لك غدا » .

وفي رواية أخرى : السخاء شجرة في الجنة من تعلّق بغصن من أغصانها دخل الجنة . والبخل شجرة من النار من تعلّق بغصن من أغصانها أدّته الى النار .

٥ ــ العنكبوت ٦٤ .

٦ ــ كنية الامام السادس جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام رئيس المذهب الحق مذهب أهل البيت عليهم السلام وُلد بالمدينة يوم الاثنين سابع عشر ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين وهو اليوم الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وآله .

أمّه عليه السلام النجيبة الجليلة المكرمة فاطمة المعروفة بأمّ فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر وأمها اسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر قال السيّد الشبليخي الشافعي في نور الابصار في أحوال ابي عبد الله الصادق عليه السلام ما لفظه : ومناقبه كثيرة تكاد تفوت عند الحاسب ويحار في أنواعها فهم اليَقِظ الكاتب . روى عنه جماعة من أعيان الأئمة وأعلامهم كيحيى بن سعيد وابن جريج ومالك بن أنس والثوري وابن عيينة وأبي ايوب السجستاني وغيرهم . قال أبو حاتم : جعفر الصادق عليه السلام ثقة لا يُسأل عن مثله . قال ابن قتيبة في كتاب أدب الكاتب ، وكتاب الجفر كتبه الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر فيه كلّ ما يحتاجون الى علمه الى يوم القيامة والى هذا الجفر أشار أبو العلاء المعرّي بقوله :

لقد عجبوا لآل البيت لما
أتاهم علمهم في جلد جفر
ومرآة المنجّم وهي صغرى
تريه كل عامرة وقفر

والجفر من أولاد المعز ، ما بلغ الرابعة اشهر حتى انفصل عن أمّه .

وفي الفصول المهمة نقل بعض أهل العلم أن كتاب الجفر الذي بالمغرب يتوارثه بنو عبد المؤمن بن علي من كلام جعفر الصادق عليه السلام وله فيه المنقبة السنيّة والدرجة التي في مقام الفضل عَلِيّة . (انتهى) . وقبض أبو عبد الله عليه السلام في شوال من سنة ثمان وأربعين ومئة مسموما في عنب

سمّه المنصور وله خمس وستون سنة وقد عيّن بعض المتتبعين يوم وفاته عليه السلام في الخامس والعشرين منه وقيل يوم الاثنين لنصف من رجب ودفن بالبقيع .

٧ ـ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي شيخ الحفظة ووجه الطائفة المستحفظة رئيس المحدّثين والصدوق فيما يرويه عن الأئمة الطاهرين ولد بدعاء مولانا صاحب الامر عليه السلام ونال بذلك عظيم الفضل والفخر فعمّت بركته الانام وبقيت آثاره ومصنّفاته مدى الأيام له نحو من ثلاثمئة مصنَّف . .

قال ابن ادريس في حقه : انه كان ثقة جليل القدر بصيرا بالاخبار ناقدا للآثار عالما بالرجال وهو أستاذ المفيد محمد بن محمد بن النعمان . قال العلامة في ترجمته : ورد بغداد سنة ٣٥٥ وسمع منه شيوخ الطائفة وهو حدث السنّ . كان جليلا حافظا للاحاديث بصيرا بالرجال ناقدا للاخبار لم ير في القميّين مثله في حفظه وكثرة علمه له نحو من ثلاثمئة مصنّف ، ذكرنا أكثرها في كتابنا الكبير . مات بالريّ سنة ٣٨١ (شفا) احدى وثمانين وثلاثمئة (انتهى) وقبره رحمه الله في بلدة الريّ قرب عبد العظيم الحسني مزار معروف في بقعة عالية في روضة مونقة وأطراف قبره قبور كثيرة من أهل الفضل والايمان .

٨ ـ مصراع بيت في الفارسية كمثل دارج « دستي ازدور برآتش داريم » .

شروح الحواشي

* ــ كتاب لجمال السالكين أبي العباس أحمد بن محمد بن فهد الحلّي الاسدي : الشيخ الاجلّ الثقة الفقيه الزاهد العالم العابد الصالح الورع التقيّ صاحب المقامات العالية والمصنّفات الفائقة كالمهذّب البارع شرح المختصر النافع والموجز والتحرير وعدّة الداعي والتحصين واللمعة الجليّة وغير ذلك ولد سنة ٧٥٧ وتوفي سنة ٨٤١ هجرية (ضما)ودفن في جوار ابي عبد الله الحسين عليه السلام وقبره في كربلاء مشهور يزار .

** ــ موسوعة تشمل الكتب الاربعة : الكافي ، والتهذيب ، والاستبصار ، ومن لا يحضره الفقيه . ألفها المحدث الجليل المولى محسن القاساني ، الملقب بالفيض .

المقالة الاولى

في الآداب التي تكون ضرورية في جميع الحالات الصلاتية بل في جميع العبادات والمناسك

وفيها اثنا عشر فصلاً

الفصل الاول

في التوجّه الى عزّ الربوبية وذلّ العبودية

من الآداب القلبية في العبادات والوظائف الباطنية لسالك طريق الاخرة التوجّه الى عزّ الربوبية وذلّ العبودية ، وهذا التوجّه من المنازل المهمّة في السلوك للسالك بحيث تكون قوّة سلوك كل من السالكين بحسب قوة هذا النظر وبمقدارها ، بل الكمال والنقص لانسانية الانسان تابع لهذا الامر ، وكلما كان النظر الى الإنيّة والانانية ورؤية النفس وحبّها في الانسان غالبا كان بعيدا عن كمال الانسانية ومهجورا من مقام القرب الربوبي ، وان حجاب رؤية النفس وعبادتها لأضخم الحجب وأظلمها ، وخرق هذا الحجاب أصعب من خرق جميع الحجب ، وفي نفس الحال مقدمة له بل وخرق هذا الحجاب هو مفتاح مفاتيح الغيب والشهادة وباب أبواب العروج الى كمال الروحانية ، وما دام الانسان قاصرا على النظر الى نفسه وكماله المتوهم وجماله الموهوم فهو محجوب ومهجور من الجمال المطلق والكمال الصرف والخروج من هذا المنزل هو أول شرط للسلوك الى الله بل هو الميزان في حقانية الرياضة وبطلانها . **فكل سالك يسلك بخطوة الأنانية ورؤية النفس** ويطوي منازل السلوك في حجاب الإنيّة وحب النفس تكون رياضته باطلة

ولا يكون سلوكه الى الله بل الى النفس (أمّ الاصنام صنم نفسك)[1] قال تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله »[2] .

فالهجرة الصورية وصورة الهجرة عبارة عن هجرة البدن « المنزل الصوري » الى الكعبة أو الى مشاهد الاولياء ، والهجرة المعنوية هي الخروج من بيت النفس ومنزل الدنيا الى الله ورسوله ، والهجرة الى الرسول والى الوليّ ايضا هجرة الى الله ، وما دام للسالك تعلّق ما بنفسانيّته وتوجّه منه الى إنّيّته فليس هو بمسافر وما دامت البقايا من الانانية على امتداد نظر السالك وجدران مدينة النفس واذان اعلام حبّ النفس غير مختفية فهو في حكم الحاضر لا المسافر ولا المهاجر .

وفي مصباح الشريعة قال الصادق (ع) : (العبودية جوهرة كنهها الربوبية فما فقد في العبودية وجد في الربوبية ، وما خفي من الربوبية أصيب في العبودية) .

فمن سعى بخطوة العبودية ووسم ناصيته بسمة ذلة العبودية يصل الى عزّ الربوبية ، والطريق للوصول الى الحقائق الربوبية هو السير في مدارج العبودية فما فقد من الإنّيّة والانانية في عبوديّته يجده في ظلّ الحماية الربوبية حتى يصل الى مقام يكون الحق تعالى سمعه وبصره ويده ورجله كما في الحديث الصحيح المشهور عند الفريقين . فاذا ترك العبد التصرفات من عنده وسلم حكومة وجوده كلها الى الحق وخلّى بين البيت وصاحبه وفني في عزّ الربوبية فحينئذ يكون المتصرّف في الدار صاحبها فتصير تصرفات العبد تصرّفا الهيّا ، فيكون بصره بصرا إلهيا وينظر ببصر الحق ويكون سمعه سمعا إلهيا فيسمع بسمع الحق ، وكلما اكتملت ربوبية النفس وكان عزّها

منظورا في نظرها نقص بمقداره من العزّ الربوبي لأن هذين : اي عزّ العبودية وعز الربوبية متقابلان « الدنيا والآخرة ضرتان » فمن الضروري للسالك أن يتفطّن الى ذلّه ويكون ذلّ العبودية وعزّ الربوبية نصب عينيه .

وكلما قوي هذا النظر زادت روحانيته في العبادة وكانت روح العبادة أقوى ، حتى اذا تمكن العبد بنصرة الحق وأوليائه الكُمّل عليهم السلام من الوصول الى حقيقة العبودية ، وكنهها فانه يجد حينئذ لمحة من سرّ العبادة . وهذان المقامان ـــ أعني مقام عزّ الربوبية الذي هو الحقيقة ومقام ذلّ العبودية الذي هو رقيقته ـــ مرموزان في جميع العبادات وبالاخص في الصلاة التي لها مقام الجامعية . ومنزلتها بين العبادات منزلة الانسان الكامل ومنزلة الاسم الاعظم بل هي عينه ، وللقنوت ، من الاعمال المستحبة .وللسجدة ، من الاعمال الواجبة اختصاص بهذه الخصوصية وسنشير اليها فيما يأتي ان شاء الله .

وليعلم ان العبودية المطلقة من أعلى مراتب الكمال وأرفع مراتب الكمال وأرفع مقامات الانسانية وليس لاحد فيها نصيب سوى الاكمل من خلق الله محمد صلى الله عليه وآله وأولياء الله الكمّل ، فله صلى الله عليه وآله هذا المقام بالاصالة وللاولياء الكمّل بالتبعية وأما بقية العباد فهم في طريق العبادة عُرج وعبادتهم وعبوديّتهم معلّلة ولا ينال المعراج الحقيقي المطلق الا بقدم العبودية ولهذا قال الله سبحانه : « سبحان الذي أسرى بعبده »[٣] فقد أسرى الله سبحانه بتلك الذات المقدسة الى معراج القرب والوصول بقدم العبودية والجذبة الربوبية .

وفي التشهد الصلاتي الذي هو رجوع من الفناء المطلق الذي حصل للمصلّي في السجدة ، التوجّه الى العبودية ايضا قبل التوجه بالرسالة

ويمكن أن يكون اشارة الى أن مقام الرسالة هو أيضا نتيجة لجوهرة العبودية ولهذا المطلب ذيل طويل خارج عن نطاق هذه الأوراق .

المراجع والحواشي

١ ــ مصراع بيت للعارف الرومي مشهور : مادريت هابت نفس شمااست

٢ ــ النساء ١٠٠

٣ ــ الاسراء ١

الفصل الثاني

في مراتب مقامات أهل السلوك

اعلم أن لاهل السلوك في هذا المقام وسائر المقامات مراتب ومدارج لا تحصى . ونحن نذكر بعض مراتبه على النحو الكلّي ، واما الاحاطة بجميع جوانبه وإحصاء جميع مراتبه فخارج عن عهدتي وفوق طاقتي ، فان « الطرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق »[1] .

فمن تلك المراتب مرتبة العلم وهي أن يثبت بالسلوك العلمي والبرهان الفلسفي ذلة العبودية وعزة الربوبية ، وهذا لبّ من لباب المعارف . فقد اتضح في العلوم العالية والحكمة المتعالية أن جميع دار التحقق وتمام دائرة الوجود انما هو صرف الربط والتعلّق ومحض الفقر والفاقة ، أما العزّة والملك والسلطان فمختصة بذاته المقدس الكبريائي وليس لاحد من حظوظ العزة والكبرياء نصيب .

وذل العبودية والفقر ثابت في ناصيتهم وفي حاقّ حقيقتهم ، وانما حقيقة العرفان والشهود ونتيجة الرياضة والسلوك هي رفع الحجاب عن وجه الحقيقة ورؤية ذل العبودية وأصل الفقر والتدلي في نفسه وفي جميع الموجودات ، ولعلّ في الدعاء المنسوب الى سيّد الكائنات صلى الله عليه

وآله : « اللهم أرني الاشياء كما هي » اشارة الى هذا المقام بمعنى أنه صلى الله عليه وآله سأل الله سبحانه أن يشهده ذلة العبودية المستلزمة لشهود عزّ الربوبية .

فسالك طريق الحقيقة ومسافر سبيل العبودية اذا قطع هذا المنزل بالسلوك العلمي وركب مركب السير الفكري يقع في حجاب العلم ويصل الى المقام الاول للانسانية ، ولكن هذا الحجاب من الحجب الغليظة وقد قالوا : العلم هو الحجاب الاكبر ولا بد ألّا يبقى في هذا الحجاب وأن يخرقه ولعله اذا اقتنع بهذا المقام وسجن قلبه في هذا القيد يقع في الاستدراج ، والاستدراج في هذا المقام هو أن يشتغل بالتفريعات الكثيرة العلمية ويجوّل فكره في هذا الميدان ، فيقيم لهذا المقصد براهين كثيرة فيحرم من المنازل الأخر ويتعلق قلبه بهذا المقام ويغفل عن النتيجة المطلوبة وهي الوصول الى الفناء في الله ويصرف عمره في حجاب البرهان وشعبه وكلما كثرت الفروع يصير الحجاب والاحتجاب عن الحقيقة أكثر .

فللسالك ألّا يغتّر بمكايد الشيطان في هذا المقام ولا يحتجب بكثرة العلم وغزارته ، ولا بقوة البرهان عن الحق والحقيقة ويتأخر عن السير في الطلب وله أن يشمّر الذيل بهمّته ، ولا يغفل عن الجدّ في طلب المطلوب الحقيقي حتى ينال المقام الثاني .

وهو أن كل ما أدركه عقله بقوة البرهان والسلوك العلمي يكتبه بقلم العقل على صحيفة قلبه كي يوصل حقيقة ذل العبودية وعزّ الربوبية الى القلب ويفرغ من القيود والحجب العلمية ، ونحن نشير الى ذلك المقام عن قريب ان شاء الله ، فإذن ، فنتيجة المقام الثاني هي حصول الايمان بالحقائق .

والمقام الثالث هو مقام الاطمئنان والطمأنينة ، وهو في الحقيقة المرتبة الكاملة من الايمان ، قال تعالى مخاطبا خليله « أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي »[٢] ولعلّنا نشير الى تلك المرتبة ايضا فيما سيأتي .

المرتبة الرابعة هي مقام المشاهدة ، وهو نور الهي وتجلّ رحماني يظهر في سرّ السالك تبعا للتجليات الاسمائية والصفاتية وينوّر جميع قلبه بنور شهوديّ ولهذا المقام درجات كثيرة لا تتسع هذه الاوراق لذكرها .

وفي هذا المقام يبرز انموذج من قرب النوافل المعبّر عنه بـ « كنت سمعه وبصره » .

ويرى السالك نفسه مستغرقا في البحر اللامتناهي ومن ورائه بحر عميق في غاية العمق تنكشف له فيه نبذة من أسرار القدر ، ولكل من هذه المقامات استدراج يختص به وللسالك فيه هلاك عظيم . ولا بدّ للسالك في جميع هذه المقامات من تخليص نفسه من الانانية وأن يتخلص من رؤية نفسه وحبّها ، فانه منبع أكثر المفاسد ولا سيّما للسالك وسنشير الى ذلك المطلب ان شاء الله .

الحواشي

١ ــ قال الصادق عليه السلام : « الايمان درجات وطبقات ومنازل ، فمنه التام المنتهي تمامه ومنه الناقص البيّن نقصانه ومنه الراجح الزائد رجحانه » .

وقال الباقر عليه السلام : « ان المؤمنين على منازل ، منهم على واحدة ومنهم على اثنتين ومنهم على ثلاث ومنهم على اربع ومنهم على خمس ومنهم على ستّ ومنهم على سبع ، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة اثنتين لم يقوَ ، وعلى صاحب الاثنتين ثلاثا لم يقو » وساق الحديث ثم قال : « وعلى هذه الدرجات » .

الفصل الثالث

في بيان الخشوع

ان من الامور اللازمة للسالك في جميع عباداته ولا سيما في الصلاة التي هي رأس العبادات ولها مقام الجامعية ، الخشوع . وحقيقته عبارة عن الخضوع التام الممزوج بالحب او الخوف وهو يحصل من ادراك عظمة الجلال والجمال وسطوتهما وهيبتهما .

وتفصيل هذا الاجمال هو أنّ قلوب أهل السلوك بحسب الجِبِلّة والفطرة مختلفة ، فبعض منها عشقيّ ومن مظاهر الجمال ومتوجه الى جمال المحبوب بحسب الفطرة فهؤلاء اذا ادركوا في سلوكهم ظل الجميل ، أو شاهدوا أصل الجمال تمحوهم العظمة المختفية في سرّ الجمال فتصعقهم ، لأنّ في كل جمال جلالا مختفيا وفي كل جلال جمالا مستورا .

ولعله الى ذلك أشار مولى العارفين وأمير المؤمنين والسالكين صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين حيث قال :

« سبحان من اتسعت رحمته لاوليائه في شدّة نقمته ، واشتدت نقمته لاعدائه في سعة رحمته » فتغشاهم هيبة الجمال وعظمته ويأخذهم الخشوع في حيال جمال المحبوب .

وهذه الحالة في أوائل الأمر توجب تزلزل القلب واضطرابه ، وبعد التمكين تحصل للسالك حالة الانس وتتبدل حالة الوحشة والاضطراب المتولدة من العظمة والسطوة الى الانس والسكينة وتجيئه حالة الطمأنينة ، كما أن حالة قلب خليل الرحمن كانت كذلك .

وبعض من القلوب خوفيّ ومن مظاهر الجلال ، وأرباب تلك القلوب يدركون دائما العظمة والكبرياء والجلال ، وخشوعهم يكون من الخوف ، ومن تجلي الاسماء القهرية والجلالية لقلوبهم ، كما أن يحيى ، على نبيّنا وآله وعليه السلام ، كان هكذا . فالخشوع يكون ممزوجا تارة بالحب وأخرى بالخوف والوحشة ، وان كان في كل حبٍّ وحشة ، وفي كل خوف حبّ . ومراتب الخشوع على حسب مراتب ادراك العظمة والجلال والحسن والجمال ، وحيث أن أمثالنا مع ما لنا من هذه الحالة ، من نور المشاهدات محرومون فلا بد أن نكون بصدد تحصيل الخشوع من طريق العلم او الايمان . قال تعالى :

« قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون »(1) فجعل الخشوع في الصلاة من حدود الايمان وعلائمه . فكل من لم يكن خاشعا في الصلاة فهو خارج عن زمرة أهل الايمان طبقا لما قاله الذات المقدسة الحق تعالى شأنه(2) .

وبما أن صلواتنا ليست مشفوعة بالخشوع فان ذلك ناجم إمّا عن نقص الايمان ، أو فقدانه . وان الاعتقاد والعلم مغايران للايمان ، فالعلم بالله وأسمائه وصفاته وسائر المعارف الالهية الذي يوجد فينا ، مغاير للايمان وليس بإيمان .

والدليل على ذلك ان الشيطان كما يشهد له الذات المقدسة الحق عالم بالمبدأ والمعاد ومع ذلك فهو كافر ، لانه يقول :

« خلقتني من نار وخلقته من طين » فهو إذاً يعترف بالحق تعالى وخالقيته ، ويقول أيضا :

« أنظرني الى يوم يبعثون »[٣] . فيعتقد بالمعاد وهو كذلك عالم بالكتب والرسل والملائكة ، ومع ذلك كله خاطبه الله سبحانه بلفظ الكافر ، وأخرجه من زمرة المؤمنين .

فإذاً يمتاز أهل العلم من أهل الايمان ، وليس كل من هو من أهل العلم أهل للايمان ، فيلزم للسالك أن يدخل نفسه في سلك المؤمنين بعد سلوكه العلمي ، ويوصل الى قلبه عظمة الحق وجلاله وبهاءه ، وجماله جلّت عظمته كي يخشع قلبه ، والا فمجرد العلم لا يوجب خشوعا كما ترونه في أنفسكم فانكم مع كونكم معتقدين بالمبدأ والمعاد ، ومع اعتقادكم بعظمة الله وجلاله ليست قلوبكم خاشعة . وأما قوله تعالى :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق »[٤] فلعلّ المراد منه هو الايمان الصوري اي الايمان بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله ، والا فالايمان الحقيقي يلازم مرتبة من الخشوع لا محالة أو أن المراد من الخشوع في هذه الآية ، هو الخشوع بمراتبه الكاملة ، كما أن العالم ربما يطلق على من وصل من حد العلم الى حد الايمان ، ويحتمل أن تكون الاية الشريفة « انما يخشى اللهَ من عباده العلماء »[٥] اشارة الى هؤلاء .

وقد أطلق العلم والايمان والاسلام في الكتاب والسنة على المراتب المختلفة منها وبيانها خارج عن وظيفة هذه الأوراق ، وبالجملة على السالك

لطريق الآخرة وخصوصا على السالك بالخطوة المعراجية الصلاتية أن يحصّل الخشوع بنور العلم والايمان وان يمكّن هذه الرقيقة الالهية ، والبارقة الرحمانية في قلبه بمقدار ما يمكنه ، فلعله يستطيع أن يحتفظ بهذه الحالة في جميع الصلاة من أولها الى آخرها .

وحالة التمكّن والاستقرار وان كانت لاتخلو في أول الامر من صعوبة واشكال لامثالنا ، ولكنها مع الممارسة والارتياض القلبي أمر ممكن جدّا .

عزيزي ، ان تحصيل الكمال وزاد الاخرة يستدعي طلبا وجدا ، وكلما كان المطلوب أعظم فهو أحرى بالجدّ .

ومن الواضح أن معراج القرب الى حضرة الالوهية ، ومقام جوار رب العزة ، لا يتيسر مع هذه الرخوة والفتور والتسامح ، فيلزمك القيام الرجولي حتى تصل الى المطلوب ، وطالما أنك تؤمن بالاخرة وتعلم بأن النشأة الاخرة لا يمكن أن تقاس بهذه النشأة من حيث السعادة والكمال ولا في جانب الشقاوة والوبال ، لان تلك النشأة عالم أبدي دائم لا موت فيه ولا فناء له سعيدة في راحة وعزة ونعمة أبدية وهي راحة لا يوجد لها شبيه في هذا العالم ، وعزة وسلطنة الاهيان ليس لهما نظير في هذه النشأة ، ونِعَمٌ ما خطرت على مخيِّلة أحد وكذلك الامر في جانب الشقاوة فان عذابها ونقمتها ووبالها ليس لها في هذا العالم مثيل ولا نظير ، وتعلم أن طريق الوصول الى السعادة انما هو اطاعة رب العزة ، وليس في العبادات ما يضاهي هذه الصلاة فانها معجون جامع إلهي يتكفل بسعادة البشر (وان قبلت قبلت جميع الاعمال) فلا بدّ لك من الجدّ التام في طلبها ولا تتضايق في السعي اليها ومن تحمل المشاق في سبيلها مع أنه ليس فيها مشقة بل انك اذا واظبت عليها مدة يسيرة ، وحصل لقلبك الانس بها لتجدنَّ في هذا العالم من

المناجاة مع الحق تعالى شأنه لَذّات لا يقاس بها لذّة من لذّات هذا العالم كما يظهر ذلك من السير في أحوال أهل المناجاة مع الله سبحانه .

وبالجملة فخلاصة ما ذكرنا في هذا الفصل ، أنه اذا علم الانسان بالبرهان أو ببيان الانبياء عليهم السلام عظمة الله وجماله وجلاله ، فلا بدّ ان يذكّر القلب بها حتى يدخل الخشوع شيئا فشيئا في القلب بواسطة التذكّر والتوجه القلبي والمداومة على ذكر عظمة الله وجلاله حتى تحصل النتيجة المطلوبة . ولابد للسالك ألاّ يقنع في حال من الحالات بالمقام الذي هو فيه ، فانه مهما حصلت المقامات لامثالنا فلا تساوي اصغر نقد في سوق أهل المعرفة ، ولا تقابل في سوم أصحاب القلوب حبة خردل .

فليتذكر السالك في جميع حالاته نقائصه ومعايبه ، فعلّه ينفتح له طريق الى السعادة من هذه السبيل والحمد لله .

المراجع والحواشي

١ ــ المؤمنون ١، ٢

٢ ــ قال الصادق عليه السلام « اذا دخلت في صلاتك فعليك بالتخشّع والاقبال على صلاتك فان الله تعالى يقول : « الذين هم في صلاتهم خاشعون » .

قال المحقق الكاشاني[١] في المحجة البيضاء ما حاصله : ان الخشوع في الصلاة على قسمين :

الاول : الخشوع القلبي وهو أن يكون تمام همّته في الصلاة ومعرضا عما سواها بحيث لا يكون في قلبه سوى المحبوب .

والثاني : الخشوع في الجوارح وهو يحصل بأن يغمض عينيه ولا يلتفت الى الجوانب ولا يلعب بأعضائه ..

وبالجملة لا تصدر منه حركة سوى الحركات الصلاتية ، ولا يأتي بشي من المكروهات .. ثم ينقل الروايات المتضمنة للامور المكروهة في الصلاة .

وأقول : ان حقيقة الخشوع عبارة عن حالة قلبية تحصل للقلب من ادراك الجلال والجمال ، وبمقدار ما يدرك القلب منهما تزول عنه الإنّيّة والانانية فيخضع ويسلّم لصاحب الجلال والجمال .. وبهذه العناية نسب الخشوع الى الارض والجبال ، فان الارض مسلّمة للعوامل الطبيعية وليس لها ارادة في إنبات النبات ، بل هي تسليم محض ، قال تعالى : « ومن آياته أنك ترى الارض

خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » (فصّلت٣٩) . وهكذا الجبل بالنسبة الى نزول القرآن فان أنيّة الجبل تندكّ ولا يمكنه المقاومة ، قال تعالى : « ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدّعا من خشية الله » (الحشر٢١) .

شروح الحواشي

* — لقب العالم الفاضل الكامل العارف المحدّث الحكيم المتألّه محمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن القاشاني صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة كالوافي والصافي والشافي والمفاتيح والنخبة والحقائق وعلم اليقين وعين اليقين وخلاصة الاذكار وبشارة الشيعة والمحجة البيضاء في إحياء الأحياء الى غير ذلك مما يقرب من مئة تصنيف .

الفصل الرابع

في بيان الطمأنينة

من الآداب المهمة القلبية للعبادات ـــ وخصوصا العبادات الذكرية ـــ الطمأنينة . وهذه غير الطمأنينة التي اعتبرها الفقهاء رضوان الله عليهم في خصوص الصلاة ، فهذه عبارة عن أن السالك يأتي بالعبادة مع سكون القلب ، واطمئنان الخاطر ، لان العبادة اذا أتي بها في حال اضطراب القلب وتزلزله فالقلب لاينفعل بمثل هذه العبادة ولا يحصل اثر من العبادة في ملكوت القلب ولا تصير حقيقة العبادة صورة باطنية للقلب ، والحال ان من إحدى جهات تكرار العبادات وتكثير الاذكار والاوراد أن يتأثر القلب منها وينفعل حتى يتشكل باطن السالك شيئا فشيئا من حقيقة الذكر والعبادة ، ويتحد قلبه بروح العبادة ، وطالما لم يكن للقلب اطمئنان وسكون وطمأنينة ووقار لم يكن للاذكار والنسك فيه تأثير ولا يسري أثر العبادة في ظاهر البدن وملكه الى ملكوته وباطنه ولا يؤدي الى القلب حظوظه من العبادة . وهذا من الامور الواضحة التي لاتحتاج الى بيان ، ويعلم بأدنى تأمّل ، واذا كانت العبادة بهذه الكيفية بحيث لا يشعر القلب بها أصلا ولا يظهر منها أثر في الباطن لا يتحفظ عليها في سائر العوالم ولا تصعد من نشأة الملك الى نشأة الملكوت ، ومن الممكن ان تمحى صورتها

بالكلية عن صفحة القلب (ونعوذ بالله) عند شدائد مرض الموت وسكراته المهيبة والاهوال والمصائب التي تكون بعد الموت فيقدم الانسان على الله وهو صفر اليدين .

ونذكر لذلك مثلا ، وهو أن الذكر الشريف : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » اذا قاله أحد من قلبه وباطمئنان من لبّه وراح يعلّم القلب هذا الذكر الشريف ، فيتعلم القلب الذكر ويتكلم به شيئا فشيئا حتى يتبع لسان القلب اللسان الظاهر فيكون القلب ذاكراً أولا ثم يتبعه اللسان الظاهر ، ويكون ذاكرا والى هذا المعنى اشار الامام الصادق عليه السلام ، على ما في رواية مصباح الشريعة قال :

« فاجعل قلبك قبلة للسانك لاتحركه الا باشارة القلب وموافقة العقل ورضى الايمان » .

ففي أول الامر ما لم ينطق لسان القلب فلسالك طريق الاخرة ان يعلّمه النطق ويلقي عليه الذكر . مع طمأنينة وسكون ، فاذا انفتح لسان القلب بالنطق يكون القلب قبلة للّسان ولسائر الاعضاء . فاذا شرع القلب في الذكر تكون مدينة وجود الانسان بأسرها ذاكرة ، وأما اذا قال هذا الذكر الشريف بلا سكون في القلب ولا طمأنينة منه ومع العجلة والاضطراب واختلال الحواس فلا يكون منه أيّ تأثير في القلب ولا يتجاوز عن حدّ اللسان والسمع الحيواني الظاهري ، الى الباطن والسمع الانساني ولا تتحقق حقيقته في الباطن ولا يصير صورة كمالية للقلب غير ممكنة الزوال فان اصابته الاهوال والشدائد وبالخصوص أهوال الموت وسكراته وشدائد نزع الروح الانساني فينسى الذكر بالمرّة وينمحي الذكر الشريف عن صحيفة قلبه بل اسم الله سبحانه وتعالى واسم الرسول الخاتم والدين الشريف الاسلام ،

والكتاب المقدس الالهي والائمة الهداة وسائر المعارف التي ما أنهاها الى القلب فينساها كلها وعند السؤال في القبر لا يحير جوابا ، والتلقين ايضا لا يفيد حاله لانه لايجد في نفسه من حقيقة الربوبية والرسالة وسائر المعارف اثرا . وما قاله بقلقلة لسانه وما حصلت له صورة في القلب قد انمحى من خاطره ولم يكن له نصيب من الشهادة بالربوبية والرسالة وسائر المعارف .

وفي الحديث ان طائفة من أمة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، اذا أوردوهم في النار ونظروا الى مالك : خازن جهنم نسوا اسم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من هيبته مع أنهم من أهل الايمان كما هو في نفس ذلك الحديث .

قال المحدّث العظيم الشأن المجلسي[1] رحمه الله في مرآة العقول في شرح الحديث الشريف : (كنت سمعه وبصره) ما حاصله ان من لم يصرف بصره وسمعه وسائر أعضائه في سبيل اطاعة الحق تعالى لم يكن له بصر وسمع روحاني وهذا البصر والسمع الملكي الجسماني لاينتقل الى ذاك العالم ويكون الانسان في عالم القبر والقيامة بلا سمع وبلا بصر ، والميزان في السؤال والجواب في القبر تلك الاعضاء الروحانية (انتهى ملخصا) .

والاحاديث الشريفة في هذا النحو من الطمأنينة وآثارها ، كثيرة ، ومن هذه الجهة أمر بترتيل القرآن الشريف ، وفي الحديث : عن أبي عبد الله (ع) قال سمعته يقول : « من نسي سورة من القرآن مُثّلَت له في صورة حسنة ودرجة رفيعة ، فاذا رآها قال من أنت ما أحسنك ليتك لي ، فتقول : أما تعرفني ، أنا سورة كذا وكذا لو لم تنسني لرفعتك الى هذا المكان » .

وفي الحديث قال : « من قرأ القرآن وهو شابّ مؤمن اختلط القرآن بدمه ولحمه » .

والسّر في ذلك أنّ اشتغال القلب وتكدره في أيام الشباب أقل . لذا يتأثر القلب من القرآن اكثر واسرع ويكون أثره ايضا أبقى . وفي هذا الباب أحاديث كثيرة نذكر منها في باب القراءة انشاء الله . وفي الحديث الشريف : « ما من شيء أحبّ إلى الله عزّ وجل من عمل يداوم عليه وان قلّ » ولعل السر العمدة فيه أنه مع المداومة يكون العمل صورة باطنية للقلب كما ذكرنا .

المراجع والحواشي

١ ــ اذا اطلق ، فهو شيخ الاسلام والمسلمين مروّج المذهب والدين الامام العلامة المحقق المدقق محمد باقر بن محمد تقي بن المقصود علي المجلسي قدس الله أرواحهم . قال صاحب المستدرك المحدّث العلامة النوري قدس سرّه لم يوفق أحد في الاسلام مثل ما وفّق هذا الشيخ المعظم والبحر الخضم والطود الاشم من ترويج المذهب واعلاءِ كلمة الحق وكسر صولة المبتدعين وقمع زخارف الملحدين واحياء دارس سنن الدين المبين ونشر آثار أئمة المسلمين بطرق عديدة وانحاء مختلفة أجلّها وأبقاها التصانيف الرائقة الأنيقة الكثيرة التي شاعت في الانام وينتفع بها في آناء الليل والايام العالم والجاهل والخواص والعوام والعجمي والعربي مع ما خرج من مجلسه جماعة كثيرة من الفضلاء وصرّح تلميذه الاجّل الاميرزا عبد الله الاصبهاني في (ض) انهم بلغوا الى الف نفس . (انتهى) . ومن أجلّ تأليفاته وأعظمها موسوعة بحار الانوار وكل مؤلفاته الشريفة على ماوقع عليها التخمين تبلغ ألف ألف بيت وأربعة الاف بيت وكسرا . توفي سنة ١١١٠ (غقي)في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان وعمره إذ ذاك ثلاث وسبعون فانه ولد في سنة ١٠٣٧ وهو يوافق عدد (جامع كتاب بحار الانوار) ومرقده الشريف الآن ملجأ الخلائق بأصبهان في الباب القبلي من جامعها العتيق الأعظم ومن المجرّبات استجابة الدعوات عند مضجعه المنيف قدّس الله نفسه الزكيّة .

الفصل الخامس

في بيان الحفاظ على العبادة من تصرف الشيطان

من الآداب المهمة القلبية للصلاة وغيرها من العبادات الحفاظ عليها من التصرفات الشيطانية ، وهو في الوقت نفسه من أمهات الآداب القلبية والقيام به من عظائم الامور ومشكلات الدقائق ، ولعل الآية الشريفة في وصف المؤمنين الذين هم على صلواتهم يحافظون اشارة الى جميع مراتب الحفظ التي تكون احداها بل أهمها الحفاظ عليها من تصرفات الشيطان .

وتفصيل هذا الاجمال ان من الواضح عند اصحاب المعرفة وارباب القلوب أنه كما أن للابدان غذاء جسمانيا تتغذى به ، ولا بد أن يكون الغذاء مناسبا لحالها وموافقا لشأنها حتى تتيسر لها التربية الجسمانية والنمو النباتي ، كذلك فان للقلوب والارواح غذاء لا بد أن يكون مناسبا لحال كل منها وموافقا لنشأتها كي تتربى به وتتغذى منه وتنمو نموا معنويا وتترقى ترقيا باطنيا . والغذاء المناسب لنشأة الارواح هو المعارف الالهية اعتبارا من مبدأ المبادىء للوجود الى منتهى النهاية للنظام الوجودي كما قال أعاظم أرباب الصناعة الفلسفية في تعريف الفلسفة « هي صيرورة الانسان عالما عقليا مضاهيا للعالم العيني في صورته وكماله » . وهذا القول اشارة الى هذا التغذي

من المعارف الالهية في حين أن تغذي القلوب يستمد من الفضائل والمناسك الالهية .

وليعلم أن كلا من هذه الاغذية اذا خلص من تصرف الشيطان وأعدّ على يد الولاية للرسول الخاتم وولي الله الاعظم صلوات الله عليهما وآلهما يتغذى الروح والقلب منه وينالا الكمال اللائق بالانسانية ، ويعرجان معراج القلوب الى الله ، ولا يحصل الخلاص من تصرف الشيطان الذي هو مقدمة للاخلاص بحقيقته الا ان يكون السالك في سلوكه طالبا لله . ويضع حب النفس وعبادتها الذي هو المنشأ للمفاسد كلها وأُمُّ الامراض الباطنية تحت قدميه ، وهذا لا يتيسر بتمام معناه في غير الانسان الكامل وبتبعيته في خُلَّص أوليائه ، وأما سائر الناس فغير ميسّر لهم هذا الخلاص ، ولكن على السالك الاّ ييأس من الالطاف الباطنية لله سبحانه فان اليأس من روح الله رأس كل برودة وفتور ومن أعظم الكبائر . والذي يمكن من الاخلاص لصنف الرعايا هو ايضا قرّة العين لاهل المعرفة ، فعلى سالك طريق الآخرة لزوما حتما أن يخلص معارفه ومناسكه من تصرف الشيطان والنفس الامارة مهما بلغ من الجهد وان يغوص في حركاته الباطنية ، وتغذياته الروحية ، ولا يغفل عن حيل النفس والشيطان وحبائل النفس الامارة وابليس وان يسوء ظنه سوء الظن الكامل في جميع حركاته وأفعاله ، ولا يخلي نفسه على رسلها آنا ما ، فربما تتغلب على الانسان وتصرعه اذا تسامح معها وتسوقه الى الهلاك والفناء ، لان الاغذية الروحانية اذا لم تكن خالصة من تصرف الشيطان وتدخلت يده في اعدادها فمضافا الى انه لا تتربى بها الارواح والقلوب ولا تصل الى الكمال اللائق بها ، يحصل لها النقصان الفاحش ايضا ، ولعلها تجعل صاحبها منسلكا في سلك الشياطين والبهائم والسباع . وما هو السبب للسعادة

ورأس المال لكمال الانسانية والوصول الى المدارج العالية ليعطي النتيجة المعكوسة ويسوق الانسان الى الهاوية المظلمة للشقاوة كما رأينا في بعض أهل العرفان الاصطلاحي اشخاصا انتهت بهم هذه الاصطلاحات والغور فيها الى الضلالة وجعلت قلوبهم منكوسة وبواطنهم مظلمة وصارت الممارسة في المعارف موجبة لقوة انانيتهم وإنيتهم وصدرت منهم الدعاوى غير اللائقة والشطحات غير المناسبة . وكذلك رأينا في أرباب الرياضات والسلوك أفرادا أوجبت رياضتهم واشتغالهم بتصفية النفس جعل قلوبهم أكدر وباطنهم أظلم وما جاءهم ذلك كله الا من قبل أنهم لم يتحفظوا على سلوكهم المعنوي الالهي ومهاجرتهم الى الله وكان سلوكهم العلمي وارتياضهم بتصرف الشيطان والنفس والى الشيطان والنفس .

وكذلك رأينا في طلاب العلوم النقلية الشرعية أفرادا أثّر فيهم العلم الاثر السيىء وزاد في المفاسد الاخلاقية لهم ، والعلم الذي لابد أن يكون موجبا للفلاح والنجاة لهم صار سببا لهلاكهم ودعاهم الى الجهل والممارة والاستطالة .

وكذلك في أهل العبادة والمناسك ، والمواظبين على الآداب والسنن ربما يكون أشخاص جعلت العبادة والنسك التي هي رأس مال اصلاح الاحوال والنفوس قلوبهم كدرة ومظلمة وحملتهم على العجب ورؤية النفس والكبر والتغمزّ وسوء الظن في عباد الله ، وهذا كله ايضا من عدم المواظبة على هذه المعاجين الالهية ، ومن المعلوم أن معجونا هُيىء وأعدّ بيد العفريت الخبيث وبتصرف النفس الطاغية لا يتولد منه الا الخلق الشيطاني ، وحيث أن القلب يتغذى من تلك الاغذية على أي حال وتصير الاغذية صورة باطنية للنفس ، فبعد أن يداوم عليها مدة يصير الانسان وليدا من مواليد

الشبيطان قد تربى بيد تربيته ، ونشأ ونما تحت تصرفه ، فاذا أغمضت عينه الملكية وانفتحت عينه الملكوتية يرى نفسه واحدا من الشياطين ، فلا نتيجة في تلك الحال سوى الخسران ولا تغني عنه الحسرات والندامات شيئا .

فسالك طريق الاخرة في كل مسلك من المسالك الدينية ، وفي كل طريق من الطرق الاهية عليه :

اولا ـــ أن يواظب بكمال المواظبة والدقة على حاله كطبيب رفيق ورقيب شفيق ، ويفتش بالدقة عن عيوب سيره وسلوكه .

ثانيا ـــ الا يغفل في خلال هذه المراقبة والتفتيش عن التعوذ بالذات المقدسة الحق جلّ وعلا في خلواته والتضرع والاستكانة الى جنابه الاقدس ذي الجلال .

اللهم انك تعلم ضعفنا ومسكنتنا ، وتعلم انا لا نستطيع الهرب من هذا العدو القوي القدير الذي قد طمع في السلطة على الانبياء العظام والكمّل من الأولياء الرفيعي المقام ، فان فقدنا بارقة لطفك ورحمتك أوقعنا هذا العدو القوي في مصارعتنا إيّاه الى ارض الهلاك والدمار وكنّا تائهين في الظلمة والشقاوة ، فأسألك بالخاصة في جنابك والمحارم في حضرتك أن تأخذ بيدنا نحن المتحيرين في وادي الضلالة ، والحائرين في صحراء الغواية وان تطهّر قلوبنا من الغلّ والغش والشرك والشك ، انك وليّ الهداية .

الفصل السادس

في بيان النشاط والبهجة في العبادة

ومن الاداب القلبية للصلاة وسائر العبادات وله نتائج حسنة بل هو موجب لفتح بعض الابواب وكشف بعض أسرار العبادات ، ان يجتهد السالك في أن تكون عبادته عن نشاط وبهجة في قلبه وفرح وانبساط في خاطره ويحترز احترازا شديدا أن يأتي بالعبادة مع الكسل وادبار النفس ، فلا يكون لها تعب وفتور لانه اذا حمل على النفس العبادة في حين الكسل والتعب ، يمكن أن تترتب عليه الآثار السيئة ومنها :

أن ينضجر الانسان من العبادة ويزيد تكلفه وتعسفه ، ويوجب ذلك وبالتدريج تنفر طباع النفوس منها ، وهذا مضافا الى أنه من الممكن أن يصرف الانسان بالكلية عن ذكر الحق ، ويؤذي الروح بالنسبة الى مقام العبودية التي هي منشأ لجميع السعادات ينتج عنه الا يحصل للعبادة بهذه الصفة نور في القلب ، ولا ينفعل باطن النفس منها ولا تصير صورة العبودية صورة باطنية للقلب ، وقد ذكرنا من قبل أن المطلوب في العبادات هو صيرورة باطن النفس صورة عبودية .

والآن نقول :

إن من اسرار العبادات والرياضات ونتائجهما أن تكون إرادة النفس في ملك البدن نافذة وتكون دولة النفس منقهرة ومضمحلة في كبريائها وتتملك الارادة القوى المنبثّة والجنود المنتشرة في ملك البدن وتمنعها عن العصيان والتمرد والانانية والاستقلال وتكون القوى مسلمة لملكوت القلب وباطنه ، بل تصير القوى بالتدريج فانية في الملكوت . ويجرى أمر الملكوت في الملك وينفذ فيه وتقوى ارادة النفس وتخلع اليد عن الشيطان والنفس الامارة في المملكة وتساق جنود النفس من الايمان الى التسليم ومن التسليم الى الرضا ومن الرضا الى الفناء . وفي هذه الحالة تجد النفس رائحة من أسرار العبادة ، ويحصل لها شيء من التجليات الفعلية وما ذكرنا لا يتحقق الا بأن تكون العبادة عن نشاط وبهجة ويحترز فيها من التكلف والتعسف والكسل احترازا تامّا كي تحصل للعابد حالة المحبة والعشق لذكر الحق ولمقام العبودية ويحصل له الانس والتمكن .

وان الانس بالحق وبذكره من أعظم المهمات ولأهل المعرفة بها عناية شديدة وفيها يتنافس المتنافسون من أصحاب السير والسلوك ، وكما أن الاطباء يعتقدون بأن الطعام اذا أكل بالسرور والبهجة يكون أسرع في الهضم ، كذلك يقتضي الطب الروحاني بأن الانسان اذا تغذى بالاغذية الروحانية بالبهجة والاشتياق محترزا من الكسل والتكلف يكون ظهور آثارها في القلب وتصفية باطن القلب بها أسرع .

وقد أشير الى هذا الادب في الكتاب الكريم الالهي والصحيفة القويمة الربوبية حيث يقول في مقام تكذيب الكفار والمنافقين : « ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ، ولا ينفقون الا وهم كارهون »[1] . وقد فسرت آية « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى »[2] في حديث بأن المراد من سكارى كسالى ،

وأشير في الروايات الى هذا الادب ونحن نذكر بعضا منها كي تفخر هذه الاوراق به .

محمد بن يعقوب[٣] باسناده عن أبي عبد الله عليـه السلام قال : « لاتكرهوا الى أنفسكم العبادة » .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا عليّ انّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغّض الى نفسك عبادة ربّك » .

وفي الحديث عن العسكري[٤] عليه السلام : اذا نشطت القلوب فأودعوها واذا نفرت فودّعوها .

وهذا دستور جامع منه عليه السلام بأن أودعوا في القلوب في وقت نشاطها وأما في وقت نفارها فخلّوها تستريح ، فلا بد في كسب المعارف والعلوم ايضا من رعاية هذا الادب وألا يحمل على القلوب اكتسابها مع الكراهة والنفور[٥] .

ويستفاد من هذه الاحاديث وأحاديث أُخر أدب آخر وهو أيضا من المهمات في باب الرياضة وهو أدب الرعاية .

وكيفيته ان يراعي السالك في اي مرتبة هو فيها في الاعم من الرياضات والمجاهدات العلمية أو النفسانية او العمليّة حاله ويتعامل مع نفسه بالرفق والمداراة ولا يحمّلها أزيد من طاقته وحاله ، ورعاية هذا الأدب بالنسبة الى الشباب وحديثي العهد من المهمات فانه اذا لم يعامل الشباب أنفسهم بالرفق والمداراة ولم يؤدّوا الحظوظ الطبيعية الى أنفسهم بمقدار حاجتها من الطرق المحللة يوشك أن يوقعوا في خطر عظيم لا يتيسر لهم جبره ، وهو أن النفس ربما تصير بسبب الضغط عليها وكفها عن مشتهياتها

بأكثر من العادة مطلقة للعنان في شهواتها ويخرج زمام الاختيار من يد صاحبها ، واقتضاءات الطبيعة اذا تراكمت ونار الشهوة الحارّة اذا وقعت تحت ضغط الرياضة خارجة عن الحد لاشتعلت لا محالة واحرقت جميع المملكة ، واذا صار سالك مطلق العنان أو زاهد بلا اختيار فإنه يقع في مهلكة لايرى وجه النجاة أبدا ولا يعود الى طريق السعادة والفلاح وقتا ما ، فعلى السالك أن يتملك نفسه في أيام سلوكه كطبيب حاذق ويعاملها على حسب اقتضاءات الاحوال وأيام السلوك ولا يمنع نفسه الطبيعية في أيام اشتعال نار الشهوة وغرور الشباب من حظوظها بالكلية . وعليه أن يخمد نار الشهوة بالطرق المشروعة فان في اطفاء الشهوة بطريق الامر الالهي إعانة كاملة على سلوك طريق الحق فلينكح وليتزوج فانه من السنن الكبيرة الالهية ومضافا الى أنه مبدأ البقاء للنوع الانساني فان له دورا واسعا ايضا في سلوك طريق الآخرة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله « من تزوّج فقد أحرز نصف دينه » وفي حديث آخر : « من أحب أن يلقى الله مطهّراً فليلقه بزوجة » .

وروي أن رسول الله ﷺ قال « وأكثر أهلِ النار العزّاب » .

وعن عليّ عليه السلام قال « ان جماعة من الصحابة كانوا حرّموا على أنفسهم النساء والافطار بالنهار والنوم بالليل فأخبرت أم سلمة رسول الله فخرج الى أصحابه فقال :

(أترغبون عن النساء ؟ إني آتي النساء ، وآكل بالنهار ، وأنام بالليل ، فمن رغب عن سنّتي فليس مني . وأنزل الله « لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيّبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون »[٦]) .

وبالجملة يلزم لسالك طريق الاخرة رعاية أحوال إدبار النفس وإقبالها ، فكما أنه لا يجوز له الكف عن الحظوظ مطلقا فإنه منشأ لمفاسد عظيمة لا ينبغي له أن يزعج نفسه في العبادات والرياضات العملية وألا يجعلها تحت الضغط خصوصا في أيام الشباب وابتداء السلوك فانه ايضا يكون منشأ لانزعاج النفس ونفورها وربما ينصرف الانسان به عن ذكر الحق . والاشارة الى هذا المعنى في أحاديث كثيرة ، ففي الكافي الشريف :

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « اجتهدت في العبادة وأنا شابّ فقال لي أبي يا بنيّ دون ما أراك تصنع فان الله عزّ وجلّ اذا أحبّ عبدا رضي منه باليسير » .

وعن أبي جعفر قال : قال رسول الله « ان هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تكرهوا عبادة الله الى عباد الله فتكونوا كالراكب المنبتّ الذي لا سفرا قطع ولا ظهرا أبقى » .

وفي حديث آخر « ولا تبغّض الى نفسك عبادة الله » .

وبالجملة الميزان في باب المراعاة أن يكون الانسان ملتفتا الى أحوال النفس ويسلك معها بنسبة قوتها وضعفها فاذا كانت النفس قوية في العبادات والرياضات وتقدر على المقاومة ، فليجدّ ويسعى في العبادة . وأما الذين طووا أيام عنفوان الشباب ، وانطفأت نائرة الشهوات شيئا ما لديهم فالمناسب لهم أن يجدّوا في الرياضات النفسانية اكثر ويدخلوا في السلوك والرياضة بخطوة رجولية فكلما عوّدوا النفس على الرياضات فتح لهم باب آخر الى أن تغلب النفس القوى الطبيعية وتصير القوى الطبيعية مسخّرة تحت كبرياء النفس .

وما ورد في الاحاديث الشريفة : من الامر بالجدّ والسعي في العبادة ،

وما ورد فيها من المدح للذين يجتهدون في العبادة والرياضة ، وما ورد في عبادات أئمة الهدى عليهم السلام ، من جهة وما ورد من هذه الاحاديث الشريفة المادحة للاقتصاد في العبادة من جهة اخرى مبنيّ على اختلاف أهل السلوك ودرجات النفوس وأحوالها ، والميزان الكلّي هو نشاط النفس وقوّتها أو نفور النفس وضعفها .

المراجع والحواشي

١ ـــ التوبة٤٥ .

٢ ـــ النساء ٤٣

٣ ـــ هو الشيخ الاجلّ قدوة الأنام وملاذ المحدثين العظام ومروّج المذهب في غيبة الامام عليه السلام أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي الملقب ثقة الاسلام ألّف الكافي الذي هو من أجلّ الكتب الاسلامية وأعظم المصنفات الاماميّة والذي لم يعمل للامامية مثله . ألّفه في عشرين سنة ومات قدس الله سره ببغداد سنة ٣٢٩ (شكط) وصلّى عليه محمد بن جعفر الحسني ابو قيراط ودفن بباب الكوفة .

٤ ـــ هو الامام الحادي عشر وسبط سيد البشر ووالد الخلف المنتظر السيد الرضيّ الزكيّ ابو محمد الحسن علي العسكري صلوات الله عليه وعلى آبائه الكرام وخلفه خاتم الائمة الاعلام . ولد عليه السلام بالمدينة الطيبة يوم العاشر أو الثامن من شهر ربيع الآخر وقيل في رابعه سنة اثنتين وثلاثين ومئتين ، أمّه عليه السلام حُدَيق (مصغّرا) أو سليل ويقال لها الجدّة وكانت من العارفات الصالحات قال القطب الراوندي وأمّا الحسن بن علي العسكري عليه السلام فقد كانت أخلاقه كأخلاق رسول الله ﷺ وكان رجلا أسمر حسن القامة جميل الوجه جيّد البدن حدث السّن له جلالة وهيبة وهيئة حسنة يُعظّمه العامة والخاصة اضطراراً ويعظّمونه لفضله ويقدّمونه لعفافه وصيانته وزهده

وعبادته وصلاحه واصلاحه وكان جليلا نبيلا فاضلا كريما يحمل الأثقال ولا يتضعضع للنوائب أخلاقه خارقة العادة على طريقة واحدة . (انتهى) .

ومناقبه أكثر من أن تحصى وقبض عليه السلام بِسُرّ من رأى يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الاول سنة ستين ومئتين (٢٦٠) في خلافة المعتمد وهو ابن ثمان وعشرين سنة ودفن في داره في البيت الذي دفن فيه ابوه عليه السلام بِسُرّ من رأى .

٥ ـــ ومن الروايات التي تشير الى هذا الادب ما رواه الصدوق عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبّها بقلبه وباشرها بجسده وتفرّغ لها فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم على يسر » .

وقال الباقر(٥) عليه السلام : « ألا إنّ لكلّ عبادة شرة ثم تصير الى فترة ، فمن صارت شرة عبادته الى سُنّتي فقد اهتدى ومن خالف سنّتي فقد ضلّ وكان عمله في النار ، أما اني أصلّي وأصوم وأفطر وأضحك وأبكي فمن رغب عن منهاجي وسُنّتي فليس مني » .

شروح الحواشي

* ــ الامام الخامس ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب باقر علم النبيين ، ولد بالمدينة يوم الاثنين ثالث صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة وقيل غرّة رجب ، أمّه أم عبد الله فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب وهو هاشمي من هاشميين وعلوّي من علويّين ، سُمي أبو جعفر عليه السلام باقرا لانه بَقَرَ العلم بقْراً أي شقّه شقا وأظهره إظهارا وقال السبط ابن جوزى سمي الباقر من كثرة سجوده بَقَرَ السجود جبهته أي فتحها ووسعها . وقال لغزارة علمه ، وقال الشيخ المفيد ولم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين عليهما السلام من علم الدين والآثار والسنة وعلم القرآن والسيرة وفنون الادب ما ظهر عن أبي جعفر عليه السلام وقال ابن حجر في صواعقه في حقه عليه السلام : هو باقر العلم وجامعه وشاهر علمه ورافعه صفا قلبه وذكا علمه وعمله وطهرت نفسه وشرف خلقه وعمرت أوقاته بطاعة الله وله من الرسوخ في مقامات العارفين ما تكلّ عنه ألسنة الواصفين وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف لا تحملها هذه العجالة . (انتهى كلام ابن حجر) . توفي ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام بالمدينة يوم الاثنين سابع ذي الحجة سنة اربع عشرةومئة (قيد) وله سبع وخمسون سنة ودفن في البقيع .

الفصل السابع

في بيان التفهيم

ومن الاداب القلبية في العبادات ــ وخصوصا العبادات الذكرية ــ التفهيم ، وكيفيته :

إن الانسان يعدّ قلبه في أول الامر كطفل ما انفتح لسانه وهو يريد أن يعلّمه كلاّ من الاذكار والأوراد والحقائق وأسرار العبادات بكمال الدقة والسعي و يفهّم القلب الحقيقة التي أدركها في أيّ مرتبة هو فيها فإذا لم يكن من أهل فهم معاني القرآن والاذكار وليس له نصيب من أسرار العبادات فيفهّم القلب المعنى الاجمالي وهو أن القرآن كلام إلهي والاذكار مذكرات بالحق تعالى والعبادات والطاعة إطاعة لأمر الربّ ويفهم القلب هذه المعاني الاجمالية . وإن كان أهلا لفهم المعاني الصورية للقرآن والاذكار فيفهّم القلب المعاني الصورية من الوعد والوعيد والأمر والنهي ومن علم المبدأ والمعاد بالمقدار الذي أدركه .

وان كشفت له حقيقة من حقائق المعارف أو كشف له سرّ من أسرار العبادات فيعلّم القلب ذاك المكشوف بجدّ واجتهاد[1] ، ونتيجة هذا التفهيم هو أنه بعد المواظبة بمدة ينفتح لسان القلب ويكون القلب ذاكرا

ومتذكرا . ففي أول الامر كان القلب متعلما واللسان كان معلّما والقلب كان ذاكرا بذكر اللسان وتابعا له في الذكر ، وأما بعدما انفتح لسان القلب فيكون الامر معكوسا فيكون القلب ذاكرا أوّلا ويتبعه اللسان في الذكر والحركة .

بل ربما يتفق أن الانسان في حالة النوم يكون لسانه ذاكرا تبعا للذكر القلبي لانّ الذكر القلبي لا يختصّ بحال اليقظة فاذا كان القلب متذكرا يكون اللسان التابع له أيضا ذاكرا ويسري الذكر من ملكوت القلب الى الظاهر « قل كلّ يعمل على شاكلته[٢] » .

وبالجملة ففي أول الامر لابد أن يلاحظ الانسان هذا الادب : أي التفهيم حتى ينفتح لسان القلب الذي هو المطلوب الحقيقي وعلامة انفتاح لسان القلب ان يرتفع تعب الذكر ومشقته ويحصل النشاط والفرح ويرتفع الملل والالم كشأن الانسان اذا أراد أن يعلّم الطفل الذي لم يشرع في التكلّم ، فما دام الطفل لم يتعلم التكلّم فان المعلم يكون في تعب وملالة فاذا انفتح لسان الطفل وأدّى الكلمة التي علّمها له ارتفعت ملالة المعلم . ويؤدي المعلم الكلمة تبعا لاداء الطفل لها من دون ألم وتعب .

فالقلب ايضا في أول الامر طفل ما انفتح لسانه بالكلام ولابدّ له من التعليم وأن تلقّن له الاذكار والاوراد فاذا انفتح لسان القلب يكون تابعا له وترتفع مشقة الذكر وتعب التعليم وملالة الذكر ، وهذا الادب بالنسبة الى المتبدئين ضروري .

وليعلم ان من أسرار تكرار الاذكار والادعية ودوام الذكر والعبادة انفتاح لسان القلب فيكون القلب ذاكرا وداعيا وعابدا وما دام لم يلاحظ الادب المذكور لا ينفتح لسان القلب ، وقد أشير الى هذا المعنى في

الاحاديث الشريفة كما في الكافي الشريف عن الصادق عليه السلام أن علياً عليه السلام قال في ضمن بيان بعض آداب القراءة : « ولكن اقرعوا به قلوبكم القاسية ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة » . وفيه أيضا أن أبا عبد الله الصادق عليه السلام قال لابي أسامة : « يا أبا أسامة أوعوا قلوبكم ذكر الله واحذروا النكت » .

وقد كان أولياء الله يلاحظون هذا الادب حتى الكمّل منهم كما في الحديث أن مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام كان في صلاته فغشي عليه فلمّا أفاق سئل عن سببه فقال : ما زلت أردد هذه الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته[٣] .

وروي عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة يردّد قوله تعالى : « ان تعذبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم[٤] » .

وبالجملة فحقيقة الذكر والتذكر هي الذكر القلبي . أما الذكر اللساني فهو بدونه ذكر بلا لبّ وساقط عن درجة الاعتبار بالمرة ، كما أشير الى ذلك في الاحاديث الشريفة غير مرة فعن الرسول الاكرم ﷺ أنه قال لابي ذرّ : « يا أبا ذرّ ركعتان مقتصدتان في تفكر ، خير من قيام ليلة والقلب لاه (ساه) » .

وروي عنه ﷺ ايضا « ان الله سبحانه لا ينظر الى صوركم بل ينظر الى قلوبكم » . وسيأتي في أحاديث حضور القلب أنه يقبل من الصلاة بقدر ما أقبل ، وكلما كان القلب غافلا فبمقدار الغفلة كانت الصلاة غير مقبولة ، وما لم يلاحظ الادب المذكور لا يحصل الذكر القلبي ولا يخرج القلب من السهو والغفلة ، وفي الحديث ان الصادق عليه السلام قال :

فاجعل قلبك قبلة للسانك لا تحركه الا بإشارة القلب . ولا يتحقق كون القلب قبلة ولا يتحقق تبعية اللسان وسائر الاعضاء له الا بملاحظة هذا الادب ، وان اتفق في مورد حصول الامور المذكورة بدون رعاية هذا الادب فهو من النوادر ولا يجوز للانسان أن يغترّ به .

المراجع والحواشي

١ ــ الظاهر أن مراد الامام دام ظله من الكشف ، هو الكشف العلمي ، وإلا ، فالكشف الحقيقي لا يكون الا للقلب ، ولا يبقى بعده مجال للتفهيم . فتدبر .

٢ ــ الاسراء ــ ٨٤ .

٣ ــ والرواية على ما ذكرها العارف الفقيه جمال العارفين السيد بن طاووس(*) في كتابه (فلاح السائل) : فقد روي « ان مولانا جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام كان يتلو القرآن في صلاة فغشي عليه فلما أفاق سُئل ما الذي أوجب ما انتهت حالتك إليه ؟ فقال عليه السلام (ما معناه) : ما زلت أكرر آيات القرآن حتى بلغت الى حال كأنني سمعتها مشافهة ممّن أنزلها على المكاشفة والعيان فلم تقم القوة البشرية بمكاشفة الجلالة الالهية » . ثم يقول العارف المذكور : وإياك يا من لا تعرف حقيقة ذلك أن تستبعده أو يجعل لك الشيطان في تجويز الذي رويناه عندك شكا بل كن مصدقا ، أما سمعت الله يقول « فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً » (الاعراف١٤٣) (انتهى) .

٤ ــ المائدة ــ ١١٨

شروح الحواشي

* — ابن طاووس يطلق غالباً على رضي الدين ابي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني الحسيني السيد الأجل الاورع الازهد قدوة العارفين الذي ما اتفقت كلمة الاصحاب على اختلاف مشاربهم وطريقتهم على صدور الكرامات عن أحد ممّن تقدمه أو تأخّر عنه غيره . قال العلامة في إجازته الكبيرة : وكان رضي الدين علي صاحب كرامات حكى لي بعضها وروى لي والدي رحمة الله عليه البعض الآخر (انتهى) .

قال المحدّث النوري في المستدرك ، ويظهر في مواضع من كتبه خصوصا (كشف المحجة) : « ان باب لقائه الامام الحجة عليه السلام كان مفتوحا » . وقال رحمه الله : « وكان رحمه الله من عظماء المعظّمين لشعائر الله تعالى لا يذكر في أحد تصانيفه الاسم المبارك « الله » الاّ يعقبه بقوله جلّ جلاله». توفي رحمه الله يوم الاثنين خامس ذي القعدة سنة ٦٦٤ (خسد) .

الفصل الثامن

في بيان حضور القلب

من الآداب القلبية حضور القلب الذي يمكن أن يكون كثير من الآداب مقدمة له والعبادة بدونه ليس لها روح وهو بنفسه مفتاح قفل الكمالات وباب أبواب السعادات وقلّ ما ذكر في الاحاديث الشريفة شيء بهذه المثابة ، وقلّ ما اهتمّ بشيء من الآداب كهذا الأدب ، ونحن وان ذكرنا في رسالة سر الصلاة ، وهكذا في كتاب الاربعين قدرا مستوفى منه وبيّنا درجاته ومراتبه ولكن نذكر في هذا المقام أيضا شيئا منه تتميما للفائدة وتحرزا عن الاحالة فنقول :

كما ذكرنا سابقا بأن العبادات والمناسك والاذكار والاوراد إنما تنتج نتيجة كاملة اذا صارت صورة باطنية للقلب وتخمّر باطن ذات الانسان بها ويتصور قلب الانسان بصورة العبودية ويخرج عن الهوى والعصيان ، وذكرنا أيضا أن من أسرار العبادات وفوائدها أن تتقوى إرادة النفس وتتغلب النفس على الطبيعة وتكون القوى الطبيعية مسخّرة تحت قدرة النفس وسلطنتها وتكون الارادة الملكوتية نافذة في ملك البدن بحيث تكون القوى بالنسبة الى النفس كملائكة الله بالنسبة الى الحق تعالى « لا يعصون الله ما أمرهم »[1] « وهم بأمره يعملون »[2] .

ونقول الان : إن من أسرار العبادات وفوائدها المهمة التي تكون بقية الفوائد مقدمة لها . أن تكون مملكة البدن بجميعها ، ظاهرها وباطنها ، مسخّرة تحت ارادة الله ومتحركة بتحريك الله تعالى وتكون القوى الملكوتية والملكية للنفس من جنود الله وتكون كلها كملائكة الله بالنسبة الى الحق تعالى ، وهذه من المراتب النازلة لفناء القوى والارادات في إرادة الحق ويترتب على هذا بالتدريج النتائج العظيمة ويكون الانسان الطبيعي إلهيا وتكون النفس مرتاضة بعبادة الله وتنهزم جنود ابليس بالمرة وتنقرض ويكون القلب مع قواه مسلّما للحق ويبرز الاسلام ببعض مراتبه الباطنية في القلب وتكون نتيجة هذا التسليم لارادة الحق في الآخرة ان الحق تعالى ينفذ إرادة صاحب هذا القلب في العوالم الغيبية ويجعله مثلا أعلى لنفسه تعالى ، فكما أنه تعالى وتقدس يوجِد كل ما أراد بمجرد الارادة يجعل إرادة هذا العبد أيضا كذلك كما رواه بعض أهل المعرفة عن النبي صلى الله عليه وآله في وصف أهل الجنة (ما معناه) أنه يأتيهم ملك فيستأذن للدخول عليهم وبعد الاستئذان يدخل فيبلّغ السلام من الله تعالى عليهم ويعطيهم رسالة مكتوباً فيها (يخاطب الانسان الذي هو مخاطب به) من الحي القيوم الذي لا يموت الى الحي القيوم الذي لا يموت أما بعد فإنني أقول للشيء كن فيكون وقد جعلتك تقول للشيء كن فيكون ، فقال صلى الله عليه وآله : فلا يقول أحد من أهل الجنة للشيء كن الا ويكون[٣] .

وهذه هي السلطنة الالهية التي أعطي العبد إيّاها لاجل تركه إرادة نفسه وتركه سلطنة الهوى النفسانية وتركه اطاعة ابليس وجنوده ، ولا تحصل كل من هذه النتائج المذكورة الا بالحضور الكامل للقلب ، واذا كان القلب في وقت العبادة غافلا وساهيا لا تكون عبادته حقيقية بل تشبه اللهو

واللعب ولا يكون لمثل هذه العبادة أثر في النفس البتة ولا تتجاوز العبادة من الصورة والظاهر إلى الباطن والملكوت كما أشير الى ذلك في الاحاديث ، ولا تكون القوى النفسانية بمثل تلك العبادة مسلمة للنفس ولا تظهر سلطنة النفس لها ، كذلك القوى الظاهرية والباطنية لا تكون مستسلمة لارادة الله ولا تنقهر المملكة تحت كبرياء الحق كما هو واضح جدا ، ولذا ترون أنه بعد مضيّ أربعين أو خمسين سنة لا يحصل أثر في أنفسنا بل تزداد يوما فيوما ظلمة القلب وتعصّي القوى ويزيد اشتياقنا الى الطبيعة وإطاعتنا الاهواء النفسانية والوساوس الشيطانية آنا فآناً وليس هذا كله الا من جهة ان عباداتنا قشور بلا لبّ وفاقدة للشرائط الباطنية والآداب القلبية ، ولولا هذه الجهة ففي حين أننا نرى أن كتاب الله سبحانه قد نصّ على أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهذا النهي ليس صوريا البتة بل لا بد أن يزهر مصباح في القلب ويضيء نور في الباطن يهدي الانسان الى عالم الغيب ، ويوجد زاجر إلهي ينهى الانسان عن العصيان والتمرد ، وها نحن أولاء نحسب أنفسنا في زمرة المصلين وقد مضت علينا سنون ونحن مشتغلون بهذه العبادة العظيمة ومع ذلك لا نرى في أنفسنا هذا النور ولا نجد في باطننا هذا الزاجر والمانع فالويل لنا يوم نعطى صور أعمالنا وصحيفة أفعالنا في ذلك العالم بأيدينا ويقال لنا « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »[1] وانظر هل تليق تلك العبادات بالقبول من جنابه ، وهل هذه الصلاة مع هذه الصورة المشوّهة الظلمانية مقرّبة لك الى بساط الحضرة الكبريائية ؟ وهل ينبغي لك أن تسلك مع هذه الامانة الالهية ووصية الانبياء هذا السلوك ، وهل يجوز ان تسمح للشيطان الرجيم الذي هو عدو الله أن يتدخّل فيها بيده الخائنة ؟ ولماذا صارت الصلاة التي هي معراج المؤمن وقربان كل تقيّ مبعدة لكم عن

الساحة المقدسة ومهجرة لكم عن جناب القرب الالهي ؟ فهل لنا في ذلك اليوم سوى الحسرة والندامة والشقاوة والخجلة والانفعال نصيب ؟ يا لها من حسرة وندامة ليس لها في هذا العالم شبيه ، ويا لها من خجلة وانفعال لا نقدر أن نتصور لها نظيرا ، فان الحسرات في هذا العالم مهما بلغت ممزوجة بآلاف من الرجاء ، وكذلك الخجلات في هذه النشأة سريعة الزوال وهذا بخلاف ذلك العالم فانه يوم بروز الحسرة والندامة كما قال تعالى « وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضي الامر »[٥] فالامر المنقضي لا يجبر والعمر التالف لا يستعاد فواحسرتاه على ما فرّطت في جنب الله .

فيا أيها العزيز : اليوم يوم الامهال والعمل وقد جاء الانبياء وأتوا بالكتب ودعوا بدعوات مع هذه التشريفات ومع تحملهم الآلام والشدائد كي يوقظونا من نوم الغفلة وينبهونا من سكر الطبيعة ويوصلونا الى عالم النور ونشأة البهجة والسرور والى الحياة الابدية والنعم السرمدية واللذائذ الدائمة ويُنجونا من الهلاك والشقاوة والنار والظلمة والحسرة والندامة وكل ذلك لأجل أنفسنا ومن دون أن تعود عليهم ــ سلام الله عليهم ــ نتيجة ومن دون أن تكون لتلك الذوات المقدسة حاجة بإيماننا وأعمالنا ، ومع ذلك ما أثّرت فينا دعوتهم وقد أخذ الشيطان بمسامع قلوبنا وتسلط على باطننا وظاهرنا بحيث لم يؤثّر فينا شيء من مواعظهم أيّ أثر بل لم يصل الى سمع قلوبنا شيء من الآيات والاخبار وما تجاوز ظاهر السمع الحيواني .

وبالجملة أيها القارىء المحترم الذي تطالع هذه الاوراق لا تكن ككاتبها خاليا من جميع الانوار وصفر اليد عن جميع الاعمال الصالحة ومبتلىً بالاهواء النفسانية وارحم أنت نفسك واكتسب من عمرك نتيجة وانظر بالدّقة في حال الانبياء والاولياء الكمّل وارم الرغبات الكاذبة والوعود

الشيطانية ولا تغترّ بغرور الشيطان ولا تنخدع بخدع النفس الأمّارة فإن تدليسات الشيطان والنفس دقيقة وانهما ليعمّيان على الانسان كل أمر باطل فيراه بصورة الحق ويغران الانسان حينما يأمل التوبة في آخر العمر وينتهيان بالانسان الى الشقاوة . مع أن التوبة في آخر العمر وعند تراكم ظلمات المعاصي وكثرة مظالم العباد وكثرة حقوق الله أمر صعب ومشكل للغاية . فاليوم مع ان الارادة في الانسان قوية والقوى الحيوانية على حالها وشجرة العصيان بعد لم تكبر وسلطنة الشيطان في النفس لم تستحكم والنفس جديدة العهد بالملكوت وقريبة الافق الى فطرة الله وشرائط حصول التوبة وقبولها سهلة فهما لا يدعان الانسان يقوم بالتوبة ويخلع جذور هذه الشجرة الواهنة ويقضي على هذه السلطنة غير المستقلة ويعدانه بالتوبة في أيام الشيب التي تكون الارادة فيها ضعيفة والقوى نحيفة والاشجار المختلفة للمعاصي ذات جذور عميقة وقوية وسلطنة ابليس في الظاهر والباطن مستقلة ومستقرة وألفة الانسان للطبيعة شديدة والبعد عن الملكوت أزيد ونور الفطرة خافتا وشرائط التوبة صعبة وشديدة وليس هذا الا الغرور والافتتان .

وحيناً آخر يبعدان الانسان بوعد شفاعة الشافعين عليهم السلام عن ساحة قدسهم ويجعلانه عن شفاعتهم مهجورا ، فان الانغمار في المعاصي يجعل القلب بالتدريج مظلما ومنكوسا ويجرّ أمر الانسان الى سوء العاقبة ، وانّ طمع الشيطان في أن يسرق إيمان الانسان وإنما يجعل الدخول في المعاصي مقدمة لها حتى يصل الى النتيجة المطلوبة . فهذا الانسان إن كان طمعه في شفاعة الشافعين فلا بدّ له أن يسعى ويجتهد في هذا العالم في الحفاظ على الرابطة بينه وبين الشافعين وأن يتفكر في حال شفعاء يوم الحشر كيف كان حالهم في العبادة والرياضة ، ولو فرضنا أنكم ترتحلون من هذه

الدنيا مع الايمان بالله ولكن اذا كانت أثقال الذنوب والمظالم كثيرة يمكن ألا يشفع فيكم في أنواع الذنوب في البرزخ والقبر ، وكما نقل عن الصادق عليه السلام من أن البرزخ على عهدتكم وعذاب البرزخ لا يقاس بعذاب هذه الدنيا وطول مدة البرزخ لا يعلمه الا الله ولعله يطول ملايين من السنين .

ويمكن أن يكون في القيامة أيضا بعد مدة طويلة في أنواع العذاب التي لا تطاق ، انكم لا تنالون الشفاعة ، كما أن هذا المعنى وارد في الاحاديث أيضا ، فهذا الغرور من الشيطان يمسك الانسان عن العمل الصالح ويخرجه من الدنيا ، إما بلا إيمان أو مع أثقال ذنوب كثيرة ويبتليه بالشقاوة والخسران .

وربما يعد الشيطان الانسان بالرحمة الواسعة لارحم الراحمين ، وبنفس هذا الوعد يقطع الشيطان يد الانسان عن ذيل الرحمة . وهذا الانسان غافل عن أن بعث الرسل وإرسال الكتب وإنزال الملائكة والوحي والالهام على الانبياء والهداية الى طريق الحق كل ذلك من شؤون الرحمة لأرحم الراحمين ، وقد اتسعت الرحمة الواسعة لجميع العالم ونحن على جانب عين الحياة نهلك من الظمأ ، هذا القرآن هو أكبر رحمة الله فان كنت تطمع في رحمة أرحم الراحمين فتأمل رحمته الواسعة واستفد من هذه الرحمة فانه قد فتح طريق الوصول الى السعادة وبيّن طريق الهداية من الضلالة ، وأنت تلقي نفسك في الهلاك وتنحرف عن الطريق المستقيمة . فليس في الرحمة إذن أي نقصان ، ولو كان من الممكن أن يُري الله الانسان طريق الخير والسعادة في طور آخر لكان سبحانه أراه إيّاه بمقتضى رحمته ، ولو كان من الممكن أن يوصل الانسان الى السعادة إكراها لكان الانبياء يوصلونه بالاكراه ، لكن هيهات ، ان طريق الاخرة طريق لا يمكن أن يسعى فيها الا بقَدم الاختيار ،

وان السعادة لا تحصل بالجبر ، وان الفضيلة والعمل الصالح بلا اختيار ليسا فضيلة ولا عملا صالحا ، ولعل هذا معنى الآية الشريفة « لا إكراه في الدين »[٦] . نعم ما يمكن أن يعمل فيه الاكراه والاجبار هو صورة الدين الالهية لا حقيقته ، وان الانبياء عليهم السلام كانوا مأمورين أن يفرضوا على الناس صورة الدين ما أمكنهم ، وبأيّ نحو ممكن حتى تكون صورة العالم صورة العدل الالهي ، ولكنهم بالنسبة الى الباطن فليس لهم الا مجرّد الارشاد حتى يمشي الناس في هذه الطريق بأنفسهم وينالوا السعادة باختيارهم . وبالجملة ، هذا الوعد بالرحمة الواسعة لارحم الراحمين هو أيضا من غرور الشيطان ليقطع يد الانسان عن الرحمة بطمع الرحمة .

المراجع والحواشي

١ ــ (التحريم ــ ٦)

٢ ــ (الأنبياء ــ ٢٧)

٣ ــ قال الشيخ الاكبر في باب الواحد والستين وثلاثمئة من الفتوحات وورد في الخبر في أهل الجنة أن الملك يأتي إليهم فيقول لهم بعد أن يستأذن عليهم في الدخول فإذا دخل ناولهم كتاباً من عند الله بعد أن يسلّم عليهم من الله واذا في الكتاب لكلّ انسان يخاطب به : من الحيّ القيوم الذي لا يموت الى الحيّ القيوم الذي لا يموت . أما بعد : فإني أقول للشيء كن فيكون وقد جعلتك ... وقال أيضا في السؤال السابع والاربعين ومئة من الباب ثلاثة وسبعين من الفتوحات ، بعد أن نقل القول الشريف بسم الله من العبد بمنزلة كن من الحق قال : اليوم تقول للشيء كن فيكون فقال عليه السلام فلا يقول أحد من أهل الجنة لشيء كن الا ويكون . وقال الشيخ في الفصّ الاسحاقي من فصوص الحِكَم : العارف يخلق بهمته ما يكون له وجود من خارج محل الهمّة ولكن لاتزال الهمّة تحفظه .

تبصرة : الخبر المذكور لو كان صحيحا فليس من مختصّات أهل المرتبة العالية من الجنة لان من أهل الجنة من يتلقّى السلام والكلام والمقام من الله سبحانه بدون واسطة كما أشير الى ذلك في بعض الاحاديث والمتناولون الكتاب من الله في هذا الخبر بواسطة الملك فهذا المقام عام لجميع أهل الجنة ومن المقامات العامة ، ولذلك قال فلا يقول أحد من أهل الجنة بشيء كن الا ويكون . فافهم .

٤ ــ (الاسراء ــ ١٤)

٥ ــ (مريم ــ ٣٩)

٦ ــ (البقرة ــ ٢٥٦)

الفصل التاسع

أحاديث في الترغيب في حضور القلب

في ذكر قليل من أحاديث أهل بيت العصمة والطهارة سلام الله عليهم في الترغيب في حضور القلب ، ونحن نكتفي هنا بذكر بعضها :

فعن الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله : « اعبد الله كأنك تراه ، وان لم تكن تراه فانه يراك » ، يستفاد من هذا الحديث مرتبتان من مراتب حضور القلب ، الاولى : أن السالك يكون مشاهدا جمال الجميل في تجليات حضرة المحبوب على نحو تكون جميع مسامع قلبه مسدودة عن سائر الموجودات ، وتكون بصيرته مفتوحة لجمال ذي الجلال الطاهر ولا يشاهد غيره ، وبالجملة يكون مشغولا بالحاضر وغافلا عن المحضر والحضور . والمرتبة الثانية التي هي دون تلك المرتبة أن يرى السالك نفسه حاضرا في محضره ويلاحظ أدب الحضور والمحضر . فالرسول الاكرم كأنه يقول ان كنت تستطيع أن تكون من أهل المقام الاول وتأتي بعبادة الله على ذلك النحو فافعل والا فلا تغفل عن أنك في المحضر الربوبي . ولمحضر الحق تعالى أدب تكون الغفلة عنه لا محالة بعدا عن مقام العبودية ، والى هذا أشير في الحديث الذي رواه أبو حمزة الثمالي[1] رضي الله عنه ، قال : « رأيت عليّ

بن الحسين عليه السلام يصلي فسقط رداؤه عن منكبه فلم يسوّه حتى فرغ من صلاته ، قال : فسألته عن ذلكَ ، فقال : ويحك أتدري بين يديَّ من كنت ؟ » .

وفي الحديث ايضا عن الرسول صلى الله عليه وآله « إنّ الرجلين من أمتي يقومان الى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وان ما بين صلاتهما مابين السماء والارض » وقال النبي صلى الله عليه وآله : « اما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول ا لله وجهه الى وجه حمار » . وقال صلى الله عليه وآله : « من صلّى ركعتين لم يحدّث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر الله له ذنوبه » وعنه صلى الله عليه وآله « ان من الصلاة لما يقبل نصفها وثلثها وربعها وخمسها الى العشر وان منها لما تلفّ كما يلفّ الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها » وان « ما لك في صلاتك الا ما أقبلت عليه بقلبك » . وعن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اذا قام العبد المؤمن في صلاته نظر الله اليه ، أو قال أقبل الله عليه حتى ينصرف وأظلّته الرحمة من فوق رأسه الى أفق السماء والملائكة تحفّه من حوله الى أفق السماء ووكل الله به ملكا قائما على رأسه يقول أيها المصلّي لو تعلم من ينظر اليك ومن تناجي ما التفتّ ولا زلت من موضعك أبدا » .

وقال الصادق عليه السلام : « لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلب الا وجبت له الجنة فاذا صلّيت فأقبل بقلبك الى الله عزّ وجلّ فانه ليس من عبد يقبل بقلبه على الله عزّ وجلّ في صلاته ودعائه الا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين وأيّده مع مودّتهم إيّاه بالجنة » . وعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالا : « إن مالك في صلاتك الا ما أقبلت عليه فيهما فإن أوهمها كلها أو غفل عن آدابها لفت فضرب بها وجه صاحبها » . وعن أبي

جعفر عليه السلام قال : « ان العبد ليرفع له من صلاته نصفها أو ثلثها أو ربعها أو خمسها فما يرفع له الا ما أقبل عليه منها بقلبه وإنما أمرنا بالنافلة ليتمّ لهم بها ما نقصوا من الفريضة » .

وعن الصادق عليه السلام « اذا أحرمت في الصلاة فأقبل اليها لأنك ان أقبلت أقبل الله اليك وإن أعرضت أعرض الله عنك فربّما لا يرفع من الصلاة الاّ ثلثها أو ربعها أو سدسها بقدر ما أقبل المصلّي اليها وان الله لا يعطي الغافل شيئا »[٢] .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يا أبا ذر ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه(لاه) » والاحاديث في هذا الباب كثيرة وهذا المقدار كاف لارباب القلوب اليقظة وأصحاب الاعتبار[٣] .

المراجع والحواشي

١ ــ الثمالي هو أبو حمزة ثابت بن دينار الثقة الجليل صاحب الدعاء المعروف في اسحار شهر رمضان . كان من زهّاد أهل الكوفة ومشايخها وكان عربيّا أزديّا ، روى عن الفضل بن شاذان قال : سمعت الثقة يقول : سمعت الرضا عليه السلام يقول : أبو حمزة الثمالي في زمانه كسلمان الفارسي وذلك أنّه خدم أربعة منّا علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمّد وبرهة من عصر موسى بن جعفر عليهم السلام . انتهى . (كش) عن علي بن ابي حمزة في خبر قال : قال الصادق عليه السلام لابي بصير : اذا رجعت الى ابي حمزة الثمالي فأقرئه منّي السلام وأعلمه انه يموت في شهر كذا في يوم كذا . قال أبو بصير : جعلت فداك والله لقد كان فيه أنس ، وكان لكم شيعة . قال : صدقت ما عندنا خير لكم . قلت : شيعتكم معكم ؟ قال : ان هو خاف الله وراقب نبيّه وتوقّى الذنوب فاذا هو فعل كان معنا في درجتنا . قال عليّ : فرجعنا تلك السنة فلما لبث أبو حمزة الاّ يسيرا حتّى توفّي رحمه الله . مات في سنة خمسين ومئة (قن) .

٢ ــ أقول : نقلت الحديث الصادقي عن الترجمة للاستاذ دام ظله .

٣ ــ قال المحدث الجليل الفيض الكاشاني .. إن قيل : المستفاد من هذه الآيات والاخبار أن صلاة من يغفل عما يقول فيها ويفعل ، ليست مقبولة الا بقدر ما أقبل عليه منها . والفقهاء لم يشترطوا الا حضور القلب عند التكبير والتوجّه

عنده . فكيف التوفيق ، وايضا فان المصلّي في صلاته ودعائه مناج ربّه كما هو معلوم . وقد ورد في الخبر ايضا ، ولا شكّ أن الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ، والكلام إعراب عمّا في الضّمير ولا يصحّ الاعراب عمّا في الضمير الا بحضور القلب فأي سؤال في قوله اهدنا الصراط المستقيم اذا كان القلب غافلا ولا شك ان المقصود من القراءة والاذكار ، الحمد والثناء والتضرع والدّعاء . والمخاطب هو الله تعالى وقلب العبد بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة . فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرّعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله ورسوخ عقد الايمان بها هذا حكم القراءة والذكر ، وأما الركوع والسجود فالمقصود التعظيم بهما قطعا . والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة ؟ واذا خرج عن كونه تعظيما لم يبق الا مجرّد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ثم يجعل عماد الدين والفاصل بين الكفر والاسلام ويقدّم على ساير العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص .

فاعلم أن بين القبول والاجزاء فرقا ، فان القبول من العبادة ما يترتب عليه الثواب في الاخرة وتقرّب الى الله زلفى ، والاجزاء ما يسقط التكليف عن العبد وان لم يثب عليه ، والناس مختلفون في تحمّل التكلف ، فالتكليف انما هو بقدر حوصلة الخلق وقابليتهم في سعتهم وقصورهم ، فلا يمكن أن يشترط عليهم جميعا إحضار القلب في جميع الصلاة فان ذلك يعجز عنه كل البشر الا الاقلين ، واذا لم يكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مردّ له الا ان يشترط منه ما يطلق الاسم ولو في اللحظة الواحدة وأولي الخطاب به لحظة التكبير والتوجّه فاقتصر على التكليف بذلك ، ونحن مع ذلك نرجو ان لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية فانه على الجملة أقدم على الفعل ظاهرا وأحضر للقلب لحظة ، وكيف لا والذي صلى مع الحديث ناسيا ، صلاته باطلة عند الله ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر تصوّره

وعذره ، وقد ذكرنا في باب العقائد في الفرق بين العلم الباطن والظاهر ان قصور الخلق أحد الاسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع .

وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة وان أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير ، فالنقصان منه هلاك وبقدر الزيادة عليه يبسط الروح في أجزاء الصلاة ، وكم من حيّ لا حراك به قريب من الميت . فصلاة الغافل في جميعها الا عند التكبير حيّ لاحراك به .

وقال أيضا : اعلم أن المعاني الباطنة التي بها يتم حياة الصلاة بجمعها ست جمل وهي : حضور القلب والتفهّم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء . فالأول حضور القلب ، ونعني به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به ، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما ولا يكون الفكر جاريا في غيرهما ، ومهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عنه فقد حصل حضور القلب ثم التفهّم لمعنى الكلام وهو أمر وراء حضور القلب ، فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ ولا يكون حاضرا مع معنى اللفظ ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردنا بالتفهّم ، وهذا مقام يتفاوت فيه الناس إذ ليس يشترك الناس في تفهّم المعاني للقرآن والتسبيحات ، وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك ، ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر فانها تفهم أمورا ، تلك الامور تمنع من الفحشاء والمنكر لا محالة .

ثم التعظيم وهو أمر وراء حضور القلب والفهم ، اذ الرجل ، ربما يخاطب غيره بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظّما له .

ثم الهيبة : وهي زائدة على التعظيم ، اذ هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لان من لا يخاف لا يسمى مهابة ، بل الهيبة خوف مصدره الاجلال .

ثم الرجاء : فالعبد ينبغي أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله .

ثم الحياء : ومبدؤه استشعار تقصير وتوهّم ذنب ، ولنذكر أسباب هذه المعاني الستة :

فاعلم أن حضور القلب سببه الهمّة ، فان قلبك تابع لهمّك فلا يحضر الا فيما يهمّك ، ومهما أهمّك أمر حضر القلب شاء أم أبى فهو مجبول عليه ومسخّر فيه ، والقلب اذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلا بل كان حاضرا فيما الهمّة مصروفة اليه من أمور الدنيا ، فلا حيلة ولا علاج لاحضار القلب الا بصرف الهمة الى الصلاة ، والهمّة لا ينصرف اليها ما لم يتبيّن أن الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الايمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وان الصلاة وسيلة اليه ، فاذا أضيف هذا الى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهانتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة .

وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن الى إدراك المعنى ، وعلاجه ما هو إحضار القلب مع الاقبال على الفكر والتشمّر لرفع الخواطر الشاغلة ، وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تتحدث الخواطر إليها ، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر ، فمن أحب شيئا أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة ، ولذلك ترى من أحب غير الله لا تصفو صلاته عن الخواطر .

وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد بين معرفتين ، إحداهما معرفة جلالة الله وعظمته وهي من أصول الايمان ، فان من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه .

الثانية : معرفة حقارة النفس وخسّتها وكونها عبدا مسخّرا مربوبا حتى يتولد من المعرفتين : الاستكانة والانكسار والخشوع لله ، فيعبر عنه بالتعظيم ،

وما لم يمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الربّ لا ينتظم حالة التعظيم والخشوع ، فان المستغني عن غيره ، الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لان القرينة الاخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن بها .

وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس يتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به وانه لو أهلك الاولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة ، هذا مع مطالعة ما يجري على الانبياء والاولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع .

وبالجملة ، كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة .

وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله وكرمه وعميم انعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة ، فاذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعها الرجاء لا محالة . وأما الحياء فباستشعار التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وخبث داخلها وميلها الى الحظ العاجل في جميع أفعاله مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله ، والعلم بأنه مطّلع على السريرة وخطرات القلب ، وان دقّت وخفيت ، وهذه المعارف اذا حصلت يقينا انبعث منها بالضرورة حالة تسمّى الحياء .(انتهى كلامه رفع مقامه)

الفصل العاشر

في طريق تحصيل حضور القلب

اذا عرفت الآن فضيلة حضور القلب وخواصّه عقلا ونقلا وفهمت الاضرار الكبيرة في تركه فلا يكفي العلم وحده بل يجعل الحجة عليك أتمّ ، فشمّر عن ذيل الهمّة وكن في صدد تحصيل ما علمته وأخرج علمك الى مرحلة العمل كي تستفيد منه وتربح فتفكر قليلا في أن قبول الصلاة شرط لقبول سائر الاعمال بحسب أحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام الذين هم معادن الوحي وإنّ أقوالهم وعلومهم من الوحي الالهي والكشف المحمّدي صلى الله عليه وآله وسلم وان الصلاة اذا لم تكن مقبولة فلا ينظر الى سائر الاعمال أصلا وإن قبول الصلاة بإقبال القلب فلو لم تكن الصلاة مشتملة عليه فهي ساقطة من درجة الاعتبار ولا تليق بمحضر الحق تعالى ولا تقبل كما علم ذلك من الاحاديث السابقة فمفتاح خزينة الأعمال وباب أبواب جميع السعادات حضور القلب فيه يفتح باب السعادة للانسان ومن دونه تسقط جميع العبادات من درجة الاعتبار . فالآن تفكّر قليلا بنظر الاعتبار وانظر بعين البصيرة أهمية المقام وعظمة الموقف وقم بالامر بجدّ تامّ فان مفتاح باب السعادة وأبواب الجنة ومفتاح باب الشقاوة وأبواب جهنم لفي جيبك في هذه الدنيا فتستطيع أن تفتح أبواب الجنة والسعادة لنفسك وتستطيع أن تكون على خلاف ذلك فزمام الامر بيدك ولله الحجة البالغة قد

هدى سبيل السعادة والشقاوة وأعطى التوفيقات الظاهرية والباطنيّة فما منه تعالى ومن أوليائه فقد تمّ وانمّا الآن فرصتنا في الإقدام فإنهم الهادون الى الطريق ونحن السائرون فيه إنهم قضوا ما عليهم على الوجه الاحسن ولم يتركوا لنا عذرا ولم يقصّروا ولو لمحة فانتبه انت ايضا من نومك واطوِ طريق السعادة واستفد من عمرك وقوّتك فان الوقت اذا انقضى وفاتك العمر الحاضر والشباب الموجود وفقدت كنز القدرة والقوة فلا ينجبر أبدا فان كنت الآن في عهد الشباب فلا تؤخر أمرك الى الشيب فان للشيب مصائب لا يعلمها الا الشيب وأنت في غفلة عنها ، ان الاصلاح في حال الشيب والضعف لمن الامور الصعبة جدا ، وان كنت شابا فلا تدع بقية العمر تفوت منك فإنك ما دمت في هذا العالم فلك طريق الى السعادة ولك منها باب مفتوح فلا سمح الله اذا أغلق هذا الباب وانسدّ هذا الطريق فيخرج زمام الاختيار من يدك ولا يبقى لك نصيب سوى الحسرة والندامة والأسف على ما مضى من أمرك .

فأنت أيها العزيز ان كنت تؤمن بما ذكر بما أنه قول الانبياء عليهم السلام وهيّأت نفسك لتحصيل السعادة وسفر الاخرة وعلمت بلزوم حضور القلب الذي هو مفتاح كنز السعاذة فطريق تحصيله أن ترفع أولا موانع حضور القلب وتنحّي الاشواك عن طريق السلوك بجذورها وبعد رفع الموانع تقدم على تحصيل حضور القلب .

أما موانع حضور القلب في العبادات فهي تشتّت الخواطر وكثرة الواردات القلبية وهذه ربما تحصل من الامور الخارجية ومن طرق الحواس الظاهرية مثل أن يسمع السمع في حال العبادة شيئا يتعلق الضمير به ويكون مبدأ للتخيلات والتفكرات الباطنية وتتصرف فيه الواهمة والمتصرفة فيطير الخيال من غصن الى غصن .

أو أن عين الانسان ترى شيئا ويكون منشأ تشتّت الخاطر وتصرّف المتصرفة أو أن سائر حواس الانسان تدرك شيئا فتحصل منه انتقالات خيالية . وطريق علاج هذه الامور ، وان كان العلماء ذكروا أن العلاج هو رفع هذه الاسباب مثل أن يصلي الانسان في غرفة مظلمة أو مكان خال ويغضّ عينه ولا يصلي في المواضع التي تجلب النظر كما نقله الشهيد السعيد[1] رضوان الله عليه حيث قال : « كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلم سعته بقدر ما يمكن الصلاة فيه ليكون أجمع للهمّ » ولكن من المعلوم أن هذا لا يرفع المانع ولا يقلع المادة لان العمدة هي تصرّف الخيال فان الخيال يعمل عمله بحصول منشأ جزئي له بل ربما يكون تصرف الخيال والواهمة في البيت المظلم والصغير وفي حال الوحدة أكثر ، ويتمسكان لاجل الدعابة واللهو بمبادىء اخرى فيتوقف حينئذ قلع المادة بالكلية على اصلاح الخيال والوهم ونحن نشير بعد ذلك اليه . نعم هذا النحو من العلاج ربما لا يكون في بعض النفوس بلا تأثير وخاليا من الاعانة ولكننا بصدد العلاج القطعي ونتطلب السبب الحقيقي للقلع وهو لا يحصل بما ذكر .

وربما يكون تشتت الخاطر والمانع عن حضور القلب من الامور الباطنية وعمدة المنشأ له على نحو كلّي أمران اليهما ترجع عمدة الامور الأخر .

الأول : ان طائر الخيال هو بنفسه فرّار يتعلق دائما كطائر من غصن الى غصن ويطير من افريز الى افريز وهذا ليس مرتبطا بحب الدنيا والتوجه بأمور دنيّة ومال دنيوي بل كون الخيال فرّارا مصيبة يبتلي بها الناس حتى التاركين للدنيا . وتحصيل سكون الخاطر وطمأنينة النفس وتوقف

الخيال من الامور المهمة التي بإصلاحها يحصل العلاج القطعي ، ونحن نشير إليه بعد ذلك .

الامر الثاني الموجب لتشتّت الخاطر هو حب الدنيا وتعلق الخاطر بالحيثيات الدنيوية التي هي رأس الخطايا وام الامراض الباطنية ، وهذا التعلّق هو شوك طريق أهل السلوك ومنبع المصيبات ، وما دام القلب متعلقا به ، ومنغمرا في حب الدنيا فالطريق لاصلاح القلوب مسدود ، وباب جميع السعادات في وجه الانسان مغلق ونحن نشير الى رفع هذين المنشأين العظيمين والمانعين القويين ضمن فصلين ان شاء الله .

المراجع والحواشي

١ ـ هو الشيخ الاجل زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد بن جمال الدين بن تقي بن صالح بن مشرف العاملي الجبعي أمره في الثقة والجلالة والعلم والفضل والزهد والعبادة والورع والتحقيق والتبحّر وجميع الفضائل والكمالات أشهر من أن يذكر .ومحاسنه وأوصافه الحميدة أكثر من أن تحصر وُلِد الشيخ زين الدين ثالث عشر شوال سنة ٩١١ (ظيا) وختم القرآن وعمره تسع سنين وقرأ على والده العربية وتوفي والده سنة ٩٢٥ (ظكه) وعمره اذ ذاك اربع عشرة سنة وارتحل الى ميس وهو أول رحلته فقرأ على الشيخ الجليل علي بن عبد العالي الميسي الشرايع والارشاد وأكثر القواعد . وله قدّس سرّه رحلات الى كرك والى جبع والى دمشق ثم الرجوع الى جبع والرحلة منها الى دمشق يريد مصر فسافر الى مصر يوم الاحد منتصف ربيع الاول سنة ٩٤٢ واتفق له في الطريق ألطاف خفية وكرامات جليّة ذكرها تلميذه ابن العودي . ودخل مصر بعد شهر من خروجه واشتغل على جماعة منهم الشيخ ابو الحسن البكري صاحب كتاب الانوار في مولد النبيّ ﷺ، ثم ارتحل الى الحجاز في شوال ٩٢٣ ، ولما قضى مناسكه زار النبيّ ﷺ وقد وعده بالخير في المنام بمصر ثم ارتحل الى بلده جبع في صفر سنة ٩٤٤ واقام بها الى سنة ٩٤٦ وتوشح ببرد الاجتهاد الا أنه بالغ في كتمان أمره الى أن أقام ببعلبك بعد رحلات سنة ٩٥٣ يدرس في المذاهب الخمسة واشتهر أمره وصار مرجع الانام ومفتي كل فرقة بما يوافق مذهبها وصار أهل البلد كلّهم في انقياده ورجعت اليه الفضلاء من أقاصي البلاد ثم

انتقل بعد خمس سنين الى بلده ، بنيّة المفارقة وأقام في بلده مشتغلا بالتدريس والتصنيف . ومصنفاته كثيرة مشهورة أولها الروض وآخرها الروضة . ألّفها في ستة أشهر وستة أيام وكان غالب الايام يكتب كراسا ومن عجيب أمره انه كان يكتب بغمسة واحدة في الدواة عشرين أو ثلاثين سطرا وخلّف ألفَي كتاب منها مئتا كتاب كانت بخطه الشريف من مؤلفاته وغيرها مع أنه قال تلميذه الشيخ محمد بن علي بن الحسن العودي الجزيني في رسالة (بغية المريد في أحوال شيخه الشهيد) : ولقد شاهدت منه سنة ورودي الى خدمته انه كان ينقل الحطب في الليل لعياله ويصلّي الصبح في المسجد ويجلس للتدريس والبحث كالبحر الزاخر ويأتي بمباحث غفل عنها الاوائل والاواخر . وذكر أنه (ره) كان يتعاطى جميع مهمّاته بقلبه وبدنه مضافا الى مهمّات الواردين ومصالح الضيوف المتردّدين اليه مع أنه كان غالب الزمان في الخوف الموجب لاتلاف النفس والتستّر والاخفاء الذي لا يسع الانسان أن يفكّر معه في مسألة من الضروريات البديهية . ولمّا كان في سنة ٩٦٥ وهو في سن اربع وخمسين ترافع اليه رجلان فحكم لاحدهما على الاخر فذهب المحكوم عليه الى قاضي صيدا واسمه معروف وكان الشيخ مشغولا بتأليف شرح اللمعة فأرسل القاضي الى جبع من يطلبه وكان مقيما في كرم له مدة منفردا عن البلدة متفرّغا للتأليف ، فقال بعض اهل البلد قد سافر عنا منذ مدّة فخطر ببال الشيخ ان يسافر الى الحج . وكان قد حج مرارا لكنه قصد الاختفاء فسافر في محمل مغطّى وكتب القاضي الى السلطان انه قد وجد ببلاد الشام رجل مبدع خارج عن المذاهب الاربعة فأرسل السلطان في طلب الشيخ فقبض عليه ، وروي أنه كان في المسجد الحرام بعد فراغه من صلاة العصر وأخرجوه الى بعض دور مكة وبقي هناك محبوسا شهرا وعشرة أيّام ثم ساروا به على طريق البحر الى قسطنطنيّة وقتلوه بها وبقي مطروحا ثلاثة أيام ثم ألقوا جسده الشريف في البحر .

وفي رواية ابن العودي قتلوه في مكان من ساحل البحر وكان هناك جماعة من التركمان ، فرأوا في تلك الليلة أنوارا تنزل من السماء وتصعد فدفنوه هناك وبنوا عليه قبة وحُمل رأسه الى السلطان وسعى السيد عبد الرحيم العباسي في قتل قاتله فقتله السلطان .

وحكي عن شيخنا البهائي (ره) قال أخبرني والدي أنه دخل في صبيحة بعض الايّام على شيخنا الشهيد المعظّم فوجده متفكّرا فسأله عن سبب تفكره فقال يا أخي أظن أن أكون ثاني الشهيدين لاني رأيت البارحة في المنام ان السيد المرتضى علم الهدى رضي الله عنه عمل ضيافة جمع فيها العلماء الامامية بأجمعهم في بيت فلمّا دخلت عليهم قام السيد المرتضى ورحّب بي وقال لي يا فلان اجلس بجنب الشيخ الشهيد فجلست بجنبه فلما استوى بنا المجلس انتبهت . ومنامي هذا دليل ظاهر على أني أكون تالياً له في الشهادة . (انتهى) .

قيل في تاريخ وفاته :

تاريخ وفاة ذلك الاوّاه الجنة مستقره والله

الفصل الحادي عشر

في بيان الدواء النافع في علاج كون الخيال فرارا الذي يحصل منه حضور القلب ايضا

فاعلم أن كلا من القوى الظاهرية والباطنية من النفس قابل للتربية والتعليم بارتياض مخصوص ، فعين الانسان مثلا لا تقدر أن تنظر الى نقطة معيّنة او الى نور شديد كنور عين الشمس مدة طويلة من دون أن تغمض ولكن اذا ربّاها كبعض أصحاب الرياضات الباطلة لمقاصدهم فيمكن أن تنظر الى عين الشمس ساعات مديدة من دون أن يغمض عينه أو يجد فيها تعبا ، وكذلك يمكن له أن ينظر الى نقطة معيّنة ساعات من دون أي حركة وكذلك سائر القوى حتى حبس النفس فان في أصحاب الرياضات الباطلة أفرادا يحبسون أنفاسهم مدة زائدة عما هو متعارف عليه :

ومن القوى التي تقبل التربية قوة الخيال وقوة الواهمة فانهما قبل التربية كطائر فرار ومتحرك بلا نهاية يطير من غصن الى غصن ويتحرك من شيء الى شيء آخر بحيث أن الانسان اذا حاسبها دقيقة واحدة يرى أنها انتقلت مسلسلة الى اشياء بمناسبات صعيفة جدا وارتباطات غير متناسبة حتى ظنّ كثير من العلماء أن حفظ طائر الخيال وجعله طائعا من الامور الخارجة عن حيّز الامكان وملحق بالمحالات العادية ، ولكن الامر ليس كذلك ويمكن

تطويعه بالرياضة والتربية وصرف الوقت بحيث يكون طائر الخيال في قبضته لا يتحرك الا بإرادته واختياره فيحبسه متى أراد في أي مقصد أو أي مطلب بحيث يكون محبوسا في ذلك المقصد ساعات .

والطريق العمدة لهذا التطويع هو العمل على الخلاف وطريقه ان الانسان حينما يريد ان يصلي يهيىء نفسه بأن يحفظ خياله في الصلاة ويحبسه في العمل وبمجرد أن الخيال يريد أن يفرّ من يد الانسان يسترجعه فورا ويلتفت الى حاله في جميع حركات الصلاة وسكناتها وأذكارها وأعمالها ويفتش عن حاله ولا يدعه بحاله ، وهذا في أول الامر ربما يبدو أمرا صعباً ، ولكنه بعدما عمل فيه مدة بدقة وعلاج يصير طائعا حتما ويرتاض على الاطاعة ، فأنت لا تتوقع أن تتمكن في أول الامر من حفظ طائر الخيال في جميع الصلاة فان هذا أمر غير ممكن ومحال البتة ولعل الذين ادّعوا استحالة هذا الامر كانوا يتوقّعون ذلك ولكن هذا الامر لابد أن يكون بكمال التدريج والتأنّي والصبر والتأمل فيمكن أن يحبس الخيال في أول الامر في عشر من الصلاة ويحصل حضور القلب في عشر منها وبالتدريج اذا كان الانسان بصدده ويرى نفسه محتاجا اليه فيصل الى نتيجة أكثر . وشيئا فشيئا يتغلّب على شيطان الوهم وطائر الخيال بحيث يكون في أكثر حال الصلاة زمام الاختيار بيده ، ولابد للانسان ألّا ييأس فان اليأس هو المنبع للوهن والضعف كله ونور الرجاء في القلب يوصل الانسان الى كمال سعادته ، ولكن العمدة في هذا الباب هو حسّ الاحتياج الذي هو فينا قليل وان قلوبنا لم تؤمن بأن رأس المال في سعادة العالم الاخر ووسيلة العيش في الايام غير المتناهية هو الصلاة ، نحن نحسب ان الصلاة أمر مفروض علينا ونراها تكليفا وتحميلا .

إن حبّ الشيء يحصل من إدراك نتائجه فنحن نحب الدنيا لما أدركنا نتيجتها وآمنت قلوبنا بها ولهذا لا نحتاج في اكتساب الدنيا الى الدعوة والوعظ والاتعاظ .

وانّ الذين يظنّون ان لدعوة النبي الخاتم والرسول الهاشميّ صلى الله عليه وآله جهتين دنيوية وأخروية ، ويحسبون هذا فخرا لصاحب الشريعة وكمالا لنبوّته ، فهؤلاء ليس عندهم معرفة عن الدين وهم عن مقصد النبوّة ودعوتها غافلون .

ان الدعوة الى الدنيا خارجة عن مقصد الانبياء العظام بالكلّية ويكفي في الدعوة الى الدنيا حسّ الشهوة والغضب والشيطان الباطن والظاهر ولا تحتاج الى بعث الرسل . إن إدارة الشهوة والغضب لا تحتاج الى القرآن والنبي ، وانما الانبياء بعثوا لينهوا الناس عن التوجّه الى الدنيا وانهم ليقيّدون إطلاق الشهوة والغضب ويحدّدون موارد المنافع . والغافل يظن أنهم يدعون الى الدنيا ، ان الانبياء يقولون ان المال لا يجوز تحصيله كيفما كان . ونار الشهوة لا يجوز إطفاؤها بأيّ نحو بل لا بدّ من إطفائها عن طريق النكاح ، وهكذا تحصيل المال فلا بدّ أن يكون عن طريق التجارة والصناعة والزراعة مع أن في أصل الشهوة والغضب إطلاقا ، فالانبياء يصدّون طريق إطلاقهما لا إنهم يدعون الى الدنيا ، فروح الدعوة الى التجارة هو التقييد والنهي عن الاكل بالباطل ، وروح الدعوة الى النكاح هي تحديد الطبيعة والنهي عن الفجور وعن إطلاق قوة الشهوة .

نعم انهم عليهم السلام ليسوا مخالفين على الاطلاق ، فان المخالفة على الاطلاق مخالفة للنظام الأتـمّ .

وبالجملة نحن لما أحسسنا الاحتياج الى الدنيا وجدناها رأس مال

للحياة ومنبعا للّذات نتوجّه اليها ونسعى في تحصيلها فاذا آمنّا بالحياة الاخرة وأحسسنا أنّا محتاجون الى العيش هناك والعبادات كلها والصلاة على الخصوص رأس مال للعيش في ذلك العالم ومنبع لسعادات تلك النشأة فلا محالة نسعى في تحصيله ولا نجد لانفسنا في هذا السعي والاجتهاد اي تعب أو مشقة أو تكلّف ، بل نكون في صدد تحصيله مع الاشتياق والشوق الكامل ونحصّل شرائط حصوله وقبوله بإقبال من أرواحنا وقلوبنا ، فهذه البرودة التي فينا إنما هي من برودة أشعة الايمان وهذا الوهن الذي نجده انما هو من وهن أساس الايمان ولو كانت أخبار الانبياء والاولياء عليهم السلام وبراهين الحكماء والعرفاء عليهم الرضوان أوجدت في أنفسنا مجرد الاحتمال بالصدق لكان اللازم علينا أن نقوم بالامر ونجتهد في تحصيله بأحسن مما نحن فيه ولكن مع الآلاف من الاسف فإن الشيطان قد تسلّط على باطننا وتصرّف بمجامع قلوبنا ومسامع باطننا وهو لا يدع كلام الحق وأنبيائه وكلمات العلماء ومواعظ الكتاب الالهي تصل الى سمعنا ، فسمعنا الان إنما هو السمع الحيواني الدنيوي ومواعظ الحق تعالى لا تتجاوز الحد الظاهر ، ولا تصل الى الباطن ، وذلك لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد .

ومن الوظائف المهمة للسالك الى الله والمجاهد في سبيل الله ان يرفع اليد بالكلية في خلال مجاهدته وسلوكه عن الاعتماد على نفسه ويكون بجبلته متوجها الى مسبّب الاسباب وبفطرته متعلقا بمبدأ المبادىء ويتطلب من ذاته المقدسة العصمة والحفظ ويعتمد على تأييد ذاته الاقدس ويتضرع في خلواته الى حضرته ويطلب إصلاح حاله مع كمال الجد في الطلب منه تعالى فانه لا ملجأ دون ذاته المقدسة والحمد لله .

الفصل الثاني عشر

في الاشارة الى أن حب الدنيا منشأ لتشتت الخيال ومانع من حضور القلب وفي بيان علاجه بالمقدار الميسور.

فليعلم ان القلب بحسب فطرته وجبلته اذا تعلّق بشيء وأحبه يكون ذاك المحبوب قبلة لتوجّهه وان شغله أمر ومنعه عن التفكر في حال المحبوب وجمال المطلوب فبمجرّد أن يخفّ الاشتغال ويرتفع ذلك المانع يطير القلب شطر محبوبه فورا ويتعلق بذيله ، فأهل المعارف وأرباب الجذبة الالهية اذا كانت قلوبهم قوية وصاروا متمكنين في الجذبة والحب فيشاهدون في كل مرآة جمال المحبوب وفي كل موجود كمال المطلوب ويقولون : « ما رأيت شيئا الا ورأيت الله فيه ومعه » .

وان سيدهم ان قال « لَيُغان على قلبي واني لاستغفر الله في كل يوم سبعين مرة » انما ذلك لاجل أنّ مشاهدة جمال المحبوب في المرآة خصوصا المرائي الكدرة ، كمرآة ابي جهل هي بنفسها موجبة للكدورة في قلوب الكمّل واذا كانت قلوبهم غير قويّة ويكون الاشتغال بالكثرات مانعا عن الحضور ، فبمجرد أن يخف الاشتغال تطير قلوبهم الى وكر القدس وتتعلق بجمال الجميل . والطالبون لغير الحق أيضا الذين هم عند أهل المعرفة كلهم طالبون للدنيا فما يكون مطلوبا لهم فهم يتوجهون اليه ويتعلّقون به فهؤلاء ان

كانوا مفرطين في حب محبوبهم ويكون حب الدنيا آخذا بمجامع قلوبهم فلا ينسلبون عن التوجه اليه في وقت ويعيشون مع جمال محبوبهم على كل حال ومع كل شيء وامّا اذا كان حبّهم للحق قليلاً فقلوبهم في وقت الفراغ ترجع الى محبوبها وأما الذين يكون في قلوبهم حب المال والرياسة والشرف فأولئك يشاهدون مطلوبهم في المنام ايضا ويتفكرون في محبوبهم في يقظتهم ، وما داموا يشتغلون بالدنيا فهم يعتنقون محبوبهم فاذا حان وقت الصلاة وحصل للقلب فراغ فانه يتعلق بمحبوبه فورا فكأنما تكبيرة الاحرام هي مفتاح دكان أو رافعة للحجاب بينه وبين محبوبه فيتنبّه وقد سلم في صلاته وما توجّه اليها أصلا وهو في جميع الصلاة كان معتنقا فكر الدنيا ، فلهذا نرى أن الصلاة في مدى أربعين أو خمسين سنة ما أثّرت في قلوبنا غير الظلمة والكدورة وما هو معراج قرب جناب الحق ووسيلة الانس بذلك المقام المقدس قد صرنا مهجورين به من ساحة القرب وأبعدنا عن مقام الانس بفراسخ ، ولو كان في صلاتنا رائحة العبودية لكانت ثمرتها المتربة والتواضع لا العجب والكبر والافتخار التي يصلح كل واحد منها سببا مستقلا وموجبا منفردا لهلاك الانسان وشقاوته .

وبالجملة فان قلوبنا لما كانت مختلطة بحب الدنيا وليس لها مقصد ولا مقصود غير تعميرها فلا محالة أن هذا الحب مانع من فراغ القلب وحضوره في ذلك المحضر القدسيّ ، وعلاج هذا المرض المهلك والفساد المبيد هو العلم والعمل النافعان .

أما العلم النافع لهذا المرض فهو التفكر في ثمراته ونتائجه والمقايسة بينها وبين مضاره ومهالكه الحاصلة منه . وكاتب هذه الاوراق قد كتب في شرح الاربعين شرحا في هذا الباب وفسّر الموضوع فيه بالمقدار الميسور ،

وهنا في هذا المجال ايضا نكتفي بشرح بعض أحاديث أهل بيت العصمة .

في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « رأس كل خطيئة حب الدنيا » . والروايات بهذا المضمون كثيرة مع اختلاف في التعبير ويكفي للانسان اليقظان هذا الحديث الشريف ، ويكفي لهذه الخطيئة العظيمة المهلكة أنها منبع لجميع الخطايا وأساس جميع المفاسد ، فبقليل من التأمّل يعلم أن جميع المفاسد الخلقية والعملية على التقريب من ثمرات هذه الشجرة الخبيثة فما أسّس في العالم دين كاذب ولا مذهب باطل وما اتفق في الدنيا فساد الا بواسطة هذه الموبقة العظيمة . وإنّ القتل والنهب والظلم والتعدي هي نتائج هذه الخطيئة . وان الفجور والفحشاء والسرقة وسائر الفجائع وليدة هذه الجرثومة للفساد ، والانسان الذي وقر فيه هذا الحب مجانب لجميع الفضائل المعنوية ، وان الشجاعة والعفّة والسخاء والعدالة التي هي مبدأ جميع الفضائل النفسانية لا تجتمع مع حب الدنيا ، وان المعارف الالهية والتوحيد في الاسماء والصفات والافعال والذات وتطلب الحق ورؤية الحق متضادة مع حب الدنيا وان طمأنينة النفس وسكون الخاطر واستراحة القلب التي هي روح السعادة في الدنيا لا تجتمع مع حب الدنيا وان غنى القلب والكرامة وعزّة النفس والحرية كلها من لوازم عدم الاعتناء بالدنيا ، كما أن الفقر والذلّة والطمع والحرص والرقّيّة والتملّق من لوازم حب الدنيا ، وان العطف والرحمة والمواصلة والمودة والمحبة متعارضة مع حب الدنيا ، وان البغض والحقد والجور وقطع الرحم والنفاق وسائر الاخلاق الفاسدة وليدة أم الامراض هذه .

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام « الدنيا بمنزلة صورة رأسها الكبر وعينها الحرص وأذنها الطمع ولسانها الرياء ويدها الشهوة ورجلها

العجب وقلبها الغفلة وكونها الفناء وحاصلها الزوال فمن أحبها أورثته الكبر ومن استحسنها أورثته الحرص ومن طلبها أوردته الى الطمع ومن مدحها ألبسته الرياء ومن أرادها مكّنته من العجب ومن اطمأنّ اليها أولته الغفلة ومن أعجبته متاعها أفنته ومن جمعها وبخل بها ردّته الى مستقرها وهي النار » .

وروى الديلمي[1] في إرشاد القلوب عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في ليلة المعراج ممّا خاطب الله به نبيه « يا أحمد لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والارض وصام صيام أهل السماء والارض وطوى من الطعام مثل الملائكة ولبس لباس العابدين ثم أرى في قلبه من حب الدنيا ذرّة أو سمعتها أو رياستها أو حليتها أو زينتها لا يجاورني في داري ولأنزعنّ من قلبه محبّتي ولأظلمنّ قلبه حتى ينساني ولا أذيقه حلاوة محبّتي »[2] .

والاحاديث في هذا الباب أكثر من أن تسعها هذه الاوراق ، فاذا علم أن حبّ الدنيا هو مبدأ ومنشأ جميع المفاسد فعلى الانسان العاقل المعتني بسعادته أن يخلع هذه الشجرة بجذورها عن القلب .

وأما طريق العلاج العملي فهي أن يعامله بالضدّ فاذا كان تعلّقه بمال ومنال فانه يقطع جذورها عن القلب ببسط اليد والصدقات الواجبة والمستحبة ، وان من اسرار الصدقات تقليل العلاقة بالدنيا ، ولهذا يستحبّ للانسان أن يتصدّق بالشيء الذي يحبّه ويتعلق قلبه به ، كما قال الله تعالى في كتابه الكريم : « لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون »[3] .

وان كانت علاقته بفخر وتقدّم ورياسة واستطالة فليعمل ضدّها ويرغم النفس حتى تصير الى الصلاح ، وليعلم الانسان أن الدنيا بمثابة أنه كلّما اتبعها أكثر وكان في صدد تحصيلها أكثر تكون علاقته بها أكثر ويكون

أسفه على فقدانها أزيد ، فكأنّ الانسان دائما طالب لشيء لا يناله فهو يظن أنه طالب للحد الفلاني من الدنيا فما دام فاقدا لذلك الحد فإنه يطلبه ويتحمل في سبيل تحصيله المشاق ويلقي بنفسه الى المهالك ، وبمجرد أن ينال ذلك الحد من الدنيا يغدو في نظره أمرا عاديا . ويرتبط عشقه وعلاقته بشيء آخر فوق ذلك الحد فيتعب نفسه له ولا تطفأ نار عشقه أبدا بل تزداد اتّقادا يوما فيوما ويشتدّ تعبه ومشقّته أكثر وليس لهذه الفطرة والجبلة توقف أبدا ، وأهل المعرفة قد أثبتوا بهذه الفطرة كثيرا من المعارف بيانها خارج عن مجال هذه الأوارق ، وقد أشير الى بعض هذه المطالب في الاحاديث الشريفة كما في الكافي الشريف عن باقر العلوم عليه السلام :

« مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القزّ كلما ازدادت من القزّ على نفسها لفّا كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً » . وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال : « مثل الدنيا كماء البحر كلما شربه انسان عطشان يزيد عطشه حتى يقتله » .

فأنت يا طالب الحق والسالك الى الله اذا طوّعت طائر الخيال وقيّدت شيطان الواهمة وخلعت نعليَ حبّ النساء والاولاد وسائر الشؤون واستأنست بجذوة نار العشق لفطرة الله وقلت اني آنست نارا ووجدت نفسك خاليا من موانع السير وهيّأت أسباب السفر فقم من مكانك واهجر هذا البيت المظلم للطبيعة والمعبر الضيّق المظلم للدنيا واقطع سلاسل الزمان وقيوده وانج بنفسك من هذا السجن وأطر طائر القدس الى محفل الانس .

تورا زكنكره عرش ميزنند صفير   ندانمت كه دراين دامكـه جه افتادة[٤]

فقو عزمك وأحكم إرادتك فان أول شرط للسلوك هو العزم وبدونه لا

يمكن أن يسلك طريق ولا ينال كمال ، والشيخ الأجلّ شاه آبادي ، روحي فداه كان يعبّر عنه بلبّ الانسانية بل يمكن أن يقال أن من احدى الجهات المهمة للتقوى والتجنّب عن المشتهيات النفسانية وترك أهوائها والرياضات الشرعية والعبادات والمناسك الالهية تقوية العزم وانقهار القوى الملكية تحت ملكوت النفس كما ذكر من قبل ، ونحن نختم الان هذه المقالة بالتحميد والتسبيح للذات المقدسة الكبريائية جلّ وعلا وبالثناء على السيد المصطفى والنبي المجتبى وآله الاطهار عليهم السلام ، ونستمدّ لهذا السفر الروحاني والمعراج الايماني من تلك الذوات المقدسة .

المراجع والحواشي

١ ــ هو أبو محمد الحسن بن ابي الحسن محمد الديلمي الشيخ المحدّث الوجيه النبيه صاحب كتاب إرشاد القلوب المعروف الذي قال في مدحه السيد عليخان كافي (ضا) :

هذا كتاب في معانيه حسن ... للديلمي ابي محمد الحسن
اشهى الى المضنى العليل من الشفا ... وألذّ في العينين من غمض الوسن

وله أيضا في مدحه :

اذا ضلت قلوب عن هداها ... فلم تدر العقاب من الثواب
فأرشدهــــا جزاك الله خيرا ... بإرشاد القلوب الى الصواب

وله كتاب غرر الاخبار ودرر الآثار ، وأعلام الدين في صفات المؤمنين . والظاهر أنه كان في عصر الشهيد الأول وينقل عنه الشيخ ابن فهد في عدّة الداعي بعنوان الحسن بن ابي الحسن الديلمي قيل إن حديث الكساء المشهور الذي يعدّ من منفردات منتخب الطريحي موجود في غرر هذا الشيخ .

٢ ــ أقول : ما بين القوسين لم يكن في النسخة المطبوعة وانما نقلته من ترجمة الاستاذ دام ظلّه .

٣ ــ آل عمران ٩٢ .

٤ ــ البيت للشاعر العارف الحافظ الشيرازي يقول :

تنادى من العرش العظيم ولا أدري ... لماذا مقيم أنت في ذلك الفخ

المقالة الثانية

في مقدمات الصلاة

وفيها

خمسة أبواب

الباب الأول

في التطهيرات والوضوء وآدابهما

وفيه سبعة فصول

الفصل الأول

في التطهيرات الثلاثة

كما أشرنا سابقا أن للصلاة غير هذه الصورة لحقيقة ، وغير هذا الظاهر لباطنا ، فكما أن لظاهرها آدابا وشروطا صورية وكذلك لباطنها ايضا آدابك وشروطك ولابد للسالك من مراعاتها فللطهارة الصوريّة آداب وشروط صورية خارج بيانها عن وظيفة هذه الاوراق ، وفقهاء الجعفرية أعلى الله كلمتهم ورفع الله درجتهم قد بيّنوها . وأما الآداب الباطنية والطهور الباطني فنحن نبيّنها على نحو الاجمال .

فليعلم أنه طالما كانت حقيقة الصلاة هي العروج الى مقام القرب والوصول الى مقام حضور الحق جلّ وعلا فللوصول الى هذا المقصد الاعلى والغاية القصوى يلزم طهارات غير هذه الطهارات ، وأشواك هذا الطريق وموانع هذا العروج هي قذارات لا يتمكن السالك مع اتصافه باحدى تلك القذارات من الصعود الى هذه المرقاة والعروج بهذا المعراج وما يكون من قبيل تلك القذارات فهو موانع الصلاة ورجس الشيطان وما يكون معينا للسالك في السير ، ومن آداب الحضور فهو من شروط هذه الحقيقة ويلزم للسالك الى الله في بداية الامر رفع الموانع أولا كي يتّصف بالطهارة ويتيسّر له الطهور

الذي هو من عالم النور ، وما دام السالك لم يتطهّر من جميع القذارات الظاهريـة والباطنيـة والعلنيّـة والسريـــة لا يكـــون له أي حظ من المحضر والحضور .

فأول مرتبة من مراتب القذارات هي تلوّث الالات والقوى الظاهرية للنفس بلوث المعاصي وتقذرها بقذارة المعصية لوليّ النعم ، وهذه هي الشبكة الصورية لابليس ، وما دام الانسان مبتلى بهذه الشبكة فهو عن فيض المحضر وحصول القرب الالهي محروم ولا يظنّن أحد أنه يمكن أن يرقى الى مقام حقيقة الانسانية من دون تطهير ظاهر مملكة الانسانية ، أو انه يستطيع ان يطهّر باطن قلبه من دون تطهير ظاهره ، وهذا الظنّ غرور من الشيطان ومن مكائده العظيمة وذلك لان الكدورات والظلمات القلبية تزداد بالمعاصي التي هي غلبة الطبيعة على الروحانية ، وما دام السالك ما افتتح المملكة الظاهرية فهو محروم بالكلية من الفتوحات الباطنية التي هي المقصد الاعلى ولا ينفتح له طريق الى السعادة ، فأحد الموانع الكبيرة لهذا السلوك هو قذارات المعاصي التي لابدّ أن تطهّر بماء التوبة النصوح الطاهر الطهور ، وليعلم ان جميع القوى الظاهرية والباطنية التي أعطانا الله إياها وأنزلها من عالم الغيب هي أمانات إلهية كانت طاهرة عن جميع القذارات وكانت طاهرة مطهّرة بل كانت متنورة بنور الفطرة الالهية وبعيدة عن ظلمة تصرّف ابليس وكدورته ، فلما نزلت الى ظلمات عالم الطبيعة وامتدت يد تصرّف شيطان الواهمة ويد الخيانة الابليسية اليها خرجت عن الطهارة الاصلية والفطرة الاولية وتلوّثت بأنواع القذارات والارجاس الشيطانية . فالسالك الى الله اذا تمسك بذيل عناية وليّ الله وأبعدها عن أن تتناولها يد الشيطان وطهّر المملكة الظاهرية وردّ الامانات الالهية كما أخذها فهو ما خان الامانة حينئذ وان

صدرت منه خيانة فهو مورد للغفران والستارية فيستريح خاطره من ناحية الظاهر ويقوم بتخلية الباطن من أرجاس الاخلاق الفاسدة وهذه هي المرتبة الثانية من القذارات التي فسادها أكثر وعلاجها أصعب ، وعند أصحاب الارتياض أهم لانه ما دام الخلق الباطني للنفس فاسدا والقذارات المعنوية محيطة بها لا تليق بمقام القدس وخلوة الانس بل مبدأ فساد المملكة الظاهرية للنفس هو الاخلاق الفاسدة والملكات الخبيثة لها وما دام السالك لم يبدّل بالملكات السيئة الملكـات الحسنة فليس مأمونا عن شرور الاعمال . واذا وُفّق للتوبة والاستقامة عليها التي هي من المهمات لا تتيسّر له . فتطهير الظاهر ايضا متوقف على تطهير الباطن مضافا الى أن القذارات الباطنية موجبة للحرمان من السعادة ومنشأ لجهنم الاخلاق التي هي كما يقول « اهل المعرفة » أشدّ حرّاً من جهنّم الاعمال ، وقد أشير كثيرا الى هذا المعنى في أخبار أحاديث أهل بيت العصمة . فيلزم السالك الى الله هذه الطهارة ايضا .

وبعد أن غُسل عن روح النفس التلوّثُ بالاخلاق الفاسدة بماء العلم النافع الطاهر الطهور وبارتياض شرعي صالح يشتغل حينئذ بتطهير القلب الذي هو أم القرى وبصلاحه تصلح المملكة وبفساده تفسد كلها. وقذارات عالم القلب مبدأ القذارات كلها وهي عبارة عن تعلّقه بغير الحق وتوجّهه الى نفسه الى العالم ، ومنشؤها جميعا حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة وحبّ النفس الذي هو أمّ الامراض . وما دامت جذور هذه المحبة في قلب السالك لا يحصل فيها أثر من محبة الله ولا يهتدي طريقا الى منزل المقصد والمقصود ، وما دام للسالك في قلبه بقايا من هذه المحبة لم يكن سيره الى الله بل يكون سيره الى النفس والى الدنيا والى الشيطان ، فالتطهير

عن حب النفس والدنيا هو أول مرتبة تطهير السلوك الى الله في الحقيقة لانه قبل هذا التطهير ليس السلوك سلوكا وانما يطلق السلوك والسالك على سبيل المسامحة[1] ومن وراء هذا المنزل منازل البلاد السبعة لعشق العطار يظهر انموذج منها للسالك وذاك القائل رأى نفسه في أول منعطف من زقاقها[2] ونحن وراء الاسوار والحجب الضخمة ونحسب تلك البلاد وحكامها من الاساطير .

أنا لست أركز على الشيخ العطار[3] أو على ميثم التمّار ولكن لا أنكر المقامات من أصلها وأتطلب صاحبها بالقلب والروح وأرجو الفرج لهذه المحبة وأنت كن كما شئت واتصل مع من شئت :

مدّعي خواست كه آيد بتماشاكه راز

دست غيب آمد وبرسينه نا محرم زد[4]

ولكن لم أكن خائنا للاحباء العرفانيين في الاخوة الايمانية ولا أضيق بالنصيحة لهم التي هي من حقوق المؤمنين .

فإن أعظم القذارات المعنوية التي لا يمكن تطهيرها بسبعة أبحر وأعجزت الانبياء العظام هي قذارة الجهل المركب الذي هو منشأ الداء العضال الا وهو انكار مقامات أهل الله وأرباب المعرفة ومبدأ سوء الظنّ لاصحاب القلوب ، وما دام الانسان ملوّثا بهذه القذارة لا يتقدّم خطوة الى المعارف بل ربما تطفىء هذه الكدورة نور الفطرة الذي هو مصباح طريق الهداية وينطفىء بها نار العشق التي هي براق العروج الى المقامات ويخلّد الانسان في أرض الطبيعة ، فاللازم على الانسان أن يغسل هذه القذارات عن باطن القلب بالتفكر في حال الانبياء والاولياء الكمّل صلوات الله عليهم

وتذكر مقاماتهم وألاّ يقنع بالحدّ الذي هو فيه فان الوقوف على الحدود والقناعة في المعارف ، من التلبيسات العظيمة لابليس والنفس الامّارة نعوذ بالله منها ، وحيث أن هذه الرسالة كتبت على وفق ذوق العامة فقد أمسكنا عن التطهيرات الثلاثة للاولياء والحمد لله(٥) .

المراجع والحواشي

١ ـــ وقال بعض علماء الاخرة في المقام بعد ذكر بعض الآيات والروايات فتفطّن ذوو البصائر بهذه الظواهر ، إن أهم الامور تطهير السرائر اذ يبعد ان يكون المراد بقوله صلى الله عليه وآله : « الطهور نصف الايمان » عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإنقائه وتخريب الباطن وإبقائه مشحونا بالاخباث والقذارات هيهات هيهات .. ثم قال : والطهارة لها أربع مراتب . المرتبة الاولى : تطهير الظاهر عن الاحداث وعن الاخباث والفضلات . المرتبة الثانية : تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام . المرتبة الثالثة : تطهير القلب عن الاخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة . المرتبة الرابعة : تطهير السرّ عما سوى الله تعالى وهي طهارة الانبياء صلوات الله عليهم والصدّيقين . والطهارة في كل مرتبة نصف العمل الذي هو فيها فان الغاية القصوى من عمل السرّ أن ينكشف له جلال الله تعالى وعظمته ولن تحلّ معرفة الله تعالى بالحقيقة في السرّ ما لم يرتحل ما سوى الله تعالى عنه . ولذلك قال الله تعالى : « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » (**الانعام ٩١**) .. لانهما لايجتمعان في قلب واحد . « وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » (**الاحزاب ٤**) وأما عمل القلب والغاية القصوى فيه عمارته بالاخلاق المحمودة والعقائد المشروعة ، ولن يتّصف بها ما لم ينظّف من نقائضها من العقائد الفاسدة والرذائل الممقوتة ، فتطهيره أحد الشطرين ، وهو الشطر الاول الذي هو شرط في الثاني فكان الطهور شطر الايمان بهذا المعنى ، وكذلك تطهير الجوارح عن المناهي أحد

الشطرين وهو الشطر الاول الذي هو شرط في الثاني ، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الاول وعمارتها بالطاعات الشطر الثاني .

فهذه مقامات الايمان ولكل مقام طبقة ولن ينال العبد الطبقة العالية الا أن يجاوز الطبقة السافلة فلا يصل الى طهارة السر من الصفات المذمومة وعمارته بالخلق المحمود ، ولن يصل الى ذلك من لم يفرغ من طهارة الجوارح عن المناهي وعمارتها بالطاعات وكلما عزّ المطلوب وشرف ، صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته . فلا تظن ان هذا الامر يدرك وينال بالهوينى . انتهى موضع الحاجة من كلامه أقول :

ومن طلب العلى سهر الليالي

٢ ــ اشارة الى الشعر المعروف للعارفي الرومي يقول فيه :

هفت شعر عشق را عطّار گشت ماهنوزاندرخم يك كوچه ايم

يعني أن عطّار النيشابوري (العارف المعروف) سار ودار في المدن السبعة التي هي مدن العشق وبلاده ولكنّا مع الاسف الى الان لم نتجاوز من منعطف زقاق واحد لتلك المدن .

٣ ــ هو فريد الدين محمد بن ابراهيم النيسابوريّ المعروف بالشيخ العطّار صاحب الاشعار والمصنّفات في التوحيد والحقايق والمعارف وله اشعار في مدح مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام وفي ذمّ الدنيا . توفي سنة ٤٢٧ (خكز) بعد عمر طويل وقيل أنّه قُتل في فتنة التتر وقبره خارج نيسابور معروف . وميثم التمّار الصحابي المعروف .

٤ ــ البيت للعارف الحافظ الشيرازي يقول :

أراد المدّعي أن يدخل منتزه السرّ فظهرت اليد الغيبية وضربت في صدر المدعي وردّه عن الورود لأنه ما كان محرماً للسرّ. فبيّن أن من شروط الدخول في حرم سرّ الله رفض الدعوى وترك الأنانيّة .

٥ ـــ بالاستئذان من حضرة الاستاذ أشير الى التطهيرات الثلاثة للاولياء وأن كان لا يخلو عن التجاسر وسوء الادب عند أرباب المعنى .

فأقول : المرتبة الاولى من التطهيرات الثلاثة للاولياء تطهير الاعضاء والجوارح من الاعمال والافعال البشرية ، وهذا التطهير هو نتيجة قرب النوافل كما في الحديث المتفق عليه « لا يزال يتقرّب إلي عبدي بالنوافل حتى أحبّه فاذا أحببته كنت أنا سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها » .

فالسالك الكامل الواصل اذا خرج من بيت النفس المظلم وطوى عالم النفس بالكليّة واندك جبل إنّيّته وأنانيته بتجلي الانوار الربوبية وخرق الحجب النورانية والظلمانية يتجلى الحق تعالى في وجوده فيسمع بالحق ولا يسمع غير الحق ويبصر بالحق ولا يبصر سوى الحق ويبطش بالحق ولا يصدر منه الا الحق وينطق بالحق ولا ينطق الا الحق .

فاذا تمكن في هذا المقام وتقرّب الى الله سبحانه بقدر استعداده فتحصل له المرتبة الثانية من التطهير وهو التطهير من الصفات الخلقية فالجذبات الالٰهية الرحمانية تجذبه ويأنس بنار العشق من جانب طور تجلّي الاسماء فتقربه من بساط الانس ، فان جذبة من جذبات الرحمان توازن عمل الثقلين كما في الحديث ويكون كالحديدة المحماة كما في الحديث أيضا ، فكلما يتمكن من القرب يتأدّب بالاداب الربوبية المستفادة من قوله صلى الله عليه وآله « أدّبني ربي فأحسن تأديبي » . فتكمل فيه الصفات والملكات الخلقية وتصل جوهرة العبودية الى كنهها وتختفي العبودية وتظهر الربوبية وتتحقق بحقيقة « وتخلّقوا بأخلاق الله » . ثم في منتهى قرب النوافل يصل الى المرتبة الثالثة من التطهير وهي تطهير الذات وكشف سبحات الجلال ويحصل الفناء الكلّي والصعق التام والاضمحلال المطلق والتلاشي التام ويصير القلب الهيا ولاهوتيا وتتجلى حضرة اللاهوت في مراتب الباطن والظاهر فيصل الى معدن

العظمة ويصير روحه معلقا بعزّ القدس كما أشار عليه السلام في المناجاة الشعبانية : « الهي هب لي كمال الانقطاع اليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها اليك حتى تخرق ابصار القلوب حجب النور وتصل الى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك » . فعند ذلك يكون وجوده حقانيا ، والحق تعالى يشاهد الموجودات في مرآة وجوده ، واذا كان انسانا كاملا فيوافق المشيئة المطلقة ، كما ورد في زيارة الاولياء الكمّل « ارادة الربّ في مقادير أموره تهبط اليكم وتصدر من بيوتكم »وتكون روحانيته عين مقام الظهور الفعلي للحق تعالى كما قال عليّ عليه السلام : « نحن صنائع الله والخلق بعد صنائعنا » فبه يبصر الحق تعالى وبه يسمع وبه يبطش كما في زيارة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام : « السلام على عين الله الناظرة وأذنه الواعية ويده الباسطة السلام على جنب الله الرضي ووجهه المضيء » وربما تستفاد هذه اللطيفة الربانية من حديث قرب النوافل : « كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به .. الى آخره .. » فليتدبّر .. وفي دعاء رجب : « لافرق بينك وبينها الا أنهم عبادك وخلقك » .

وليعلم أنه يمكن تطهير الفطرة بعد تلوّثها . وما دام الانسان في هذه النشأة فالخروج من تصرّف الشيطان له مقدور وميسور ، والورود في حزب ملائكة الله التي هي جنود رحمانية الٰهية له ميسّر . وحقيقة جهاد النفس الذي هو الجهاد الاكبر وهو أفضل من جهاد أعداء الدين كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله هو الخروج من تصرّف جنود ابليس والورود تحت تصرّف جنود الله ، فأول مرتبة الطهارة هي التسنّن بالسنن الالهية والائتمار بأوامر الحق .

والمرتبة الثانية هي التحلي بفضائل الاخلاق وفواضل الملكات . والمرتبة الثالثة هي الطهور القلبي وهو عبارة عن تسليم القلب الى الحق تعالى ، وبعد هذا التسليم يصير القلب نورانيا بل يكون القلب نفسه من عالم النور ومن درجات النور الالهي ، ويسري نور القلب الى سائر الأعضاء والجوارح والقوى

الباطنية وتكون المملكة كلها نورا ونورا على نور وينتهي الامر الى حد يكون القلب الهيا ولاهوتيا ، وتتجلى حضرة اللاهوت في جميع مراتب الباطـن والظاهر ، وفي هذه الحال تفنى العبودية كل الفناء وتختفي ، فتظهر الربوبية وتبين . ويحصل لقلب السالك في هذه الحال الطمأنينة والانس ويصير جميع العوامل محبوبا له وتحصل له الجذبات الالهية وتغفر له الخطايا والزلّات وتستتر في ظلّ التجلّيات الحبّيّة وتحصل له بدايات الولاية ويليق بالورود على محضر الانس ، وللسالك بعد هذا منازل لا يناسب هذه الاوراق ذكرها .

الفصل الثاني

في الاشارة الى مراتب الطهور

اعلم أن الانسان مادام في عالم الطبيعة ومنزل مادة الهيولانية فهو تحت تصرفات جنود الهية وجنود ابليسية. والجنود الالهية هي جنود الرحمة والسلامة والسعادة والنور والطهارة والكمال ، وجنود ابليس مقابلاتها ، وحيث أن الجهات الربوبية غالبة على الجهات الابليسية فللانسان في مبدأ الفطرة نور وسلامة وسعادة فطرية الهية كما صرّح بذلك في الاحاديث الشريفة وأشير اليه في الكتاب الشريف الالهي ، وما دام الانسان في هذا العالم فهو بقدر الاختيار يستطيع أن يجعل نفسه تحت تصرّف أحد هذين الجندين ، فاذا لم يكن لابليس من أول فطرة الانسان الى آخرها تصرّف في فطرته فهو انسان الهي لاهوتي ، وهو من قرنه الى قدمه نور وطهارة وسعادة فقلبه نور الحق ولا يتوجّه لغير الحق وقواه الباطنية والظاهرية نورانية وطاهرة ولا يتصرف فيها سوى الحق وليس لابليس فيها حظ ولا لجنوده فيها تصرّف . ومثل هذا الموجود الشريف طاهر مطلقا ونور خالص وما تقدم من ذنبه وما تأخّر فهو مغفور له ، وهو صاحب الفتح المطلق وواجد لمقام العصمة الكبرى بالاصالة وبقية المعصومين واجدون لذاك المقام تبعا لتلك الذات المقدسة

وهو صاحب مقام الخاتمية الذي هو الكمال على الاطلاق ، وحيث أن أوصياءه مشتقون من طينته ومتصلون بفطرته فهم أصحاب العصمة المطلقة بتبعه ولهم التبعية الكاملة . وأما بعض المعصومين من الانبياء والاولياء عليهم السلام فليسوا أصحاب العصمة المطلقة ولم يكونوا خالين من تصرّف الشيطان ، كما أن توجّه آدم عليه السلام الى الشجرة كان من تصرفات ابليس الكبير ابليس الابالسة مع أن تلك الشجرة كانت شجرة الجنة الالهية ومع ذلك كانت له الكثرة الاسمائية التي تنافي مقام الادمية الكاملة ، وهذا أحد معاني الشجرة المنهي عنها أو أحد مراتبها واذا تلوّث نور الفطرة بالقذارات الصورية والمعنوية فبمقدار التلوّث يبعد عن بساط القرب ويهجر من حضرة الانس حتى يصل الى مقام ينطفىء فيه نور الفطرة بالكلّية وتصير المملكة شيطانية كلها ويكون ظاهرها وباطنها وسرّها وعلنها في تصرّف الشيطان فيكون الشيطان قلبه وسمعه وبصره ويده ورجله وتكون جميع أعماله شيطانية ، واذا وصل أحد ـــ والعياذ بالله ـــ الى هذا المقام فهو الشقّي المطلق ولا يرى وجه السعادة أبدا ، وبين هاتين المرتبتين مقامات ومراتب لا يحصيها الا الله وكل من يكون الى أفق النبوة أقرب فهو من أصحاب اليمين وكل من كان الى أفق الشيطان أقرب فهو من أصحاب الشمال .

الفصل الثالث

في الآداب القلبية للسالك حينما يتوجه الى الماء للطهارة

ونذكر في المقام الحديث الشريف لمصباح الشريعة كي يحصل للقلوب الصافية لاهل الايمان منه نورانية .

ففي مصباح الشريعة قال الامام الصادق عليه السلام : « اذا أردت الطهارة والوضوء فتقدم الى الماء تقدمك الى رحمة الله فان الله قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته ودليلاً على بساط خدمته ، وكما أن رحمة الله تطهّر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لاغير» ، قال الله تعالى : « وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا »[1] . وقال الله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون »[2] . فكما يحيي به كل شيء من نعيم الدنيا كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلوب الطاعات . وتفكر في صفاء الماء ورقّته وطهارته وبركته ولطيف امتزاجه بكل شيء واستعمله في تطهير الاعضاء التي أمرك الله بتطهيرها ، وات بآدابها في فرائضه وسننه فان تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة ، فاذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب ثم عاشر خلق الله كامتزاج الماء بالاشياء يؤدي كل شيء حقّه ولا يتغير معناه

معتبرا لقول رسول الله صلى الله عليه وآله مثل المؤمن المخلص الخالص كمثل الماء ، ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء وسمّاه طهورا وطهّر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء » .

وفي هذا الحديث لطائف ودقائق وإشارات وحقائق تحيي قلوب أهل المعرفة وتعطي الارواح الصافية لاصحاب القلوب حياة جديدة . ففي هذا الحديث شبه الماء بل أوله الى رحمة الحق فمن نكات هذا التشبيه أو التأويل أن الماء أحد المظاهر العظيمة لرحمة الحق التي أنزلها في عالم الطبيعة وجعلها سببا لحياة الموجودات بل أهل المعرفة يعبّرون بالماء عن الرحمة الواسعة الالهية التي نزلت من السماء رفيعة الدرجات لحضرة الاسماء والصفات فأحيا بها أراضي التعيّنات للاعيان . وحيث أن تجلّي الرحمة الواسعة الالهية في الماء الملكي الظاهري أكثر من سائر الموجودات الدنيوية جعله الله تعالى لتطهير القذارات الصورية بل ماء الرحمة للحق تعالى اذا نزل وظهر في كل نشأة من نشآت الوجود وفي كل مشهد من مشاهد الغيب والشهود يطهّر ذنوب عباد الله وفقا لتلك النشأة وبما يناسب ذلك العالم .

فبماء الرحمة النازل من سماء الاحدية تطهر ذنوب غيبة تعينات الاعيان ، وبماء الرحمة الواسعة النازلة من سماء الواحدية تطهر ذنوب عدمية الماهيات الخارجية في كل مرتبة من مراتب الوجود طبقا لتلك المرتبة ، وفي مراتب نشآت الانسانية ايضا لماء الرحمة ظهورات مختلفة كما أنه بالماء النازل من حضرة الذات بالتعينات الجمعية البرزخية تطهر ذنوب سر الوجود « وجودك ذنب لا يقاس به ذنب » وبالماء النازل من حضرات الاسماء والصفات وحضرة التجلي الفعلي تطهر رؤية الصفة والفعل وبالماء النازل من

سماء الحضرة الحكم العدل تطهر القذارات الخلقية الباطنية ، وبالماء النازل من سماء الغفارية تطهر ذنوب العباد ، وبالماء النازل من سماء الملكوت تطهر القذارات الصورية ، فعلم أن الحق تعالى جعل الماء مفتاح قربه ودليل بساط رحمته ثم يعين عليه السلام في الحديث الشريف وظيفة أخرى ويفتح طريقا آخر لاهل السلوك والمراقبة .

يقول عليه السلام : « تفكَّرْ في صفاء الماء ورقته وطهره وبركته ولطيف امتزاجه بكل شيء واستعمله في تطهير الاعضاء التي أمرك الله بتطهيرها وائت بآدابها في فرائضه وسننه فان تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة فاذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب » . اشار عليه السلام في هذا الحديث الشريف الى مراتب الطهارة بالطريق الكلية وبيّن أربع مراتب كليّة احدها ما ذكر في الحديث الشريف الى الحد الذي ذكرناه وهو تطهير الاعضاء، وأشار عليه السلام الى أنّ أهل المراقبة والسلوك الى الله يلزم الاّ يتوقّفوا عند صور الاشياء وظواهرها بل لابدّ أن يجعلوا الظاهر مرآة للباطن ويستكشفوا من الصور الحقائق ولا يقنعوا بالتطهير الصوري فإن القناعة بالتطهير الصوري فخّ ابليس فينتقلوا من صفاء الماء الى تصفية الاعضاء ويصفونها بأداء الفرائض والسنن الالهية ويرققون الاعضاء برقة الفرائض والسنن ويخرجونها من غلظة التعصي ويسرون الطهور والبركة في جميع الاعضاء ويدركون من لطف امتزاج الماء بالاشياء كيفية امتزاج القوى الملكوتية الالهية بعـــالم الطبيعة ولا يدعون القذارات الطبيعية تؤثّر فيها فاذا تلبست أعضاؤهم بالسنن والفرائض الالهية وآدابها تظهر فوائدها الباطنية بالتدريج وتنفجر عيون الاسرار الالهية وتنكشف لهم لمحة من أسرار العبادة والطهارة .

ولما فرغ عليه السلام من بيان المرتبة الاولى من الطهارة وكيفية تحصيلها شرع في بيان الوظيفة الثانية وقال : ثم عاشر خلق الله كامتزاج الماء بالاشياء يؤدي كل شيء حقه ولا يتغيّر عن معناه معتبرا لقول رسول الله صلى الله عليه وآله « مثل المؤمن المخلص (الخالص) كمثل الماء » فبيّن عليه السلام في الحكم الاول ما يرتبط بتعامل الانسان السالك مع قواه الداخلية وأعضائه ، والحكم الثاني الذي هو في هذه الفقرة من الحديث الشريف يرتبط بتعامل الانسان مع خلق الله وهذا هو حكم جامع يبيّن كيفية معاشرة السالك للمخلوق ويستفاد منه ضمنا حقيقة الخلوة وهي أن السالك الى الله في نفس الحال الذي يعاشر كل طائفة من الناس بالمعروف ويرد الحقوق الخلقية ويراود كل أحد ويعامله بطور يناسب حاله فهو في الوقت نفسه لا يتجاوز عن الحقوق الالهية ولا يترك المعنى من نفسه وهو العبادة والعبودية والتوجّه الى الحق وفي نفس الحال التي يكون فيها في الكثرة يكون في الخلوة وقلبه الذي هو منزل المحبوب يكون خاليا من الاغيار وفارغا من كل صورة ومثال[٣] .

ثم ذكر عليه السلام الحكم الثالث وهو كيفية تعامل السالك مع الحق تعالى ، يقول : « ولتكن صفوتك مع الله في جميع طاعتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء وسمّاه طهورا » يعني يلزم للسالك الى الله أن يكون خالصا من تصرف الطبيعة ولا يكون لكدورتها وظلمتها طريق الى قلبه ، وتكون جميع عباداته خالية عن جميع الشرك الظاهري والباطني ، وكما أن الماء في وقت نزوله من السماء طاهر وطهور وما امتدّت اليه يد تصرف القذارات كذلك قلب السالك الذي نزل من سماء عالم غيب الملكوت

طاهراً ومنزّهاً لا يتركه يقع تحت تصرّف الشيطـان والطبيعـة ويتلـوث بالقذارات .

وبعد هذا بين عليه السلام الحكم الاخير وهو وظيفة جامعة لاهل الرياضة والسلوك ويقول : « وطهّر قلبك بالتقوى واليقين عند تطهير جوارحك بالماء » وفي هذا إشارة الى مقامين شامخين لاهل المعرفة . الاول : التقوى وكماله ترك غير الحق . والثاني : اليقين وكماله مشاهدة حضور المحبوب .

المراجع والحواشي

١ ــ (الفرقان٤٨) .

٢ ــ (الانبياء٣٠) .

٣ ــ أقول : وقد أشير الى هذا المعنى في كثير من الاحاديث ، ففي نهج البلاغة لعلي عليه السلام في خطبته المعروفة التي يصف فيها المتقين قال (ع) : « ان كان من الغافلين كتب في الذاكرين وان كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين » . وفي الكافي الشريف روايات متقاربة المضمون : « ان الله سبحانه أوحى لموسى بن عمران : يابن عمران لاتدع ذكري على كل حال » . وقال الصادق عليه السلام : قال الله تعالى « يابن آدم اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي » . الى أن قال « اذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملئك » . وقال « ما من عبد يذكر الله في ملأ من الناس الا ذكره الله في ملأ من الملائكة » وأيضا في الكافي الشريف عن الصادق عليه السلام قال : « الذاكر لله عز وجل في الغافلين كالمقاتل في المحاربين الغازين » .

الفصل الرابع

في الطهور وهو اما الماء وهو الاصل في هذا الباب واما الارض[1]

إعلم أن للانسان السالك في الوصول الى المقصد الاعلى ومقام القرب الربوبي طريقين على نحو كلي أحدهما وله مقام الكلّية والأصالة وهو السير الى الله بالتوجّه الى مقام الرحمة المطلقة وخصوصا الرحمة الرحيمية وهي رحمة توصل كل موجود الى كماله اللائق به ، ومن شعب الرحمة الرحيمية ومظاهرها بعث الانبياء والرسل صلوات الله عليهم الذين هم هداة السبل والمساعدون للمتأخرين عن السير ، بل ان دار التحقق في نظر أهل المعرفة وأصحاب القلوب هي صورة الرحمة الالهية، والخلائق دائما مستغرقون في بحار رحمة الحق تعالى ولكنهم لا يستفيدون منها .

فهذا الكتاب العظيم الالهي الذي نزل من عالم الغيب الالهي والقرب الربوبي ، ولأجل استفادتنا نحن المهجورين وخلاصنا نحن المسجونين في سجن الطبيعة والمغلولين في سلاسل أهواء النفس والامال وقد صار في صورة اللفظ والكلام هو أحد المظاهر العظيمة للرحمة المطلقة الالهية ، وما استفدنا نحن الصم العمي منه بشيء ولا نستفيد . وان الرسول الخاتم والوليّ المطلق الأكرم الذي شرّفنا وقدم من محضر القدس الربوبي ومحفل القرب والانس

الالهي الى هذا المنزل منزل الغربة والوحشة وابتلي بمعاشرة أمثال أبي جهل وشرّ منه ومراودته وان أنين ليغان على قلبي منه ﷺ قد أحرق قلوب أهل المعرفة والولاية ويحرقها الان أيضا هو الرحمة الواسعة والكرامة المطلقة الالهية التي كان قدومها في هذه الدويرة للرحمة على الموجودات وعلى سكنة العالم الاسفل الادنى واخراجهم من هذه الدار دار الغربة والوحشة ، فهو ﷺ كالحمامة المطوقة التي تلقي نفسها الى الفخ لتنجي رفقاءها منه .

فلابد للسالك الى الله ان يرى التطهير بماء الرحمة صورة لاستفادته من الرحمة الالهية النازلة ، وما دامت الاستفادة له ميسورة ، لابد أن يقوم بأمرها واذا قصرت يده عنها بسبب القصور الذاتي أو تقصيره وبسبب فقد ماء الرحمة لم يكن له بدّ من التوجّه بذلّه ومسكنته وفقره وفاقته ، فاذا جعل ذلّة عبوديته نصب عينيه وتوجّه باضطراره الذاتي وفقره الذاتي وإمكانه الذاتي وخرج من التعزز والغرور وحب النفس ينفتح له باب آخر من الرحمة وتبدل بأرض الطبيعة أرض الرحمة البيضاء ويصير التراب أحد الطهورين ويصير موردا لترحم الحق تعالى وتلطفه ، وكلما قوي هذا النظر في الانسان أي النظر الى ذلّة نفسه يكون موردا للرحمة أكثر . وأما اذا أراد الانسان أن يسلك هذا الطريق بقدم الاعتماد على النفس وعلى عمله فهو هالك لا محالة لانه من الممكن الا يؤخذ بيده فمثله كالطفل الذي يتجاسر على المشي ويغتر بقدمه ، ويعتمد على قوته ، فمثل هذا الطفل لا يكون موردا لعناية أبيه ويكله الاب الى نفسه وأما إذا عرض اضطراره وعجزه على جناب الاب الشفيق وخرج عن الاعتماد على نفسه وعلى قوّته بالكلّية فيصير حينئذ موردا لعناية الاب ويأخذ الاب بيده بل يأخذه في حضنه ويمشي به بقدمه فالاحرى بالسالك الى الله ان يكسر رجل سلوكه وان يستدعي البراءة من الاعتماد على

نفسه وارتياضه وعمله بالكلّية ويفنى عن نفسه وقدرته وقوّته ، ويجعل فناءه واضطراره دائما نصب عينيه حتى يقع دائما موردا للعناية ، فربما يسلك حينئذ طريقا يطول سيره مئة سنة في ليلة واحدة بالجذبة الربوبية . وحينما يفنى عن نفسه وقوته وقدرته ويقول في محضر القدس الربوبي بلسان باطنه وحاله بالعجز والافتقار : « أمّن يجيب المضّطر اذا دعاه ويكشف السوء »[٢] .

المراجع والحواشي

١ ـــ قال العارف السعيد القاضي سعيد القمّي[*] وهو (اي الطهور) امّا الماء الذي هو سرّ الحياة التي هي العلم ومشاهدة الحيّ القيّوم ، قال الله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به » (الفرقان٤٨و٤٩) . وقال جل وعلا : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهّركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان » (الانفال١١) وأما التراب الذي هو أصل نشأة الانسان قال عزّ من قائل : « منها خلقناكم » (طه٥٥) . وقال جلّ جلاله : « فلم تجدوا ماء فتيمّموا صعيدا طيّبا » (النساء٤٣) وذلك لتتفكر في ذاتك لتعرف من أوجدك وبم أوجدك ولم أوجدك ، فتخضع له وترفع التكبّر من رأسك لان التراب هو الاصيل في الذلّة والمسكنة .

ثم اعلم ان ماء الغيث لطيف في غاية الصفا وله مزاج واحد ولا يمازجه شيء في الخارج فهو في الباطن العلم اللدني الذي له طعم واحد اذ الانبياء والاولياء كلهم على قول متحد وان اختلفت المشارب والمناهل فليكن معتمدك في طهورك الظاهري والباطني هذا الماء ، وأما ماء العيون والآبار فهو مختلف الطعم بحسب تلك البقعة والارض التي خرج منها وامتزج بتربتها فهو العلم المستفاد من الافكار الصحيحة التي لاتخلو من شائبة التغيّر بحسب مزاج المتفكر لانه ينظر في مواد محسوسة تقوم عليها البراهين ، فاختر لنفسك اي الماءين يقرب من ذوقك ويناسب مشربك .. (انتهى) .

وكأنّ الامام أطال الله بقاه ينظر الى كلام هذا العارف في هذا المبحث ولكن شتّان ما بين الكلامين ، فتأمّل تعرف .

١ ـــ (النمل ـــ ٦١)

شروح الحواشي

ـــ هو محمد بن مفيد القُمّي العالم الفاضل الحكيم المتشرع العارف الربّاني والمحقّق الصمداني من أعاظم علماء الحكمة والادب والحديث . انتهى اليه منصب القضاء في بلدة قم .

كان من تلامذة المحقق الفيض الكاشاني والمولى عبد الرزّاق الاهيجي له مصنفات فائقة منها شرحه على كتاب توحيد الصدوق في مجلّدات والاربعينيّات وغير ذلك . وأشهر مصنفاته شرحه على التوحيد وهو مشتمل على الفوائد الكثيرة فلنذكر فائدة مختصرة منها :

روى الصدوق عن أبي عبد الله عليه السلام قال لمّا امر الله عزّ وجلّ ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ببنيان البيت وتمّ بناؤه أمره ان يصعد ركنا ينادي في الناس الا هلمّ الحجّ فلو نادى هلمّوا الى الحج لم يحجّ الا من كان يومئذ انسيّا مخلوقا ولكن نادى هلمّ الحجّ فلبّى الناس في أصلاب الرجال لبيك داعي الله لبيك داعي الله فمن لبىّ عشرا حجّ عشرا ومن لبّى خمسا حجّ خمسا ومن لبّى اكثر فبعدد ذلك ومن لبّى واحدا حجّ واحدا ومن لم يلبّ لم يحج .

قال القاضي سعيد في معنى الخبر : عندي ان الوجه فيه ان استعمال هلم لمجرّد الامر وطلب الحضور مع تجريد من خصوصية المخاطب بالافراد والتذكير والتأنيث ، والمعنى ليكن اتيان بالحجّ وليصدر قصد الى البيت ممّن يأتي منه هذا القصد من أفراد البشر وهذا إنّما يصحّح في صيغة المفرد حيث لم يكن فيه علامة الزيادة لاجل التأنيث والتثنية والجمع بخلاف صيغة الجمع فان الزيادة فيه مانعة عن ذلك كما لا يخفى على المتدرّب في العلوم (انتهى).

الفصل الخامس

في نبذة من آداب الوضوء الباطنية والقلبية

فمن ذلك ما ورد عن الامام الرضا(1) عليه السلام : « انما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهرا اذا قام بين يدي الجبّار وعند مناجاته ايّاه مطيعا له فيما أمر نقيّا من الارجاس والنجاسة مع ما فيه من ذهاب الكسل وطرد النعاس وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبّار » .

فبيّن عليه السلام الى هنا النكتة(2) من أصل الوضوء ونبّه اهل المعرفة وأصحاب السلوك بأن للوقوف في محضر الحق جلّ وعلا وللمناجاة مع قاضي الحاجات آدابا لابد أن تلاحظ حتى أنه مع القذارات الصورية والكثافات وكسالة العين الظاهرة ايضا لا يحضر في ذلك المحضر فكيف اذا كان القلب معدنا للكثافات ومبتلىً بالقاذورات المعنوية التي هي أصل القذارات مع أن في الرواية : « ان الله تعالى لاينظر الى صوركم بل ينظر الى قلوبكم » . ومع أن ما يتوجّه به الانسان الى الحق تعالى وما يليق من العوالم الخلقية أن ينظر الى كبرياء عظمته وجلاله هو القلب وليس لسائر الجوارح والاعضاء منه حظ ونصيب مع ذلك ما أهملت الطهارة الصورية والنظافة الظاهرية فقرروا صورة الطهارة لصورة الانسان وباطنها لباطنه ومن جعله عليه

السلام تزكية القلب في هذا الحديث الشريف من فوائد الوضوء يعلم ان للوضوء باطنا يكون به تزكية الباطن ويعلم ايضا الرابطة بين الظاهر والباطن والشهادة والغيب ويستفاد ايضا ان الطهور الظاهري والوضوء الصوري من العبادات واطاعة للرب ومن هذه الجهة الطهور الظاهر موجب للطهور الباطن ومن الطهارة الصورية تحصل تزكية الفؤاد .

وبالجملة السالك الى الله لابد أن يتوجه في وقت الوضوء الى انه يريد التوجّه الى المحضر المقدّس لحضرة الكبرياء ومع هذه الحالات القلبية التي له لا يليق للمحضر بل أنه يطرد من جناب العزّ الربوبي فيشمّر ذيله بأن يسري الطهارة الظاهرية الى الباطن ويجعل قلبه موردا لنظر الحق بل منزلا لحضرة القدس ويطهره من غير الحق ويخرج من رأسه التفرعن وحب النفس الذي هو أصل أصول القذارات كي يليق للمقام المقدّس .[٣] .

ثم بيّن الرضا سلام الله عليه وجه اختصاص الاعضاء المخصوصة للوضوء فقال :

« وانّما وجب على الوجه واليدين والرأس والرجلين لان العبد اذا قام بين يدي الجبار فانما يكشف من جوارحه ويظهر ما وجب به الوضوء وذلك أنه بوجهه يسجد ويخضع وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتّل وبرأسه يستقبله في ركوعه وسجوده ، وبرجليه يقوم ويقعد » .

وحاصل ما قاله عليه السلام انه حيث أن لهذه الاعضاء دخلا في عبودية الحق تعالى والعبودية تظهر من هذه الاعضاء فلهذا وجب تطهيرها .. وبعد هذا بيّن عليه السلام الامور التي تظهر من هذه الاعضاء ، وبهذا فتح باب الاعتبار والاستفادة لاهلهما ، وأرشد أهل المعارف الى اسرارها بأن ما هو محل للعبودية في محضر الحق تبارك لا بد أن

يكون طاهرا ومطهرا والاعضاء والجوارح الظاهرية التي يكون لها حظ ناقص من تلك المعاني لا تليق لذلك المقام من دَوَن طهارتها ومع أن الخضوع ليس من صفات الوجه على الحقيقة والسؤال والرغبة والرهبة والتبتل والاستقبال ليس شيء منها من شؤون الاعضاء الحسّية ولكن حيث أن هذه الاعضاء مظاهر تلك الامور لزم تطهيرها ، فعلى هذا فإنّ تطهير القلب الذي هو محل حقيقي للعبودية ومركز واقعي لتلك المعاني يكون ألزم ، وبدون تطهير القلب لو غسلت الاعضاء الصورية بسبعة أبحر ما تطهّرت ولا توجد فيها لياقة لذلك المقام بل يكون للشيطان فيها تصرّف ويكون المرء مطرودا من حضرة العزّة(١) .

وصل : ومن ذلك ما عن العلل باسناده قال : « جاء نفر من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه عن مسائل ، وكان فيما سألوه أخبرنا يا محمد لايّ علّة نتوضّأ هذه الجوارح الاربع وهي أنظف المواضع في الجسد ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله : لما أن وسوس الشيطان الى آدم ودنا من الشجرة فنظر اليها فذهب ماء وجهه ثم قام ومشى اليها وهي أول قدم مشت الى الخطيئة ثم تناول بيده منها ما عليها وأكل فتطاير الحلي والحلل عن جسده فوضع آدم يده على أمّ رأسه وبكى فلما تاب الله عليه فرض الله عليه وعلى ذريته تطهير هذه الجوارح الاربع فأمر الله عزّ وجلّ بغسل الوجه لما نظر الى الشجرة وأمره بغسل اليدين الى المرفقين لما تناول بهما وأمر بمسح الرأس لما وضع يده على أمّ رأسه وأمره بمسح القدمين لما مشى بهما الى الخطيئة » .

وفي باب علّة وجوب الصوم ايضا :

عن الحسن بن علي بن ابي طالب عليهما السلام قال :

« جاء نفر من اليهود الى رسول الله ﷺ فسأله أعلمهم عن مسائل ، فكان فيما سأله أن قال له : لايّ شيء فرض الله عز وجل الصوم على أمّتك بالنهار ثلاثين يوما وفرض على الامم السالفة أكثر من ذلك ؟ فقال النبي ﷺ ان آدم لما أكل من الشجرة بقي في بطنه ثلاثين يوما ففرض الله تعالى على ذرّيته ثلاثين يوما الجوع والعطش والذي يأكلونه تفضّل من الله تعالى عليهم » (الحديث) .

فمن هذه الاحاديث لاهل الاشارات واصحاب القلوب استفادات منها ان خطيئة آدم عليه السلام مع أنها ما كانت من قبيل خطايا غيره بل لعلها كانت خطيئة طبيعية أو أنها كانت خطيئة التوجّه الى الكثرة التي هي شجرة الطبيعة أو كانت خطيئة التوجّه الى الكثرة الاسمائية ، بعد جاذبة الفناء الذاتي ولكنها ما كانت متوقعة من مثل آدم عليه السلام الذي كان صفيّ الله والمخصوص بالقرب والفناء الذاتي ولهذا أعلن الذات المقدسة وأذاع بمقتضى الغيرة الحبية عصيانه وغوايته في جميع العوالم وعلى لسان الانبياء عليهم السلام ، وقال تعالى : « وعصى آدم ربّه فغوى »[1] . ومع ذلك لا بد من التطهير والتنبيه بهذه المثابة له ولذرّيته التي كانت مستكنة في صلبه ومشتركة في خطيئته بل اشتركوا في الخطيئة بعد الخروج من صلبه أيضا فكما أن لخطيئة آدم وأبنائه مراتب ومظاهر فأول مرتبتها التوجه الى الكثرات الاسمائية وآخر مظهرها الاكل من الشجرة المنهية التي صورتها الملكوتية شجرة فيها أنواع الثمار والفواكه وصورتها الملكية هي الطبيعة وشؤونها ، وان حب الدنيا والنفس اللذين هما موجودان باستمرار في الذرية لمن شؤون هذا

الميل الى الشجرة والاكل منها كذلك لتطهيرهم وتنزيههم وطهارتهم وصلاتهم وصيامهم للخروج من خطيئة الاب الذي كان هو الاصل ايضا مراتب كثيرة مطابقة لمراتب الخطيئة .

وقد علم من هذا البيان ان جميع أنواع المعاصي القالبية لابن آدم هي من شؤون أكل الشجرة ، وتطهيرها على نحو خاص : وان جميع أنواع المعاصي القلبية لهم ايضا من شؤون تلك الشجرة وتطهيرها بطور آخر . وان جميع أنواع المعاصي الروحية من تلك وتطهيرها بطور خاص وان تطهير الاعضاء الظاهرية هو ظلّ الطهارات القلبية والروحية للكمّل ووظيفة ووسيلة لتطهير القلب والروح لاهل السلوك . وما دام الانسان في حجاب تعيّن الاعضاء وطهارتها وواقف في ذلك الحد فليس هو من أهل السلوك ، وهو باق في الخطيئة ، فاذا اشتغل بمراتب الطهارات الظاهرية والباطنية وجعل الطهارات الصورية القشرية وسيلة للطهارات المعنوية اللبية ولاحظ في جميع العبادات والمناسك حظوظها القلبية وتمتع منها بل اهتم بالجهات الباطنية أكثر من الظاهرية وعرف أنها هي المقصد الاعلى دخل في باب سلوك الانسانية كما أشار اليه في الحديث الشريف في مصباح الشريعة حيث يقول فيه : « وطهّر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء » فيلزم للانسان السالك السلوك العلمي كي يشخص ببركة أهل الذكر عليهم السلام مراتب العبادات ويرى العبادات الصورية مرتبة نازلة للعبادات القلبية والروحية ثم يشرع في السلوك العملي الذي هو حقيقة السلوك ، وغاية هذا السلوك هي تخلية النفس عن غير الحق وتحليتها بالتجليات الاسمائية والصفاتية والذاتية ، فاذا حصل للسالك هذا المقام

فحينئذ ينتهي سلوكه وتحصل له الغاية في السير الكمالي فينال اسرار النسك والعبادات ولطائف السلوك وهي التجليات الجلالية التي هي اسرار الطهارات والتجليات الجمالية التي هي غايات العبادات الاخر ، وتفصيلها خارج عن مجال هذه الاوراق .

المراجع والحواشي

١ ــ هو الامام الثامن من أئمة الهدى بضعة سيد الورى مولاي علي بن موسى الرضا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين المعصومين ، ولد عليه السلام حادي عشر ذي القعدة يوم الخميس أو يوم الجمعة بالمدينة سنة ١٤٨ ثمان وأربعين ومئة بعد وفاة جدّه الصادق عليه السلام بأيّام قليلة ومكارم أخلاقه ومعالي أموره أكثر من أن تحصى وتذكر فعن ابراهيم بن العباس قال : ما رأيت أبا الحسن الرضا عليه السلام جفا أحدا بكلامه قطّ ولا اتّكى بين يدي جليس له قطّ ولا رأيته شتم أحدا من مواليه ومماليكه قطّ ولا رأيته تفل قط ولا رأيته يقهقه في ضحكه قط بل كان ضحكه التبسّم وكان اذا خلا ونصبت مائدته أجلس معه على مائدته مماليكه حتى البواب والسايس ، وكان عليه السلام قليل النوم بالليل كثير السهر يحيي أكثر لياليه من أولها الى الصبح وكان كثير الصيام فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر ويقول ذلك صوم الدهر . وكان عليه السلام كثير المعروف والصدقة في السرّ وأكثر ذلك يكون منه في الليالي المظلمة فمن زعم أنه رأى مثله في فضله فلا تصدقوه (انتهى) .

وقبض أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام في آخر صفر كما اختاره ابن الاثير والطبرسي والسيد الشبلنجي من سنة ٢٠٣ (رج) ثلاثة ومئتين وهو ابن خمس وخمسين سنة وتوفي بطوس في قرية يقال لها سناباد من نوقان على دعوة ودفن بها صلوات الله عليه . وكتب المأمون الى أهل بغداد وبني العباس والموالي يعلمهم بموته عليه السلام وانّهم انّما نقموا ببيعته وقد مات وسألهم الدخول في طاعته فكتبوا اليه أغلظ جواب .

وقال الصدوق : ولعلي بن أبي عبد الله الخوافي يرثي الرضا عليه السلام :

يا أرض طوس سقاك الله رحمته	ماذا حويت من الخيرات ياطوس
طابت بقاعك في الدنيا وطاب بها	شخص ثوى بسناآباد مرموس
شخص عزيز على الاسلام مصرعه	في رحمة الله مغمور ومغموس
ياقبره أنت قبر قد تضمّنه	حلم وعلم وتطهير وتقديس
فخرا بانك مغبوط بجثّته	وبالملائكة الابرار محروس

٢ ــ النُكتةُ : المسألة العلمية الدقيقة ، **يُتَوَصَلُ اليها بدقة ، وانعام فكر (المعجم الوسيط) (الناشر)**

٣ ــ أقول : اعلم ان النجاسة التي يجب ازالتها للصلاة على أنواع منها ما هو على اللباس وظاهر البدن ، وهذه النجاسة تغسل بالماء المطلق ، وتحصل الطهارة من الخبث التي هي من شروط الصلاة ، ونظير هذه النجاسة في عالم الباطن والمعنى التلوّث بقذارة المعاصي الصغيرة التي تصدر من المؤمن ، وحيث أن مرتبة النجاسة فيها ضعيفة فتطهّر بالالام الدنيوية وتوجب رفعها الابتلاءات في عالم الطبيعة . قال تعالى : « ان تجتنوا كبائر ما تُنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم » (النساء٣١) ومنها ما يسري ويجري الى باطن الجسد وهو ايضا على قسمين :

القسم الاول : ما يسري في جميع الجسد وهو ما يسمى بالحدث الاكبر والتطهير من هذه النجاسة والخباثة يحتاج الى غسل جميع البدن بنيّة القربى الى الله تعالى والتعبّد له حتى يكون بواسطة اقتران الغسل بقصد القربة وانتسابه الى حضرة الباري جلّ شأنه ، تأثير الماء في رفع النجاسة أقوى وأنفذ وان كان على حساب المقدار والوزن قليلا فيكون مثله مثل الاكسير الذي يؤثر قيراط منه في قنطار من النحاس فيصير ذهبا خالصا ، ومن المعاصي ما هو بمنزلة الحدث الاكبر في الروح وهي المعاصي التي رسخت جذورها في القلب

وصارت منشأ للملكات الخبيثة والرذائل النفسانية من الكبر والحسد والشرك ونحوها وتسمّى بالموبقات وقد أوعد الله سبحانه صاحبها النار وآثار تلك المعاصي لا تزول عن القلب بسهولة بل لا بدّ من التوبة الحقيقية بشرائطها والا فآخر الدواء الكيّ ، أعاذنا الله منه .

والقسم الثاني : النجاسة التي تسري الى الباطن ولكن بمرتبة ضعيفة من السراية بحيث لا تصل الى جميع البدن ويكفي في تطهيرها غسل بعض الاجزاء توأما بقصد القربة والعبودية كما ذكرنا في الغسل وتسمّى بالحدث الاصغر ، ونموذج هذه النجاسة في عالم الروح بعض المعاصي الكبيرة التي ليس لها جذر نفساني وكبعض المعاصي الذي قد يتفق للانسان وخصوصا في عهد الشباب ولكن حيث العصيان أمر عارضي وليس ناشئا عن ملكة التعصي لقرب العهد من الفطرة فهو أقرب الى رحمة الله والتوبة منه أسهل . وقد أشير الى ذلك في الروايات . منها ما رواه الصدوق قدس سره في الامالي عن الصادق عليه السلام أنه قال : « ان العبد لفي فسحة من أمره ما بينه وبين أربعين سنة فاذا بلغ أربعين سنة أوحى الله عزّ وجلّ الى ملكيه انّي قد عمّرت عبدي عمرا فغلّظا عليه وشدّدا وتحفّظا واكتبا عليه قليل عمله وكثيره وصغيره وكبيره . »

فاذا لم يتمكن المصلي من الماء لتطهيره فقد جعل الله سبحانه التراب احد الطهورين لان التراب أذلّ الاشياء على وجه الارض يطؤه الناس بأقدامهم فلا بدّ للعبد أن يتّصف بصفته في جناب الحق فيمسح جبينه ويسمه بسمة الذّلة والافتقار والعبودية ، ويرمز بهذا أيضا الى أن ناصية الخلق بيد قدرته يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، كما قال سبحانه : « ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » (هود٥٦) . فلعله باظهاره الخضوع والمسكنة يجلب رحمة الله يوم يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام ثم يمسح يديه بالتراب وهما مظهر قدرته فيذلّله في حضرة القادر المطلق ويقف بعد ذلك في صف الحاضرين في المحضر .

وقال فقيه الفرقة الناجية الشهيد الثاني (قدّس سره) :

فأمّا الطهارة ، فليستحضر في قلبه ان تكليفه فيه بغسل الاطراف الظاهرة وتنظيفها لاطّلاع الناس عليها ولكون تلك الاعضاء مباشرة للامور الدنيوية منهمكة في الكدورات الدنيّة فلان يطهّر مع ذلك قلبه الذي هو موضع نظر الحق تعالى فانه لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم .. ولانه الرئيس الاعظم لهذه الجوارح والمستخدم لها في تلك الامور المبعّدة عن جنابه تعالى وتقدّس أولى وأحرى ، بل هذا تنبيه واضح على ذلك وبيان شاف على ما هنالك ، وليعلم من تطهير تلك الاعضاء عند الاشتغال بعبادة الله تعالى والاقبال عليه والالتفات عن الدنيا بالقلب والحواس لتلقي السعادة في الاخرى ، ان الدنيا والاخرة ضرّتان كلما قربت من إحداهما بعدت عن الاخرى ، فلذلك أمر بالتطهير من الدنيا عند الاشتغال والاقبال على الاخرى .

فأمر في الوضوء بغسل الوجه لان التوجّه والاقبال بوجه القلب على الله تعالى به وفيه أكثر الحواس الظاهرة التي هي أعظم الاسباب الباعثة على مطالب الدنيا فأمر بغسله ليتوجّه به وهو خال من تلك الادناس ويترقى بذلك الى تطهيرها ما هو الركن الاعظم في القياس ثم أمر بغسل اليدين لمباشرتهما أكثر أحوال الدنيا الدنيّة والمشتهيات الطبيعية ثم بمسح الرأس لان فيه القوة المفكرة التي يحصل بواسطتها القصد الى تناول المرادات الطبيعية وتنبعث الحواس الى الاقبال على الامور الدنيوية المانع من الاقبال على الاخرة السنية ، ثم يمسح الرجلين لان بهما يتوصّل الى مطالبه ويتوصّل الى تحصيل مآربه على نحو ما ذكر في باقي الاعضاء ، فيسوغ له الدخول في العبادة والاقبال عليها فائزا بالسعادة ، وأمر في الغسل بغسل جميع البشرة لان أدنى حالات الانسان وأشدّها تعلّقا بالملكات الشهوية حالة الجماع وموجبات الغسل والجميع بدنه مدخل في تلك الحالة ولهذا قال صلى الله عليه وآله : « ان تحت كل شعرة جنابة » .. فحيث كان جميع بدنه بعيدا عن المرتبة العليّة منغمسا في اللذات الدنيّة كان غسله أجمع

من أهم المطالب الشرعية ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة والدخول في العبادة المنيفة ويبعد عن القوى الحيوانية واللذات الدنيوية . ولما كان للقلب من ذلك الحظ الاوفر والنصيب الاكمل كان الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير تلك الاعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل . وأمر في التيمّم بمسح تلك الاعضاء بالتراب عند تعذر غسلها بالماء الطهور وضعا لتلك الاعضاء الرئيسية وهضما لها بتلقيها بأثر التربة الخسيسة ، وهكذا يخطر أن القلب اذا لم يمكن تطهيره من الاخلاق والرذيلة وتحليته بالاوصاف الجميلة فليقمه في مقام الهضم ويسقه بسياط الذلّ والاغضاء عسى أن يطّلع عليه مولاه الرحيم وسيده الكريم وهو منكسر متواضع فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع فانه عند القلوب المنكسرة كما ورد في الاثر فترقّ من هذه الاشارات ونحوها الى ما يوجب لك الاقبال أو تلافي سالف الاهمال .

٤ ــ يجب على السالك الطالب ان يراعي آداب الوضوء كما قال الصادق عليه السلام : « وات بآدابها في فرائضه وسننه » ليستعد للحضور ويستفيد من عيون فوائده كما وعدها الامام الصادق عليه السلام فالادب الاول أن يتوجّه الى القبلة ومركز العبادة ونقطة التوحيد التي هي من عمدة الشرائط الصلاتية ليستفيد من فوائد الاستقبال التي سنذكرها في محلّها ، وقد اشير الى هذا الادب في الرواية : « وان من توضأ حيال القبلة كان له ثواب صلاة ركعتين » وينبغي أن يكون وقوفه الوقوف في مقام الحمد حيث أذن له ربّ العزّة والسلطان بالحضور وهو الان في مقام تحصيل مقدمات التشرف لينال هذا الشرف فيأخذ غرفة من الماء ويغسل يديه من المرفقين وليتفطّن أنّه كما يغسل بالماء الظاهر الذي هو سبب حياة لكل حي ظاهره كذلك يغسل باطنه بالعلم وهو الموجب لحياة القلوب والارواح فينوّر به قلبه وروحه ، فأخذه الماء صورة تناول الرحمة الالهية ليطهر بها من كل عيب ونقص ويغسل يديه من العيوب ومن حوله وقوته أشواك طريق السلوك ولعل غسل اليد اليسرى يرمز الى

أنه لا حول عن المعاصي الا بالله ، واليد اليمنى الى أنه لا قوة على الطاعات الا بالله .

وأيضا أن اليد مظهر الامساك والقبض وبواسطة الحرص والبخل تمسك عن البسط في الخيرات ، قال تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » (المائدة٦٤) . فليتنبه بأن قبض اليد الظاهرية مانع عن اغتراف الماء النازل من سماء الدنيا كذلك قبض اليد المعنوية مانع عن تناول ماء الرحمة النازل من سماء العلم والحكمة وبصبّ الماء باليمنى على اليسرى يتنبّه انه لابد له من بسط اليد في البذل والاعطاء والايثار في سبيل رضى المحبوب ، ولا يمسك يده ، قال تعالى : « لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبّون » (آل عمران٩٢) .

وأيضا يرمز بغسل اليد الى غسل يده عمّا نهى عنه الشارع وبالخصوص المنهيات التي تتحقق باليد كالسرقة والتعدّي والغصب وأمثالها .

ويتفطن أيضا الى أنه كما أن النوم في الليل أو النهار حدث يوجب هذا الوضوء الذي هو بصدده كذلك الغفلة عن مقام الغيب والشهود حدث لابد لك من رفعه فبغسل يديه مستمدا من مقام الرحمانية والرحيمية للحق تعالى شأنه يرفع ذاك الحدث . وقد ورد في الحديث « لا وضوء لمن لا يسمّ الله » فيغسل يديه قائلا بسم الله الرحمن الرحيم ثم يقول : « الحمد لله الذي جعل الماء طهورا ولم يجعله نجسا » وهذا اشارة الى مقام الحمد الذي ذكرناه ، ثم يتنبه الى الجهات التي ذكرها الاستاذ في الطهارة ويقول : « اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين » ويجدّد التوبة على حسب المرتبة التي هو فيها ويسأل التوبة من الله ثم يتمضمض ويجري ذكره الجميل على اللسان بقوله : « اللهم لقّني حجّتي يوم ألقاك وأطلق لساني بذكرك » ومعنى تلك المضمضة التي يطّهر بها فمه من فضول الطعام أنه يطهر فمه ولسانه من الذكر القبيح ومن فضول الكلام (وفضول الكلام يميت القلب) وممّا يجري على لسانه

ويخرج من فمه ممّا يمقته الله ويدخله النار كما قال صلى الله عليه وآله : « وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار الا حصائد ألسنتهم » . فيزينه بذكر الله وتلاوة القرآن .

ثم يستنشق ، وحقيقته اخراج الكبر والتعالى من دماغه كما يخرج بالاستنشاق فضولات الدماغ من طريق أنفه وينقي مجراه ويستعد لشم الروائح العطرة المعنوية التي تهب من حي الحبيب ووجدان نفس الرحمن من جانب اليمن والوادي الايمن ، ويقول بلسانه رمزا لذلك المعنى :

« اللهم لا تحرمني ريح الجنّة واجعلني ممن يشمّ ريحها وروحها وطيّبها » ثم يغسل وجهه ويتوجّه الى أنّ ذلك يرمز الى بياض الوجه وتحصيل ماء الوجه عند الله سبحانه فيتذكّر قصوره وتقصيره وخجلته وسواد وجهه ويستجير بالله من أن يلقى الله سبحانه بهذه الحالة كما يحكيها الله سبحانه :

« ويوم القيامة . ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة » (الزمر ٦٠) .. وقال تعالى : « وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة » (عبس ٤٠ ــ ٤١) . وليستحي من الله سبحانه لما رآه حيث نهاه ولما توجّه الى غير مولاه . ونعم ما قيل :

قالوا غدا نأتي ديار الحمى ونـنـزل الـركب بمغناهم
فكـلّ من كان محبّا لهم يصبح مسرورا بلقياهم
قلت فلي ذنب ومـا حيلتي بأيّ وجـه أتلقّاهم
قالوا أليس العفـو من شأنهم لاسيما عمّن ترجّاهم

وقد ورد في الحديث أنه يقول عند غسل وجهه « اللهم بيّض وجهي يوم تسودّ الوجوه ولا تسوّد وجهي يوم تبيضّ الوجوه » .

ويتذكر عندما يغسل اليدين ان باطنه غسل الايدي من مرافق رؤية الاسباب التي هي أيادي صنع المعبود الى منتهى أنامل المباشرة والاكتساب .

وايضا هو غسل اليد عن الخلق وتفويض الامر الى الله والاستعداد للتمسك بذيل المحبوب وقرع بابه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في حق عباد الله وأصحاب الذكر « لكل باب رغبة الى الله منهم يد قارعة » .

ويتذكر أيضا موقف القيامة وتطاير الكتب وأحوال الناس في ذاك الوقت كما قال تعالى : « فأمّا من أوتي كتابه بيمينه » (**الحاقة٢٥**) « وأمّا من أوتي كتابه بشماله » (**الحاقة٢٥**) .. فيقول عند غسله اليمنى « اللهم اعطني كتابي بيميني والخلد في الجنان بيساري وحاسبني حسابا يسيرا » .

ويقول أيضا عند غسله اليسرى : « اللهم لا تعطني كتابي بشمالي ولا من وراء ظهري ولا تجعلها مغلولة الى عنقي وأعوذ بك من مقطّعات النيران » ويمسح رأسه من الخضوع لغير الله ومن الكبرياء العارضة له اذ عدّ نفسه شيئا ومن التشمخ الذي عرض له من النظر الى نفسه ويتذكر عند مسح رأسه خطيئة أبيه آدم وميله الى الشجرة المنهية ووضعه يد الذّلة والافتقار على أمّ رأسه كما في الرواية يجيء شرحها وينادي ربه كما نادى أبوه ربّنا ظلمنا أنفسنا ليشمله غفران الرب الرحيم من قرنه الى قدمه ، ويتحقق معنى الدعاء الوارد عند مسح الرأس من قوله : « اللهم غشّني برحمتك وبركاتك وعفوك ومغفرتك » .

ويمسح رجليه من المشي الى دار الغربة وأرض المذّلة ، ويطهّرها أيضا عن المشي بالكبر . قال تعالى : « ولا تمش في الارض مرحا » (**الاسراء٣٧**) ويمشي بقدم العبودية والهوان ليصدق عبوديته للرب الرحمن .. قال تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا» (**الفرقان ٦٣**) ويلزم تصميماً على الثبات في طريق الجهاد وميدان الجهاد الاصغر والاكبر والمشي على الصراط المستقيم . ويقول بلسان قاله « اللهم ثبّت قدمي على الصراط يوم تزلّ فيه الاقدام واجعل سعيي فيما يرضيك عني » .

وبالجملة ، فانه يراعى حالة الخضوع والحضور في جميع حالات الوضوء فانه من العبادات ، والعبادة بلا حضور كجسم بلا روح .

ونتبرك في ختام هذا البحث بذكر رواية شريفة حاوية لاسرار عظيمة وهي ما رواه العارف السعيد القاضي سعيد القمّي بعد كلام له قال في كتاب المعراج للشيخ أبي محمد الحسن رضي الله عنه في حديث طويل ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ثم قال لي ربي يا محمد مدّ يديك فيتلقاك ما يسيل من ساق العرش الايمن فنزل الماء فتلقيته باليمين ثم قال : يا محمد خذ ذاك الماء فاغسل به وجهك وعلة غسل الوجه انك تريد أن تنظر الى عظمتي وأنت طاهر ثم اغسل ذراعيك اليمين واليسار وعلة ذلك انك تريد أن تتلقى بيديك كلامي وامسح رأسك بفضل ما بيديك من الماء ورجليك الى كعبيك وعلة المسح أني أريد أن أوطئك موطئا لم يطأه أحد قبلك ولا يطؤه أحد غيرك » .

٥ ــ (طه ــ ٢) .

الفصل السادس

في الغسل وآدابه القلبية

يقول أهل المعرفة ان الجنابة هي الخروج عن وطن العبودية والدخول في الغربة واظهار الربوبية ودعوى المنيّة والدخول في حدود المولى والاتصاف بوصف السيادة والغسل للتطهير من هذه القذارات والاعتراف بالتقصير . وقد ذكر بعض المشايخ في ضمن عشرة فصول ، مئة وخمسين حالا لابد للعبد السالك التطهير منها في خلال الغسل يرجع أغلبها أو كلها الى العزّة والجبروت وكبرياء النفس وحب النفس ورؤيتها .

يقول كاتب هذه الاوراق : الجنابة هي الفناء في الطبيعة والغفلة عن الروحانية والغاية القصوى لكمال السلطنة الحيوانية والبهيمية ، والدخول في أسفل السافلين والغسل هو التطهير من هذه الخطيئة والرجوع عن حكم الطبيعة والدخول في سلطان الرحمانية والتصرف الالهي بغسل جميع مملكة النفس التي فنيت في الطبيعة وابتليت بغرور الشيطان .

فالآداب القلبية للغسل هي ألاّ يتوقف السالك في حين غسله بتطهير الظاهر وغسل البدن الذي هو القشر الادنى والحظ الدنيوي ، وتكون جنابة باطن القلب وسرّ الروح موردا لعنايته ، ويكون غسله أهم في نظره

فيتجنب عن غلبة النفس البهيمية والشأن الحيواني على النفس الرحمانية والشؤون الرحمانية ويتوب عن رجز الشيطان وغروره ويطهر باطن الروح الذي هو نفخة إلهية وقد نفخ فيه بالنفس الرحماني عن الحظوظ الشيطانية وهي التوجّه الى الغير الذي هو أصل الشجرة المنهية حتى يليق بهذا التطهير للدخول على جنة أبيه آدم عليه السلام .

وليعلم أن الاكل من هذه الشجرة شجرة الطبيعة والاقبال على الدنيا والتوجّه الى الكثرة هو أصل أصول الجنابة ، وما دام لم يطهر من هذه الجنابة بانغماسه في ماء الرحمة للحق تعالى او تطهيره التام بذاك الماء الذي يجري عن ساق العرش الرحماني والخالص عن التصرف الشيطاني لا يليق للصلاة التي هي حقيقة معراج القرب فانه لا صلاة الا بطهور ، وقد أشار الى ما ذكر في الحديث الشريف في الوسائل عن الشيخ الصدوق رضوان الله عليه قال :

وبإسناده قال : « جاء نفر من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله أعلمهم عن مسائل ، وكان فيما سأله ان قال : لايّ شيء أمر الله تعالى بالاغتسال من الجنابة ولم يأمر بالغسل من الغائط والبول ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله ان آدم لما أكل من الشجرة دبّ ذلك في عروقه وشعره وبشره فاذا جامع الرجل أهله خرج الماء من كل عرق وشعرة في جسده ، فأوجب الله عز وجلّ على ذريّته الاغتسال من الجنابة الى يوم القيامة » . الخبر .

وفي رواية اخرى عن الرضا عليه السلام : « إنما أمروا بالغسل من الجنابة ولم يؤمروا بالغسل من الخلاء وهو أنجس من الجنابة وأقذر من أجل أن الجنابة من نفس الانسان وهو شيء يخرج من جميع جسده ، والخلاء ليس

هو من نفس الانسان وانما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب » .

وظاهر هذه الاحاديث وان كان عند أهل الظاهر هو أن النطفة لما كانت تخرج من جميع البدن فوجب غسل جميعه . وهذا مطابق لرأي جمع من الاطباء والحكماء الطبيعيين ولكن تعليله عليه السلام بأكل الشجرة كما في الحديث الاول ونسبة الجنابة الى النفس كما في الحديث الثاني يفتح طريقا الى المعارف لاهل المعرفة والاشارة لان قضية الشجرة وأكل آدم منها من أسرار علوم القرآن وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام ، وكثير من المعارف مرموز فيها ، ولذا جعلوا عليهم السلام في الاحاديث الشريفة قضية آدم ، والاكل من الشجرة علّة لتشريع كثير من العبادات ومن جملتها باب الوضوء والصلاة والغسل وصوم شهر رمضان وكونه ثلاثين يوما وكثير من مناسك الحج ، وفي نيّتي منذ سنين أن أفرد رسالة في هذا الباب ولكن الاشتغالات الاخر منعتني عن ذلك ، وأسأل الله تعالى التوفيق والسعادة لذلك .

وبالجملة ، فأنت ياابن آدم وقد جعلت بذرا للّقاء وخلقت للمعرفة واصطفاك الله تعالى لنفسه وخمّرك بيدي جماله وجلاله وجعلك مسجودا للملائكة ومحسودا لابليس اذا أردت أن تخرج عن جنابة أبيك الذي هو أصلك وتليق للقاء حضرة المحبوب وتحصل استعدادا للوصول الى مقام الانس وحضرة القدس فلا بد لك من أن تغسل باطن قلبك الذي هو محفل لجناب الجميل وجمال الجليل عن حب الدنيا وشؤونها الخبيثة التي هي رجز الشيطان فان جنة لقاء الحق تعالى محل الاطهار ولا يدخل الجنة الا الطيب .

* شست وشويي كن وآنكه بخرابات خرام *(1) .

المراجع والحواشي

١ ــ مصراع من بيت للشاعر العارف الحافظ الشيرازي يقول :

تنظف عن القذارات ثم آقصد الخرابات . والخرابات في الادب الفارسي محل اجتماع السكارى وفي الادب العرفاني يعبّر به عن مجتمع المجذوبين والمصعوقين من تجليات الجلال والجمال .

الفصل السابع

في نبذة من الآداب الباطنية لازالة النجاسة والتطهير من الخبائث

فاعلم أن إزالة الحدث كما مرّ هي في الخروج من الإنّيّة والأنانيّة والفناء عن النفس بل هي الخروج من بيت النفس بالكلية ، وما دام في العبد بقايا من نفسه فهو محدث للحدث الاكبر والعابد والمعبود فيه هو الشيطان والنفس . وان منازل سير أهل الطريقة والسلوك اذا كانت لاجل الوصول الى المقامات وحصول المعارج والمدارج فليست خارجة عن تصرف النفس والشيطان وانما السير والسلوك معللة ، فالسلوك اذن في منازل النفس والسير في جوف البيت ومثل هذا السالك ليس بمسافر ولا سالك وليس مهاجرا الى الله ورسوله ، وما طهّر من الحدث الاكبر الذي هو عينيّة العبد فاذا تطهّر من هذا الحدث بالكلية يكون العابد والمعبود هو الحق تعالى ويحصل نتيجة قرب النافلة اي : كنت سمعه وبصره .. فمن هذه الجهة يلزم غسل جميع البدن في الطهارة من الحدث الاكبر لانه ما دامت عينيّة العبد باقية بوجه من الوجوه لم يرتفع الحدث فان تحت كل شعرة جنابة فالتطهير من الحدث هو التطهير من الحدوث ، ثم الفناء في بحر القدم وكما له الخروج من الكثرة الاسمائية التي هي باطن الشجرة ويخرج بهذا الخروج من الخطيئة

السارية لادم أصل الذرية ، فالحدث هو من القذارات المعنوية وتطهيره ايضا من الامور الغيبية الباطنية وهو نور لكن الوضوء نور محدود والغسل نور مطلق ، وأيّ وضوء أنقى من الغسل[1] وأما هذه المكانـة فلـيست لازالـة الخبث والنجاسات الظاهرية لانها تنظيف صوري وتطهير ظاهري والاداب القلبية لها هي أن يعلم السالك الذي يريد الحضور في محضر الحق انه لا يمكن التطرق الى محضر الحق مع رجس الشيطان ورجس هذا الخبيث . وما لم يحصل الخروج من أمهات المذام الاخلاقية التي هي مبدأ لفساد المدينة الفاضلة الانسانية ومنشأ للخطيئات الظاهرية والباطنية لم يجد السالك طريقا الى المقصد ولا سبيلا الى المقصود .

ان الشيطان الذي كان مجاورا للعالم القدس ويعد في سلك الكروبيين فانه آخر الامر بواسطة الملكات الخبيثة أبعد عن جناب مقام المقربين وأرجم بنداء فأخرج منها فإنك رجيم[2] فاذاً نحن المتأخرين عن قافلة عالم الغيب والساقطين في بئر الطبيعة العميق والمردودين الى أسفل السافلين كيف نقدر مع وجداننا الملكات الخبيثة الشيطانية أن نليق لمحضر القدس ونكون مجاورين للروحانيين ورفقاء للمقربين .

ان الشيطان رأى نفسه ورأى ناريته وقال انا خير منه ، وهذا الاعجاب بالنفس صار سببا لعبادة نفسه وتكبره وتحقير آدم وإهانته وقال خلقته من طين ، وقاس قياسا باطلا ولم ير حسن آدم وكمال روحانيته بل رأى ظاهره ومقام طينته وترابيته ورأى من نفسه مقام ناريته وغفل عن الشرك وحب النفس ورؤيتها ، فصار حب النفس حجابا لرؤية نقصه وشهود عيوبه وصارت هذه الرؤية للنفس والحب لها سببا للتعبد لنفسه والتكبر والتظاهر والرياء والاستقلال في الرأي والعصيان وأبعد عن معراج القدس إلى تيه

الطبيعة المظلمة . فاللازم للسالك الى الله أن يطهّر نفسه من أمهات الرذائل والارجاس الباطنية الشيطانية عند تطهيره الارجاس الصورية وان يغسل المدينة الفاضلة بماء رحمة الحق وارتياض شرعي ويصفّي قلبه الذي هو محلّ لتجلّي الحق ويخلع نعلي حبّ الجاه والشرف كي يليق للدخول في الوادي المقدس الايمن ويكون قابلا لتجلي الرب ، وما دام لم يحصل التطهير من الارجاس الخبيثة لا يمكن له التطهير من الاحداث لان تطهير الظاهر مقدمة لتطهير الباطن ، وما لم تحصل التقوى التامة الملكية الدنيوية على وفق دستور الشريعة المطهّرة لم تحصل التقوى القلبية ، وما لم تحصل التقوى القلبية من الامور التي ذكرناها لم تحصل التقوى الروحية السرية الحقيقية . وجميع مراتب التقوى مقدمة لهذه المرتبة وهي ترك غير الحق ، وما دام في السالك بقية باقية من الانانية فلن يتجلّى الحق عن سرّه .

نعم ربما يكون بمقتضى سبق الرحمة وغلبة جهة يلي اللّهى يدرك السالك الامداد الغيبي ويحترق بالجذوة الالهية ما بقي من الانانية ان كانت ، ولعل في كيفية تجلي الحق للجبل واندكاكه وصعق موسى اشارة لما ذكر ، وهذا الفرق ايضاً موجود بين السالك المجذوب والمجذوب السالك .

وقد يتفطّن أهل الحقيقة مما ذكر الى نكتة قابلة لان تعلم ومطلب مهم والجهل به منشأ لكثير من الضلالات والغوايات والتأخر عن سلوك طريق الحق ولا ينبغي لطالب حق الجهل به ولا يجوز له الغفلة عنه ، وهو أن السالك وطالب الحق لابد أن يبرىء نفسه من الافراط والتفريط اللذين يكونان في بعض جهلة أهل التصوّف وبعض غفلة أهل الظاهر حتى يمكن السير الى الله لان بعضهم يعتقد أن العلم والعمل الظاهري القالبي حشو وهما للجهّال والعوام ، وأما الذين هم أهل السر والحقيقة وأصحاب القلوب

وأرباب السابقة الحسنى فلا يحتاجون الى هذه الاعمال ، وان الاعمال القالبية لاجل حصول الحقائق القلبية والوصول الى المقصد فاذا وصل السالك الى المقصد فالاشتغال بالمقدمات تبعيد له والاشتغال بالكثرات حجاب له . والطائفة الثانية قامت في قبال هذه الطائفة فوقعوا في جانب التفريط وأنكروا جميع المقامات المعنوية والاسرار الالهية وسوى محض الظاهر والصورة والقشر أنكروا سائر الامور ونسبوها الى التخيلات والاوهام ولا زال التنازع والمجادلة والمخاصمة بين الطائفتين ، كل يرى الاخر على خلاف الشريعة والحق أن كلتا الطائفتين قد تجاوز عن الحد ووقعوا في الافراط والتفريط ، ونحن أشرنا في رسالة سرّ الصلاة الى هذا الموضوع ، وفي هذا المقام أيضا نُرى حدّ الاعتدال الذي هو الصراط المستقيم[3] فليعلم ان المناسك الصورية والعبادات القالبية ليست لحصول الملكات الكاملة الروحانية والحقائق القلبية فقط بل هي احدى ثمراتها لكن عند أهل المعرفة وأصحاب القلوب جميع العبادات هي اسراء المعارف الالهية من الباطن الى الظاهر ومن السرّ الى العلن ، وكما أن نعمة الرحمة الرحمانية بل الرحيمية منبسطة الى جميع النشآت القلبية والقالبية للانسان ولكل من المراتب حظ من النعم الجامعة الالهية ولكل منها حظ ونصيب من ثناء الحق وشكر النعمة الرحمانية والرحيمية للواجب المطلق وما دام للنفس حظ من النشأة الصورية الدنيوية ولها من حياة الملك نصيب ، لا ينطوي بساط الكثرة بالكلية ولا ترتفع حظوظ الطبيعية . والسالك الى الله كما أنه لا بد ألاّ يكون قلبه مشغولا بغير الحق كذلك لابد الا يكون صدره وخياله وملك الطبيعة مصروفة في غير الحق حتى يكون للتوحيد والتقديس في جميع النشآت قدم راسخ ، واذا كان للجذبة الروحية

في ملك الطبيعة نتيجة غير التعبد والتواضع للحق ففي النفس بقية من الانانية . وسير السالك انما هو في جوف بيت النفس وليس سيره الى الله وغاية سير أهل الله هي أن تكون الطبيعة وملك البدن منصبغة بصبغة الله .

ولعل من المراتب والبواطن للحديث الشريف الذي يحكي عن لسان الحق تعالى شأنه أن الله قال : « وأنا الرحمان خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » فلعلها هي قطع الطبيعة التي هي أم الارواح عن موطنها الاصلي ووصلها هو ارتياضها وارجاعها الى موطن العبودية .

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « استوصوا بعمّتكم النخلة خيرا فانها خلقت من طينة آدم » . وهذا الحديث يشير الى الرحم الذي ذكرناه .

وبالجملة اخراج مملكة الظاهر عن موطن العبودية وارسالها على رسلها من غاية الجهل لمقامات أهل المعرفة ومن تسويلات الشيطان الرجيم فانه يمنع كل طائفة عن الحق تعالى بطريق خاص ، كما أن إنكار المقامات وسدّ طرق المعارف التي هي قرّة عين أولياء الله عليهم السلام وتحديد الشرائع الالهية بالظاهر الذي هو حظ الدنيا وملك النفس ومقام حيوانيتها والغفلة عن الاسرار والاداب الباطنية للعبادات التي توجب تطهير السرّ وتعمير القلب وارتقاء الباطن من غاية الجهالة والغفلة وكل من هاتين الطائفتين بعيد عن طريق السعادة والصراط المستقيم للانسانية ومهجور عن مقامات أهل المعارف . والعارف بالله والعالم بالمقامات لابد له أن يراعي جميع الحقوق الباطنية والظاهرية ويوصل الى كل صاحب حق حقه وحظه ويطهّر نفسه من الغلوّ والتقصير والافراط والتفريط ويزيل عن نفسه قذارة انكار صورة

الشريعة الذي هو في الحقيقة تحديد ويزيل عن نفسه خباثة انكار باطن الشريعة الذي هو تقييد وكلاهما من الوساوس الشيطانية ومن أخباث ذلك اللعين حتى يتيسّر له طريق السير الى الله والوصول الى المقامات المعنوية . فإزالة أخباث الاوهام الفاسدة المانعة من القرب الى الله ومن معراج المؤمنين احدى مراتب ازالة الخبث ، وان من احدى معاني جامعية النبوّة الخاتمية ومقاماتها بل من دلائل الخاتمية أنه في جميع المقامات النفسية قد استوفى جميع حقوقها وحظوطها من جميع شؤون الشريعة ، وكما أنه في معرفة شؤون الربوبية جلّت عظمته عُرّف الحق سبحانه في العلّو الاعلى والدنو الادنى لمقام الجامعيـة وقـال : « هو الاول والآخر والظاهـر والباطـن »[٤] و« الله نور السموات والارض »[٥] الى آخره ، ولو دليتم بحبل من الارضين السفلى لهبطتم على الله « فأينما تولّوا فثمّ وجه الله »[٦] الى غير ذلك مما يحصل به للعارف بالمعارف الالهية والمجذوب بالجذبات الرحمانية طرب ملكوتي ووجد لاهوتي . كذلك فقد أسرى التوحيد العملي القلبي الى آخر مراتب أفق الطبيعة وملك البدن ولم يحرم موجودا من حظ معرفة الله . وبالجملة أهل التصوف يترنّمون بالحكمة العيسوية من حيث لا يشعرون ، وأهل الظاهر يتكلمون بالحكمة الموسوية ، والمحمديون يتبرّؤون من هذين بطريق التقييد ، وتفصيل هذا الاجمال خارج عن مجال هذا المقام ولا ينبغي ذكره في هذه الاوراق .

وصل : عن مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام :

« سمي المستراح مستراحا لاستراحة النفوس من أثقال النجاسات واستفراغ الكثافات والقذر فيها ، والمؤمن يعتبر عندها أن الخالص من حطام الدنيا كذلك يصير عاقبته فيستريح بالعدول عنها وتركها ، ويفرّغ نفسه وقلبه

عن شغلها ويستنكف عن جمعها وأخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر ويتفكر في نفسه المكرمة في حال ، كيف تصير ذليلة في حال ، ويعلم أن التمسّك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين وان الراحة في هوان الدنيا والفراغ من التمتع بها وفي إزالة النجاسة من الحرام والشبهة فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته اياها ، ويفرّ من الذنوب ويفتح باب التواضع والندم والحياء ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه طلبا لحسن المآب وطيب الزلفى ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات الى أن يتصل بأمان الله في دار القرار ويذوق طعم رضاه ، فان المعوّل ذلك وما عداه لا شيء » . (انتهى كلامه الشريف) .

وفي هذا الكلام الشريف حكم (دستور) جامع لاهل المعرفة والسلوك وهو أن الانسان اليقظان السالك الى دار الآخرة لابد أن يستوفي في كل حال من الحالات حظوظه الروحانية ولا يغفل في حال عن ذكر مرجعه ومآله ، ولهذا قالت الحكماء : النبي خادم القضاء كما أن الطبيب خادم البدن . فان الانبياء العظام والاولياء الكرام عليهم السلام حيث أنهم لا يرون الا القضاء الالهي ولا ينظرون سوى الجهة يلي اللهي . والحاكم في قلوبهم هو ملكوت القضاء الالهي فيرون جريان الامور بأيدي ملائكة الله التي هي جنود الله ويجدونها كذلك والطبيب الطبيعي حيث أنه بعيد عن هذه المرحلة ومهجور عن هذا الوادي فينسب جريان الامور الطبيعية الى القوى الطبيعية . الانسان الالهي يرى في كل شيء الحظ الالهي . والعين المشاهدة للحق والبصيرة العارفة بالله تشاهد في كل موجود نور الحق ، كما روي عن أمير المؤمنين والامام جعفر الصادق سلام الله عليهما : « ما رأيت شيئا الا ورأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه » .

موسئي نيست كه دعوى انا الحق شنود

ورنه اين زمزمه درهر شجرى نيست كه نيست[٧]

وبالجملة الانسان السالك في جميع أحواله ومن جميع أموره لا بد ان يستفيد حظوظ سلوكه ، فاذا رأى ان الحطام الدنيوي ولذائذ عالم الملك كلها زائلة ومتغيرة وعاقبة أمرها الى الفساد والأفول فيعرض قلبه عنها بسهولة ويفرغ قلبه عن الاشتغال بها وجمعها ويستنكف عنها كما يستنكف عن القذارات. ان باطن عالم الطبيعة هو القذارة وتعتبر الكثافة والقذارة في الرؤيا التي هي باب من المكاشفة تعبيرا عن الدنيا والمال ، وفي المكاشفة العلوية : « الدنيا جيفة وميتة »[٨] ، فالمؤمن كما يفرغ نفسه عن الاثقال والفضولات الطبيعية ويريح المدينة الطبيعية من أذاها كذلك يريح قلبه من التعلق والاشتغال بها ويرفع عن القلب ثقل حب الدنيا والجاه ويريح ويفرغ المدينة الفاضلة الروحانية منها ، ويتفكر في الاشتغال في الدنيا كيف أذلّ النفس الشريفة بعد ساعات وأحوجها الى أقبح الحالات وأفضحها ، كذلك الاشتغال القلبي بالعالم بعدما يرتفع حجاب الملك والطبيعة وما هو ببعيد يذلّ الانسان ويبتليه بالحساب والعقاب ، ويعلم أن التمسّك بالتقوى والقناعة موجب راحة الدارين ، وأن الراحة في هوان الدنيا ، فلذلك لا يلتذّ ولا يتمتع منها وكما أنه طهّر نفسه من النجاسات الصورية كذلك سيطهّر نفسه من نجاسات المحرّمات والمشتبهات ، واذا عرف نفسه ووجد ذلّة احتياجها فيغلق باب الكبر والتعظيم عن نفسه ويفرّ من العصيان والذنوب ويفتح على نفسه باب التواضع والندامة ويجدّ ويجتهد في اطاعة أوامر الحق ويجتنب عن عصيانه حتى يكون له حسن المآب الى الحق ويتقرب الى مقام القدس بطهارة النفس وصفائها وليسجن هو بنفسه نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن

الشهوات النفسانية كي يأمن من سجن العذاب الالهي ويلحق الى الحق في دار القرار والى كنف ذاته المقدسة فيذوق في تلك الحال طعم رضا الحق تعالى وهذا غاية آمال أهل السلوك وليس لغيره أي قيمة .

الباب الثاني

في نبذة من آداب اللباس

وفيه مقامان

المقام الأول

في آداب مطلق اللباس

في آداب مطلق اللباس

اعلم ان النفس الناطقة الانسانية حقيقة ، هي : ـــ في عين الوحدة وكمال البساطة ـــ ذات نشآت عمدتها كلّيّة ثلاث :

الاولى : النشأة الملكية الدنيوية الظاهرة ومظهرها الحواس الظاهرة والقشر الادنى لها هو الحواس الملكيّة .

الثانية : النشأة البرزخية المتوسطة ومظهرها الحواس الباطنية والبدن البرزخي والقالب المثالي .

الثالثة : النشأة الغيبية الباطنية ومظهرها القلب والشؤون القلبية .

ونسبة كل من هذه المراتب الى الاخرى نسبة الظاهرية والباطنية ، ونسبة التجلي والمتجلي ، ومن هذه الجهة تسري الاثار والخواص والانفعالات من مرتبة الى أخرى ، فمثلا اذا أدركت حاسّة البصر شيئا يقع منه أثر في الحسّ البصري البرزخي مناسب لتلك النشأة ويقع منه أثر في البصر الباطني القلبي يناسب تلك النشأة ، وهكذا الاثار القلبية تظهر في النشأتين الاخيرتين . وهذا المطلب مضافاً الى أنه مطابق للبرهان القوي المتين مطابق للوجدان ايضا ، فمن هذه الجهة يكون لجميع الآداب الصورية

الشرعية في الباطن أثر بل آثار ، ولكل من الاخلاق الجميلة التي هي من حظوظ مقام برزخية النفس أيضا آثار في الظاهر والباطن ولكل من المعارف الالهية والعقائد الحقّة في النشأتين البرزخية والظاهرة آثار .

فمثلا الايمان بأن المتصرف في مملكة الوجود وعوالم الغيب والشهود هو الحق تعالى وليس لسائر الموجودات فيها تصرّف الا التصرّف الادنى الظلّي يوجب كثيرا من الكمالات النفسانية والاخلاق الفاضلة الانسانية مثل التوكل والاعتماد على الحق وقطع الطمع من المخلوق التي هي أمّ الكمالات ، ويوجب كثيرا من الاعمال الصالحة والافعال الحسنة وترك كثير من القبائح ، وهكذا سائر المعارف التي تعدادها وتعداد تأثيراتها خارج عن مجال هذه الاوراق ، والقلم القاصر للكاتب ، ويحتاج الى تحرير كتاب ضخم لمؤلف صاحب قلم قويّ من أهل المعرفة ، أو من نفس حار لاحد أهل الحال (دست ماكوتاه وخرما بر نخيل)[1] وهكذا مثلا خلق الرضا فانه من الاخلاق الكمالية الانسانية وله تأثيرات كثيرة في تصفية النفس وتجلياتها ، ويجعل القلب موردا للتجليات الخاصة الالهية ويوصل الايمان الى كماله ، وكمال الايمان الى الطمأنينة ، والطمأنينة الى كمالها وكمالها الى المشاهدة ، والمشاهدة الى كمالها ، وكمالها الى المعاشقة ، والمعاشقة الى كمالها وكمالها الى المراودة ، والمراودة الى كمالها وكمالها الى المواصلة ، والمواصلة الى كمالها ويرتقي الى ما لا يسعه وهمي ووهمك .

وفي ملك البدن والاثار والافعال الصورية التي هي أغصان وأوراق تلك الشجرة تأثيرات غريبة فيصير السمع والبصر وسائر القوى والاعضاء الهية ويظهر سرّ كنت سمعه وبصره شيئا ما كما أن لتلك المراتب في الظاهر تأثيرا بل تأثيرات وللهيئة الظاهرة وجميع الحركات والسكنات عادية وغير

عادية ولجميع التروك والافعال ايضا فيها تأثيرات عجيبة بحيث ربما يتفق أن السالك يسقط من الاوج الاعلى الى اسفل السافلين بنظرة واحدة تحقيرية الى عبد من عباد الله ولا يستطيع جبران هذا السقوط في السنين المتوالية ، وحيث أن قلوبنا نحن المساكين ضعيفة خفيفة وضئيلة ومثل شجرة الصفصاف(١١) تضطرب بالنسيم الرقيق وتفقد حالة السكون ، فاللازم لنا أن نلاحظ الحالات القلبية حتى في الامور العادية وأحدها ، اتخاذ اللباس ونتحفظ على القلب ، وحيث أن للنفوس والشيطان حبائل مستحكمة وتسويلات دقيقة جدا والاحاطة بها خارجة عن طاقاتنا فلا بد لنا أن نقوم في مقابلها بقدر قوّتنا ونطاق وسعنا ونطلب التوفيق والتأييد من الحق تعالى .

فنقول بعدما اتضح ان للباطن في الظاهر وللظاهر في الباطن تأثيرا لابد للانسان الطالب للحق والارتقاء الروحاني أن يحترز في انتخاب مادة اللباس وهيئته مما يكون له تأثير السوء في الروح ويخرج القلب عن الاستقامة ويغفله عن الحق ويجعل وجهة الروح دنيوية ، ولا يتوهّم ان تسويل الشيطان وتدليس النفس الامّارة انما هو في اللباس الفاخر الجميل فقط وفي التجمّل والتزيّن فحسب بل اللباس الخلق الذي لا قيمة له ربما يسقط الانسان عن درجة الاعتبار ، ومن هذه الجهة لابد للانسان ان يحترز من لباس الشهرة بل من مطلق المشي على خلاف المعمول والمتعارف ، كما أنه لابدّ أن يحترز عن الالبسة الفاخرة التي تكون مادتها وجنسها قيمة وتكون هيئتها وخياطتها جالبة للانظار ومشارا اليها بالبنان لان قلوبنا ضعيفة وغير ثابتة ، فبمجرد الامتياز والتعين يزلّ وينحرف عن الاعتدال فالانسان المسكين الضعيف العاري من جميع مراحل الشرف والانسانية وعزة النفس وكمال الادمية والبرىء منها ربما يتفق أنه بواسطة أذرع من الثوب الابريسم أو من الصوف وقد قلّد

في خياطته الاجانب مع أنه تمكن منه بقيمة هي بيعه شرفه وارتكابه العارات ، ينظر الى عباد الله بنظر الحقارة والكبر ولا يعيّن لموجود قيمة ، وهذا ليس الا من كمال ضعف نفسه وقلّة ظرفيّته حيث يتوهّم ان فضلات القزّ ولباس الغنم موجبة لاعتباره وشرفه .

ايها الانسان المسكين ، ما هذا الضعف ؟ وما هذه المسكنة فيك ؟ فشأنك ان تكون فخرا لعالم الامكان وخلاصة للكون والمكان ، أنت ابن آدم وشأنك أن تكون معلّما للاسماء والصفات ، انت ابن خليفة الله وشأنك أن تكون من الآيات الباهرات (تورا زكنكره عرش ميزنند صفير)[11] . أيها الشقيّ والخلف غير الصالح غصبت مقدارا قليلا من فضلات الحيوانات وملبوساتها وتفتخر بها . لو كان هذا فخرا فهو للقزّ والغنم والابل والسنجاب والارنب . لماذا تفتخر بلباس غيرك وتدلّل بما هو فخر لهم وتتكبّر به ؟ وبالجملة كما أن لمادة اللباس وجنسه وكونه قيّما ومزيّنا تأثيرا في النفوس ، ومن هذه الجهة قال أمير المؤمنين عليه السلام كما رواه القطب الراوندي[12] عليه الرحمة : « من لبس ثوبا عاليا فلا بد من التكبر ولابد للمتكبّر من النار » .

كذلك في هيئته وكيفيّة قصّه وخياطته آثار ربما يحصل للانسان بواسطة أنه شبّه لباسه بالاجانب عصبية جاهلية للاجانب ويتضجّر ويتنفّر من الله ورسوله ويكون أعداء الله وأعداء رسوله محبوبين عنده ولذا ورد في الرواية عن الصادق عليه السلام : « ان الله تبارك وتعالى أوحى الى بعض أوليائه : قل للمؤمنين لا تلبسوا ملابس أعدائي ولا تأكلوا كأعدائي ولا تمشوا كأعدائي فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي » .

فكما أن للالبسة الفاخرة جدا في النفوس تأثيرا ، كذلك للالبسة

الدنية جدا من حيث المادة والجنس ومن حيث الهيئة والشكل في النفوس تأثير ، وربما يكون فساد هذا اللباس أشد بمراتب من تلك الالبسة الفاخرة لان للنفس مكائد دقيقة جدا فبمجرد أن يرى السالك نفسه من النوع الممتاز بأنه لبس اللُباس الخشن والكرباس ولبس سائر الناس الالبسة اللينة اللطيفة ، فبواسطة حب النفس يغفل هو عن عيوبه ويحسب هذا الامر العرضي وغير المربوط به سببا لافتخاره ، وربما يعجب بنفسه ويتكبّر على عباد الله ويحسب سائر الناس مبعدين عن ساحة القدس للحق ويرى نفسه من المقربين ومن خلّص عباد الله وربما يبتلى بالرياء وسائر المفاسد العظيمة ، فالمسكين اقتنع من جميع مراتب المعرفة والتقوى والكمالات النفسانية باللباس الخشن ولبس الخلق وغفل عن الآلاف من عيوبه التي من أعظمها هذا العيب الذي حدث فيه من سوء تأثير هذا اللباس ، وحسب نفسه من أهل الله مع أنه من أولياء الشيطان وحسب عباد الله لا شيء وبلا قيمة .

وكذلك ايضا ربما يكون أن هيئة اللباس وكيفيته يبلي الانسان بمفاسد مثل أن يرتّب اللباس على نحو يشتهر بالزهد والقدس ، وبالجملة لباس الشهرة سواء في جانب الافراط أو في جانب التفريط من الامور التي تزلزل القلوب الضعيفة وتخلعها من مكارم الاخلاق وتوجب العجب والرياء والكبر[١٣] التي كل واحد منها من أمهات الرذائل النفسانية والموجب للركون الى الدنيا . وعلاقة القلب بها الذي هو رأس كل الخطيئات ومنبع جميع القبائح .

وفي الاحاديث أيضا أشير الى كثير من الامور المذكورة كما في الكافي الشريف عن الصادق عليه السلام : « ان الله يبغض شهرة اللباس » .

وعنه أيضا قال : « الشهرة خيرها وشرها في النار » . وعنه عليه السلام : « ان الله يبغض الشهرتين ، شهرة اللباس وشهرة الصلاة » .

وقد روي عن رسول الله ﷺ ما معناه : « من لبس ثياب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثياب الذلّ يوم القيامة » .

المقام الثاني

في نبذة من آداب لباس المصلى

وفيه

فصلان

الفصل الأول

في سر طهارة اللباس

اعلم ان الصلاة هي مقام العروج الى مقام القرب والحضور في محضر الانس ، ويلزم للسالك مراعاة آداب الحضور في محضر القدس لملك الملوك ، وحيث أن أدنى المراتب والمراحل لظهور النفس التي هي قشر القشور والبدن الصوري الملكي الى أعلى المقامات والحقائق التي هي لبّ اللباب ومقام سرّ القلوب كما أنها حاضرة في المحضر المقدس للحق ، فالسالك أيضا لابد أن يستحضر ويُرى جميع الجنود الباطنة والظاهرة لممالك السر والعلن الى محضر الحق جلّ وعلا ويقدم الى محضره المقدس جميع الامانات التي وهبها الله سبحانه بيدي قدرة الجمال والجلال له وكانت تلك الامانات في كمال الطهارة والصفاء ومن دون تصرف أحد من الموجودات ويردّ الامانات اليه كما أعطاه سبحانه إياها . ففي أدب الحضور خطرات كثيرة لا يجوز للسالك أن يغفل عنها لحظة واحدة ولا بد له أن يجعل طهارة اللباس الذي هو ساتر للقشر بل قشر القشر وسيلة لطهارة الالبسة الباطنية وليتفطّن أنه كما أن هذا اللباس الصوري ساتر فهو لباس للبدن الملكي ،

فالبدن ساتر للبدن البرزخي والبدن البرزخي موجود الان ولكنه في ستر البدن الدنيوي وحجابه وهذا البدن ساتر له والبدن البرزخي ساتر ولباس وحجاب للنفس وهي ساترة للقلب والقلب ساتر للروح والروح ساتر السر وهو ساتر اللطيفة الخفية الى غير ذلك من المراتب وكل مرتبة نازلة ساترة للمرتبة العالية ومجموع هذه المراتب وان كان موجودا في خلّص أهل الله وسائر الناس عنها محرومون ، ولكن حيث أن بعض المراتب موجودة في الكل فلهذا نشير اليه فقط .

فليعلم أنه كما لا تتحقق صورة الصلاة بدون طهارة اللباس والبدن وأن القذارات التي هي رجس للشيطان ومستبعد محضر الرحمن هي من موانع ورود المحضر . وكما أنه يبعد المصلّي الملوّث لباسه وبدنه برجز الشيطان عن محضر القدس ولا يترك أن يدخل الى مقام الانس ، كذلك قذارات المعاصي وعصيان الحق التي هي من تصرفات الشيطان ومن رجس ذاك الخبيث وقاذوراته من موانع ورود المحضر ، فالمتلبّس بالمعاصي قد نجّس ساتر البدن البرزخي ولا يتمكن مع هذه القذارة أن يرد الى محضر الحق ، وتطهير هذا اللباس من شرائط تحقق الصلاة الباطنية وصحتها وما دام الانسان في حجاب الدنيا لا يطّلع على ذلك البدن الغيبيّ وطهارة لباسه وقذارته وشرطية الطهارة وما نعية القذارة فيها ، ولكن في اليوم الذي خرج عن هذا الحجاب، ورائد السلطنة الباطنية ، ويومُ الجمع طويا بساط تفرقة الظاهر وطلعت شمس الحقيقة من وراء الحجب المظلمة الدنيوية وانفتحت البصيرة الباطنية الملكوتية وأغلقت البصيرة الحيوانية الملكية فهو يدرك بعين البصيرة أن صلاته كانت فاقدة للطهارة الى نهاية الامر وكان مبتلى بآلاف من الموانع التي كان كل واحد منها سببا مستقلا للتبعيد عن محضر الحق المقدس ، ومع

آلاف الاسف أنه ليس في ذلك اليوم طريق للجبران ولا حيلة للانسان بل ما يبقى له حين ذاك فقط هو الحسرات والندامات ، ندامات لا نهاية لها وحسرات لا انتهاء لها « وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضي الامر »[٤٤] .

فاذا حصلت الطهارة للّباس الباطني فيلزم طهارة البدن الملكوتي ايضا من رجز الشيطان وهو عبارة عن التطهير من أرجاس الاخلاق الذميمة التي يلوّث كل منها الباطن ويبعّد الانسان عن المحضر ويهجّره من بساط قرب الحق ، وهي أيضا من رجس الشيطان البعيد عن الرحمة ، وإنما أصول جميع الذمائم ومبادئها هي العجب وحبّ النفس والتكبّر والتظاهر والتعصّب ، وكل منها مبدأ كثير من الذمائم الاخلاقية ورأس كثير من الخطيئات ، فإذا فرغ السالك من هذه الطهارة وطهّر لباس التقوى بماء التوبة النصوح والرياضة الشرعية فيلزمه أن يشتغل بتطهير القلب الذي هو الساتر الحقيقي ، وتصرّف الشيطان فيه أكثر وقذاراته سارية الى سائر الالبسة والسواتر وما لم يطهّر ذاك لا تتيسّر سائر الطهارات ولتطهيره مراتب يشار الى بعضها الذي يناسب هذه الاوراق :

أحدها : التطهير من حبّ الدنيا الذي هو رأس كل الخطيئات ومنشأ جميع المفاسد ، وما دامت هذه المحبة في قلب الإنسان لا يتيسّر له الورود الى محضر الحق ولا تتحقق المحبة الالهية التي هي أم الطهارات مع هذه القذارة ولعله ما اهتمّ بشيء في كتاب الله ووصايا الانبياء والاولياء عليهم السلام وخصوصا أمير المؤمنين عليه السلام مثلما اهتم بترك الدنيا والزهد فيها والاتقاء منها الذي هو من حقائق التقوى . ولا تحصل هذه المرتبة من التطهير الا بالعلم النافع والرياضات القوية القلبية وصرف الهمّة في التفكر في المبدأ والمعاد وانشغال القلب بالاعتبار في أفول الدنيا وخرابها

وكرامة العوالم الغيبية وسعادتها « رحم الله امرءاً علم من أين وفي أين وإلى أين ؟ » ومنها التطهير من الاعتماد على الخلق الذي هو شرك خفيّ بل هو عند أهل المعرفة شرك جليّ ، ويحصل هذا التطهير بالتوحيد الفعلي للحقّ جلّ وعلا الذي هو منبع الطهارات القلبية ولا بد أن يعلم أن مجرّد العلم البرهاني والقدم التفكّري في باب التوحيد الفعلي لا ينتج النتيجة المطلوبة بل ربما تكون كثرة الاشتغال بالعلوم البرهانية سببا لظلمة القلب وكدورته وتمنع الانسان من المقصد الاعلى ، وفي هذا المقام قالوا العلم هو الحجاب الاكبر ، وفي عقيدة الكاتب أن جميع العلوم هي عملية حتى علم التوحيد ولعله يستفاد كونه عمليا من كلمة التوحيد التي هي تفعيل لانه بحسب ما يناسب الاشتقاق التوحيد عبارة عن التوجه من الكثرة الى الوحدة وجعل جهات الكثرة مستهلكة ومضمحلة في عين الجمع ولا يحصل هذا المعنى بالبرهان بل يلزم أن ينبّه القلب بالرياضات القلبية والتوجّه الغريزي الى مالك القلوب ما أفاده البرهان حتى يحصل حقيقة التوحيد . نعم ، ان البرهان يقول لنا انه لا مؤثر في الوجود الا الله وهذا أحد معاني لا إله الا الله وببركة هذا البرهان نقطع يد تصرف الموجودات عن ساحة كبرياء الوجود ونردّ ملكوت العوالم وملكها الى صاحبها ونظهر حقيقة كبرياء الوجود ونردّ ملكوت العوالم وملكه الى صاحبها ونظهر حقيقة له ما في السموات والارض وبيده ملكوت كل شيء وهو الذي في السماءِ اله وفي الارض اله ولكن ما لم يصل هذا المطلب البرهاني الى القلب ولم يعد صورة باطنية للقلب ، لم نصل من حد العلم الى حد الإيمان ولم يكن لنا من نور الايمان الذي ينوّر مملكة الباطنية والظاهرية سهم ونصيب ، فلهذه الجهة لنا نحن مع العلم بالبرهان لهذا المطلب الشامخ الالهي واقع في التكثير وليس عندنا خبر من

التوحيد الذي هو قرّة عين أهل الله ، ندق طبل لا مؤثر في الوجود الا الله ومع ذلك نمد عين الطمع ويد الطلب الى كل مستأهل وغير مستأهل :

پاي استدلاليـــــــان چوبين بود

پاي چوبين سخت بي تمكين بود[١٥]

وهذا التطهير من المقامات الجليلة للسالكين وبعد هذا المقام مقامات أخر خارجة عن حدودنا ولعله في خلال هذه الاوراق يجيء منها ذكر بما يناسب هذه الاوراق .

الفصل الثاني

في الاعتبارات القلبية لستر العورة[16]

اذا رأى السالك نفسه حاضرا في محضر الحق المقدس جلّ وعلا بل وجد باطنه وظاهره وسره وعلنه عين الحضور . كما روي عن الكافي والتوحيد أن الصادق عليه السلام قال : « ان روح المؤمن لأشدّ اتصالا بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها » بل ثبت بالبرهان القوي المتين في العلوم العالية أن جميع دائرة الوجود من أعلى مراتب الغيب الى أدنى مراتب الشهود هي عين التعلق والروابط ومحض التدلي والفقر الى القيوم المطلق جلّت عظمته ، ولعله أشير الى هذا المعنى في الآية المباركة : « يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد »[17] فاذا كان موجود من الموجودات في حال من الحالات وآن من الآنات وحيثيّة من الحيثيّات غير متعلّق بعزّ القدس الربوبي يخرج عن بقعة الامكان الذاتي والفقر ويدخل في حريم الوجوب الذاتي والغني ، وعلى العارف بالله والسالك الى الله أن يكتب هذا المطلب الحق البرهاني وهذه اللطيفة الالهية العرفانية في لوح القلب بواسطة

الرياضات القلبية ويخرجها من حد العقل والبرهان الى حد العرفان حتى تتجلى في قلبه حقيقة الايمان ونوره ، فان أصحاب القلب وأهل الله لا يقفون في حد الايمان بل يقدمون منه الى منزل الكشف والشهود وهو يحصل بالمجاهدة الشديدة والخلوة مع الله والعشق لله ، كما في مصباح الشريعة أن الصادق عليه السلام قال : « العارف شخصه مع الخلق وقلبه مع الله لو سها قلبه عن الله طرفة عين لمات شوقا اليه ، والعارف أمين ودائع الله وكنز أسراره ومعدن نوره ودليل رحمته على خلقه ومطية علومه وميزان فضله وعدله ، قد غني عن الخلق والمراد والدنيا ولا مؤنس له سوى الله ولا نطق ولا اشارة ولا نفس الا بالله لله من الله مع الله » .

وبالجملة إذا رأى السالك نفسه بجميع شؤونه عين الحضور يستر جميع عوراته الظاهرية والباطنية لحفظ المحضر وأدب الحضور وذلك اذ وجد أن كشف العورات الباطنية في محضر الحق أقبح وأفضح من كشف العورات الظاهرية بمقتضى الحديث « ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم » . وهذه العورات الباطنية والذمائم الأخلاقية وخبائث العادات والاحوال الرديئة الخلقية هي التي تسقط الانسان عن لياقة المحضر وأدب الحضور وهذه هي المرتبة الاولى من هتك الستور وكشف العورات ، وليعلم ان الانسان ان لم يستر نفسه بحجاب الستارية والغفارية من الحق جلّ وعلا ولم يقع تحت اسم الستّار والغفار مع طلبه الغفارية والستارية . فبعد انطواء ساتر الملك وارتفاع حجاب الدنيا فربما تهتك ستوره في محضر الملائكة المقربين والانبياء المرسلين عليهم السلام ولا يعلم قباحة كشف تلك العورات الباطنية وفضاحتها ونتن ريحها سوى الله .

أيها العزيز لا تقس أوضاع عالم الآخرة بهذا العالم فان هذا العالم لا

يتسع لظهور نعمة من نعم ذاك العالم أو نقمة من نقماته ، هذا العالم مع ما فيه من سعة السموات والعوالم لا يتسع لظهور حجاب من الحجب الملكوتية السفلى التي من جملتها عالم القبر فكيف بالملكوت الاعلى الذي يكون عالم القيامة أنموذجا منه . ففي الحديث المفصّل والذي رواه الشيخ الشهيد الثاني رضوان الله عليه في منية المريد عن الصديقة الكبرى سلام الله عليها قالت : « سمعت أبي صلى الله عليه وآله يقول : ان علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدّهم في ارشاد عباد الله حتى يخلع على الواحد منهم ألف ألف خلعة من نور .. إلى أن قالت عليها السلام : ان سلكا من تلك الخلع لافضل مما طلعت عليه الشمس ألف ألف مرة » . هذا بالنسبة الى النعيم ، وأما بالنسبة الى العذاب فقد روى الفيض رحمه الله في العلم اليقين عن المرحوم الصدوق باسناده عن الصادق عليه السلام في ضمن حديث « ان جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : فلو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعا وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرّها ولو أن قطرة من زقّومها وضريعها قطرت في مياه أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها » نعوذ بالله من غضب الرحمن .

فيلزم على السالك الى الله أن يبدّل أوصافه وأخلاقه السيّئة الى الاوصاف والاخلاق الكاملة ويفنى في بحر الاوصاف الكمالية للحق ، هذا البحر المتلاطم غير المتناهي ويبدّل الارض المظلمة الشيطانية بأرض بيضاء مشرقة ويجد في نفسه « وأشرقت الارض بنور ربها »[٨١] ويحقق في مملكة وجوده مقام اسماء الجمال والجلال للذات المقدسة فيقع في هذا المقام في

ستر الجمال والجلال ويتخلّق بأخلاق الله ويستر مقابح التعينات النفسية والظلمات الوهمية فاذا تحقق هذا المقام يقع موردا للعنايات الخاصة للحق جلّ جلاله ويؤيده الحق بلطفه الخفيّ الخاص ويستره تحت حجاب كبريائه على نحو لا يعرفه غيره وهو أيضا لا يعرف غير الحق « ان أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري » وفي الكتاب المقدس الالهي اشارات كثيرة في هذا الموضوع لاهله كما في قوله تعالى : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور »[١٩] ان أهل المعرفة وأصحاب السابقة الحسنى يعلمون أن جميع التعينات الخلقية والكثرات العينية ظلمات والنور المطلق لا يحصل الا باسقاط الاضافات وكسر التعينات التي هي أصنام طريق السالك فاذا اضمحلت وانطمست ظلمات كثرات الفعلية والوصفية في عين الجمع تكون جميع العورات مستورة ويتحقق الحضور المطلق والوصول التام . والمصلي في هذا المقام كما أنه مستور بالحق فهو مصلّ بصلاة الحق ولعل صلاة معراج خاتم الرسل صلى الله عليه وآله وسلم كانت بهذه الطريقة في بعض المقامات والمدارج ، والله العالم .

وصل : عن مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : « أزين اللباس للمؤمنين لباس التقوى وأنعمه الايمان » . قال الله عز وجل : « ولباس التقوى ذلك خير »[٢٠] . وأما اللباس الظاهر فنعمة من الله يستر عورات بني آدم وهي كرامة أكرم الله بها عباده ذرية آدم لم يكرم غيرهم وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله عزّ وجلّ بل يقرّبك من شكره وذكره وطاعته ولا يحملك فيها الى العجب والرياء والتزين والمفاخرة والخيلاء فانها من آفات الدين ومورثة القسوة في القلب ، فاذا لبست ثوبك فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته والبس

باطنك بالصدق كما ألبست ظاهرك بثوبك وليكن باطنك في ستر الرهبة وظاهرك في ستر الطاعة واعتبر بفضل الله عز وجل حيث خلق أسباب اللباس لتستر العورات الظاهرة وفتح أبواب التوبة والانابة لتستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء[٢١] ولا تفضح أحدا حيث ستر الله عليك أعظم منه[٢٢] واشتغل بعيب نفسك واصفح عمّا لا يعنيك حاله وأمره واحذر أن تفني عمرك لعمل غيرك ويتّجر برأس مالك غيرك وتهلك نفسك فان نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله تعالى في العاجل وأوفر أسباب العقوبة في الآجل وما دام العبد مشتغلا بطاعة الله تعالى ومعرفة عيوب نفسه وترك ما يشين في دين الله فهو بمعزل عن الآفات خائض في رحمة الله عز وجل يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان وما دام ناسيا لذنوبه جاهلا لعيوبه راجعا الى حوله وقوته لا يفلح اذا أبدا » .

ان مقاصد الحديث الشريف وان اتضحت في الجملة في البيانات السابقة ولكن الاشارة الى بعض اشاراته بعنوان شبه الترجمة موجب لصفاء القلوب .

يقول الامام عليه السلام : أزين اللباس للمؤمنين هو لباس التقوى وألطفه لهم هو لباس الايمان ، كما قال الله تعالى : ولباس التقوى ذلك خير .. وأما لباس الظاهر فهو من نعم الله تعالى فانه يستر عورة بني آدم ، وهذه الكرامة كرامة خاصة لذرية آدم عليه السلام ولم يعطها سبحانه الى سائر الموجودات ولكن المؤمنين يصرفون هذه النعمة ايضا في أداء الواجبات الالهية ، وخير لباسك ما لا يغفلك عن الله ولا يشغلك بغير الله بل يقربك الى شكره وذكره وطاعته ، فلا بد لك أن تحترز في مادة اللباس وهيئته مما يوجب الغفلة والبعد عن ساحة قدس الحق وتعلم أن في اللباس بل في جميع

الامور العادية أمورا تغفل الانسان عن الحق وتشغله بالدنيا وتؤثر في قلبه الضعيف تأثيرات السوء وتبتليه بالعجب والرياء والتزين والفخر والكبر وكل ذلك آفات للدين وموجبة لقسوة القلب ، واذا لبست اللباس الظاهر فتذكر ان الله تعالى ستر بساتر رحمته ذنوبك ومعاصيك ، وكما أنك لبّست ظاهرك باللباس الظاهري فلا تغفل عن الالبسة الباطنية ولبّس باطنك بلباس الصدق ولا بد لك أن تجعل باطنك في ستر الخوف والرهبة وظاهرك في ستر الطاعة وتعتبر من فضل الله تعالى حيث أنه تعالى أعطى اللباس الظاهر كي تستر به عيوبك الظاهرة وفتح لك أبواب التوبة والانابة كي تستر بها العورات الباطنية التي هي المعاصي والاخلاق الذميمة . ولا تفضح أحدا كما أن الله سبحانه لم يفضحك فيما أهو أعظم واشتغل بعيب نفسك كي ينفتح لك باب الاصلاح واصفح عما لا يكون معينا لك[٢٣] واحذر ان تفني عمرك لعمل غيرك وتكتب نتيجة أعمالك في صحيفة أعمال غيرك ويتّجر الاخرون برأس مالك وتلقي بنفسك الى الهلاك لان نسيانك ذنوبك من أعظم العقوبات التي ابتلى الله تعالى الانسان في الدنيا بها لانه اذا نسي ذنوبه لم يقم بإصلاح نفسه ، ونسيان الذنوب من أوفر أسباب العذاب في الاخرة وما دام العبد مشتغلا بطاعة الحق عز وجل ومشغولا بمعرفة عيوب نفسه وتاركا للامور التي هي عيب في دين الله فهو بمعزل عن الآفات وغائص في بحر رحمة الله وفائز بجواهر الحكمة والبيان ، وما دام العبد ناسيا ذنوبه وجاهلا بعيوبه ومعتمدا على حوله وقوته لا يحصل له الفلاح أبدا .

الباب الثالث

في الآداب القلبية لمكان المصلّى

وفيه

فصلان

الفصل الأول

في معرفة المكان[٢٤]

اعلم ان للسالك الى الله بحسب النشآت الوجودية أمكنة ، ولكل منها آداب مخصوصة ما لم يتحقق السالك بها لم يتوصّل الى صلاة أهل المعرفة .

المقام الأول: النشأة الطبيعية والمرتبة الظاهرية الدنيوية ومكانها أرض الطبيعة . قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « جعلت لي الارض مسجدا وطهورا » .. فالسالك في هذه المرتبة أدبه في أن يفهم قلبه أن نزوله من النشأة الغيبية وهبوط النفس من المحل الأعلى الارفع الى أرض الطبيعة السفلى ورده من أحسن تقويم الى أسفل سافلين لاجل سلوكه الاختياري الى الله وعروجه الى معراج القرب ووصوله الى فناء الله والجناب الربوبي الذي هو غاية الخلقة ونهاية المقصد لاهل الله . العارف يقول من الله وفي الله والى الله فللسالك أن يفهم نفسه ويذوق بذائقة روحه أن دار الطبيعة هي مسجد عبادة الحق وأنه قدم الى هذه النشأة لاجل هذا المقصد كما يقول الحق جلّ وعلا : « وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون » .. فاذا وجد دار الطبيعة مسجدا للعبادة ورأى نفسه معتكفا فيه لا بدّ وأن يقوم بآدابه ويصوم عن

تذكر غير الحق وألاّ يخرج عن مسجد العبودية الا بقدر الحاجة فاذا انقضت حاجته يعود ولا يستأنس بغير الحق ولا يتعلق قلبه بغيره ، فان هذا كله خلاف آداب العكوف على باب الله ، وللعارف بالله في هذا المقام حالات لا يصح كتابتها وحيث أن الكاتب خارج عن الفطرة الانسانية ، ومستغرق في البحر المسجور والظلماني للطبيعة وعار عن الحق والحقيقة وعن جميع مقامات السالكين والعارفين فالأفضل ألاّ يفضح نفسه أكثر من هذا المقام ويشكو من النفس الامارة الى جناب ذي الجلال المقدّس لعله يؤيد باللطف العام والرحمة الشاملة ويجبر ما سبق من عمره في بقيّته ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين .

المقام الثاني : مرتبة القوى الظاهرة والباطنة التي هي جنود ملكية وملكوتية للنفس ومحلّها الارض الطبيعية الانسانية وهي هذه البنية والبدن وأدب السالك في هذا المقام أن يفهم باطن قلبه بأن أرض الطبيعة نفسه وهي مسجد الربوبية ومحل السجدة للجنود الرحمانية فلا ينجسها بقاذورات تصرف ابليس ولا يجعل الجنود الالهية تحت تصرف ابليس كي تشرق ارض الطبيعة بشروق نور الرب وتخرج عن ظلمة البعد عن الساحة الربوبية وكدورته فيرى قواه الملكية الملكوتية معتكفة في مسجد البدن ويعامل بدنه معاملة المسجد ومع قواه بعين العكوف الى فناء الله ، وتكليف السالك في هذا المقام أكثر لأن تنظيف المسجد وطهارته ايضا على عهدته كما أنه بنفسه أيضا يتكفل أدب المعتكفين في هذا المسجد .

المقام الثالث : النشأة الغيبية للسالك : ومحلها البدن البرزخي الغيبي للنفس الذي يتكون بانشاء النفس وخلاّقيتها ، والادب للسالك في هذا المقام ان يذوّق نفسه ان التفاوت بين هذا المقام والمقامات الاخر كثير

وحفظ هذا المقام هو من مهمات السلوك لان القلب هو امام المعتكفين في هذا الجناب وبفساده يفسد الجميع اذا فسد العالِم فسد العالَم فقلب العالِم عالَم صغير وعالم القلب هو العالم الكبير وتكاليف السالك في هذا المقام تكون أكثر من ذين المقامين لانه قد كلف بناء المسجد ايضا بنفسه ومن الممكن لا سمح الله ان يكون مسجده مسجد ضرار وكفر وتفريق بين المسلمين ولا يجوز في هذا المسجد عبادة الحق ويجب تخريبه ، فاذا أسّس السالك المسجد الملكوتي الالهي بيد التصرف الرحماني ويد الولاية وطهّر بنفسه هذا المسجد عن جميع القاذورات والتصرفات الشيطانية واعتكف فيه فلا بد له أن يجاهد حتى يخرج نفسه من العكوف في المسجد ويعتكف بفناء صاحب المسجد فاذا تطهّر عن التملّق بالنفس وخرج عن قيد نفسه يصير هو بنفسه منزلا للحق بل مسجدا للربوبية ويثني الحق على نفسه في ذاك المسجد بالتجليات الفعلية ثم الاسمائية ثم الذاتيّة وهذا الثناء هو صلاة الرب يقول سبّوح قدّوس رب الملائكة والروح ، وللسالك الى الله في جميع مقامات السلوك مهمة أخرى لا يجوز له الغفلة عنها مطلقا بل هذه المهمة هي غاية السلوك ولب لبابه وهي أن لا يغفل في جميع الحالات والمقامات عن ذكر الحق ويطلب في جميع المناسك والعبادات معرفة الله ويطلب الله في جميع المظاهر ولا تمنعه النعمة والكرامة عن الصحبة والخلوة فانه نوع من الاستدراج .

وبالجملة يرى روح العبادات والمناسك وباطنها معرفة الله ويتطلب فيها المحبوب ولعله تستحكم في قلبه علاقة المحبة والمحبوبية ويكون موردا للعنايات الخفية والمراودات السرية .

وصل : في مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام : « اذا

بلغت باب المسجد فاعلم أنك قد قصدت باب ملك عظيم لا يطأ بساطه الا المطهّرون ولا يؤذن لمجالسته الا الصدّيقون »[٢٥] فهب القدوم الى بساط خدمة الملك هيبته فانك على خطر عظيم ان غفلت فاعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك فان عطف عليك برحمته وفضله قبل منك يسير الطاعة وأجزل لك عليها ثوابا كثيرا[٢٦] وان طالبك باستحقاق الصدق والاخلاص عدلا بك حجبك ورد طاعتك وان كثرت فهو فعال لما يريد واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك وفقرك بين يديه فانك قد توجّهت للعبادة والمؤانسة به واعرض اسرارك عليه ولتعلم أنه لا يخفى عليه اسرار الخلق أجمعين وعلانيتهم وكن كأفقر عباده بين يديه وأخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك فانه لا يقبل الا الاطهر والاخلص ، فانظر من أي ديوان يخرج اسمك فان ذقت حلاوة مناجاته ولذيذ مخاطباته وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن إقباله عليك وإجابته فقد صلحت لخدمته فادخل فلك الاذن والأمان ،والا فقف وقوف من انقطعت عنه الحيل وقصر عنه الامل وقضى عليه الاجل فان علم الله عز وجل من قلبك صدق الالتجاء اليه نظر اليك بعين الرأفة والرحمة واللطف ، ووفقك لما يحب ويرضى فانه كريم يحب الكرامة لعباده المضطّرين اليه المحترقين على بابه لطلب مرضاته . قال تعالى : « أمّن يجيب المضطرّ اذا دعاه ويكشف السوء » .

وحيث أن هذا الكلام الشريف دستور جامع لاصحاب المعرفة وأرباب السلوك الى الله نقلته بتمامه فلعله يحصل حال من التدبّر فيه ، ومحصل قوله عليه السلام أنه اذا وصلت الى باب المسجد فانتبه الى أيّ باب وصلت ؟ وأيّ جناب قصدت ؟ فاعلم أنك وصلت الى جناب السلطان العظيم الشأن الذي لا يضع أحد قدمه على بساط قربه الا اذا طهر وتطهر

من جميع أرجاس عالم الطبيعة والارجاس الشيطانية ولا يصدر الاذن لمجالسته الا الذين يقدمون عليه بالصدق والصفاء والخلوص من جميع أنواع الشرك الظاهر والباطن ، فاجعل عظمة الموقف والهبة والعزّة والجلال الالهي نصب عينك ثم ضع قدمك الى جناب القدس وبساط الانس فانك واقع في مخاطرة عظيمة (باخبر باش كه سر ميشكند ديوارش) فانك وردت الى جناب القادر المطلق يجري ما يشاء في مملكته فاما أن يعاملك بالعدالة ويناقش في الحساب فيطالب بالصدق والاخلاص وتحجب عن الجناب وتردّ طاعاتك وان كثرت ، واما ان يعطف اليك طرفه ويقبل بفضله ورحمته طاعتك التي هي لا شيء ولا قيمة لها ويعطيك ثوابه العظيم ،اذا عرفت الان عظمة الموقف فاعترف بعجزك وتقصيرك وفقرك واذا توجهت الى عبادته وقصدت المؤانسة معه ففرّغ قلبك عن الاشتغال بالغير الذي يحجبك عن جمال الجميل وهذا الاشتغال بالغير قذارة وشرك ولا يقبل الحق تعالى الا القلب الطاهر الخالص ، واذا وجدت في نفسك حلاوة مناجاة الحق وذقت حلاوة ذكر الله وجرعت من كأس رحمته وكراماته ورأيت حسن اقباله واجابته في نفسك فاعلم انك صرت لائقا لخدمته المقدسة ، فادخل فانك مأذون ومأمون واذا ما وجدت في نفسك هذه الحالات فقف بباب رحمته كالمضطر الذي انقطعت عنه جميع العلاجات وبعد عن الامال وقرب إلى أجله فاذا عرضت ذلّتك ومسكنتك والتجأت الى بابه ورأى سبحانه منك الصدق والصفاء فينظر اليك بعين الرحمة والرأفة ويؤيدك ويوفّقك لتحصيل رضاه فانه الذات المقدسة لكريم ويحب الكرامة لعباده المضطرين كما يقول تعالى : أمّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء .

الفصل الثاني

في بعض آداب اباحة المكان[٢٨]

اذا فهم السالك الى مراتب المكان بحسب المقامات والنشآت الوجودية لنفسه فله أن يجتهد في آدابه القلبية لاباحتها حتى تخرج صلاته من التصرفات العصبية لابليس الخبيث فيقوم في المرتبة الاولى بآداب صورية للعبودية والرقّية ويفي بالعهود السابقة في عالم الذرّ ويوم الميثاق ويبعّد يد تصرف ابليس عن ملك طبيعته حتى تحصل له المراودة والمخاطبة مع صاحب البيت ولا تكون تصرفاته في عالم الطبيعة غصبا . يقول بعض أهل الذوق : ان معنى الآية الشريفة : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلّت لكم بهمية الانعام..» بحسب الباطن أن حليّة بهيمة الانعام موقوفة على الوفاء بعهد الولاية . وقد روي في الاحاديث ان جميع الارض للامام وغير الشيعة غاصبة لها ، وأهل المعرفة يرون وليّ الامر مالكا لجميع ممالك الوجود ومدارج الغيب والشهود ولا يجوّزون تصرّف أحد فيها بدون اذن الامام .

يقول الكاتب : ان ابليس اللعين هو عدّو الله وتصرفاته وكل تصرف ابليسيّ في عالم الطبيعة جور وغصب فالسالك الى الله إن أخرج نفسه من تصرفات ذلك الخبيث يكون تصرّفه تصرّفا رحمانيا ويباح ويطهر مكانه

وملبسه ومطعمه ومنكحه وبمقدار ما يقع تحت تصرف ابليس يخرج عن الحلّيّة ويتصرّف فيه شرك الشيطان ، فاذا وقعت الاعضاء الظاهرة للانسان في تصرّف ابليس تكون أعضاؤه ابليسية ويكون غاصبا لمملكة الحق كما أنه عكوف القوى الملكوتية في مسجد البدن يكون مباحا وعدلا اذا كانت القوى من الجنود الرحمانية والا فجنود ابليس ليس لها الحق بأن تتصرف في مملكة البدن الانساني التي هي ملك للحق تعالى ، فاذا قصّر يد تصرف الشيطان عن مملكة القلب الذي هو منزل خاص للحق تعالى وخلّص قلبه لتجليات الحق ولا يترك أحدا غير الحق يتطرق اليه ــ فان غير الحق ابليس الطريق ــ يباح له المساجد الظاهرة والباطنة والامكنة الملكية والملكوتية وتكون صلاته صلاة أهل المعرفة وتتضح بهذا الميزان طهارة المسجد أيضا .

الباب الرابع

في الآداب القلبية للوقت

وفيه

فصلان

الفصل الأول

في آداب أوقات الصلاة

اعلم أن لاهل المعرفة وأصحاب القلوب على قدر قوة معرفتهم للمقام المقدس الربوبي واشتياقهم الى مناجاة حضرة الباري عز اسمه مراقبة ومواظبة لاوقات الصلاة التي هي ميقات المناجاة وميعاد الملاقاة مع الحق ، ولا يزالون يراقبون ذلك فالمجذوبون لجمال الجميل والعاشقون للحسن الازلي والمشغوفون به والسكارى من كأس المحبة والمصعوقون من قدح ألست الذين فرغوا عن الكونين وأعرضوا عن جميع أقاليم الوجود وتعلقوا بعز قدس جمال الله فلهم دوام الحضور وليسوا مهجورين عن الذكر والفكر والمشاهدة والمراقبة لحظة واحدة .

والذين هم أصحاب المعارف وأرباب الفضائل والفواضل وهم شرفاء النفس وكرماء الطينة فلا يختارون على المناجاة مع الحق شيئا ويطلبون من الخلوة مع الحق ومن مناجاته نفس الحق ويرون أن العزة والشرف والفضيلة والمعرفة كلها في تذكر الحق ومناجاته فهم اذا توجهوا الى العالم ونظروا الى الكونين يكون توجههم ونظرهم اليها توجه العارفين لها ونظرهم ، ويتطلبون

الحق في العالم ويطلبونه ويرون جميع الموجودات جلوة للحق ولجمال الجميل (عاشقم بر همه عالم كه همه عالم ازاوست)[٢٩] .

فهم يواظبون على أوقات الصلاة بتمام أرواحهم وقلوبهم وينتظرون وقت المناجاة مع الحق ويحضّرون أنفسهم ويهيّئونها لميقات الحق فقلوبهم حاضرة ويطلبون من المحضر الحاضر ويحترمون المحضر لاجل الحاضر ويرون ان العبودية هي المراودة والمعاشرة مع الكامل المطلق فاشتياقهم الى العبادة من هذا الباب والذين يؤمنون بالغيب وعالم الاخرة ويعشقون كرامات الحق جل جلاله ولا يستبدلون النعم الابدية الجنانية واللذات والبهجات الدائمة السرمدية بالحظوظ الداثرة الدنيوية واللذائذ الناقصة المؤقتة المشوبة ، فهؤلاء أيضا في وقت العبادة التي هي بذور النعم الاخروية يحضرون قلوبهم ويقومون بالامر باقبال واشتياق وينتظرون أوقات الصلاة فانها وقت حصول النتائج واكتساب الذخائر ولا يختارون على النعم الدائمة شيئا فهؤلاء ايضا حيث أن قلوبهم خبيرة بعالم الغيب وقد آمنت قلوبهم بالنعم الابدية واللذائذ الدائمة لعالم الاخرة يغتنمون أوقاتهم ولا يضيّعونها اولئك اصحاب الجنة وأرباب النعمة هم فيها خالدون .

هذه الطوائف التي ذكرت ، وبعضها التي لم يذكر لهم من العبادة نفسها ايضا لذائذ على حسب مراتبهم ومعارفهم وليس لهم كلفة وتكليف فيها أصلا .

وأما نحن المساكين المبتلين بالآمال والاماني والمقيدين بسلاسل الهوى والهوس والمنغمرين في البحر المسجور الظلماني للطبيعة الذين ما وصلت الى شامّة أرواحنا رائحة من المحبة والعشق وما ذاقت ذائقة قلوبنا لذة من العرفان

والفضيلة ، فلسنا لا من أصحاب العرفان والعيان ولا من أرباب الايمان والاطمئنان ، نرى العبادات الالهية تكليفا وكلفة والمناجاة مع قاضي الحاجات تحميلا وتكلّفا لا نركن الى شيء غير الدنيا التي هي معلف للحيوانات ولا نتعلق بسوى دار الطبيعة التي هي معتكف للظالمين قد عميت أبصار قلوبنا عن جمال الجميل وهجرت دائقة أرواحنا ذوق العرفان .

نعم ان رئيس سلسلة أهل الحق وخلاصة أصحاب المحبة والحقيقة يترنم بقوله : أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني فيا رب ما هذه البيتوتة التي كانت لمحمد صلى الله عليه وآله معك في دار الخلوة والانس ؟. وما هذا الطعام والشراب الذي أذقته بيدك هذا الموجود الشريف وأخلصته من جميع العوالم ، ففي شأن ذلك السيد العظيم أن يقول : « لي مع الله وقت لا يسعه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل » فهل هذا الوقت من أوقات عالم الدنيا والاخرة أو أنه وقت الخلوة في قاب قوسين وطرح الكونين ..

ان موسى عليه السلام صام صوما موسويا أربعين يوما ونال الى ميقات الحق ، وقال تعالى : « فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة »[٣٠] ، ومع ذلك أين هذا الميقات من الميقات المحمدي ولا نسبة بينه وبين الوقت الاحمدي .

ان موسى في الميعاد خوطب بخطاب فاخلع نعليك وقد فسّر بمحبة الاهل ، والرسول الخاتم قد أمر في ميعاده بأن يحب عليا ، وفي القلب من هذا السر جذوة ما أبرز منها شيء (توخود حديث مفصل بخوان ازاين مجمل)[٣١]

الفصل الثاني

في الآداب القلبية للصلاة

فأنت أيها العزيز اغتنم وقت المناجاة هذا بالقدر الميسور والمقدار المقدور وقم بآدابه القلبية وفهّم قلبك أن وسيلة الحياة الابدية الاخروية ومنبع الفضائل النفسانية ورأس مال الكرامات غير المتناهية هو المراودة والمؤانسة مع الحق ومناجاته وخصوصا الصلاة فانها معجون روحاني قد هيّىء بيدي الجمال والجلال للحق وأجمع وأكمل من جميع العبادات ، فبقدر ما يمكنك حافظ على أوقاتها وانتخب أوقات فضيلتها فان فيها نورا ليس في غيرها من الاوقات وأقلل فيها من الاشتغالات القلبية بل اقطعها ، وهذا يحصل بأن تقسّم وتعيّن أوقاتك وتعيّن للصلاة المتكفّلة لحياتك الأبدية وقتا خاصا لايكون لك فيه أشغال أخر ولا تكون للقلب تعلّقات اخرى ، ولا تجعل الصلاة تزاحم الامور الاخر كي تستطيع أن تريح القلب وتحضره ، والان نذكر الاحاديث الواردة في أحوال المعصومين عليهم السلام على قدر اقتضاء المقام فلعلّه بالتدبّر في حالات أولئك الاكرمين يتمّ التنبيه وتدرك عظمة الموقف وأهمية المقام وخطره وتستيقظ من نوم الغفلة .

فعن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وآله أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدّثنا ونحدّثه فاذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم

نعرفه شغلا بالله عن كل شيء » .

وروي عن علي عليه السلام : « كان اذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلوّن ، فيقال له : ما لك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول عليه السلام : جاء وقت الصلاة وقت أمانة عرضها الله على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها » .

ونقل السيد ابن طاووس في فلاح السائل : كان الحسين عليه السلام « اذا توضأ يتغير لونه ويضطرب مفاصله فقيل له في ذلك فقال : حق لمن يقف بين يدي ذي العرش أن يصفرّ لونه وتضطرب مفاصله » ونقل عن الحسن عليه السلام أيضا مثل ذلك .

وعن علي بن الحسين عليه السلام : « كان اذ حضر للوضوء اصفرّ لونه فيقال له ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول : ما تدرون بين يدي من أقوم ؟ » .

ونحن ايضا اذا تفكرنا قليلا وفهّمنا قلبنا المحجوب أنّ أوقات الصلاة هي أوقات الحضور في جناب القدس بحضرة ذي الجلال ، وأن الحق تعالى ملك الملوك والعظيم المطلق في تلك الاوقات دعا عبده الضعيف الذي هو لاشيء الى مناجاته وأذن له بالدخول الى دار الكرامة حتى يفوز بالسعادات الابدية ويجد السرور والبهجات الدائمية لَكنّا مبتهجين ومسرورين من دخول وقت الصلاة بمقدار معرفتنا واذا استشعر القلب عظمة المقام وخطره فيحصل فيه الخوف والخشية بمقدار فهمه العظمة وحيث أن قلوب الاولياء مختلفة وحالاتهم متفاوتة على حسب التجليات اللطفيّة والقهرية واستشعار العظمة والرحمة فحينا يحملهم اشتياق الملاقاة واستشعار الرحمة والجمال على السرور والبهجة ويقولون : ارحنا يا بلال ، وحينا يجعلهم التجليات بالعظمة

والقهر والسلطنة في حالة الصعق ويرتعشون ويرتعدون .

وبالجملة أيها الضعيف ان الآداب القلبية للاوقات. هي أن تهيىء نفسك للورود الى حضرة مالك الدنيا والاخرة ومخاطبة الحق جل وعلا ومكالمته ، فانظر بعين الى ضعفك ومسكنتك وذلّتك وعجزك والى العظمة والجلال والكبرياء للذات المقدسة جلّت عظمته ، ذلك أن الانبياء والمرسلين والملائكة المقربين في جناب عظمته مصعوقون ، وبالعجز والمسكنة والذلّة معترفون فاذا نظرت هذه النظرة وفهّمت قلبك فليستشعر القلب الخوف ويرى نفسه وعباداته لا شيء وانظر بعين أخرى الى سعة رحمة الذات المقدسة وكمال عطفها وإحاطة رحمانيتها حيث أنه أذن للعبد الضعيف مع ما له من أنواع التلوّثات وكمال عجزه ومسكنته في الدخول الى حضرة قدسه ودعاه الى مجلس أنسه بتشريفات من اهباط الملائكة وانزال الكتب السماوية وبعث الانبياء والمرسلين من دون أن يكون لهذا الممكن المسكين سابقة استعداد أو يتصوّر لحضرته جل وعلا ونعوذ بالله أو لملائكة الله أو الانبياء عليهم السلام في هذه الدعوة والحضور نفع فاذا توجّه القلب الى ذلك فيحصل له الانس البتة ويستشعر الرجاء فهيىء نفسك للحضور بقدمي الخوف والرجاء والرهبة والرغبة بقلب خجل وفؤاد وجل واستشعار الانكسار والذلة والضعف والمسكنة ولا ترَ لنفسك أية لياقة للحضور في هذا المحضر ولا تعدّ نفسك لائقا للعبادة والعبودية وترَ الاذن في الدخول في العبادة والعبودية من شمول الرحمة وعميم اللطف فحسب لحضرة الاحدية جلّت قدرته ، فانك اذا جعلت ذلّتك نصب عينيك وتواضعت لذات الحق المقدسة بروحك وقلبك وعرفت نفسك وعبوديتك كلا شيء يتلطف الحق تعالى ويرفعك ويخلّعك بخلعة كراماته .

الباب الخامس

في بعض آداب الاستقبال

وفيه

فصلان

الفصل الأول

في السر الجملي للاستقبال

اعلم أن ظاهر الاستقبال متقوّم بأمرين : أحدهما المقدمي وهو صرف الوجه الظاهر عن جميع الجهات المتشتتة ، والاخر النفسي وهو الاستقبال بالوجه الى الكعبة أم القرى ومركز بسط الارض ، ولهذه الصورة باطن وللباطن سرّ بل أسرار وأصحاب الاسرار الغيبية يصرفون باطن الروح عن الجهات المتشتتة لكثرات الغيب والشهادة ويجعلون جهة السرّ والروح أحدية التعلق ويجعلون جميع الكثرات فانية في سرّ أحدية الجمع ، فاذا تنزّل هذا السر الروحي في القلب فيظهر الحق في القلب بظهور الاسم الاعظم الذي هو مقام الجمع الاسمائي ، وتفنى الكثرات الاسمائية وتضمحل في الاسم الاعظم وتكون وجهة القلب في هذا المقام الى حضرة الاسم الاعظم فاذا ظهرت هذه عن باطن القلب الى ظاهر الملك فينتقش افناء الغير في الانصراف عن غرب عالم الملك وشرقه وينتقش التوجه الى حضرة الجمع في التوجه الى مركز بسط الارض الذي هو يد الله في الارض ، وأما بالنسبة الى السالك الذي يسير من الظاهر الى الباطن ويترقى من العلن الى السر فلا بد له أن يجعل هذا التوجّه الصوري الى مركز البركات الارضية وترك الجهات المتشتتة المتفرقة التي هي الاصنام الحقيقية ، ويتوجّه الى القبلة الحقيقية التي

هي أصل أصول بركات السموات والارض ويرفع رسوم الغير والغيرية حتى يصل شيئا ما الى سرّ وجّهت وجهي للذي فطر السموات والارض ويحصل في قلبه انموذجة من تجليات عالم الغيب الاسمائي وبوارقه وتحترق الجهات المتشتتة والكثرات المتفرقة ببارقة الهية ويؤيده الحق تعالى وتنحط الاصنام الصغيرة والصنم الاعظم عن باطن القلب بيد الولاية ، ولا انتهاء لهذه القصة فاتركها وامضِ .

الفصل الثاني

في بعض الآداب القلبية للاستقبال

اعلم أيها السالك الى الله انك اذا صرفت وجهك الظاهر من الجهات المتشتتة لعالم الطبيعة وتوجهت الى النقطة الواحدة فقد ادّعيت فطرتين من الفطر التي خمّرت بيد الغيب واختفيت في ذاتك وقد خمّر الحق تعالى طينتك بها بيدي الجلال والجمال وقد أظهرت هاتين الحالتين الفطريتين بصورة ظاهرة دنيوية وأشهدتهما بها وأقمت البينة على عدم احتجابك من نور هاتين الفطرتين الالهيتين ، والبينتان هما صرف الظاهر عن الغير والتوجه الى القبلة التي هي محل ظهور يد الله وقدرة الله ،وهاتان الفطرتان الالهيتان احداهما هي التنفّر عن النقص والناقص ، والثانية هي العشق للكمال والكامل ، وهذان اللذان أحدهما أصلي ذاتي والثاني تبعي ظلّي من الفطر التي خمرت بها جميع عائلة البشر ومن دون استثناء أحد منهم . ففي جميع سلسلة البشر مع اختلافهم في العقائد والاخلاق والطبائع والامزجة والامكنة والعادات في البدوي منهم والحضري والوحشي والمتمدن والعالم والجاهل والالهي والطبيعي . هاتان الفطرتان مخمرتان وان كانوا هم محجوبين عن هذه الفطرة ويختلفون في تشخيص الكمال والنقص والكامل

والناقص ، فذاك الوحشي السفّاك الفتّاك القتّال يرى الكمال في أن يغلب على نفوس الناس وأعراضهم ويرى السفك والقتل كمالا فيصرف فيه عمره ، وذاك الطالب للدنيا الطالب للجاه والمال يرى الكمال بالمال والجاه ويعشقهما .

وبالجملة فصاحب كل مقصد يرى مقصده كمالا وصاحبه كاملا ويعشقه ويتنفّر عن غيره . فالانبياء عليهم السلام والعلماء بالله وأصحاب المعرفة قد جاؤوا ليخرجوا الناس عن الاحتجاب ويخلصوا نور فطرتهم من ظلمات الجهل ويفهموهم الكامل والكمال ، فانهم بعدما عرفوا شخص الكمال والكامل فالتوجّه اليه وترك غيره لا يحتاج الى الدعوة بل نور الفطرة هو أعظم هاد الهي وهو موجود في جميع سلالة البشر .

وفي هذا المعجون الالهي ، أعني الصلاة التي هي معراج القرب الالهي الاستقبال الى القبلة والتوجّه الى النقطة المركزية ورفع اليد وصرف الوجه عن الجهات المتفرقة ادعاء بأن الفطرة قد تيقّظت وخرج نور الفطرة عن الاحتجابات وهذا الادّعاء حقيقي بالنسبة الى الكمّل وأصحاب المعرفة . وأما بالنسبة الينا أصحاب الحجاب فأدبه أن نفهّم القلب أنه لاكمال ولا كامل في جميع دار التحقق سوى الذات المقدسة الكاملة على الاطلاق فان تلك الذات المقدسة كمال بلا نقص وجمال بلا عيب وفعلية بلا شوب القوة وخير بلا اختلاط بالشرّ ونور بلا شوب ظلمة ، وما يوجد في جميع دار التحقق من الكمال والجمال والخير والعزّة والعظمة والنورانية والفعلية والسعادة فهو من نور جمال تلك الذات المقدسة وليس لاحد شركة للذات المقدسة في كمالها الذاتي ، وليس لموجود جمال ولا كمال ولا نور ولا بهاء الا بجمال تلك الذات المقدسة وكمالها ونورها وبهائها .

وبالجملة ، ان العالم قد تنوّر بجلوة جماله المقدس وأعطي له الحياة والعلم والقدرة والا فجميع دار التحقق كانت في ظلمة العدم وكمون الليس وبطون البطلان بل من كان قلبه منوّرا بنور المعرفة يرى كل شيء غير نور جمال الجميل باطلا ولا شيء ، ومعدوما أزلا وأبدا .

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما سمع هذا الشعر للبيد :* الا كل شيء ما خلا الله باطل * قال صلى الله عليه وآله : « هذا الشعر أصدق شعر قاله العرب » فاذا فهّمت قلبك بطلان جميع دار التحقّق وفهّمته كمال الذات المقدسة فلا تحتاج في توجّه القلب الى القبلة الحقيقية والعشق لجمال الجميل على الاطلاق والتنفّر من جميع دار التحقق سوى جلوة الذات المقدسة الى إعمال رويّة بل فطرة الله بنفسها تدعو الانسان اليه بالدعوة الجبلّيّة الفطرية وتكون وجّهت وجهي للذي فطر السموات والارض لسان الذات والقلب والحال وتكون اني لا أحب الافلين لسان فطرة الانسان .

فاعلم أيها الفقير ان العالم بوجهته السوائية زائل وداثر وفانٍ وباطل ليس لاحد من الموجودات من قبل نفسه شيء وليس في ذاته جمال ولا بهاء ونور وسناء ، والجمال والبهاء منحصر بالذات المقدسة ، فتلك الذات المقدسة كما أنها متفردة في الالوهية ووجوب الوجود ، متفردة بالجمال والبهاء والكمال أيضا بل متفرّدة بالوجود ، وان الذلّ والعدم الذاتي والبطلان ثابتة في ناصية ما سواه ، فاصرف قلبك الذي هو مركز لنور فطرة الله من الجهات المتشتتة للاباطيل والاعدام والنواقص ووجهه الى مركز الجمال والكمال وليكن لسان فطرتك في ضميرك الصافي .. ما يقوله العارف الشيرازي :

در ضمير ما نمی گنجد بغير ازدوست كس

هر دو عالم رابد ثمن ده كه مارادوست بس[٣٢]

وصل : عن الامام الصادق عليه السلام : « اذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه واستفرغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله تعالى وعاين بسرّك عظمة الله تعالى واذكر وقوفك بين يديه يوم تبلو كل نفس ما أسلفت وردّوا الى الله مولاهم الحق وقف على قدم الخوف والرجاء » .

وهذا الدستور الشريف دستور جامع لامثالنا المحجوبين الذين لا نستطيع أن نحافظ دائما على حالات قلوبنا ونجمع بين الوحدة والكثرة ونتوجّه الى الحق والخلق فحينئذ لا بد لنا أن نيأس من الدنيا وما فيها عند التوجّه الى الحق واستقبال القبلة ونقطع طمعنا عن الخلق وشؤونه ونخرج عن روحنا وقلبنا المشاغل القلبية والشواغل الروحية لنصير لائقين للحضور في الحضرة ويتجلى في سر روحنا جلوة من جلوات العظمة ، فاذا وجدنا نور العظمة على مقدار استعدادنا نتذكر رجوعنا الى الحق ووقوفنا في محضره المقدس يوم يظهر لكل نفس ما عملت وردّوا الى الله مولاهم الحق ويقع خط البطلان على جميع الاهواء النفسانية والمعبودات الباطلة ، ففي محضر هذا العظيم الشأن الذي جميع دار التحقق هي جلوة من جلوات فعله فان مسكينا مثلك ومثلي لا بد وان يرد بقدمي الخوف والرجاء ويقوم على تينك القدمين وإذا رأينا الضعف والفتور والمسكنة والفقر والذلّة لانفسنا والعظمة والحشمة والجلال والكبرياء في الذات المقدسة فنقع في الخوف والخشية على خطر المقام واذا وجدنا الرحمة والعطوفة والالطاف غير المتناهية والكرامات اللانهائية نكون راجين وآملين .

المراجع والحواشي

١ ــ قال فقيه الامة الشهيد الثاني (قدّس سرّه) : « وأما إزالة النجاسة فالكلام فيها نحو الكلام في الطهارة في التزكية بتطهير القلب من نجاسة الاخلاق ومساوئها فانك اذا أمرت بتطهير ظاهر الجلد وهو القشر وبتطهير الثياب وهو أبعد عن ذاتك فلا تغفل عن تطهير لبّك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له بالتوبة والندم على ما فرط وتصميم العزم على ترك العود في المستقبل ، وطهّر بها باطنك فانها موقع نظر المعبود .

٢ ــ (ص٧٧ والحجر٣٤) .

٣ ــ في الكافي عن علي بن الحسين عليهما السلام(*) : « ان الله تعالى أوحى الى دانيال عليه السلام : إنّ أمقت عبيدي إليّ الجاهل بحق أهل العلم التارك للاقتداء بهم ، وإنّ أحب عبيدي إليّ التقيّ الطالب للثواب الجزيل اللازم للعلماء التابع للحكماء القابل عن الحكماء » وأهل العلم هم الأئمة المعصومون . وقال الحكيم والفيلسوف الاسلامي أبو نصر الفارابي(**) : « ينبغي لمن أراد أن يشرع في الحكمة أن يكون صحيح المزاج متأدّبا بآداب الاخيار قد تعلّم القرآن واللغة وعلوم الشرع أوّلا ، ويكون عفيفا صدوقا معرضا عن الفسق والفجور والغدر والخيانة والمكر والحيلة فارغ البال عن مصالح المعاش مقبلا على أداء الوظائف الشرعية غير مخلّ بركن من أركان الشريعة ولا بأدب من آدابها معظّما للعلم والعلماء ولا يكون عنده لشيء قدر الا الحكمة وأهلها ولا يتخذ العلم حرفة واذا كان بخلاف ذلك فهو عالم زور وحكيم كذب بل لا يعدّ منهم » .

٤ ــ (الحديد٣) .

٥ ــ (النور٣٥) .

٦ ــ (البقرة١١٥) .

٧ ــ البيت للشاعر العارف الحافظ الشيرازي يقول :

ليس ثمة شجرة خالية من نداء « أنا الحق » ولكن ليس هناك كموسى حتى يسمع هذا النداء .

٨ ــ قال علي عليه السلام : « اقبلوا على جيفة افتضحوا بأكلها واصطلحوا على حبّها » وقال أيضا : « يتنافسون في دنيا دنيّة ويتكالبون على جيفة مريحة » .

٩ ــ مصراع معروف يعد كمثل دارج مضمونه : ان ايدينا قصيرة والتمر على النخل فلا تصل اليه ايدينا .

١٠ــ لهذه الشجرة صنف خاص يقال له بالفارسية (بيد مجنون) اي الصفصاف المجنون لها أغصان ضئيلة جدا متدلية الى الارض وهي كما مثل بها الاستاذ تتحرك بأدنى نسيم .

١١ــ مصراع بيت للحافظ الشيرازي يقول : أنت الطائر الذي تركت مكانك فمن أعالي العرش يصفرون لك كي ترجع الى وكرك .

١٢ــ هو أبو الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسن العالم المتبحّر الفقيه المحدّث صاحب الخرائج والجرائح وقصص الانبياء ولب اللباب وشرح النهج وغيره وهو أحد مشايخ ابن شهر آشوب يروي عن جماعة كثيرة من المشايخ . توفي القطب ٤ شوال سنة ٥٧٣ (تعج) كما في البحار نقلا عن خطّ الشهيد(٥) وقبره ببلدة قُم في جوار الحضرة الفاطمية عليها السلام ، مزار معروف .

١٣ــ وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله لابي ذرّ : « يا أبا ذرّ البس الخشن من اللباس والصفيق من الثياب لئلا يجد الفخر فيك مسلكه » .

١٤ــ (مريم٣٩) .

١٥ـــ بيت شعر للمولى الرومي يقول : « ان للاستدلاليّين رِجلاً من خشب ولا يمكن الاعتماد على الرجل الخشبية » .

١٦ـــ قال الشهيد قدّس سرّه : « واما ستر العورة فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فان ظاهر بدنك موقع نظر الخلق فما رأيك في عورات باطنك ومقابح سرّك التي لا يطّلع عليها الا ربك فاحضر تلك المقابح ببالك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله تعالى ساتر وانما يسترها ويكفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد باحضارها من مكانها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكانها فتذل به نفسك وتسكن تحت الخجلة وتقوم بين يدي الله قيام العبد المجرم المسيء الآبق ندم فرجع الى مولاه بانكسار رأسه من الحياء والخوف » .

١٧ـــ (فاطر١٥) .

١٨ـــ (الزمر٦٩) .

١٩ـــ (البقرة٢٥٧) .

٢٠ـــ (الاعراف٢٦) .

٢١ـــ في الكافي باسناده الى معاوية بن وهب قال : سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول : « اذا تاب العبد توبة نصوحا أحبّه الله فستر الله عليه في الدنيا والاخرة ، فقلت : وكيف يستر عليه ؟ قال : يُنسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب و (ثم خ ل) يوحي الى جوارحه اكتمي عليه ذنوبه ويوحي الى بقاع الارض اكتمي عليه ما كان يعمل عليك من الذنوب فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب » .

٢٢ـــ ان الستّارية من أوصاف الله تعالى وطوبى لعبد تخلّق بأخلاق الله .. وقد شدّد النكير في الروايات على من كان بصدد إفشاء عيب من أخيه المؤمن كما قال الصادق عليه السلام : « من اطّلع من مؤمن على ذنب أو سيئة فأفشى ذلك عليه ولم يكتمها ولم يستغفر الله له كان عند الله كعاملها وعليه وزر

ذلك الذي أفشاه عليه وكان مغفورا لعاملها وكان عقابه ما أفشى عليه في الدنيا مستور عليه في الاخرة ثم يجد الله أكرم من أن يثنّي عليه عقابا في الاخرة » .

وقال عليه السلام : « من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروّته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته الى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان » . والروايات في ذلك أكثر من أن تذكر .

وذكر المحدّث القمّي في السفينة في مادة عيب عن سفيان بن عيينة(***) قال في قوله تعالى : الاّ أمم أمثالكم .. مافي الارض آدمي الا وفيه شبه من بعض البهائم ، فمنهم من يقدم اقدام الأسد ومنهم من يعدو عدو الذئب ومنهم من ينبح نباح الكلب ومنهم من يتطوّس كفعل الطاووس ، ومنهم من يشبه الخنزير ، فانه لو ألقي اليه الطعام الطيّب تركه واذا قام الرجل عن رجيعه ولغ فيه ، وكذلك نجد الادميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها فإن أخطأت مرة واحدة حفظها ولم يجلس مجلسا الا رواه عنه .. ثم قال : فاعلم يا بنيّ انك انما تعشر البهائم والسباع فبالغ في الاحتراز . قال المحدث القمي بعد نقل هذا الكلام أقول وأحسن من هذا ما قال أمير المؤمنين عليه السلام : « ان الاشرار يتتبّعون مساوىء الناس ويتركون محاسنهم كما يتتبّع الذباب المواضع الفاسدة من الجسد ويترك الصحيح » .

٢٣ــ اقول : ويمكن أن يكون الاشتقاق من عني فيكون المعنى : واصفح عما لا يفيدك والمعنيان متقاربان .

٢٤ــ قال الشهيد رضوان الله عليه : وأما المكان فاستحضر فيه أنك كائن بين يدي ملك الملوك تريد مناجاته والتضرّع اليه والتماس رضاه ونظره اليك بعين الرحمة ، فانظر مكانا يصلح لذلك كالمساجد الشريفة والمشاهد المطهّرة مع الامكان فانه تعالى جعل تلك المواضع محلاّ لاجابته ومظنّة لقبوله ورحمته ومعدنا لمرضاته ومغفرته على مثال حضرة الملوك الذين يجعلونها وسيلة لذلك

فادخلها ملازما للسكينة والوقار ومراقبا للخشوع والانكسار سائلا أن يجعلك من خاص عباده وان يلحقك بالماضين منهم وراقب الله كأنك على الصراط جائز وكن مترددا بين الخوف والرجاء وبين القبول والطرد فيخشع حينئذ قلبك ويخضع لبّك وتتأهل لأن تفيض عليك الرحمة وتنالك يد العاطفة وترعاك عين العناية .

وقال العارف القاضي سعيد القمّي : ان للاماكن أثرا في حجاب القلب عن الله وإقباله اليه تعالى اللهم الاّ لاصحاب الاحوال حيث لا يشغلهم حال عن حال فانظر في أي مكان ومرتبة بالنظر الى حضرة ذي الجلال فان لم تكن خارجا عن مقام الحسّ فذلك كمال النقص ، فاجهد ان تسعى الى مسجد القلب لتفوز بصلاة جميع القوى وجماعة المشاعر والاعضاء ، وان اجتهدت ان تدخل كعبة الروح فتصلي مع جماعة الارواح المقدسة والنفوس القدسية فتلك الصلاة نور ، وان ارتقيت بروحك الى الملأ الاعلى وتدخل المسجد الاقصى والعالم الالهي العقلي فذلك نور على نور .

٢٥ــ قد تفطّنت بفضل الله تعالى لنكتة لطيفة في المقام وهي أن الرواية الشريفة كأنها قررت للوافدين الى حضرة ذي الجلال مرحلتين ، الاولى : الوفود على حضرته والورود الى جنابه ، والثانية : المجالسة والمؤانسة معه جلّت وعظمت نعماؤه . فخصّت الاولى بالمطهّرين والثانية بالصدّيقين كما أن في القرآن الكريم اشارة لطيفة الى هاتين ، أما بالنسبة الى الاولى فهو قول الله سبحانه في شأن مريم الطاهرة : « واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » (آل عمران٤٣) ، حيث أن الامر بالقنوت والسجود والركوع مع الراكعين وقيامها في صفّهم بعد اصطفائها وتطهيرها وخصوصا اذا جعلنا الواو في وطهّرك للعطف التفسيري وهو أفضل لئلاّ يلزم التكرار في الاصطفاء

في قوله تعالى واصطفاك على نساء العالمين .. فيكون المعنى ان قيامها عليها السلام في مجلس الذكر بعد كونها مطهّرة ، وان جعلنا الواو لمطلق العطف فلا يضرّ أيضا بالمعنى الذي نحن بصدده وهو أنه لابد للوافد على الله أن يكون مطهّرا كما اشار اليه في الرواية الشريفة بقوله : « لايطأ بساطه الا المطهّرون » .

وأما بالنسبة الى المرحلة الثانية ، فقوله تعالى : « أولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربهم » (الحديد١٩) . فان فيها ايضا إشارة في غاية اللطافة لما ذكرنا وهي أن الكون عند الربّ تعالى يختصّ بالصدّيقين سواء جعلنا الظرف متعلقا بالشهداء كما هو الظاهر لكونه أقرب أو جعلناه متعلقا بأولئك ، وان كان بعيدا لبعده وعلى كلا التقديرين يستفاد ما ذكرنا من الآية الشريفة فافهم واغتنم ولله الحمد .

٢٦ـــ في الكافي الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « مرّ بي أبي وأنا بالطواف وأنا حَدَث وقد اجتهدت في العبادة فرآني وأنا أتصابّ عرقا فقال لي : يا جعفر يا بنيّ ان الله اذا أحب عبدا يدخله الجنة ورضي عنه باليسير » .

وفيه أيضا عن حنان بن سدير قال : « سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول : ان الله اذا أحبّ عبدا فعمل قليلا جزاه بالقليل الكثير ولم يتعاظمه ان يجزي بالقليل الكثير له » .

أقول : ذكر صاحب الوسائل (قدّس سرّه) هاتين الروايتين في الوسائل في باب (استحباب الاقتصاد في العبادة) وعندي أنها لا تناسب الباب بل الاولى أن ينعقد باب في كتب الاحاديث بعنوان : (باب أنّ

الاصل في اشتراط القبول في الاعمال محبة الله عز وجل للعبد) وتذكر هاتان الروايتان في ذلك الباب .

٢٧ـــ اعلم أن المصلي في الحقيقة ونفس الامر العقل لان مقام العقل مقام العبادة وهو الواقف في مقام اياك نعبد واياك نستعين ، ومقام العقل اول مقام الصحو ، وما قبله مقام السكر والفناء والزوال وفقدان النفس ووجدان الربّ . قال تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » . قال الباقر عليه السلام : « كان شيئا ولم يكن مذكورا » .

وفي المجمع عن الباقر والصادق عليهما السلام : « كان مذكورا في العلم ولم يكن مذكورا في الخلق » . وروايات أخر تقرب من هذا المعنى .

فالمصلي هو العقل فقط ولذا ترى أن المجنون والصبي والنائم والمغمى عليه والسكران ليسوا مكلّفين بالصلاة وان كان بالنسبة الى السكران من باب الامتناع بالاختيار وهو لا ينافي الاختيار .. فليتدبّر .

ثم ان عدم التكليف في الموارد المذكورة من جهة أن الاصل الذي عليه مدار الصلاة وسائر التكاليف مفقود في هذه الموارد وان المكلّف الاصلي هو العقل كما قاله تعالى حين خلقه : « اقبل فأقبل ثم قال له : أدبر فأدبر فقال بك أثيب وبك أعاقب » ، وأما غير العقل فالتكليف له تبعي وبالعرض .

ومكان العقل ومحلّه القلب الذي هو عرش الرحمن ، وحيث أن حقيقة الصلاة عبارة عن توجّه العقل بكينونته الى الله سبحانه فالمسجد ومكان الصلاة والعبادة هو القلب ، ولا بدّ أن يكون المسجد ومحل العبادة طاهرا من لوث النجاسات كما في الحديث : « جنّبوا مساجدكم عن النجاسات » . فمن الواجب أن يكون المصلّى الواقعي ومحل المصلي الحقيقي

طاهرا من لوث الكفر والنفاق والشرك بجميع مراتبها ومن كل ما هو مكروه للمحبوب من قبيل الحسد والعجب والكبر وحبّ الرئاسة وأمثالها . وحيث أن الصلاة معراج المؤمن فاذا كان في القلب شيء من ظلمة الكفر والفسق وأثقالهما فذلك القلب لا يقدر على العروج . فالواجب ان تصدر الصلاة عن قلب خاص مزكّى وذي بصيرة تامة ومعرفة كاملة لله سبحانه وصفاته وأسمائه ومعرفة أنبيائه وأوليائه ومعاداة أعدائه ، ويكون مؤمنا بكل ما جاء به الانبياء والرسل « والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله » (البقرة١٣٦) .. ولا يصحّ صدور الصلاة عن القلب الكافر غير البصير وغير المؤمن بالله وأوليائه وغير المعادي لاعداء الله سواء كان عدم ايمانه في هذا العالم أو في العالم الاول ، فان صلاته حينئذ من لطخ اصابه في العالم الاول من طينة الاولياء وصار سببا لايمانه الصوري وحسن خلقه العرضي غير الذاتي كما في الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل : من أن حسن شيم أعداء الله من لطخ أصحاب اليمين[1] كما أن الصورة الانسانية للكافر مغصوبة عنده في هذه الدنيا لينال بواسطتها شهواته ومقاصده الحيوانية ، وفي يوم تبلى السرائر وتنكشف الحقائق تؤخذ الصورة منه ويحشر على غير صورة الانسان ، فما في وجودهم من النور والخير والصلاح مغصوبة وكله من مقتضيات لباس التقوى المختصّ بالمؤمنين ، فأعمال هؤلاء تقع في المكان المغصوب ولا تنفعهم شيئا بل نفعها عائد الى صاحب اللطخ ومتعلقة به ، فان الغاصب يؤخذ بأشدّ الاحوال وترجع الاعمال الى أصلها والاعمال غير المرضية الصادرة عن المؤمن فهي من اللطخ الذي أصابه من أصحاب الشمال وظلّه وشعاعه فترجع اليهم لا محالة كرجوع شعاع الشمس اليها كما صرّح بذلك في الرواية التي رواها الصدوق

في العلل عن الباقر عليه السلام وفيها : « اخبرني يا ابراهيم عن الشمس اذا طلعت وبدا شعاعها في البلدان أهو بائن في القرص ؟ قلت : في حال طلوعه بائن . قال : أليس اذا غابت الشمس اتصل ذلك الشعاع بالقرص حتى يعود اليه ؟ قلت : نعم . قال : كذلك يعود كل شيء الى سنخه وجوهره وأصله ، فاذا كان يوم القيامة نزع الله عز وجل سنخ الناصب وطينته مع أثقاله وأوزاره من المؤمن فيلحقها كلها بالناصب وينزع سنخ المؤمن وطينته مع حسناته وأبواب برّه ، واجتهاده من الناصب فيلحقها كلها بالمؤمن » .

فبالتدقيق فيما ذكرنا ، وفي الروايات الواردة في باب الطينة والميثاق ربّما يتّضح حقيقة الامر في الايمان المستقرّ والمستودع وانه لابد للايمان المستودع أن يزول وهذا مقتضى عدله سبحانه لتجزى كل نفس بما كسبت ومن هذه الجهة فقد ركز في روايات الباب على العدل الالهي والحكمة الربانية كقول الباقر عليه السلام في الرواية المتقدمة فاذا عرضت هذه الاعمال كلها على الله عز وجل قال : أنا عدل لا أجور ومنصف لا أظلم وحكم لا أحيف ولا أميل ولا أشطط الحقوا الاعمال السيئة التي اجترحها المؤمن بسنخ الناصب وطينته والحقوا الاعمال الحسنة التي اكتسبها الناصب بسنخ المؤمن وطينته وردّوها كلها الى أصلها فاني أنا الله لا إله الاّ أنا عالم السرّ وأخفى وأنا المطّلع على قلوب عبادي لا أحيف ولا أظلم ولا ألزم أحدا الا ما عرفته منه قبل أن أخلقه .

وحيث أن الرواية مشتملة على أسرار من المعارف ممّا يصعب على القلوب فهمه وعلى القلوب إدراكه كما صرّح عليه السلام في آخرها بقوله : خذها إليك يا أبا اسحاق فوالله انه لمن غرر أحاديثنا وباطن سرائرنا ومكنون

خزائننا فنقرّبها الى الاذهان البسيطة ببيان بسيط وهو انّا نفرض ان انسانا يريد أن يعلّم ولده ويربّيه فاستأجر له معلّما ومربّيا وهيأ له جميع ما له دخل وتأثير في تعلّمه وتربيته ولكن انسانا أخر منع الولد عن التعلّم باغوائه وتدليساته وأخذ من ماله واتّجر لنفسه فأصبح الولد جاهلا وفقيرا ، أليس مقتضى العدل حينئذ أن يكون وزر جهل الولد وفقره على ذلك الغاصب ويؤخذ منه ما اتّجر لنفسه بمال الولد فأصبح هو غنيّا والولد فقيرا فيعطى المال للولد ليجبر ما أصابه من الظلم والحرمان فعلى ذلك فما جزاء الكفّار والمنافقين وأمثالهم الذين ضيّعوا ما تحملّ الانبياء والاولياء في سبيل اصلاح المجتمع وأفسدوا على المؤمنين آراءهم وأعمالهم ، وفي نفس الوقت استفادوا لانفسهم فوائد كانت نتيجة مشاقّ الانبياء ومساعيهم وكان المؤمنون أحقّ بها منهم ، أليس جزاؤهم ما ذكر في الرواية الشريفة من نزع حسناتهم وإعطائها للمؤمنين ؟ وكذلك نزع سيّئات المؤمنين وإعطاؤها لهم . وقد أشير الى هذا الحكم العدل في موارد كثيرة تأويلا وتصريحا .

فمن التأويل ما أشار اليه الباقر عليه السلام وقال : يا ابراهيم اقرأ هذه الآية قلت يابن رسول الله أيّة آية ؟ قال قوله تعالى قال « معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون » (يوسف٧٩) هو في الظاهر ما تفهمونه وهو والله في إلباطن هذا بعينه يا ابراهيم ان للقرآن ظاهرا وباطنا ومحكما ومتشابها وناسخا ومنسوخا الى أن قال عليه السلام وان ما أخبرتك لموجود في القرآن كلّه قلت هذا بعينه يوجد في القرآن ؟ قال نعم يوجد في أكثر من ثلاثين موضعا في القرآن أتحب أن أقرأ ذلك عليك ؟ قلت : بلى يابن رسول الله فقال قال الله عز وجل : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء انّهم

لكاذبون وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ..» الآية ، (العنكبوت١٣٠)أزيدك يا ابراهيم ؟ قلت : بلى يابن رسول الله قال : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم الا ساء ما يزرون » (النحل٢٥) . أتحب أن أزيدك ؟ قلت : بلى يابن رسول الله . قال : « فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما » (الفرقان٧٠)الى أن قال عليه السلام : ألم أبيّن لك أمر المزاج والطينتين من القرآن ؟ قلت : بلى يابن رسول الله . قال : اقرأ يا ابراهيم : « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللّمم ان ربك واسع المغفرة هو أعلم اذ أنشأكم من الارض ....ـــ يعني من الارض الطّيبة والارض المنتنة ـــ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى » (الاعراف٢٩ ـــ ٣٠) . يقول لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاتة وصيامه وزكاته ونسكه لان الله عز وجل أعلم بمن اتّقى منكم فان ذلك من قبل اللمم (وهو المزاج) .

ازيدك يا ابراهيم ؟ قلت بلى يابن رسول الله . قال : « كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حقّ عليهم الضلالة انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله .. أئمة الجور دون أئمة الحق ويحسبون أنهم مهتدون » ، خذها اليك يا أبا اسحاق فوالله انه لمن غرر أحاديثنا .« الحديث » فعلى المتعلم البصير والقارىء الخبير أن يتأمل في الحديث الشريف ويتفحّص القرآن الكريم ليقف على بقية الآيات الدالّة على ما ذكرنا وهي على ما ذكره الامام باقر العلوم عليه الصلاة والسلام ما يزيد على ثلاثين موضعا في القرآن . وسيجيء الاشارة الى بعض ما ذكرنا من المؤلف دام ظلّه في تفسير إياك نعبد وإياك نستعين فانتظر .

٢٨ ـــ منها ما رواه الكلبي (ره) في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال :

وجدنا في كتاب علي « ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » (الاعراف١٢٨)أنا وأهل بيتي الذين أورثنا الله الارض ونحن المتقون والارض كلها لنا .

ورواية أخرى فيه أيضا ومفادها أوسع من الاولى قال عليه السلام : « الدنيا وما فيها لله تبارك وتعالى ولرسوله ولنا .. وفي ثالثة ومفادها أوسع من السابقتين عن أبي بصير قال : قلت له : أما على الامام زكاة ؟ فقال : أحلت يا أبا محمد أما علمت أن الدنيا والآخرة للامام يضعها حيث يشاء ويدفعها الى من يشاء جائز له وذلك من الله . » .

٢٩ ــ مصراع بيت للشاعر المعروف السعدي الشيرازي يقول : أنا للعالم عاشق حيث منه الكون أجمع .

٣٠ ــ (الاعراف١٤٢)

٣١ ــ مصراع معروف . مضمونه : انت اقرأ بنفسك الحديث المفصل عن هذا المجمل .

٣٢ ــ لاتسع قلوبنا أحدا غير الحبيب فدع الكونين للعدوّ فان الحبيب يكفينا .

شروح الحواشي

١ ــ هو الامام الرابع زين العابدين وسيد الساجدين ومصباح المتهجدين وقدوة المتّقين أبو محمد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ولد عليه السلام بالمدينة المنوّرة يوم النصف من جمادى الاولى سنة٣٦ ستّ وثلاثين يوم فتح البصرة ونزول النصر على أمير المؤمنين عليه السلام وغلبته على أصحاب الجمل . وقيل في الخامس من شعبان سنة ٣٨ وأمّه ذات العلى والمجد ــ شاه زنان بنت يزدجرد . وهو ابن شهريار بن كسرى ــ ذو سؤدد ليس يخاف كسرى ، وقيل كان اسمها شهربانويه وفيه يقول ابو الاسود :

وان غلاما بين كسرى وهاشم لاكرم من نيطت عليه التمائم

قال الزهري ما رأيت هاشميا أفضل من علي بن الحسين عليه السلام وعن ابي جعفر عليه السلام قال : كان علي بن الحسين عليه السلام يصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة وكانت الريح تميله بمنزلة السنبلة ، وكان اذا توضأ للصلاة يصفرّ لونه فيقول له أهله ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول تدرون بين يدي من أريد أن أقوم ؟!

وعن أبن عايشة قال : سمعت أهل المدينة يقولون : فقدنا صدقة السرّ حين مات علي بن الحسين عليه السلام وكان عليه السلام اذا حضرت الصلاة اقشعرّ جلده واصفر لونه وارتعد كالسعفة وكان اذا قام في صلاته غشي لونه لون آخر ، وكان قيامه في صلوته قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل ، كانت أعضاؤه ترتعد من خشية الله وكان في الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه الا ما حركت الريح منه واذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفضّ عرقا . واذا كان شهر رمضان لم يتكلم الا بالدعاء والتسبيح والاستغفار والتكبير وكان له خُريطة فيها تربة الحسين (ع) وكان لا يسجد الاّ على التراب وكان اذا قرأ « مالك يوم الدين » يكرّرها حتى يكاد أن يموت . وفضائله ومكارم أخلاقه أكثر من أن تعدّ ومعجزاته أكثر من أن تحصى وله الصحيفة السجادية زبور آل

محمد . توفي عليه السلام يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت او مضت من المحرّم سنة ٩٥ خمس وتسعين من الهجرة وله يومئذ سبع وخمسون سنة سمّه هشام بن عبد الملك وكان في ملك الوليد بن عبد الملك . وسمّيت سنة وفاته سنة الفقهاء لكثرة من مات فيها من العلماء والفقهاء . قال السبط في التذكرة وكان عليه السلام سيّد الفقهاء مات في أولها وتتابع الناس بعده سعيد بن المسيّب وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وعامة فقهاء المدينة وقبره بالبقيع في القبة التي فيها العباس وعمّه الحسن بن علي عليه السلام وعن أبي الحسن عليه السلام قال : ان علياً بن الحسين لمّا حضرته الوفاة أغمي عليه ثم فتح عينيه وقرأ « إذا وقعت الواقعة » و « إنا فتحنا لك » ، وقال : « الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء فنعم اجر العاملين » (الزمر٧٤) ثم قبض من ساعته ولم يقل شيئا .

٢ ــ الفارابي ابو نصر محمد بن طرخان الفارابي التركي الحكيم المشهور صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى قالوا انه كان من أكبر فلاسفة المسلمين ولم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه ويحكى أنه كان منفردا بنفسه لا يجالس الناس وكان مدّة مقامه بدمشق لا يكون غالبا الا عند مجتمع ماء او مشتبك رياض ويؤلف هناك كتبه ويتناوبه المشتغلون عليه . وكان أزهد الناس في الدنيا لا يحتفل بأمر مكسب ولا مسكن وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم من بيت المال اربعة دراهم وهو الذي الذي اقتصر عليها لقناعته ولم يزل على ذلك الى أن توفي بدمشق سنة ٣٣٩ (شلط) وقد ناهز ثمانين سنة وصلى عليه سيف الدولة في أربعة من خواصه ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير .

٣ ــ ابن عيينه بضم عينه أبو محمد سفيان بن عيينه ابن ابي عمر ان الكوفي المكي تابعي التابعين كان جدّه أبو عمران من عمّال خالد بن عبد الله القسري فلّما عزل خالد عن العراق وولى يوسف بن عمر طلب عمّال خالد فهرب منه الى مكة فنزلها وولد سفيان سنة ١٠٧ ذكره الخطيب في تاريخه وأثنى عليه ، وقال : كان له في العلم قدر كبير ومحلّ خطير وأدرك نيّفاً وثمانين نفساً من التابعين وسمع ابن شهاب الزهري وعمرو بن دينار وابا اسحاق السبيعي ثم ذكر جماعة كثيرة من نظرائهم (انتهى) . وهو عندنا كسفيان الثوري وينقل منه بعض الكلمات الحكيمة التي ينبغي أخذها فان الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها . حكي أنه كتب الى أخ له : أما آن لك يا أخي ان تستوحش من الناس ولقد أدركنا الناس وهم اذا بلغ أحدهم أربعين سنة جن (أي

ستر) عن معارفه وصار كأنه مختلط العقل من شدّة تأهّبه للموت وكان اذا أعطاه الناس شيئا قال أعطون لفلان فإنه أحوج مني .

وقال خصلتان يعسر علاجهما : الطمع فيما بأيدي الناس واخلاص العمل لله . ويقول : اذا كان نهاري نهار سفيه وليلي ليل جاهل فماذا أصنع بالعلم الذي كتبت ؟. توفّي في غرّة رجب سنة ١٩٨ (فصح) بمكة ودفن بالحجون بتقديم الحاء المهملة عل الجيم موضع بمعلاة مكة ومعلاة مقبرة بها دفنت خديجة رضي الله عنها .

المقالة الثالثة

في مقارنات الصلاة

وفيها

ثمانية أبواب

الباب الأول

بعض آداب الأذان والإقامة

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في سرّهما الجملي وآدابهما الاجمالية(١)

اعلم أن السالك الى الله لا بد له في الأذان أن يعلن للقلب الذي هو سلطان القوى الملكوتية والملكية ولسائر الجنود المنتشرة في الجهات المشتتة للملك والملكوت ، اعلان الحضور في المحضر وحيث أنه قد قرب وقت الحضور والملاقاة فيهيىء تلك القوى حتى أنـه إن كـان مـن المشتاقيـن والعاشقين . فلا يفقد الصبر والتحمّل بالتجلّي مفاجاة .

وان كان من المحجوبين فلا يدخل المحضر المقدس بدون تهيئة الاسباب والاداب فالسرّ الاجمالي للأذان هو الاعلان للقوى الملكوتية والملكية والجيوش الالهية للحضور ، والادب الاجمالي له هو التنبّه الى عظمة المقام وخطره وعظمة المحضر والحاضر وتذلّل الممكن وفقره وفاقته ونقصه وعجزه عن القيام بالامر وعن القابلية للحضور في المحضر ان لم يؤيده اللطف والرحمة للحق جل وعلا ويجبر نقصه .

والاقامة : هي اقامة القوى الملكوتية والملكية في المحضر واحضارها في الحضور ، وأدبها هو الخوف والخشية والحياء والخجل والرجاء الواثق الى الرحمة غير المتناهية .

والسالك لابد له أن يفهم قلبه في جميع فصول الأذان والاقامة عظمة المحضر والحضور والحاضر ويجعل ذل نفسه وعجزها وقصورها نصب عينيه حتى يحصل الخوف والخشية ومن الجانب الاخر لابد له ان يريه الرحمة الواسعة والالطاف الكريمة حتى يحصل له الرجاء والشوق ، فالقلوب العشقية يغلبها الشوق والجذبة . وبقدم الحب والعشق تضع أقدامها في محضر الأنس ، وقلوبهم بواسطة تلك الجذبة الغيبيّة وبما فيها من عشق المحضر والحاضر تشتغل الى آخر الصلاة بالمعاشقة والمعانقة مع ذكر الحق وفكره .

وفي الحديث عن علي بن ابي طالب عليه السلام قال :

« أفضل الناس من عشق العبادة وعانقها وأحبّها بقلبه وباشرها بجسده وتفرّغ لها فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على يسر أم على عسر » .

والقلوب الخوفية يتجلى لها سلطان العظمة وتغلب عليها جذبة القهر وتجعلها في حالة الصعق ويذوّبها الخوف والخشية ويمنعها عن كل شيء القصور الذاتي والاستشعار بذلّة نفسه وعجزه .

وفي الحديث عن موسى بن جعفر عليهما السلام[٢] قال : « قال أمير المؤمنين عليه السلام : « ان لله عبادا كسرت قلوبهم خشيته فأسكتهم عن النطق » » .

والحق تعالى يتجلى لاوليائه الكمّل تارة التجلّي اللطفي ويكون العشق والجذبة الحبية هاديا لهم ، كما في الحديث بأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان ينتظر الصلاة ويشتدّ عشقه وشوقه فيقول لبلال المؤذن : « أرحنا يا بلال » .. وأخرى يتجلى لهم بتجلي العظمة والسلطنة ويحصل فيهم الخوف والخشية كما نقلت الحالات الخوفية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن

أئمة الهدى عليهم السلام ، وثالثة يتجلى لهم بالتجلي الاحدي الجمعي على حسب طاقة قلوبهم وسعة أوعيتها ، ونحن ـــ المحجوبين ، المشتغلين بالدنيا والمحبوسين في سجن الطبيعة والمغلولين بأغلال الشهوات والآمال ، والمحرومين من السعادات العقلية الإلهية الذين لا نصحو من سكر الطبيعة الى صبح الازل ، ولا نفيق من نومنا الثقيل أبدا ـــ خارجون عن نطاق هذه التقسيمات ومستثنون من نطاق. هذا البيان ، فآداب الحضور لنا طور آخر والقيام بالوظائف القلبية على شكل آخر ولكن المقدم على الكل أن نخرج من قلوبنا اليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله الذي هو من الجنود العظيمة لابليس ومن القاءات شياطين الانس والجن ولا نتوهم ان لباس هذه المقامات قد خيّط على قامة أشخاص خاصة وأيدي آمالنا عنها قاصرة وأرجل سير البشر عنها راجلة فلا نخطو خطوة أصلا ونبقى بالبرودة والوهم مخلّدين في أرض الطبيعة ، لا فليس الامر على ما نتوهّم . نعم في نفس الوقت أيضا أنا أقول : ان المقام الخاص لكمّل أهل الله لا يتيسّر لاحد ولكن للمقامات المعنوية والمعارف الالهية مدارج غير متناهية ولها مراتب كثيرة يتيسّر للنوع أكثر تلك المقامات والمعارف والحالات والمدارج ، ان تركتهم البرودة والتهاون الذي في أنفسهم ، وترتفع يد العناد والتعصب لاهل الجهل والعناد عن قلوب عباد الله ولا يكون لهم شيطان طريق سلوكهم ، فأدب الحضور بالنسبة الينا هو أنه حيث انا في بدء الامر لم نتجاوز عن مرتبة الحس والظاهر ، وليس في أعيننا سوى العظمة والجلالة الدنيوية وليس عندنا أي خبر عن العظمات الغيبية الالهية ، فلا بد لنا أن نرى محضر الحق تعالى كمحضر سلطان عظيم الشأن قد أدرك القلب عظمته وأن نفهم قلوبنا أن كل عظمة وجلال وكبرياء هي تجلٍ من عظمة عالم الملكوت قد تنزّلت في

هذا العالم ، وان عالم الملكوت بالنسبة الى العوالم الغيبية وفي جنبها ليس له قدر محسوس ، فنفهّم القلب ان العالم هو المحضر المقدّس لحضرة الحق وأن الحق تعالى حاضر في جميع الامكنة والاحياز ، وبالخصوص فان الصلاة هي إذن خاص للحضور وميعاد مخصوص للملاقاة. والمراودة مع الحضرة الاحدية فاذا جعلنا القلب مستشعرا العظمة والحضور وان كان ذلك في بدء الامر مع التكلّف ولكن يستأنس به القلب على التدريج ويكون هذا المجاز حقيقة ، فاذا قمنا بالآداب الصورية للتعامل مع مالك الملوك ، وأتينا بالآداب الحضورية الظاهرية فيحصل أثر منها في القلب أيضا ، ويستشعر القلب العظمة ويصل الانسان تدريجيا الى النتائج المطلوبة وكذلك بالنسبة الى آثار الحب والعشق فانها ايضا تحصل بالتحصيل والرياضة ، ففي أول الامر لا بد أن يعرض على النفس الرحمات الصورية والالطاف الحسية ويوصل الى القلب مقام الرحمانية والرحيمية والمنعمية كي يستأنس القلب على التدريج ويحصل الأثر في الباطن من الظاهر وتتنوّر مملكة الباطن من آثار الجمال وتحصل النتائج المطلوبة والانسان اذا قام بالأمر وجاهد في سبيل الله فالحق تعالى يؤيده وينجيه باليد الغيبية من ظلمات عالم الطبيعة وينوّر أرض قلبه المظلمة بإشراق نور جماله ويبدله بها السموات الروحية ومن يقترف حسنه نزد فيها حسنا ان الله غفور رحيم[٣] .

المراجع والحواشي

١ ــ روى الشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) في كتابه من لا يحضره الفقيه عن عبد الله بن علي قال : « حملت متاعي من البصرة الى مصر فقدمتها فبينا أنا في بعض الطريق فاذا أنا بشيخ طويل شديد الادمة (شديد السمرة) أبيض الرأس واللحية عليه طمران أحدهما أسود والاخر أبيض فقلت من هذا ؟ قالوا : بلال مولى رسول الله فأخذت ألواحي فأتيته » .

أقول : الظاهر ان الراوي وهو عبد الله بن علي كان تاجرا ، وقوله أخذت ألواحي فأتيته مما يلفت النظر الى أن المسلمين في الصدر الأول كانوا حريصين على أخذ العلم والحديث . فهذا الرجل التاجر في حين انه كان يدور البلدان في تجارته فان له ألواحا معدّة لكتابة الحديث كمتعلم مستعدّ للدراسة ، وبمجرد أن عرف بلالا أخذ ألواحه وأسرع في حضور مجلس الدرس .

قال : فأتيته فسلّمت عليه فقلت له : السلام عليك أيها الشيخ . فقال : وعليك السلام . فقلت : يرحمك الله حدّثني بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال : وما يدريك من أنا ؟ فقلت : أنت بلال مؤذن رسول الله . قال : فبكى وبكيت حتى اجتمع الناس علينا ونحن نبكي .

أقول الظاهر أن بلالا لما سمع اسم رسول الله ، تذكّر تلك الايام الذهبية ومثل له رسول الله بسيمائه الملكوتيّة وتجدّدت له خواطر اللطف والمحبة التي كانت له من رسول الله فبكى حتّى أبكى الرجل التاجر أيضا وانجذب الناس اليه ينظرون ويتفكرون في أمره .

قال : ثم قال : يا غلام من أي البلاد أنت ؟ قلت : من أهل العراق .
قال : بخ بخ ثم سكت ساعة ثم قال اكتب يا أخا أهل العراق : بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله ﷺ يقول : المؤذنون أمناء المؤمنين على صلاتهم وصومهم ولحومهم ودمائهم لا يسألون الله عز وجل الا أعطاهم ولا يشفعون في شيء الا شفعوا .

أقول : إن قبول الشفاعة وإعطاء السؤال للمؤذنين في مقابل ما لهم من كلفة المسؤولية ومشقة أداء الوظيفة التي على عهدتهم كالشرطة في المدينة والدرك في البرّ فانهم وان كانوا متعهدين حفظ أموال الناس ونفوسهم والوفاء بهذا العهد أمر صعب ولكنه في مقابل هذا التعهّد تقبل تقريراتهم وشهاداتهم عند الحكومة ، فكذلك المؤذنون موظّفون ان يعلنوا اسلام أهل المدينة او القرية عندما يمرّ عليهم جند الاسلام ، وكذلك أن يعلنوا ان اللحوم التي تباع في سوقهم يجوز أكلها لان السوق سوق المسلمين ، وفي الافطار في الصوم وكذلك الامساك عن الاكل والشرب وسائر المفطرات الاعتماد على أذانهم وكذلك دخول أوقات الصلاة فلابد أن يكونوا أمناء وأن يتحملوا ويراقبوا الوقت وهذا يلازم المشقة وبازاء هذه المشقة تكون شفاعتهم مقبولة ودعاؤهم مستجابا .

رجعنا الى الحديث :

قلت : زدني رحمك الله تعالى .قال : أكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من أذن أربعين عاما محتسبا بعثه الله عز وجل يوم القيامة وله عمل أربعين صدّيقا عملا مبرورا مستقبلا » .

قلت : زدني رحمك الله . قال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من أذن عشرين عاما بعثه الله عز وجل يوم القيامة وله من النور مثل زنة السماء » .

أقول : ان تلقين توحيد الله وعظمته جل جلاله للنفس طوال عشرين

سنة كل يوم من أيامها خمس مرات مرافقاً للتلقين السمعي يوجد في سماء الـروح والقـلب نوراً أضاء صراطـه في الآخرة ظهـوراً تامــاً عنــد مروره بالصراط الجسر الممدود بين الجنة والنار فتقول لهم جهنم جَزْياً فلان فقد أطفأ نورك ناري .

رجعنا الى الحديث :

قلت : زدني رحمك الله . قال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من أذن عشر سنين أسكنه الله مع ابراهيم الخليل في قبّته أو درجته .» .

قلت : زدني يرحمك الله . قال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من أذن سنة واحدة بعثه الله عز وجل يوم القيامة وقد غفرت له ذنوبه كلّها بالغة ما بلغت ولو كانت مثل زنة جبل أحد » .

قلت : زدني يرحمك الله . قال : نعم فاحفظ واعمل واحتسب . سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من أذّن في سبيل الله صلاة واحدة ايمانا واحتسابا وتقرّبا الى الله تعالى غفر الله له ما سلف من ذنوبه ومنّ عليه بالعصمة فيما بقي من عمره وجمع بينه وبين الشهداء في الجنة » .

أقول : هذا تفضّل من الله سبحانه بأنه يعطي لمن أذن في سبيل الله صلاة واحدة وقام بالايثار والفداء والتفدّي لله سبحانه ولو بهذا المقدار اليسير أجر الذين ضحوّا بأنفسهم ودمائهم واستشهدوا في سبيل الله وان الله يجمع بينه وبنيهم في الجنة ولا يذهب عليك ان الاجتماع مع الشهداء في الجنة لا يلازم الاشتراك معهم في المقام والمرتبة والتنعّمات الروحانية كما هو كذلك في هذا العالم فان الاجتماع مع عالم روحاني أو كبير من الكبراء وان كان فخرا وشرفا في حدّ نفسه اكنه لا يلازم البلوغ الى مرتبته كما هو واضح .

بقية الحديث :

قلت : زدني يرحمك الله ، حدّثني بأحسن ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله . قال : ويحك يا غلام قطعت نياط قلبي .

وبكى وبكيت حتى اني والله لرحمته ثم قال :

أقول : لاندري مِمَّ كان بكاء بلال وهذه الجذبة الجديدة من أين كانت له أكان من مضمون الحديث الذي ذكره بعد هذا السؤال أو أن كيفية سؤال الراوي جدّدت في قلبه خواطر كانت منسيّة ؟ وعلى كل حال ثم قال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « اذا كان يوم القيامة وجمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد بعث الله الى المؤذنين ملائكة من نور ومعهم ألوية وأعلام من نور يقودون نجائب أزمّتها من زبرجد أخضر وخفائفها المسك الاذفر يركبها المؤذنون فيقومون عليها قياما تقودهم الملائكة ينادون بأعلى صوتهم بالاذان . » .

أقول : اهتمام رسول الله ﷺ بتعريف الازمة والخفائف فلعله من جهة أن الزمام والخفّ يرمزان الى المبدأ والمنتهى ، فالاذان الذي هو يبدأ بالتكبير والتعظيم لله سبحانه ويختتم بكلمة التوحيد ففي عالم تجسّم الاعمال وتبدّل الاعراض بالجواهر ينبغي أن يتمثّل هذا العمل النوراني ووسيلة السلوك الى الله بمركوب من نور يكون مبدؤه جوهرة قيّمة وعظيمة كزبرجد باللون الاخضر الذي هو مبتدأ اللون للجماد عند تحوّله الى عالم الحياة وهو عالم النبات ويكون منتهاه وخفّه من المسك الاذفر الذي يرمز الى تعطّر فضاءِ الروح بعطر التوحيد أو أنّ الزمام يرمز إلى الامام والمقصد والخف يرمز الى أثر الكلام ونتيجة العمل ومن المعلوم ان الامام والمقصد هو سيادة الاسلام ولواء الفتح الاخضر وان الاذان يفوح كالمسك الاذفر حيثما حلّ وقدم ويكون أثر قدومه تعطير ذاك المحيط . وعلى أي حال فالمؤذنون يركبون تلك المراكب النورية وهم قيام عليها وعلى هيئة

موقرة وبعظمة وجلال لانهم أذنوا في الدنيا وهم قائمون وأظهروا عظمة الاسلام وجلاله .

(قال الراوي) : ثم بكى بكاء شديدا حتى انتحب وبكيت فلما سكت قلت : ممّ بكاؤك ؟ فقال : ويحك ذكّرتني أشياء سمعت حبيبي وصفيّي صلى الله عليه وآله يقول : « والذي بعثني بالحق نبيّا إنهم ليمرون على الخلق قياما على الجنائب فيقولون : الله أكبر فاذا قالوا ذلك سمعت لأمّتي ضجيجا فسأله أسامة بن زيد عن ذلك الضجيج ما هو ؟ قال : الضجيج : التسبيح، والتحميد ، والتهليل . واذا قالوا أشهد أن لا إله إلا الله قالت أمتي إيّاه نعبد في الدنيا . فيقال : صدقتم . واذا قالوا : أشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله : قالت أمتي : هذا الذي أتانا برسالة ربنا جل جلاله وآمنّا به ولم نره فيقال لهم صدقتم هذا الذي أدّى إليكم الرسالة من ربّكم وكنتم به مؤمنين فحقيق على الله عز وجل أن يجمع بينكم وبين نبيّكم فينتهي بهم الى منازلهم وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» . ثم نظر اليّ فقال : ان استطعت ولا قوّة الا بالله ألا تموت الا وأنت مؤذن فافعل .

فقلت يرحمك الله ، تفضّل عليّ وأخبرني فاني فقير محتاج وأدّ إليّ ما سمعت من رسول الله فانك قد رأيته ولم أره وصف لي كما وصف لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بناء الجنة .

فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ان سور الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت وملاطه المسك الاذفر وشرفها الياقوت الاحمر والاخضر والاصفر » . قلت : فما أبوابها ؟ قال : ان ابوابها مختلفة .

أقول : ان الرجل التاجر شرع في السؤال عن بناء الجنة وتضرّع الى بلال أن يحدّثه بما سمع من رسول الله فأجابه بلال بما تحمّله من التكلّف كما

يظهر من الحديث فحدّث بلال عن جنة المأوى وجنة عدن وجنة الفردوس ولكنه قبل أن يحدّث عن هذه الجنّات حدّث عن بناء الجنة وأبوابها ومن أجل فهم أسرار الحديث وبالخصوص كلمة الباب لابد أن نتوجّه الى معنى الباب في المقام وما معنى باب الجنة ؟ .

نحن نرى في المجتمع أن أبواب المدينة تسمّى باسم الناحية التي يفتح الباب اليها ففي طهران مثلا يقال باب خراسان أو باب مازندران أو باب شميران مع أن الباب على مدينة طهران لا على خراسان ومازندران وشميران فان خراسان مثلا منطقة وسيعة ومحافظة كبيرة لا يمكن نصب الباب عليها وكذلك مازندران وشميران فالباب انما هو لاهل طهران وانهم اذا أرادوا أن يصلوا الى خراسان مثلا فيمرّون بذلك الباب ، فكذلك باب الجنة ليس على الجنة بل هو باب لاهل الجنة وعلى مدينة أهل الجنة وبلدهم وعلى أوضاعهم الاخلاقية وأفراد ملّتهم وكذلك باب الرحمة الالهي أو باب مغفرته فانه أطوار وأحوال لنا لا ان الرحمة الالهية عليها باب فان الرحمة غير المتناهية لا تقبل الباب ، وهكذا أبنية الجنة هي الابنية التي تبنى في مجتمع كل ملّة يوجب استحقاقها الجنة ، وهكذا سيد شباب أهل الجنة مع أن أهل الجنة بأجمعهم شبّان ، فمعنى سيد شباب أهل الجنة أنّ شباب هذه الدنيا اذا أرادوا أن يكونوا من أهل الجنة فلا بد أن يكون سيدهم وأميرهم وقائدهم الحسين عليه السلام والا لم يكونوا من أهلها ، فهذا معنى باب الجنة وسورها والا فالجنة أعلى وأعظم من أن نقول عليها باب أو سور ، فان الجنة ليست محلا وسيعا ومكانا عظيما فحسب بل هي عالم وسيع وغير متناه وأوسع من السموات والارض وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض (آل عمران١٣٣) كعالم الحياة فباب عالم النطفة مفتوح للنطفة واذا مرّت النطفة به وهو الاحوال والاوضاع والشرايط المعيّنة فتدخل في عالم الحياة الوسيع الذي لا مبدأ له ولا منتهى ، كعالمنا هذا بل أوسع .

ولكن حيث أن العالم الوسيع الشريف لكل فرد وأمّة في حياتهم لا يتيسّر الا بصرف الذهب والفضة وتأسيس المشاريع الخيرية بهما وتقديم مهجته الياقوتية ولا يتمكن أحد من أن يدخل الجنة الا من هذا الطريق . وأيضا حيث أن أهل الجنة هم مبادىء الخير والصلاح لمجتمعهم وأهلهم وعوائلهم وحيثما كانوا يعطّرون فضاءه بعطر الخدمات الحسنة فلهذا صار سور الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت وملاطه المسك الاذفر . فالتجار وذوو الثروة يتمكنون أن يحصروا الجنة بالذهب والفضة وصرف مهجتهم الياقوتية أن يجعلون أنفسهم من أهل الجنة والا فالبناء والقصر والحصن والسور ممّا يتعلّق بهذا العالم لا الجنة التي هي أوسع من السماء والارض فانها لا تقبل السور والجدار الا من جهتها التي الى هذا العالم والوجهة الدنيوية والى الجدران التي هي حيّة وناطقة كما في الحديث ان جدران الجنة تتكلم . فبناء المشروعات الخيرية وانشاء المؤسسات الحيوية بالانفاقات من الذهب والفضة يحسب لابناء الشعب الاسلامي لبنة لبنة وكل نفقة من الذهب والفضة تكون كلبنة في بناء جنتهم أي في كونهم من أهل الجنة فان بناء عالم الاخرة يكون في عالم الدنيا والدنيا مزرعة الاخرة .

وبعد هذا التمهيد نقول : ان السؤال الاول للرجل التاجر من بلال السؤال عن بناء الجنة بتضرّع وابتهال ، فأجاب بلال بأن سور الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت وملاطه المسك الاذفر وشرفها الياقوت الاحمر والاخضر والاصفر . قلت : فما أبوابها ؟ ..

فقبل أن نتكلم عن أبواب الجنة نتوقف قليلا في شرف الجنة ونقول : ان الشرف المدرّجة ومسنّنات حصون التاريخ المحققة والمؤسسة لكل فرد وأمّة نتيجة جهاد المجاهدين تمثل المهج الياقوتية التي بذلها المجاهدون فتارة أصابهم الفتح فحقّقوا لانفسهم أو لأمتهم النشاط والسرور والاخضرار ، وأخرى أسروا وسجنوا واصفرّت وجوههم وعوارضهم نتيجة الجوع وتحمّل المشاق في السجن

وثالثة أصبحوا حمر الوجوه وحمر الالوان لما ضرّجوا بدمائهم . والنموذج الواضح لهذا ، الامة الاولى للاسلام وحصرهم في شعب أبي طالب وسجن المؤمنين كعمار وبلال وصهيب وخباب ابن مسعود ، والتعذيب الذي كان من الكفار عليهم وما أصابهم من الجوع وأنواع التعذيب التي صارت سببا لاصفرار وجوههم ، ثم الملطّخون بدمائهم في ساحات التعذيب التي صارت كبدر وأحد وكربلاء وفي الامة الاسلامية الاخيرة ما حدث في الثورة الاسلامية بايران من الفتح والاستشهاد والاسر والسجن .

وعلى أي حال ، ان تاريخ الاسلام في امتداد الزمان مدرّج بالارتفاع والانخفاض وشرفه ملوّنة بهذه الالوان الثلاثة . ويبدو في النظر أن البناء الذي يكون مدرّجا أوضح وأبين في مدّ البصر مما لم يكن كذلك . هذا واما الكلام في أبواب الجنة فقال الراوي وهو عبد الله بن علي قلت : فما أبوابها ؟ فعدّ بلال منها خمسة مع أن أبواب الجنة ثمانية فلعلها سقطت من قلم الراوي أو الناسخ أو أنها امّحت عن خاطر بلال ولكنه ذكر الابواب من أخلاق الامة لا أعمالها : كباب الرحمة والشكر والصبر والبلاء وذكر لبعضها حلقة دون البعض الاخر وذكر ان لبعضها مصراعين ولبعض مصراعا واحدا . وذكر أن بابا واحدا من هذه الابواب له نطق وباقي الابواب صامتة . وقد ذكر في بعض الاحاديث أيضا أن حلقة باب الجنة اذا دقّت تقول يا علي ولعله يرمز الى العلّي الاسم الالهي ويستمدّ من العلوّ ويشير الى قانون التكامل وسنّة النموّ والارتقاء وتكامل الفرد والامة الذي يوجب كونهم من أهل الجنة أو لعله يرمز الى المحبة والتبعية للقائد المتعالي الاسلامي علي عليه السلام الذي يقود الامة الى الجنة .

فالان يشرع بلال في البحث عن أبواب الجنة جوابا لسؤال الرجل التاجر البصراوي فيقول : ان ابوابها مختلفة ثم عدّها طبقا للاخلاق الخمسة الرحمة والصبر والشكر والبلاء والباب الاعظم الانس بالله ، ثم شرع في بيان شؤون جنة المأوى وجنة عدن وجنة الفردوس . فمن المعلوم أن أبواب الجنة

تنفتح للفرد والامة من هذه الاخلاق العالية الفاضلة فيطوُون طريق التكامل وسبيل الارتقاء والتعالي فينفتح باب الجنة للافراد أصحاب الرحمة على الفقراء والمستضعفين ، ومن خلق الشكر للاغنياء والصبر في البأساء والضرّاء ، فالرحمة والشفقة والعاطفة الغريزية في الامهات بالنسبة الى الاولاد تفتح باب الجنة على الاطفال الذين لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرّا ، فكل قدم للام بالنسبة الى طفلها تفتح لها بابا الى الجنة فان الجنة تحت أقدام الامهات لان قائدها الرحمة وتفكرها الرحمة وتتابع الرحمة على الضعفاء ، وبما أن هذه الرحمة غريزية فإنها مأمونة عن النسيان ولا يؤثر في زوالها الحدثان فلا يعطّل أمر الصغار الضعاف وهذا النوع من الرحمة موجود في الآباء بالنسبة الى الاولاد والاسرة . فهم يقضون حوائجهم ويرتّبون أمورهم ويتعبون أنفسهم لتأمين معاشهم ومسكنهم وملبسهم وهكذا الرحمة في المعلم بالنسبة الى التلميذ والعلماء بالنسبة الى الجهال ، فبمقدار ما تقل الرحمة في كل قشر وطبقة تقل مظاهرها وأسباب السعادة فأظهر مصاديقها الامهات والاباء الذين يربّون أولادهم بمعاناة المشقة .

وأما شكر الضعفاء للاقوياء والفقراء للاغنياء على ما يخدمونهم ويقضون حوائجهم فيشكرونهم ويقدّمون لهم عواطفهم ومحبتهم ، وان كان ايضا ياقوتا الا انه ياقوت ابيض لما فيه من الصفاء والتبلور ولذا يعطي الصفاء والنور لقلوب الساعين في حوائجهم .

وأما باب الشكر فانه ناطق يتكلم وفيه إشعار بأن الشكر له ظهور وبروز ويكون مع الصلوات والتحيات وتحنّ قلوب الشاكرين الى من قام بخدمتهم ، وله مصراعان فالضعفاء يشكرون الاقوياء والاقوياء بواسطة شكرهم تصير رغبتهم للخدمة أكثر وشوقهم أشدّ فشكر المستضعفين من حيث أنه يشوّق القائمين بالخدمة ويدعو غيرهم بالشركة معهم فهو أيضا باب الى الجنة ، كما أن القيام بحوائجهم باب اليها فلباب الشكر مصراعان وله في نفس

الوقت أنين وحنين فالمجالس والاحتفالات التي تقام شكرا لايثار الشهداء وبالخصوص لعاشوراء الحسين وأصحابه والصرخات والزفرات فيها والسلام على عباد الله الصالحين في الصلوات وجماعات المسلمين كلها لاظهار الاحساس والمحبة كما أن صياح فليعش فلان أو فيلحَى فلان او الاصوات : أحسنت أحسنت كلها تقوى وتشجّع روح الايثار والتضحية في الافراد .

وبالجملة ، باب الشكر باب واسع وله ضجيج وأنين . وأما باب الرحمة فليس له نطق بل هو صامت بلا ضجيج يتجلى بصورة عاطفية . واليك نص حديث بلال :

قلت فما أبوابها ؟ فقال : ان ابوابها مختلفة ، باب الرحمة من ياقوتة حمراء ، قلت : فما حلقته ؟ فقال : ويحك كفّ عني فقد كلّفتني شططا .

قلت : ما أنا بكافّ عنك حتى تؤدي إليّ ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم أما باب الصبر فباب صغير مصراع واحد من ياقوتة حمراء لا حلقة له ، وأما باب الشكر فانه من ياقوتة بيضاء لها مصراعان ما بينهما مسيرة خمسمئة عام له ضجيج وحنين يقول اللهم جئني بأهلي . قال : قلت : هل يتكلم الباب ؟ قال : نعم ينطقه الله ذو الجلال والاكرام .

أقول : حلقة الباب للاعلام والاطلاع للذين هم في الجانب الاخر للباب وقد يستعان بها لفتح الباب وسدّه فلهذه الجهة الانسب ألاّ تكون لباب الصبر حلقة ولا يطّلع من في الجانب الآخر على من في هذا الجانب. فقد قال المحقق الطوسي : الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه وهو يمنع الباطن عن الاضطراب واللسان عن الشكاية والاعضاء عن الحركات غير المعتادة . وقال الصادق عليه السلام في جواب جابر وقد سأله عن الصبر الجميل : ذلك صبر ليس فيه شكوى الى الناس .

وأما قوله فباب صغير له مصراع واحد بخلاف باب الشكر فان له مصراعين مسيرة ما بينهما خمسمئة عام فلعله يرمز الى سعة رحمة الله تعالى وقلّة الابتلاء كما قال تعالى : « وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها » (النحل ــ ١٨) .. وقال تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع » (البقرة ــ ١٥٥) . وهذا مقتضى سبق الرحمة الغضب كما ورد : يا من سبقت رحمته غضبه .. وقال تعالى : « عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء » (الاعراف ــ ١٥٦) .. هذا مع الغضّ عن أن الابتلاء في كثير من الموارد بل في جميعها حتى بالنسبة الى الكفّار من مظاهر رحمته تعالى كما حقق في محلّه ، ويتضح ما ذكرنا من تتمة الحديث : قال بلال : وأمّا باب البلاء ، قلت : أليس باب البلاء هو باب الصبر ؟ قال : لا قلت . فما البلاء ؟ قال : المصائب والاسقام والامراض والجذام ، وهو باب من ياقوتة صفراء بمصراع واحد ما أقل من يدخل فيه .

أقول : الاصفرار على وجوه المرضى والمبتلين بالاسقام والمصائب والجذام مشهود وما أقل أمثال أيّوب نبي الله عليه السلام في الانام .

قال التاجر البصراوي : قلت : يرحمك الله زدني وتفضّل عليّ فاني فقير . فقال : يا غلام لقد كلّفتني شططا ، أما الباب الاعظم فيدخل منه العباد الصالحون وهم أهل الزهد والورع والراغبون الى الله عز وجل المستأنسون به . قلت : يرحمك الله فاذا دخلوا الجنة فماذا يصنعون ؟

قبل أن نسمع الجواب من بلال لابد أن نتوجه الى أنّ الجنة من الجهة التي تواجه الدنيا لها أبواب وأبنية وضجيج وحنين ، وأما الجهة الاخرى التي تواجه الاخرة فالى اين تنتهي ؟ انها تنتهي الى العالم اللا متناهي لا محالة اي لا تتناهى ولكن كلّياتها هي جنة المأوى وجنة عدن وجنة الفردوس .

فأولها الماء والخضرة ، فالماء يرمز للحياة والخضرة الى النشاط والسرور ووسطها مساكن ومواقف ومحلّ الاقامة (عدن بالمكان : أقام فيه) فهي المستقرّ

الفكري والروحي والاخلاقي لكل انسان وآخرها جنّة الفردوس التي تمتد بامتداد النور فالى العالم اللامتناهي الى ما لابدء له ولا نهاية فحدّها عدم الحدّ وسرورها بلا حدّ كحسّ التجمّل وحبّ الجمال فانه لا يشبع ولا ينتهي ولا يقف في حدّ فالتاجر المسافر لشعوره ونشاطه يسأل بلالا عن هذه الامور .

قلت : يرحمك الله ، فاذا دخلوا الجنة فماذا يصنعون ؟ قال : يسيرون (يصيرون) على نهرين في ماء صاف (من ماء صاف) في سفن الياقوت مجاذيفها اللؤلؤ فيها ملائكة من نور عليهم ثياب خضر شديدة خضرتها .

قلت : يرحمك الله : هل يكون من النور أخضر ؟ قال : ان الثياب خضر لكن فيها نوراً من رب العالمين (جل جلاله) يسيرون على حافتي ذلك النهر .

أقول : الاستبعاد والاستفهام عن النور الاخضر ليس بغريب في ذاك اليوم وحتى اليوم مع الغفلة عن التجزئة الطيفية فظاهرة جديدة لكن جواب بلال ظاهر في أنه توهم النور الاخضر كالانوار الملوّنة لا أنه نور حقيقة بين الانوار .

والملائكة التي تعمل بالسفينة والماء ملائكة العمران ومبدأ لكل نشاط وسرور ، فالماء هو المنشأ للحياة واليخضور الذي تخضر منه الاغصان والاوراق يحتوي قوي طبيعية وهو بخضرته ألقى عليها سترا والقوى دائما مستورة تحت ثياب الالوان والاشكال والاوضاع وتظهر الملائكة والقوى الفعّالة جمالها من وراء الالوان والاشكال الهندسية والانظمة فتغمر الارض وتجملها مخضرّة شديدة الخضرة ، هذه حقيقة الامر في هذا العالم . وأما ما أجابه بلال قلت : فما اسم ذلك النهر ؟ قال : جنة المأوى . قلت : هل في وسطها غيرها ؟ قال : نعم جنة عدن وهي في وسط الجنان ، وأما جنة عدن فسورها ياقوت أحمر وحصاتها اللؤلؤ .

أقول : قد ذكرنا ان جنة عدن هي مساكن ومحل الاقامة لاهل الجنة

فبناء هذا يمكن أن يكون المراد من وسط جنة المأوى الذي وقعت فيه جنة عدن الباطن لا المعنى الوضعي والمحاذاتي ، فجنة عدن هي باطن جنة المأوى كما أن جنة المأوى هي نهاية السير التكاملي للمجتمع . فعالمنا هذا مع ما له من الجمال كأنه حاشية لجنة المأوى ، وفي نهاية العالم واخضراره وقد أظلتها شجرة الحياة وهو سدرة المنتهى بقرب من جنة المأوى فهنالك آخر مراتب السير التكاملي لامّة آخر الزمان ، والرسول الخاتم صلى الله عليه وآله رأى جبرائيل في النوبة الاخيرة عند سدرة المنتهى والنوبة الاخيرة هي المرحلة الاخيرة التي صار فيها كل ما في القوة صائرا في الفعل « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى » (النجم١٣ــ١٥) تأوي اليها القلوب .. فنسبة جنة عدن وجنة المأوى نسبة ساحل البحر ووسطه . فالامواج الساحلية من وسط البحر .

فجنة المأوى كموج ساحلي لجنّة عدن ولا بد للوصول من الساحل الى وسط البحر من ركوب السفينة ، فهذا العالم بما له من الجمال حاشية الجنة من جانبها الدنيوي فيوصلنا الى جنة المأوى ويوصلنا الجمال الصافي لجنة المأوى الى جنة عدن التي يفور منها الجمال ، فكما أن الموج يبدأ من وسط البحر فيجيء الى الساحل فيأخذ ما في الساحل ويرجع الى المركز فيستقرّ فيه كذلك لموج الجمال أيضا مستقرّ وقرار أفلا تنظرون الى موج الجمال كيف يطفح من أكناف السماء وأطراف الارض فيجذب القلوب ويردّها الى مستقرّها وهو جنّة الفردوس ؟ .

قال التاجر البصراوي : فقلت : وهل فيها غيرهما ؟ فقال : نعم جنة الفردوس . قلت : وكيف سورها ؟

قال : ويحك كفّ عني حرت (حيّرت) على قلبي . قلت : بل أنت الفاعل بي ذلك . قلت : ما أنا بكاف عنك حتى تتم لي الصفة وتخبرني عن سورها .

أقول : انا لا ادري ما الذي كان يزعج بلالاً ويجور على قلبه . ولماذا لا يجيب السائل بسهولة ؟ أكان لتذكرة الاحبّاء والاعزّة الذين مضوا على السبيل وتركوه ، وإن تذكر الاحبة ليضغط القلب ويؤلمه أو أن بلالاً كان يتألم من ذكرياته والنبي الاكرم أو أن هذه الاسئلة تجبره على التفكر والتذكر لما كان مخبوءا في ذهنه ولبّه فيضطرّه لتعتيم الجواب أو كلا الامرين ؟ وعلى كل حال ، قال : سورها نور .

أقول : لعلّ قوله : سورها نور بمعنى أنه ليس لها سور فان النور ليس له حدّ يقف فيه بل يسري ويجاوز حدود السموات ، والجو الذي لم يعلم له نهاية فمدى سير النور جنة الفردوس ومنتزهها مع العلم بأن مسير النور هو العالم غير المتناهي ، النور يسري في كل ثانية خمسين ألف فرسخ ، ونور الشمس يصل الينا في مدة ثماني دقائق وسبع عشرة ثانية ، ويسري النور بهذه السرعة أربع سنوات حتى يصل الى أوّل كوكب قريب منا (نجمة آلفا) ويسري ملايين السنين قبل أن يصل الينا الان منذ تحرك من مبدئة وحيث أن نور العلم يضيء الى هذا العالم الذي لا حدّ له والى غير النهاية فمنتزه الجنة وجنة الفردوس مع سير النور يتصلان بالعالم غير المتناهي .

قلت : ما الغرف التي فيها ؟ قال : هي من نور رب العالمين عزّ وجلّ .

أقول : قد عبّر عن العلم بالنور في كثير من الاحاديث وشعب العلم كلها غرف وهي غير متناهية .

قلت : زدني يرحمك الله . قال : ويحك الى هذا انتهى بي رسول الله صلّى الله عليه وآله طوبى لك إن أنت وصلت الى ما له هذه الصفة وطوبى لمن يؤمن بهذا .

قلت : يرحمك الله ، أنا والله من المؤمنين بهذا .

قال : ويحك ، انه من يؤمن بهذا أو يصدق بهذا الحق والمنهاج لم يرغب في الدنيا ولا في زينتها وحاسب نفسه .

قلت : أنا مؤمن بهذا . قال : صدقت ، ولكن قارب وسدّد ولا تيأس واعمل ولا تفرّط ، وأرح وخف واحذر ، ثم بكى وشهق ثلاث شهقات فظننّا أنه قد مات ، ثم قال : فداكم أبي وأمي لو رآكم محمد صلى الله عليه وآله لقرّت عينه حين تسألون عن هذه الصفة . ثم قال : النجا ، النجا ، الوحا ، الوحا ، الرحيل ، الرحيل ، العمل ، العمل ، وإيّاكم والتفريط وإيّاكم والتفريط .

ثم قال : ويحكم اجعلوني في حلّ مما قد فرّطت ، فقلت له : انت في حلّ ممّا قد فرّطت جزاك الله الجنة كما أدّيت وفعلت الذي يجب عليك . ثم ودّعني وقال : اتّق الله وأدّ الى أمّة محمد صلى الله عليه وآله ما أدّيت اليك . فقلت : أفعل ان شاء الله . قال : استودعك الله دينك وأمانتك وزوّدك التقوى وأعانك على طاعته بمشيئته .

أقول : ان عليا أمير المؤمنين عليه السلام : أيضا ينادي كل ليلة عند السحر : « تجهّزوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرحيل » .

٢ ــ قال كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي في حقه هو الامام الكبير القدر العظيم الشأن الكثير التهجد الجاد في الاجتهاد المشهور بالعبادة المواظب على الطاعات المشهور بالكرامات يبيت الليل ساجدا أو قائما ويقطع النهار متصدقا وصائما ولفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين عليه دُعي كاظما . كان يجازي المسيء بإحسانه اليه ويقابل الجاني عليه بعفوه عنه ولكثرة عباداته كان يسمّى بالعبد الصالح ويعرف في العراق بباب الحوائج الى الله ينجح المتوسلون الى الله به . كراماته تحار منها العقول وتقضي بأن له عند الله قدم صدق لا تزلّ ولا تزول (انتهى) . ولد عليه السلام بالابواء ــ منزل بين مكة والمدينة ــ يوم الاحد لسبع خلون من صفر سنة ١٢٨ ثمان وعشرين ومئة أمّه عليه السلام حميدة المصفاة البربرية وكانت من أشراف الاعاجم قال الشيخ الاجل الاقدم ابو محمد الحسن بن موسى النوبختي في كتاب الفرق[1] ولد موسى بن جعفر عليه السلام في سنة ثمان وعشرين ومئة وقال بعضهم سنة تسع

وحمله الرشيد من المدينة لعشر ليال بقين من شوال سنة تسع وسبعين ومئة وقد قدم هرون الرشيد المدينة منصرفا من عمرة شهر رمضان ثم شخص هرون الى الحج وحمله معه ثم انصرف على طريق البصرة فحبسه عند عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور ثم أشخصه الى بغداد فحبسه عند السندي بن شاهك فتوفي في حبسه ببغداد لخمس ليال بقين من رجب سنة ١٨٣ ثلث وثمانين ومئة (قفج) وهو ابن خمس أو أربع وخمسين سنة ودفن في مقابر قريش . ويقال في رواية أخرى أنه دفن بقيوده وأنه أوصى بذلك فكانت إمامته خمسا وثلاثين سنة وشهورا .

٣ ـــ الحسن بن موسى بن أخت سهل بن نوبخت متكلم فيلسوف من أعاظم متكلمي الامامية وكان يجتمع اليه جماعة من نقلة كتب الفلسفة بمثل ابي عثمان الدمشقي واسحاق وثابت وغيرهم وكان جماعة للكتب (جش) الحسن بن موسى أبو محمد النوبختي شيخنا المتكلم المبرز على نظرائه في زمانه قبل الثلاث مئة وبعدها له على الاوائل كتب كثيرة منها كتاب الآراء والديانات كتاب كبير حسن يحتوي على علوم كثيرة قرأت هذا الكتاب على شيخنا ابي عبد الله رحمه الله وله كتاب فرق الشيعة (انتهى) .

(وكتاب الفرق مطبوع في المطبعة الحيدرية في النجف) .

٤ ـــ (الشورى ـــ ٢٣) .

الفصل الثاني

في بعض آداب تكبيرات الاذان والاقامة وأسرارهما

اعلم ان الاذان حيث إنه إعلام الحضور لقوى النفس الظاهرة والباطنة في محضر الحق الربوبي لاجل الثناء على الذات المقدسة على حسب جميع الاسماء والصفات والشؤون والآيات لان الصلاة: كما أشير اليها ثناء جامع ومورد هذا الثناء هو الذات المقدسة على حسب تجلّيها بالاسم الاعظم الذي هو مقام أحدية جمع الاسماء في الحضرة الواحدية ومقام التجلي بالجمع والتفريق والظهور والبطون في حضرات الاعيان والاسماء العينية ، فالسالك يتوجّه في بدء الامر الى كبرياء الذات المقدسة على حسب هذا الشأن الجامع فيعلن عظمتها وكبرياءها اولا على قوى مملكة نفسه الملكوتية منها والملكية . وثانيا على ملائكة الله الموكلة على ملكوت السموات والارضين فيعلن على حسب التكبيرات الاربعة كبرياء الاسم الاعظم على جميع سكنة عوالم الغيب والشهادة في المملكة الداخلية والخارجية ، وهذا نفسه اعلان بعجزه عن القيام بالثناءِ على الذات المقدسة واعلام قصور نفسه عن اقامة الصلاة وهذا هو من الامور الشاملة في السلوك والاداب المحيطة على الثناء والعبادة ، لابد أن يكون في جميع احوال الصلاة نصب عين السالك ولهذا

يكرّر في الاذان والاقامة ويكرّرها دائما في الصلاة ويعاد في حال الانتقال من كل حال الى حال آخر حتى يتمكن في قلب السالك القصور الذاتي لنفسه والعظمة والكبرياء للذات المقدسة .

ومن هنا يعلم أدبه أيضا من أنه لا بد للسالك أن يذكّر القلب وقواه بعجز نفسه وكبرياء الحق .

وبوجه آخر يمكن أن تكون التكبيرات الاولية في الاذان كل واحدة منها اشارة الى مقام ، فتكون التكبيرة الاولى اشارة الى التكبير عن التوصيف ذاتا ، والثانية الى التكبير عن التوصيف وصفا ، والثالثة الى التكبير عن التوصيف اسما ، والرابعة الى التكبير عن التوصيف فعلا ، فكان السالك يقول الله أكبر من أن توصف ذاته أو تجليات ذاته والله أكبر من أن توصف صفاته وأسماؤه وأفعاله أو تجلياتها بحسبها .

وفي حديث طويل عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال : « والوجه الاخر الله أكبر فيه نفي كيفيته كأنه يقول ـــ اي المؤذن ـــ : الله أجلّ من أن يدرك الواصفون قدر صفته التي هي موصوف بها وإنما يصفه الواصفون على قدرهم لا على قدر عظمته وجلاله تعالى الله عن أن يدرك الواصفون صفته علوّا كبيرا » الحديث .

ومن الآداب المهمة للتكبير أن السالك عليه أن يجاهد ويجعل قلبه محلا لكبرياء الحق جلّ جلاله بالرياضات القلبية ويحصر كبر الشأن والعظمة والسلطان والجلال بذات الحق المقدسة جلّ وعلا ويسلب الكبرياء عن سائر الموجودات ، واذا كان في القلب اثر من كبرياء أحد لا يراه ولا يعلمه شعاع كبرياء الحق فقلبه مريض ومعلول ومورد لتصرف الشيطان وربما تكون التصرفات الشيطانية سببا لان يكون سلطان الكبرياء لغير الحق في القلب

أكثر من الحق ويعرفه القلب أكبر من الحق ، ففي هذه الصورة يكون الانسان محسوبا في زمرة المنافقين ، وعلامة هذا المرض المهلك ان الانسان يقدّم رضا المخلوق على رضا الحق ليسخط الخالق لرضا المخلوق . وفي الحديث قال الصادق عليه السلام : « اذا كبّرت فاستصغر ما بين العلا والثرى دون كبريائه فان الله اذا اطلع على قلب العبد وهو يكبّر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال : يا كاذب أتخدعني ، وعزّتي وجلالي لاحرمنّك حلاوة ذكري ولأحجبنك عن قربي والمسارة بمناجاتي » . يقول عليه السلام : اذا كبّرت فاستصغر في محضر كبرياء تلك الذات المقدسة ما في الكون من الارض الى العرش لان الله تبارك وتعالى اذا رأى عبدا يكبّر ولكن في قلبه علّة عن حقيقة التكبير ـــ يعني أن قلبه لا يوافق ما يجريه على اللسان ـــ يقول : يا كاذب أتخدعني وعزّتي وجلالي .. الى آخر الحديث .

فيا أيها العزيز ان حرمان قلوبنا المسكينة من حلاوة ذكر الحق تعالى وان لذة مناجاة تلك الذات المقدسة لم ترد في ذائقة أرواحنا ونحن محتجبون عن الوصول الى قرب الجناب ومحرومون من تجليات الجمال والجلال لان قلوبنا عليلة ومريضة وقد حجبنا الاخلاد الى الارض والاحتجاب بالحجب المظلمة للطبيعة عن معرفة كبرياء الحق وأنوار الجمال والجلال ، فما دام نظرنا الى الموجودات نظرا ابليسيا استقلاليا فلا نذوق من شراب الوصل ، ولا ننال لذة المناجاة ، وما دمنا نرى لاحد في عالم الوجود العزّة والكبرياء والعظمة والجلال ونحن في حجاب أصنام التعيّنات الخلقية فلا يتجلى سلطان كبرياء الحق جلّ وعلا في قلوبنا .

فمن آداب التكبير هو أن السالك لا يتوقف على صورته ولا يكتفي باللفظ فقط ولقلقة اللسان بل ينبّه القلب في أول الامر بقوة البرهان ونور العلوم الالهية ، على كبرياء الحق وأنّ العظمة والجلال مقصورة على الذات المقدسة جلّت عظمتها وعلى فقر كافة السكنة الامكانية وقاطبة الموجودات الجسمانية والروحانية وذلّتها ومسكنتها ، وبعد ذلك فبقوة الرياضة وكثرة المراودة والانس التام يحيي قلبه بهذه اللطيفة الالهية ويعطيه السعادة والحياة العقلية الروحانية ، فاذا صار فقر الممكن وذلّته وعظمة الحق وكبرياؤه جلّت قدرته نصب عين السالك ووصل التفكر والذكر الى حد النصاب وحصل للقلب الانس والسكينة فيشاهد بعين البصيرة آثار جلال الحق وكبريائه في جميع الموجودات وتعالج العلل والامراض القلبية فيجد لذة المناجاة وحلاوة ذكر الله ويصير القلب مقرا لسلطان كبرياء الحق جلّ جلاله وتظهر آثار الكبرياء في ظاهر المملكة وباطنها ويوافق القلب واللسان والسر والعلن فتكبّر جميع قوى الباطن والظاهر والملك والملكوت ويرتفع أحد الحجب الغليظة ويقترب السالك مرحلة الى حقيقة الصلاة التي هي معراج القرب . وقد أشير الى بعض ما ذكر في الحديث المنقول عن العلل عن الصادق سلام الله عليه في حديث طويل يصف فيه المعراج قال : « أنزل الله العزيز الجبار عليه مَحمَلا من نور فيه أربعون نوعا من أنواع النور كانت محدقة حول العرش ، عرشه تبارك وتعالى تغشي أبصار الناظرين ، أما واحد منها فأصفر ، فمن أجل ذلك اصفرّت الصفرة ، وواحد منها أحمر ، فمن أجل ذلك احمرّت الحمرة . الى أن قال : فجلس فيه ثم عرج به الى السماء الدنيا فنفرت الملائكة الى اطراف السماء ثم خرّت سجّدا فقال سبّوح قدّوس ربنا ورب الملائكة والروح ما أشبه هذا النور بنور ربنا ، فقال جبرائيل : الله أكبر الله

اكبر فسكتت الملائكة وفتحت السماء واجتمعت الملائكة ثم جاءت وسلّمت على النبيّ صلى الله عليه وآله أفواجا » الحديث .

وفي هذا الحديث اسرار عظيمة تقصر أيدي آمالنا عنها ، وما يمكن ان يذكر منها خارج فعلا عن مقصدنا كسرّ تنزّل محمل من نور وسرّ كثرة الانوار ، وسر كثرتها النوعية وسر عدد الاربعين وسر تنزيل الله اياها وسر احاطتها حول العرش ، وحقيقة العرش في هذا المقام وسر اصفرار الصفرة واحمرار الحمرة بواسطتها وسرّ نفور الملائكة وسجودهم وتسبيحهم وتقديسهم وتشبيههم ذلك النور بنور الرّبّ الى غير ذلك مما يطول البيان في أطراف كل منها ، وما يناسب المقام ويشهد على المطلب هو أن الملائكة بواسطة تكبير جبرائيل سكتت واطمأنّت واجتمعت حول جمع شمع الوليّ المطلق . وفتحت السماء الاولى بواسطة التكبير وخرق أحد الحجب الذي كان في طريق العروج الى الله وليعلم أن هذه الحجب التي تخرق وترفع في الاذان غير الحجب التي في التكبيرات الافتتاحية ، ولعله تأتي الاشارة الى ذلك فيما بعد ان شاء الله .

ولعل السر في أن الوارد في الاقامة هو تكبيرتان ، ان السالك قد أقام قواه في المحضر وانتقل من الكثرة الى الوحدة شيئا ما فيكبّر الذات والاسماء او الاسماء والصفات ، ولعل تكبير الصفات والافعال يكون منطويا في تكبير الذات والاسماء .

الفصل الثالث

في بعض آداب الشهادة بالالوهية
وبيان ربطها بالأذان والصلاة

فاعلم أن للالوهية مقامات يعبّر عنها على حسب الجمع بمقامين :

الاول : مقام الالوهية الذاتية .

والثاني : مقام الالوهية الفعلية .

واذا كان المقصود من الشهادة على قصر الالوهية في الحق هو الالوهية الذاتية تكون حقيقتها متقاربة مع التكبير ، واذا كانت مشتقة من اله في الشيء أي تحيّر فيه ، أو مشتقة من لاه بمعنى ارتفع ، أو مشتقة من لاه يلوه بمعنى احتجب فيعلم ربطه بالاذان والصلاة بعد المراجعة الى باب التكبير ، ويعلم أدبها أيضا واعادته وان لم تكن خالية من بعض الفوائد ولكنها منافية للاختصار .

وان كان الاله مأخوذا من اله بمعنى عبد ويكون المراد هو المألوه بمعنى المعبود فعلى السالك أن يجعل الشهادة الصورية على قصر المعبودية للحق تعالى جلّت عظمته منطبقة على الشهادة القلبية الباطنية ، ويعلم أنه ان كان في القلب معبود سواه فهو منافق في هذه الشهادة فلا بد له أن يوصل الشهادة بالالوهية الى القلب بكل رياضة ويكسر الاصنام الصغيرة والكبيرة

المنحوتة بيد تصرف الشيطان والنفس الامارة في كعبة القلب ويحطّمها حتى يصير لائقا لحضور حضرة القدس وما دامت أصنام حب الدنيا والشؤون الدنيوية موجودة في كعبة القلب لا يجد السالك طريقا الى المقصد ، فالشهادة بالالوهية للاعلان للقوى الملكية والملكوتية أن تجعل المعبودات الباطلة والمقاصد المعوجّة تحت قدمها كي تتمكن من العروج الى معراج القرب .

واذا كان المقصود من قصر الالوهية ، الالوهية الفعلية التي هي عبارة أخرى عن التصرف والتدبّر والتأثير فيكون معنى الشهادة أني أشهد ان لا متصرف في دار التحقق ولا مؤثّر في الغيب والشهادة الا ذات الحق المقدسة جلّ وعلا واذا كان في قلب السالك اعتماد على موجود من الموجودات واطمئنان لاحد من العباد فقلبه معتل وشهادته زور ومختلقة ، فلا بد للسالك أن يُحكم اولا بالبرهان الحكمي حقيقة لا مؤثّر في الوجود الا الله ولا يفرّ من المعارف الالهية التي هي غاية بعثة الانبياء ولا يعرض عن تذكر الحق والشؤون الذاتية والصفاتية ، فان منبع جميع السعادات هو تذكر الحق . ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا[1] .. وبعدما وصل بقدم التفكر والبرهان الى هذه اللطيفة الالهية التي هي منبع المعارف الالهية وباب أبواب الحقائق الغيبيّة فيؤنس القلب معها بقدم التذكر والرياضة حتى يؤمن القلب بها ، وهذ أول مرتبة لصدق مقالته وعلامة الانقطاع الى الحق وغضّ بصر الطمع والرجاء عن جميع الموجودات ونتيجته التوحيد الفعلي الذي هو من أجلّ مقامات أهل المعرفة ، فاذا قصّر السالك جميع التأثيرات على الحق وغمض عين الطمع عن جميع الموجودات سوى الذات المقدسة يكون لائقا للمحضر المقدس بل يكون قلبه متوجها الى ذلك المحضر فطرة

وذاتا ، ولعلّ تكرار الشهادة لاجل التمكين ويكون المقصود من الشهادة احدى الشهادتين ، ولعله لا يكون تكرارا وتكون احداهما اشارة الى الالوهية الذاتية والاخرى اشارة الى الالوهية الفعلية ، ففي هذه الصورة تكون إعادتها في آخر الاقامة للتمكين فلذا لم يذكر هناك بلفظ الشهادة .

تنبيه عرفاني :

اعلم أن للشهادة مراتب نكتفي ببعضها على حسب ما يناسب هذه الاوراق .

المرتبة الاولى: الشهادة القولية وهي معلومة ، وهذه الشهادة القولية اذا لم تكن مشفوعة بالشهادة القلبية ولو ببعض مراتبها النازلة لا تكون شهادة بل تكون خدعة ونفاقا كما ذكر في الحديث عن الصادق عليه السلام في باب التكبير .

المرتبة الثانية : الشهادة الفعلية : وهي أن يشهد الانسان على حسب الأعمال الجوارحية فمثلاً يُدخل في طور أعماله وجريان أفعاله حقيقة لا مؤثر في الوجود الا الله فكما أن لازم شهادته القولية ألّا يعلم أحدا مؤثرا الا الله تكون خريطة أعماله أيضا كذلك فلا يمدّ يد حاجته الا الى المحضر المقدس للحق جلّ وعلا ولا يفتح عين رجائه الى موجود من الموجودات ويظهر الغنى والاستغناء عند العباد الضعفاء ويجتنب عندهم عن الضعف والذلة والعجز ، وهذا المعنى وارد في كثير من الاحاديث الشريفة . كما في حديث الكافي الشريف : « إن عزّ المؤمن استغناؤه عن النّاس » وان من احدى المستحبات الشرعية اظهار النعمة والغنى ، ومن المكروهات طلب الحوائج من الناس .

وبالجملة ، على الانسان أن يجري اللطيفة الالهية : لا مؤثر في الوجود الا الله في مملكته الظاهرة .

المرتبة الثالثة : الشهادة القلبية ، وهي منبع الشهادات الأفعالية والأقوالية ، وما لم تكن تلك لا تكون هذه ولا تتحق وهي أن يتجلى التوحيد الفعلي للحق في القلب ويدرك القلب بسرّه الباطني حقيقة هذه اللطيفة وينقطع عن سائر الموجودات وينفصل عنها ، وعمدة الأحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة في ترك الطمع في الناس واليأس من العباد والثقة والاعتماد على الله تبارك وتعالى راجعة الى هذا المقام .

عن الكافي باسناده عن علي بن الحسين عليهما السلام قال : « رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عمّا في أيدي الناس ومن لم يرج الناس في شيء وردّ أمره الى الله تعالى في جميع أموره استجاب الله تعالى له في كل شيء » . والاحاديث من هذا القبيل كثيرة .

المرتبة الرابعة : الشهادة الذاتية ، والمقصود منها الشهادة الوجودية وهي تتحقق في الكمّل من الاولياء ، وفي نظر الاولياء هذه الشهادة بمعنى موجودة في جميع الموجودات ، ولعل الآية الشريفة « شهد الله ان لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم »[٢] اشارة الى الشهادة الذاتية لان الحق تعالى في مقام أحدية الجمع يشهد شهادة ذاتية بوحدانية نفسه لانّ صرف الوجود له أحدية ذاتية ، وعند طلوع يوم القيامة يظهر بالوحدانية التامة وتظهر هذه الاحدية أولا في مرآة الجمع وبعده في مرآة التفصيل ، ولهذا قال تعالى : « والملائكة وأولو العلم » وهنا مقامات من المعارف خارجة عن عهدة هذه الاوراق .

وصل : عن محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن عبد الصمد ابن بشير قال : ذكر عند أبي عبد الله بدء الأذان الى أن قال : « ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان نائما في ظلّ الكعبة فأتاه جبرائيل ومعه طاس فيه ماء من الجنة فأيقظه وأمره أن يغتسل به ثم وضع في محمل له ألف ألف لون من نور ثم صعد به حتى انتهى الى أبواب السماء فلما رأته الملائكة نفرت عن أبواب السماء وقالت : الهين اله في الارض واله في السماء فأمر الله جبرائيل فقال الله أكبر الله أكبر فتراجعت الملائكة نحو أبواب السماء ففتحت الباب فدخل حتى انتهى الى السماء الثانية فنفرت الملائكة عن ابواب السماء فقال : أشهد أن لا اله الا الله فتراجعت الملائكة وعلمت أنه مخلوق ثم فتح الباب فدخل » الحديث .

وقد ورد في حديث العلل ما يقرب من هذا المضمون .

ويعلم من هذه الاحاديث أن الشهادة بالالوهية موجبة لفتح أبواب السماء وخرق الحجاب وباعث لاجتماع ملائكة الله ، وهذا الحجاب الذي يخرق بواسطة الشهادة بالالوهية وقصرها في الذات المقدسة من الحجب الغليظة الظلمانية التي ما دام السالك فيهالا يوجد له طريق الى الحضور في المحضر ، وما لم يفتح هذا الباب له فليس له طريق الى السلوك وهو حجاب الكثرة الافعالية والوقوع في الاحتجاب التكثيري الذي نتيجته رؤية فاعلية الموجودات ومؤثريتها وثمرة هذه الرؤية رؤية استقلالها في الفاعلية والتفويض المحال والشرك الاعظم كما أن نتيجة الشهادة بالالوهية وحصرها في الحق تعالى هو التوحيد الافعالي وافناء الكثرات في فعل الحق ونفي التأثير والفاعلية عن الغير وطرد الاستقلال عن غير الحق تعالى ، ومن هذه الجهة خرج الملكوتيون عن حجاب كثرة اله في السماء واله في الارض بواسطة هذه

الشهادة ورجعت الى الانس والاجتماع من النفور والتفرقة وفتحت ابواب السماء . فالسالك ايضا لابدّ له أن يخرق بهذه الشهادة حجاب نفسه الظلماني ويفتح أبواب السماء لنفسه ويرفع قدما من الحجاب العظيم وهو الاستقلال ليقترب له طريق العروج الى معراج القرب .

ولا تحصل هذه الحقيقة بلقلقة اللسان والذكر القولي ، ولهذا لا تتجاوز عباداتنا عن حد الصورة والدنيا ، ولا يفتح لنا الباب ولا يرفع لنا الحجاب .

المراجع والحواشي

١ ــ (طه ــ ١٢٤) .
٢ ــ (آل عمران ــ ١٨) .

الفصل الرابع

في بعض آداب الشهادة بالرسالة ، وفيها إشارة الى الشهادة بالولاية

إعلم أنه لا يمكن طيّ هذا السفر الروحاني والمعراج الايماني بهذه الرجل المكسورة والعنان المرخي والعين العمياء والقلب الذي هو بلا نور . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور[1] .. فمن المحتوم واللازم لسلوك هذا الطريق الروحاني وعروج هذا المعراج العرفاني التمسك بمقام روحانية هداة طرق المعرفة وأنوار سبل الهداية الذين هم الواصلون الى الله والعاكفون على الله ولو أراد أحد أن يطوي هذا الطريق بقدم أنانية نفسه من دون التمسك بولايتهم فسلوكه الى الشيطان والهاوية .

وببيان علمي كما أن ربط الحادث بالقديم ، والمتغيّر بالثابت ، محتاج الى الواسطة ، والرابط تكون له وجهتا الثبات والتغيّر والقدم والحدوث ، واذا لم تكن الواسطة موجودة فلا يعبر في السنّة الالهية الفيض القديم الثابت منه الى المتغيّر الحادث . ولا تحصل الرابطة الكونية الوجودية ، والانظار العلمية لارباب العلوم البرهانية بالنسبة الى الرابط بين هذين مختلفة ، كما أن للذوق العرفاني اقتضاء آخر يخرج تفصيله عن عهدة هذه الاوراق ، وفي الذوق العرفاني الرابط هو الفيض المقدس والوجود المنبسط الذي له مقام البرزخية

الكبرى والواسطية العظمى، وهو بعينه مقام روحانية الرسول الخاتم وولايته المتحدة مع مقام الولاية المطلقة العلوية .

وقد ورد تفصيل ذلك في رسالتي مصباح الهداية كذلك في الرابطة الروحانية العروجية التي هي عكس الرابطة الكونية النزولية ، وبعبارة اخرى في قبض الوجود والرجوع الى ما بدىء ، يحتاج الى الواسطة وبدونها لا تتحقق الرابطة ولا يتحقق ارتباط القلوب الناقصة المقيدة والارواح النازلة المحدودة بالتام الذي هو فوق التمام ومطلق من جميع الجهات من دون الوسائط الروحانية والروابط الغيبية ، واذا ظنّ أحد ان الحق تعالى قيّوم لكل موجود ومحيط بكل الالوان من دون وساطة الوسائط كما أشير الى ذلك في الآية الشريفة « وما من دابّة الا هو آخذ بناصيتها »[٢] فقد اختلطت عنده المقامات واشتبهت عليه الاعتبارات وخلط مقام كثرة مراتب الوجود بفناء التعينات وليس لهذا البحث ربط كامل بهذه الرسالة ، وهذا المقدار ايضا صار من طغيان القلم .

وبالجملة ، التمسّك بأولياء النعم الذين اهتدوا الى طريق العروج الى المعارج وأتمّوا السير الى الله من لوازم السير الى الله كما أشير الى ذلك في الاحاديث الكثيرة ، وقد عقد في الوسائل بابا في أن العبادة بدون ولاية الائمة والاعتقاد بإمامتهم باطلة .

وقد روي عن الكافي الشريف باسناده عن محمد بن مسلم قال : سمعت باقر العلوم عليه السلام يقول : « واعلم يا محمد أن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلّوا وأضلّوا فأعمالهم التي يعملونها كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون ممّا كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » .

وفي رواية أخرى عن أبي جعفر عليه السلام انه قال : « أما لو أن رجلا قام ليله وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحجّ جميع دهره ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه فتكون جميع أعماله بدلالته اليه ما كان له على الله حق في ثوابه وما كان من أهل الايمان » .

وروى الصدّوق (قدس سره) بسنده عن أبي حمزة الثمالي قال : قال لنا علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام : « ايّ البقاع أفضل ؟ فقلت ألله ورسوله أعلم ، فقال : إن أفضل البقاع ما بين الركن والمقام ولو أنّ رجلا عمّر ما عمّر نوح في قومه ألف سنة الا خمسين عاما يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك الموضع ثم لقي الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئا » . والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تسعها هذه الرسالة .

وأما آداب الشهادة بالرسالة فهي ان يوصل الشهادة بالرسالة من الحق الى القلب وخصوصا الرسالة الختمية التي جميع دائرة الوجود من عوالم الغيب والشهود تتنعّم تكوينا وتشريعا ووجودا وهداية من سقطات موائد نعمه وان ذاك السيد الكريم هو الواسطة لفيض الحق والرابط بين الحق والخلق ، ولولا مقام روحانيته وولايته المطلقة لم يكن لأحد من الموجودات لياقة الاستفادة عن مقام الغيب الاحدي ولما عبر فيض الحق الى موجود من الموجودات ، ولما أشرق نور الهداية في عالم من عوالم الظاهر والباطن ، وذاك السيد لهو النور الذي ورد في آية « الله نور السموات والارض »[3] فاذا دخلت عظمة شرع الدين ورسول رب العالمين في قلب الانسان يدخل فيه أهمية أحكامه وسننه وعظمتها ، فإذا أدرك القلب عظمتها تخضع له سائر القوى الملكية والملكوتية وتنفذ الشريعة المقدسة في جميع المملكة الانسانية ،

وعلامة صدق الشهادة أنه تظهر آثارها في جميع القوى الغيبيّة والظاهرة ولا تتخلف عنها كما أشير اليه في السابق .

وقد علم ممّا ذكر الى الان ارتباط الشهادة بالرسالة بالاذان واقامة الصلاة لان السالك في هذا الطريق الروحاني محتاج الى التمسّك بذاك الوجود المقدّس حتى يعرج بمصاحبته وتأييده هذا العروج الروحاني .

والوجه الاخر ، هو أن في هذه الشهادة اعلانا للقوى الملكية والملكوتية بأن الصلاة التي هي حقيقة معراج المؤمنين ومنبع معارف أصحاب العرفان وأرباب الايقان هي نتيجة الكشف التام المحمدي صلى الله عليه وآله ، وهو صلوات الله عليه وعلى آله بسلوكه الروحاني والجذبات الالهية والجذوات الرحمانية قد وصل الى مقام قاب قوسين أو أدنى وتبعا للتجليات الذاتية والاسمائية والصفاتية والالهامات الأنسيّة كشف حقيقة هذه الصلاة من الحضرة الغيبية الاحديـة ، وفي الحقيقـة هي هديـة (وسوقات) لامّته خير الامم جاء بها من هذا السفر المعنوي الروحاني ومنّ عليهم بها وأغرقهم في بحر النعمة فاذا استقرّت هذه العقيدة في القلب وتمكن بالتكرار فيدرك السالك عظمة المقام وجلالة المحلّ البتة ويطوي هذه المرحلة بقدمي الخوف والرجاء ، والمرجو منه صلى الله عليه وآله أن يؤيده ان شاء الله ويقرّبه الى مقام القرب الاحدي الذي هو المقصد الاصلي والمقصود الفطري ، اذا قام السالك للأمر بمقدار مقدوره وقد ثبت في العلوم الالهية ان معاد جميع الموجودات انما يتحقق بتوسط الانسان الكامل « كما بدأكم تعودون »[٤] بكم فتح الله وبكم يختم وإياب الخلق اليكم .

نكتة عرفانية

قد ورد في الحديث الشريف في العلل الذي يذكر تفصيل صلاة المعراج ويصفها « ان رسول الله صلى الله عليه وآله عرج الى السماء بعدما أنزل الله عليه محملا من نور ومعه جبرائيل : ثم عرج بي الى السماء الثالثة فنفرت الملائكة الى اطراف السماء وخرّت سجّدا وقالت سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح ما هذا النور الذي يشبه نور ربنا ؟ فقال جبرائيل عليه السلام : أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، فاجتمعت الملائكة وفتحت أبواب السماء وقالت مرحبا بالاول ومرحبا بالآخر ومرحبا بالحاشر ومرحبا بالناشر محمد خاتم النبيّين وعلّي خير الوصيّين فقال رسول الله ﷺ سلّموا علي وسألوني عن أخي علي .. الى أن قال : ثم عرج بي الى السماء الرابعة فلم تقل الملائكة شيئا وسمعت دويّا كأنه في الصدور واجتمعت الملائكة ففتحت أبواب السماء .. فقال جبرائيل : حيّ على الصلاة حيّ على الصلاة الى آخر الاقامة » الحديث .

وفي تفسير العياشي أيضا ما يقرب من هذا المضمون ، فيعلم من هذا الحديث أن ملائكة جميع السموات لا تطيق مشاهدة الجمال الاحمدي وتسجد لرؤية نوره المقدس وتتفرق وتتوهم أنه نور الحق المطلق وترجع بفصول الاذان والاقامة الى الانس وتنفتح ابواب السماء وترتفع الحجب ، فللسالك ان يخرج بهذه الشهادة عن الاحتجاب ، وفي الشهادة بالرسالة يخرج بالكلية عن احتجاب التعين الخلقي لانه اذا أثبت مقام الرسالة لاشرف الخليقة فهو مقام الفناء المطلق ولا استقلالية التامة لان الرسالة المطلقة الختميّة هي الخلافة الكبرى الالهية البرزخية وهذه الخلافة هي خلافة في

الظهور والتجلّي والتكوين والتشريع ولا يكون للخليفة من عند نفسه أيّ استقلال وتعيّن وإلا لانقلبت الخلافة الى الاصالة وهذا لا يمكن لاحد من الموجودات . فللسالك الى الله ان يوصل الى باطن قلبه وروحه مقام الخلافة الكبرى الاحمدية وبها يكشف الحجاب ويخرق الستور ويخرج بالكلّية عن حجب التعيّن الخلقي فتنفتح له جميع أبواب السموات ويصل الى مقصده بلا حجاب .

فرع فقهي وأصل عرفاني

قد ورد في بعض الروايات غير المعتبرة أن يقال بعد الشهادة بالرسالة في الاذان أشهد أن عليا وليّ الله مرّتين وفي بضع الروايات أشهد أن عليا أمير المؤمنين حقا مرّتين وفي بعض آخر محمد وآل محمد خير البرية ، وقد جعل الشيخ الصدوق (رحمه الله) هذه الروايات من موضوعات المفوّضة وكذبها والمشهور بين العلماء رضوان الله عليهم عدم الاعتماد بهذه الروايات ، وجعل بعض المحدثين هذه الشهادة جزءا مستحبا من جهة التسامح في أدلّة السنن ، وهذا القول ليس ببعيد عن الصواب وان كان أداؤها بقصد القربة المطلقة أولى وأحوط لانه يستحب بعد الشهادة بالرسالة الشهادة بالولاية وإمارة المؤمنين كما ورد في حديث الاحتجاج عن قاسم بن معاوية قال : قلت لابي عبد الله : « هؤلاء يروون حديثا في معراجهم أنه لما أسري برسول الله رأى على العرش مكتوبا لا إله الا الله محمد رسول الله أبو بكر الصدّيق ، فقال : سبحان الله غيّروا كل شيء حتى هذا ؟ قلت نعم ، قال : ان الله عزّ وجل لما خلق العرش كتب عليه : لا اله الا الله محمد رسول الله عليّ

أمير المؤمنين ولما خلق الله عزّ وجل الماء كتب في مجراه : لا اله الا الله محمد رسول الله عليّ أمير المؤمنين ، ثم تذكر الرواية كتابة هذه الكلمات على قوائم الكرسي واللوح وعلى جبهة اسرافيل وعلى جناحي جبرائيل وأكناف السموات وأطباق الارضين ورؤوس الجبال وعلى الشمس والقمر ، ثم قال : فاذا قال أحدكم لا اله الا الله محمد رسول الله فليقل عليّ أمير المؤمنين » .

وبالجملة هذا الذكر الشريف يستحب بعد الشهادة بالرسالة مطلقا وفي فصول الاذان لا يبعد استحبابه بالخصوص وان كان الاحتياط يقتضي أن يؤتى به بقصد القربة المطلقة لا بقصد الخصوصية في الاذان لتكذيب العلماء الاعلام تلك الروايات .

وأما النكتة العرفانية في كتابة هذه الكلمات على جميع الموجودات من العرش الأعلى إلى منتهى الارضين فهي أن حقيقة الخلافة والولاية هي ظهور الالوهية وهي أصل الوجود وكماله وكل موجود له حظ من الوجود له حظ من حقيقة الالوهية وظهورها الذي هو حقيقة الخلافة والولاية اللطيفة الالهية ثابتة على ناصية جميع الكائنات من عوالم الغيب الى منتهى عالم الشهادة ، وتلك اللطيفة الالهية هي حقيقة الوجود المنبسط والنفس الرحماني والحق المخلوق به الذي هو بعينه باطن الخلافة الختمية والولاية المطلقة العلوية ، ومن هذه الجهة كان الشيخ العارف شاه ابادي(*) يقول : ان الشهادة بالولاية منطوية في الشهادة بالرسالة لان الولاية هي باطن الرسالة .

ويقول الكاتب : ان الشهادتين منطويتان جميعا في الشهادة بالالوهية وفي الشهادة بالرسالة أيضا الشهادتان الاخريان منطويتان ، كما أن في الشهادة بالولاية الشهادتان الاخريان منطويتان والحمد لله أولا وآخرا .

المراجع والحواشي

١ ــ (النور ــ ٤٠) .

٢ ــ (هود ــ ٥٦) .

٣ ــ (النور ــ ٣٥) .

٤ ــ هو العارف الكامل والفيلسوف الحكيم المتألّه الشيخ محمد علي شاه آبادي أحد العلماء الكبار في عاصمة ايران وكان الامام الخميني قد تتلمذ عنده في الفلسفة وكان معجبا به وبآرائه ويخاطبه في أكثر كلماته بالشيخ العارف الكامل روحي فداه .

الفصل الخامس

في بعض آداب الحيّعلات

اذا اعلن السالك الى الله بالتكبيرات عظمة الحق تعالى عن التوصيف وبالشهادة بالالوهية قصر التوصيف والتحميد بل كل تأثير على الحق وأسقط نفسه عن اللياقة للقيام بالامر واختار الرفيق والمصاحب بالشهادة بالرسالة والولاية وتمسك بمقام الخلافة والولاية وتمسك بمقام الخلافة والولاية المقدسة كما قيل الرفيق ثم الطريق وبعد ذلك كله لابدّ له أن يهيّىء القوى الملكية والملكوتية بصراحة اللهجة للصلاة ويعلن لها اعلان الحضور بقوله حيّ على الصلاة وتكراره للتنبّه التام والايقاظ الكامل أو أن أحدهما لقوى المملكة الداخلية والاخر لقوى المملكة الخارجية لانهما ايضا سلاّك هذا السفر مع الانسان ، كما أشير الى ذلك فيما مرّ ونشير اليه فيما يأتي وأدب السالك في هذا المقام هو أن يفهم قلبه وقواه ويفهم باطن قلبه قرب الحضور حتى يتهيّأ له ويراقب آدابه الصورية والمعنوية كمال المراقبة ثم يعلن سرّ الصلاة ونتيجتها بقوله حيّ على الفلاح وحيّ على خير العمل كي يوقظ الفطرة لان الفلاح والنجاح هي السعادة المطلقة وفطرة جميع البشر عاشقة للسعادة المطلقة لان الفطرة طالبة للكمال وتطلب الراحة وحقيقة السعادة

هي الكمال المطلق والراحة المطلقة وهي في الصلاة التي هي خير الاعمال تحصل قلبا وقالبا وظهورا وبطونا لان الصلاة بحسب الظاهر هي الذكر الكبير والجامع والثناء بالاسم الاعظم المستجمع لجميع الشؤون الالهية ولهذا كان الاذان والاقامة مفتتحين بالله ومختتمين به ويكرّر الله أكبر في جميع الحالات الصلاة وانتقالاتها والتوحيدات الثلاثة التي هي قرّة عين الاولياء تحصل في الصلاة وامتزج فيها صورة الفناء المطلق والرجوع التام وبحسب الباطن والحقيقة هي معراج قرب الحق وحقيقة الوصول الى جمال الجميل المطلق والفناء في ذاته المقدسة التي تعشقها الفطرة وتحصل بها الطمأنينة التامة والراحة المطلقة والسعادة العقلية التامة ألا الى الله تطئمن القلوب ، فاذا الكمال المطلق وهو الوصول الى فناء الله والاتصال بالبحر الوجودي غير المتناهي وشهود جمال الازل والاستغراق في بحر النور المطلق تحصل في الصلاة وفيها ايضا تحصل الراحة المطلقة والاستراحة التامة والطمأنينة التامة ويحصل ركن السعادة ، فالصلاة هي الفلاح المطلق وهي خير الاعمال وعلى السالك أن يفهّم القلب هذه اللطيفة الالهية بالتكرار والتذكر التام ويوقظ الفطرة فاذا وردت هذه اللطيفة في القلب فالفطرة من حيث إنها طالبة للكمال والسعادة تهتمّ بها وتحافظ عليها وتراقبها ، وفي تكرارهما ايضا النكتة التي ذكرناها .

فاذا وصل السالك الى ذلك المقام يعلن اعلان الحضور فقد قامت الصلاة فلابد أن يرى نفسه في حضرة مالك الملوك في العوالم الوجودية وسلطان السلاطين والعظيم المطلق ويفهّم قلبه الاخطار التي في الحضرة ويرجع الكل الى القصور والتقصير الامكاني ويرد المحضر بكمال الانفعال والخجلة من عدم القيام بالامر وقدمي الخوف والرجاء ويفد على الكريم ولا

يرى لنفسه زادا وراحلة ويرى قلبه فارغا عن السلامة[1] ولا يحسب عمله من الحسنات ولا يعدّه أقل شيء فاذا استحكمت هذه الحال في القلب فالمرجو أن يقع موردا للعناية ، أمّن يجيب المضطرّ اذا دعاه ويكشف السوء .

وصل وتتميم :

محمد بن يعقوب باسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « اذا أذنت وأقمت صلّى خلفك صفان من الملائكة واذا أقمت صلّى خلفك صف من الملائكة » والاحاديث بهذا المضمون كثيرة . وفي بعض الاخبار : « ان حدّ الصف ما بين المشرق والمغرب » .

وفي ثواب الاعمال قال أبو عبد الله عليه السلام : « من صلّى بأذان وإقامة ، صلّى خلفه صفان من الملائكة ومن صلّى باقامة من غير أذان صلّى خلفه صف واحد من الملائكة ، قلت له : وكم مقدار كل صف ؟ فقال أقلّه ما بين المشرق والمغرب وأكثره ما بين السماء والارض » . وفي بعض الروايات : « وان أقام بغير أذان صلّى عن يمينه واحد وعن شماله واحد » الى غير ذلك من الاخبار . ولعل اختلاف الاخبار بواسطة اختلاف المصلين من المعارف والخلوص كما يستفاد ذلك من بعض روايات الباب مثل الرواية التي وردت في الصلاة مع الأذان والاقامة في ارض قفراء[2]

وبالجملة ، اذا رأى السالك نفسه إماما لملائكة الله وقلبه اماما لقواه الملكية والملكوتية وجمع بالاذان والاقامة قواه الملكية والملكوتية واجتمعت عليه ملائكة الله ، فعليه أن يجعل القلب وهو أفضل قوى الظاهر والباطن وشفيع سائر القوى اماما ، وحيث إن القلب ضامن لقراءة المأمومين ووزرها على

عهدته فلا بدّ له أن يحافظ عليه محافظة تامة ويراقبه مراقبة جميلة لكي يحفظ القلب على الحضرة والحضور ويقوم بأدب المقام المقدّس ويغتنم هذا الاجتماع المقدس ويعظّم توجّه ملائكة الله وتأييدهم ايّاه ويعرفه من النعم لوليّ النعمة الحقيقي ويقدّم عجزه وقصوره عن شكر هذه النعم العظيمة الى مقامه المقدس انه وليّ النعم .

المراجع والحواشي

١ ـــ أقول ما ذكره دام ظله اشارة الى ما كتبه علي عليه السلام على كفن سلمان :

وفـــدت على الكـــريم بغير زاد   من الحسنـات والقـــلب السليم
وحمل الـــزاد أقبـــح كل شيء   اذا كان الوفـــود على الكـــريم

٢ ـــ أقول : وفي وصية رسول الله صلى الله عليه وآله لابي ذر قال : « يا ابا ذر ان ربك ليباهي ملائكته بثلاثة نفر : رجل يصبح في أرض قفراء فيؤذن ثم يقيم ثم يصلّي ، فيقول ربك للملائكة انظروا الى عبدي يصلي ولا يراه احد غيري فينزل سبعون ألف ملك يصلّون وراءه ويستغفرون له الى الغد من غير ذلك اليوم .. الى أن قال : يا أبا ذرّ اذا كان العبد في أرض فيء يعني قفراء فتوضأ أو تيمم ثم أذّن وأقام وصلى أمر الله الملائكة فصفوا خلفه صفّا لا يَرىٰ طرفاه يركعون لركوعه ويسجدون لسجوده ويؤمّنون على دعائه ، يا أبا ذر من أقام ولم يؤذن لم يصلّ معه الا ملكاه اللذان معه » .

وما ذكره الاستاذ دام ظلّه من أن السر في اختلاف الروايات هو الاختلاف من جهة الخلوص والمعرفة للمصلين ظاهر لان ما للمصلي في الارض القفراء ـــ ومع أنه لا يراه أحد ـــ من المعرفة والخلوص هو السبب لكثرة الملائكة المصلين وراءه .

الباب الثاني

في القيام

وفيه

فصلان

الفصل الأول

في السر الاجمالي للقيام[1]

اعلم أن أهل المعرفة يرون القيام إشارة الى التوحيد الافعالي ، كما أن الركوع عندهم إشارة الى التوحيد الصفاتي والسجود الى التوحيد الذاتي ، ويأتي بيانهما في محلّهما ، واما بيان ان القيام إشارة إلى التوحيد الفعلي هو أن نفس القيام إشارة الى هذا المقام وضعا وفي القراءة إشارة إليه لفظا .

اما أن القيام فيه إشارة إليه وضعا ، هو أن القيام إشارة الى قيام العبد بالحق ومقام قيّوميّة الحق وهو التجلّي بالفيض المقدّس والتجلي الفعلي ، وتظهر في هذا المقام فاعلية الحق وتستهلك جميع الموجودات في التجلي الفعلي وتضمحل تحت كبريائه الظهوري ، والادب العرفاني للسالك في هذا المقام أن يتذكر بهذه اللطيفة الالهية ويترك التعينات النفسية ما استطاع ويذكر للقلب حقيقة الفيض المقدس ويوصل الى باطن القلب نسبة قيّوميّة الحق وتقوّم الخلق بالحق فاذا تمكنت هذه الحقيقة في قلب السالك تقع قراءته بلسان الحق ويكون الذاكر والمذكور هو الحق وينكشف له معنى « انت كما أثنيت على نفسك وأعوذ بك منك » ببعض مراتبه ويجد قلب العارف بعض أسرار الصلاة ، كما أن في النظر الى محل السجود وهو التراب والنشأة

الاصلية وخضوع الرقبة ونكس الرأس الذي هو لازم للخضوع اشارة الى الذلّ والفقر الامكاني والفناء تحت عزّ الكبرياء وسلطانه : يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله وهو الغنيّ الحميد .

وأمّا انّ في القراءة لفظا اشارة الى مقام التوحيد الفعلي فسيأتي تفصيله في سورة الحمد المباركة ان شاء الله .

المراجع والحواشي

١ ــ قال بعض علماء الاخرة : وإما الاعتدال قائما فهو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عز وجل فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقا مطأطأ منكسا ، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيها على الزام القلب التواضع والتذلّل والتبرّي عن الترؤس والتكبّر ، وليكن على ذكرك ها هنا خطر القيام بين يدي الله عزّ وجل في هول المطلع عند العرض للسؤال واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عز وجل وهو مطّلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان ان كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدّر في دوام قيامك في صلواتك انك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح فانه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين الى قلّة الخشوع ، واذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها انك تدّعين معرفة الله وحبّه أفلا تستحيين من استجرائك عليه مع توقيرك عبدا من عباده ؟ أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى ؟ (انتهى) .

وقال الشهيد الثاني رحمه الله ما يقرب من هذا ، وأضاف بعد قوله أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى قال : الا تستحيين من خالقك ومولاك اذا قدّرت اطّلاع عبد ذليل من عباده عليك وليس بيده خيرك ولا نفعك ولا ضرّك خشعت لاجله جوارحك وحسنت صلواتك ثم انك تعلمين أنه مطّلع عليك فلا تخشعين لعظمته أهو أهون عندك من عبد من عباده ؟

فما أشد طغيانك وجهلك وما أعظم عداوتك لنفسك ولذلك لما قيل للنبي صلى الله عليه وآله كيف الحياء من الله تعالى ؟ فقال صلى الله عليه وآله : « تستحيي منه كما تستحيي من رجل صالح من قومك » .

وأما دوام القيام فهو تنبيه على ادامة القلب على الله تعالى على نعت واحد من الحضور . قال صلى الله عليه وآله ان الله مقبل على العبد ما لم يلتفت .. وكما يجب حراسة السرّ عن الالتفات الى غير الصلاة فان التفتّ الى غيرها فذكره باطّلاع الله تعالى عليك وقبح التهاون بالمناجي مع غفلة المناجي ليعود الى التيقّظ والزم الخشوع الباطني فانه ملزوم الخشوع ظاهرا ، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر .

قال صلى الله عليه وآله وقد رأى مصلّيا يعبث بلحيته : « ما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه فان الرعية بحكم الراعي » ولهذا ورد في الدعاء « اللهم أصلح الراعي والرعية » وهو القلب والجوارح وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظّم من أبناء الدنيا فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك وجبّار الجبابرة ومن يطمئن بين يدي غير الله تعالى خاشعا ثم تضطرب أطرافه بين يدي الله تعالى فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطّلاعه على سرّه وضميره وتدبّر قوله تعالى الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين ..(انتهى) .

الفصل الثاني

في آداب القيام

وهي أن يرى السالك نفسه حاضرا في محضر الحق ويعلم أن العالم محضر الربوبية ويحتسب نفسه من حضّار المجلس والمقيم بين يدي الله ويوصل الى قلبه عظمة الحاضر والمحضر ويفهم القلب أهمية المناجاة مع الحق تعالى وخطره ويحضّر قلبه قبل الورود في الصلاة بالتفكر والتدبّر ويفهمه عظمة المطلب ويلزمه بالخضوع والخشوع والطمأنينة والخشية والخوف والرجاء والذل والمسكنة الى آخر الصلاة ويشارط القلب أن يراقب هذه الامور ويحافظ عليها ويتفكر ويتدبر في أحوال أعاظم الدين وهداة السبل أنهم كيف كانت حالاتهم في الصلاة وكيف كانوا يتعاملون مع مالك الملوك ويتخذ من أحوال أئمة الهدى أسوة لنفسه ويتأسى بهؤلاء الاعاظم ولا يكتفي من تاريخ حياة أعاظم الدين وأئمته بسنة وفاتهم ويومها وسنة تولدهم ويومه ومقدار أعمارهم الشريفة وأمثال تلك من الامور التي لا تترتب عليها فائدة جليلة بل يكون عمدة سيره في سيرهم الايماني والعرفاني وسلوكهم ، كذلك انه كيف كانت معاملتهم في العبودية وكيف كان مشيهم في السير الى الله وأي مقدار كانت مقاماتهم العرفانية التي تستفاد من كلماتهم الاعجازية فيا

أسفا ، انّنا نحن أهل الغفلة وسكر الطبيعة والمغرورون بالآمال خلفاء الشيطان الخبيث في جميع الامور ولا نستيقظ أبدا من النوم الثقيل ولا نخرج عن النسيان الكثير وان استفادتنا من مقامات أئمة الهدى ومعارفهم قليلة ، بل ولا شيء يذكر أصلا واكتفينا من تاريخ حياتهم بالقشر والصورة وصرفنا النظر بالكلية عما هو غاية لبعثة الانبياء عليهم السلام . وفي الحقيقة ينطبق علينا المثل المعروف (استسمن ذو ورم) . ونحن نذكر في هذا المقام بعض الروايات الواردة في هذا الباب فلعله يحصل التذكر لبعض الاخوان المؤمنين والحمد لله وله الشكر .

عن محمد بن يعقوب بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « كان علي بن الحسين عليهما السلام اذا قام الى الصلاة تغيّر لونه فاذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقا » .

وباسناده عنه عليه السلام قال : « كان أبي يقول كان علي بن الحسين اذا قام الى الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه شيء الا ما حرّكت الريح منه » .

وعن محمد بن علي بن الحسين في العلل باسناده عن ابان بن تغلب قال : « قلت لابي عبد السلام عليه السلام اني رأيت علياً بن الحسين اذا قام الى الصلاة غشي لونه لون آخر ، فقال لي والله ان علياً بن الحسين كان يعرف الذي يقوم بين يديه » .

وعن السيد علي بن طاووس في فلاح السائل في حديث فقال أبو عبد الله عليه السلام : « لا تتم الصلاة الا لذي طهر سابغ وتمام بالغ غير نازغ ولا زائغ عرف فوقف وأخبت فثبت فهو واقف بين اليأس والطمع والصبر والجزع كأنّ الوعد له صنع والوعيد به وقع يذل عرضه ويمثل عرضه

وبذل في الله المهجة وتنكب اليه المهجة غير مرتغم بارتغام يقطع علائق الاهتمام بعين من له قصد واليه رفد ومنه استرفد فاذا أتى بذلك كانت هي الصلاة التي بها أمر وعنها أخبر وانها هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر » . الحديث .

وعن محمد بن يعقوب باسناده الى مولانا زين العابدين عليه السلام انه قال : « وأمّا حقوق الصلاة فان تعلم أنه وفادة الى الله وانك فيها قائم بين يدي الله فاذا علمت ذلك كنت خليقا أن تقوم فيها مقام العبد الذليل الراغب الراهب الخائف الراجي المسكين المتضرع المعظم مقام من يقوم بين يديه بالسكينة والوقار وخشوع الاطراف ولين الجناح وحسن المناجاة له في نفسه والطلب اليه في فكاك رقبته التي أحاطت بها خطيئته واستهلكتها ذنوبه ، ولا قوة الا بالله » .

وعن النبي صلى الله عليه وآله : « اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » .

وعن فقه الرضا عليه السلام : « فاذا أردت أن تقوم الى الصلاة فلا تقم اليها متكاسلا ولا متناعسا ولا مستعجلا ولا متلاهيا ولكن تأتيها على السكون والوقار والتؤدة[1] وعليك الخشوع والخضوع ، متواضعا لله عزّ وجلّ متخاشعا عليك الخشية وسيماء الخوف راجيا خائفا بالطمأنينة على الوجل والحذر فقف بين يديه كالعبد الآبق المذنب بين يدي مولاه فصف قدميك وانصب نفسك ولا تلتفت يمينا وشمالا وتحسب كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » الحديث .

وفي عدة الداعي روى « ان ابراهيم عليه السلام كان يسمع تأوّهه على حدّ ميل حتى مدحه الله بقوله : إنّ ابراهيم لحليم أوّاه منيب وكان في

صلاته يسمع له أزيز[٢] كأزيز المرجل[٣] وكذلك يسمع من صدر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله مثل ذلك وكانت فاطمة عليها السلام تنهج في الصلاة من خيفة الله » الى غير ذلك من الاخبار .

والاخبار الشريفة في هذه الموضوعات أكثر من أن تسعها هذه الرسالة ، وفي التفكر فيما ذكر منها كفاية لاهل التذكر والتفكر بالنسبة الى الاداب الصورية وبالنسبة الى الاداب القلبية والمعنوية وكيفية القيام بين يدي الله .

وتفكر في حالات علي بن الحسين ومناجاته مع الحق تعالى وأدعيته اللطيفة التي تعلّم آداب العبودية لعباد الله تعالى ، لا أقول أن مناجاتهم عليهم السلام كانت لتعليم العباد فان هذا الكلام بلا مغزى وباطل صادر من الجهل لمقام الربوبية ، ومعارف أهل البيت فان خوفهم وخشيتهم كانت أكثر من جميع الناس وقد تجلت عظمة الحق وجلاله في قلوبهم أكثر من الكل ولكني أقول : لابد أن يتعلم عباد الله منهم كيفية العبودية والسلوك الى الله تعالى ، فاذا قرأوا أدعيتهم ومناجاتهم فلا تكون القراءة لقلقة اللسان بل يتفكرون في كيفية تعاملهم مع الحق وإظهارهم التذلل والعجز والحاجة للذات المقدسة ولعمر الحبيب أن علي بن الحسين من أعظم النعم منّ بها ذات الحق المقدسة على عباده وأنزله من عالم القرب والقدس لاجل تفهيم عباده طرق العبودية ولتسألنّ يومئذ عن النعيم .. واذا سئلنا لماذا ما قدّرنا هذه النعمة وما استفدنا من هذا الرجل العظيم ؟ فلا نحير جوابا غير أن ننكس برؤوسنا ونحترق بنار الندامة والاسف ولا ينفع حينذاك الندم .

فيا أيها العزيز ، فالآن لك الفرصة والعمر العزيز الذي هو رأس مالك موجود وطريق السلوك الى الله مفتوح وأبواب رحمة الحق مفتوحة

والسلامة وقوة الاعضاء والقوى مستقرّة ودار زرع عالم الملك قائمة ، فاصرف همّتك واعرف قدر هذه النعم الالهية واستفد منها وتحصّل الكمالات الروحانية والسعادات الازلية والابدية وخذ نصيبا من هذه المعارف الكثيرة التي بسطها القرآن الشريف السماوي وأهل بيت العصمة عليهم السلام على بسيط أرض الطبيعة المظلمة ونوّروا العالم بالانوار الساطعة الالهية فنوّر أرض طبيعتك المظلمة بالنور الالهي ونوّر بنور الحق تعالى بصرك وسمعك ولسانك وسائر القوى الظاهرة والباطنة وبدّل هذه الارض الظلمانية الى أرض نورانية بل الى سماء عقلانية ففي يوم تبدّل الارض غير الارض وان لم تتبدل أرضك غير الارض ولم تتنور بنور الرب فلك ظلمات ومشقات وأنواع الوحشة والظلمة والذلة والعذاب ، فالان القوى الظاهرة والباطنية لنا مظلمة بالظلمات الشيطانية وأنا أخشى من أنه ان بقينا على هذه الحال فبالتدريج تتبدل الارض الهيولانية التي فيها نور الفطرة أرضا سجّينيّة مظلمة خالية من نور الفطرة ومحجوبة عن جميع أحكام فطرة الله وتلك شقاوة ليس بعدها سعادة وظلمة لا يعقبها نور ووحشة لا ترى وجه الاطمئنان وعذاب ليس وراءه راحة فمن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .. أعوذ بالله من غرورات الشيطان والنفس الامّارة بالسوء فان عمدة المقصد والمقصود للانبياء العظام وتشريع الشرائع وتأسيس الاحكام ونزول الكتب السماوية وخصوصا القرآن الشريف الجامع الذي صاحبه ومكاشفه نور الرسول الخاتم المطهّر صلى الله عليه وآله هي نشر التوحيد والمعارف الالهية وقطع جذور الكفر والشرك والحول وعبادة الهين اثنين وسر التوحيد والتجريد سار وجار في جميع العبادات القلبية والقالبية بل كان يقول الشيخ العارف الكامل شاه آبادي روحي فداه : ان العبادات اجراء التوحيد من باطن القلب الى ملك البدن .

وبالجملة : النتيجة المطلوبة من العبادات هي تحصيل المعارف وتمكين التوحيد وسائر المعارف في القلب ، وهذا المقصد لا يحصل الا بان يستوفي السالك الحظوظ القلبية للعبادات ويعبر من الصورة والقالب الى الحقيقة واللبّ ولا يتوقف في الدنيا والقشر فان الوقوف في هذه الامور أشواك في طريق سلوك الانسانية ، والذين يدعون الى الصورة فقط وينهون الناس عن الآداب الباطنية ويقولون أنّه لا معنى للشريعة ولا حقيقة لها سوى هذه الصورة والقشرة فهم شياطين الطريق الى الله وأشواك سبيل الانسانية ولابد أن يستعاذ من شرّهم الى الله فانهم يطفئون للانسان نور فطرة الله الذي هو نور المعرفة والتوحيد والولاية وسائر المعارف ويسدلون عليه حجب التقليد والجهالة والعادات والاوهام ويمنعون عباد الله عن العكوف بجنابه والوصول الى جماله الجميل ويصدّون عن طريق المعارف ويوجهون الى الدنيا وزخارفها والجهات المادية والجسمانية وعوارضها القلوب الصافية الطاهرة لعباد الله التي زرع في خميرتها الحق تعالى بذر المعرفة بيدي جماله وجلاله وأرسل الانبياء العظام وأنزل الكتب السماوية لتربية ذاك البذر وتنميته ، ويصرفون تلك القلوب عن الروحانية والسعادات العقلية ويحصرون العوالم الغيبية والجنات الموعودة في المأكولات والمشروبات والمنكوحات وسائر المشتهيات الحيوانية ، هؤلاء يظنون ان الحق تعالى اذ بسط بساط الرحمة الواسعة وأنزل الكتب بتلك التشريفات الكثيرة وأهبط الملائكة المعظّمة وبعث الانبياء العظام لادارة البطن والفرج . وغاية معارفهم أنك اذا حفظت بطنك وفرجك في الدنيا تصل الى شهواتها في الاخرة ، فهؤلاء لا يهتمون بالتوحيد والنبوّات بمقدار ما يهمّهم الجماع الذي يكون مدّته خمسمئة سنة !! ويحسبون جميع المعارف مقدمة لتأمين البطن والفرج ، واذا أراد حكيم الهي

أو عارف ربّاني أن يفتح الى عباد الله بابا من الرحمة ويقرأ لهم درسا من الحكمة الالهية لا يمتنعون عن أيّة تهمة وغيبة وأيّ سبّ وتكفير ، بالنسبة الى هؤلاء وقد انغمروا في الدنيا الى حدّ ويهتمون بشهوات بطونهم وفروجهم الى غاية لا يحبّون من حيث لا يشعرون أن تكون في دار التحقق سعادة سوى الشهوات الحيوانية مع أنه لو كانت في العالم سعادات عقلية فلا تضر بطنهم وفرجهم فأمثالنا ممّن لم يتجاوزوا حد الحيوانية ولا يتيسّر لنا غير الجنّة الجسمانية وادارة البطن والفرج ، وهي أيضا نأملها بتفضّل الله سبحانه ولكن لا نظنّ أن السعادة منحصرة فيها . وجنة الحق تعالى محصورة بهذه الجنة الحيوانية ، بل للحق تعالى عوالم لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد ، وان أهل المحبة الالهية ومعرفة الله سبحانه لا يعتنون بشيء من تلك الجنّات ولا يتوجّهون الى عالم الغيب والشهادة وأنّ لهم جنة اللقاء ، وان أردنا أن نذكر الآيات القرآنية والاحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة في هذا الباب لكان مخالفا لوضع هذه الرسالة ، وهذا المقدار ايضا كان من طغيان القلم والمقصود العمدة هو توجيه قلوب عباد الله لما خلقوا له وهو معرفة الله سبحانه التي هي فوق جميع السعادات وليس شيء مقدماً عليها وليس مقصودنا من الذين هم أشواك سلوك الطريق علماء الاسلام العظام وفقهاء المذهب الجعفري الكرام عليهم رضوان الله بل بعض الجهلة والمتحلين للعلم فانهم من جهة القصور والجهل لا التقصير والعناد صاروا قطاع طريق عباد الله ، وأعوذ بالله من شر طغيان القلم والنيّة الفاسدة والمقصود الباطل . والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا .

المراجع والحواشي

١ ــ التؤدة : بضم التاء كهمزة من الوئيد وهي السكون والرزانة والتأني « مجمع البحرين » .

٢ ــ أزيز : صوت غليان القدر .

٣ ــ المرجل : قدر من النحاس .

الباب الثالث

في سر النية وآدابها

وفيها

خمسة فصول

الفصل الاول

في حقيقة النية في العبادات

اعلم ان النية عبارة عن التصميم والعزم على إتيان شيء وإجماع النفس على إتيانه بعد تصوّره والتصديق بفائدته والحكم بلزوم إتيانه وهو حالة نفسانية ووجدانية تكون بعد هذه الامور ونعبّر عنها بالهمة والعزم والارادة والقصد ، وهي موجودة في جميع الامور الاختيارية ولا يمكن تخلّف فعل إرادي عنها ، وهذا الامر موجود في تمام العمل من أوله الى آخره حقيقة من دون شائبة مجاز فيه ولا يلزم أن تكون حاصلة في الذهن في أثناء العمل أو في أوله تفصيلا ويتصوّر الفاعل هذا القصد والتصميم فعلا بل ربما يكون ان الانسان يأتي بالعمل بذلك التصميم والعزم وهو ذاهل وغافل بالكلية عن الصورة التفصيلية للعمل وعن التصميم ، ولكن تلك الحقيقة موجودة ، ويوجد العمل في الخارج بتحريكها كما هو واضح وجدانا في الافعال الاختيارية .

وبالجملة ، هذا التصميم والعزم الذي هو عبارة عن النيّة في لسان الفقهاء رضوان الله عليهم موجود في كل عمل بلا تخلّف بحيث لو أراد أحد أن يوجد العمل الاختياري بدونه فهو غير ممكن له ومع ذلك فان وسوسة

الشيطان الخبيث ودعابة الواهمة تجعلان العقل محكوما لهما وتعميان هذا الامر الضروري على الانسان المسكين ، وعوضا من أنه يصرف عمره في معارف التوحيد ومعرفة الحق والسعي وراءه يوسوس له ابليس الخبيث ويصرف نصف عمره في أمر ضروري وشيء واجب الحصول .

ان للشيطان حبائل ومكائد كثيرة فيلزم أحدا لترك أصل العمل وفي آخر اذا يئس من أنه يترك أصل العمل فيلزمه بالرياء والعجب وسائر المفسدات ، واذا لم يوفّق لهذا الامر فيبطل عمله من طريق التظاهر بالقداسة فيوهن عبادات جميع الناس في نظر الانسان وينسب الناس الى عدم المبالاة ثم يلزمه أن يصرف جميع عمره في النيّة مثلا التي هي أمر ملازم للعمل أو في التكبيرة أو في القراءة التي هي كلها من الامور العادية ولا تحتاج الى مؤونة ، وبالآخرة لا يرضى عن الانسان الا بأن يبطل عمله باحدى الطرق المذكورة .

ان للوسواس شؤونا كثيرة وطرقا عديدة لا نستطيع أن نبحث الان في جميعها ونستقصي جميع شؤونها ، ولكن الوسوسة في النية لعلها أكثر أضحوكة وأعجبها بين أنواع الوسوسات لانه اذا أراد أحد أن يقوم بكلّ قواه وفي جميع عمره أن يأتي بأمر واحد اختياري بدون نيّة لا يمكن له أن يكون هذا في عهدته ومع ذلك ترى واحدا مسكينا مريض النفس وضعيف العقل يعطّل نفسه في كلّ صلاة مدّة مديدة لكي توجد صلاته مع النية والعزم ، فمثل هذا الشخص كمن يتفكر مدة مديدة لان يهيىء نية وعزما لذهابه الى السوق أو لتغذّيه . فالصلاة التي ينبغي أن تكون لهذا المسكين معراج قربه ومفتاح سعادته وبالتأدّب بآدابها القلبية والاطّلاع على أسرار هذه اللطيفة الالهية يكمل ذاته ويؤمّن النشأة الحياتية ، فهو يغفل عن ذلك كله بل

لا يراها ضرورية لنفسه بل يعد جميعها باطلة ويصرف رأس ماله العزيز في خدمة الشيطان وإطاعة الوسواس الخنّاس ويجعل عقله الموهوب من الله سبحانه الذي هو نور الهداية محكوما لحكم ابليس .

فعن عبد الله بن سنان قال : ذكرت لابي عبد الله عليه السلام رجلا مبتلى بالوضوء والصلاة وقلت : هو رجل عاقل فقال أبو عبد الله (ع) وأيّ عقل له وهو يطيع الشيطان فقلت له وكيف يطيع الشيطان ؟ فقال سله هذا الذي يأتيه من أيّ شيء هو فانه يقول لك : من عمل الشيطان .

وبالجملة لا بد للانسان أن يجذر هذا الجذر بكل ما تيسّر له من الرياضة والكلفة ، فانه يمنع الانسان عن جميع السعادات والخيرات ، فمن الممكن أن تكون عبادات الانسان في طول أربعين سنة غير صحيحة حتى بحسب الصورة وتكون فاقدة لاجزائها الصورية الفقهية فضلا عن الآداب الباطنية والشرعية ومما يضحك الثكلى أن بعض هؤلاء الاشخاص المبتلين بالوسواس يرون أعمال جميع الناس باطلة ويحسبون أنهم لا يبالون بدينهم مع أن هذا الوسواس نفسه ان كان مقلّدا فمرجع تقليده أيضا واحد من الناس المعروفين ، وان كان هو من أهل الفضل فليرجع الى الاخبار ويرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام ايضا كانوا في هذه الامور كمتعارف الناس ، فهذه الطائفة الوسواسية فقط من بين الناس يعملون على خلاف رسول الله والائمة المعصومين عليهم السلام وفقهاء المذهب وعلماء الملّة ويعدّون أعمال الناس جميعا كلا شيء وعملهم موافقا للاحتياط ويرون أنفسهم مبالين بالدين . فمثلا في باب الوضوء ، الاخبار البيانية لوضوء رسول اللهصلى الله عليه وآله متواترة على الظاهر بأنه صلى الله عليه وآله يصبّ غرفة من الماء على وجهه وغرفة الى يمينه وغرفة الى شماله ، وقد

قام إجماع فقهاء الامامية على التحقيق بأن هذا الوضوء صحيح وظاهر كتاب الله ايضا هو ذلك ، وفي الغسل الثاني بل الغرفة الثانية استشكل بعض ولكن الغرفة الثانية بل الغسل الثاني أيضا لا بأس به وان كان في استحبابه كلام ولكن الغسل الثالث بدعة ومبطل للوضوء بلا اشكال رواية وفتوى ، فالان انظر الى عمل الوسواسي المسكين فهو لا يكتفي بعشرين غرفة تسبغ كل غرفة منها تمام اليد وتحسب غسلة تامة فوضوؤه حينئذ باطل بلا اشكال ، فهذا الشقيّ الضعيف العقل يرى هذا العمل الذي أتى به طاعة للشيطان ووسوسته صحيحا وموافقا للاحتياط ويرى أعمال سائر الناس باطلة ، فمن هنا يعلم وجه صدق الحديث الشريف الذي عدّه من السفهاء ، فيعلم أن من يرى العمل الذي يخالف عمل رسول الله صحيحا والعمل الذي يكون موافقا لعمله صلى الله عليه وآله باطلا فهو إمّا خارج عن الدين أو سفيه لا عقل له ، وحيث إن هذا المسكين ليس بخارج عن الدين فهو سفيه لا عقل له لا محالة ومطيع للشيطان ومخالف للرحمن وليس لهذه المعصية والداء العضال علاج سوى التفكر في الامور التي ذكرناها والمقايسة لعمله بعمل المتدينين والعلماء والفقهاء رضوان الله عليهم ، فان رأى نفسه مخالفا لهم فيرغم أنف الشيطان ولا يعتني بذاك اللعين فاذا وسوس له الشيطان في وساوسه بأن عملك باطل يجيبه اذا كان عمل جميع فقهاء الامة باطلا فليكن عملي ايضا باطلا ، فمن المرجو أنه اذا خالف الشيطان مدّة ويستعيذ في ضمن هذا الى الحق تعالى بالعجز والحاجة من شرّه ، أن يزول هذا المرض وتنقطع عين طمع الشيطان عنه كما أنه في الروايات قد ذكرت هذه الطريقة لدفع كثرة الشك الذي هو ايضا من القاءات الشيطان . ففي الكافي الشريف باسناده الى أبي جعفر الباقر عليه

السلام قال : « اذا كثر عليك السهو فامض على صلاتك فانه يوشك أن يدعك انما هو من الشيطان » .

وفي رواية أخرى عن الباقر أو الصادق عليهما السلام قال : « لاتعوّدوا الخبيث من أنفسكم نقض الصلاة فتطمعوه فان الشيطان خبيث معتاد لما عوّد فليمض أحدكم في الوهم ولا يكثرنّ نقض الصلاة فانه إذا فعل ذلك مرّات لم يعد اليه الشكّ » . قال زرارة : ثم قال : « انما يريد الخبيث أن يطاع فاذا عصي لم يعد الى أحدكم » .. وهذه المعالجات المهمّة في جميع الامور التي تكون من القاءات الشيطان ومن دعابات الواهمة الشيطانية ، وقد قررت في الاحاديث الشريفة لذلك أدعية ايضا فمن أرادها ايضا فليراجع الوسائل ومستدركها في أواخر كتاب الخلل .

الفصل الثاني

في الاخلاص

من مهمـــات آداب النيـــة وهـــو في نفس الـــوقت من مهمات جميع العبادات ومن المقررات الكلية الشاملة الاخلاص وحقيقته تصفية العمل عن شائبة سوى الله وتصفية السرّ عن رؤية غير الحق تعالى في جميع الاعمال الصورية واللبّية والظاهرية والباطنية وكمال الاخلاص ترك الغير مطلقا وجعـل الإنّيّـة والأنانيـة والـغير والغيرية تحت قدميـك ، قال تعـــالى : « ألا لله الديـــن الخالص »[1] أي أن الله تعـــالى قد اختار لنفسه الدين الخالص فإذا كان لشيء من الحظوظ النفسانيّـة والشيطانية دخل في الدين فلا يكون خالصا وما ليس بخالص فان الله لم يختره وما كانت فيه شائبة الغيرية والنفسانية فهو خارج عن حدود دين الحق . قال تعـالى : « ومـا أمـروا الا ليعبـدوا الله مخلصين له الدين »[2] .. وقال تعالى : « من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب »[3] . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله على ما نقل : « لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » . وقال تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله

ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله »[4] . ويمكن أن تكون هذه الآية المباركة متكفلة لجميع مراتب الاخلاص أحدها الهجرة الصورية التي تقع بالبدن وهذه الهجرة اذا لم تكن خالصة لله بل كانت للحظوظ النفسانية فليست هجرة الى الله ورسوله وهذه هي مرتبة الاخلاص الصوري الفقهي .

والثانية الهجرة المعنوية والسفر الباطن الذي مبدؤه البيت المظلم للنفس وغايته الله تعالى ورسوله الذي مرجعه الحق ايضا لان الرسول بما هو رسول ليس له استقلال بل هو آيه ومرآة وممثل ، فالهجرة اليه هجرة الى الحق (حبّ خاصان خد احبّ خدا است)[5] فمحصلّ معنى الآية الشريفة على حسب هذا الاحتمال هو أنه من هاجر بالهجرة المعنوية وسافر بالسفر القلبي العرفاني وخرج من بيت النفس ومنزل الانانية وهاجر الى الله من دون رؤية نفسه ونفسانيته وحيثيّته فجزاؤه على الحق تعالى ، واذا كان السالك في سلوكه الى الله طالبا لحظ من الحظوظ النفسانية ولو كان هو الوصول الى المقامات بل ولو كان هو الوصول الى قرب الحق بمعنى وصول نفسه الى الحق فليس هذا السلوك سلوكا الى الحق بل السالك لم يخرج بعد من البيت بل هو مسافر في جوف البيت من ركن الى ركن ومن زاوية الى زاوية ، فالسفر اذا كان في مراتب النفس وللوصول الى الكمالات النفسانية فليس بسفر الى الله بل هو سفر من النفس الى النفس ، ولكن لا بد للسالك من هذا السفر في سفره الى الله ولا يقدر أحد أن يسافر السفر الرباني من دون السفر النفساني غير الكمّل من أولياء الله وهذا الشأن للكمّل فقط ولعل الآية الشريفة : « سلام هي حتى مطلع الفجر »[6] تشير الى هذه السلامة من التصرفات الشيطانية والنفسانية في جميع مراتب السير ، في الليالي المظلمة الطبيعية التي هي ليلة القدر للكمّل حتى طلوع

فجر القيامة الذي هو للكمّل رؤية جمال الاحدية ، وأما غيرهم فليسوا سالمين في جميع مراتب السير بل في أوائل الامر فلا يكون سالك خارجا من التصرفات الشيطانية فاعلم أن هذه المرتبة من الاخلاص اي السلامة من أول مرتبة السير الى الله الى آخر مراتبها وهي حصول الموت الحقيقي بل ما بعد الحياة الثانوية الحقانية وهي الصحو بعد المحو لا تتيسر لاهل السلوك والمتعارفين من أصحاب المعرفة والرياضة وآية هذا النحو من الخلوص هي أنه لا سبيل لغواية الشيطان عليهم وطمع الشيطان مقطوع عنهم بالمرّة كما قال تعالى في الآية الشريفة ناقلا عن ذاك الخبيث : « فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين » .[٧] . وقد نسب الاخلاص ههنا الى عين العبد لا الى فعله وهذا مقام فوق الاخلاص في العمل ولعل المراد من الحديث النبوي المعروف من أخلص لله أربعين صباحا جرت ينابيع الحكمة من قلبه الى لسانه ، هو الاخلاص بجميع مراتبه يعني الاخلاص العملي والصفاتي والذاتي ولعله يكون ظاهرا في الاخلاص الذاتي وتكون بقية مراتب الاخلاص من لوازمه ، وشرح هذا الحديث الشريف وبيان المقصود من ينابيع الحكمة وكيفية جريانها من القلب الى اللسان ومدخلية الخلوص في هذا الجريان وخصوصية الاربعين صباحا خارج عن نطاق البيان في هذه الرسالة ويحتاج الى رسالة مستقلة ، والرسالة المعروفة بتحفة الملوك في السير والسلوك المنسوبة الى العارف بالله بحر العلوم[٨] المرحوم فعمدة نظره شرح هذا الحديث الشريف وهي رسالة لطيفة وان كانت لا تخلو من المناقشات ، ولذا لا يراها البعض من تأليفات هذا السيد الجليل وليس ببعيد .

المراجع والحواشي

١ ــ (الزمر٣) .
٢ ــ (البينة٥) .
٣ ــ (الشورى٢٠) .
٤ ــ (النساء١٠٠) .
٥ ــ مصراع للعارف المثنوي الرومي يقول : حب المخصوصين لله هو حب الله .
٦ ــ (القدر٥) .
٧ ــ (سورة ص ٨١ ــ ٨٢ ــ ٨٣)
٨ ــ هو السيد محمد بن مهدي بن العالم السيّد مرتضى بن العالم الجليل السيد محمد البروجردي الطباطبائي كان (ره) سيد العلماء الاعلام ومولى فضلاء الاسلام علامة دهره وزمانه ووحيد عصره وأوانه قال العلامة النوري في المستدرك : قد أذعن له جميع علماء عصره ومن تأخّر عنه بعلوّ المقام والرئاسة النقلية والعقلية وسائر الكمالات النفسانيّة حتى أن الشيخ الفقيه الاكرم الشيخ جعفر النجفي مع ما هو عليه من الفقاهة والرياسة كان يمسح تراب خفّه بحنك عمامته وهو من الذين تواترت عنه المكرمات ولقاؤه الحجة صلوات الله عليه ولم يسبقه في هذه الفضيلة أحد فيما أعلم الا السيد رضى الدين علي بن طاووس وقد ذكرنا جملة منها بالاسانيد الصحيحة في كتابنا دار السلام والجنّة المأوى والنجم الثاقب لو جمعت لكانت رسالة حسنة (انتهى) .

تولّد في الحائر الشريف سنة ١١٥٥ (عقنه) وتوفي في النجف الاشرف سنة ١٢١٢ (غريب) ودفن بجنب باب المسجد الطوسي وبجنبه دفن ولده العالم الفاضل السيد محمد رضا رضي الله عنه .

الفصل الثالث

في بيان بعض مراتب الاخلاص بطريق الاجمال
على نحو يناسب وضع هذه الاوراق

فاحدى مراتبه تصفية العمل أعم من العمل القلبي والقالبي عن شائبة رضا المخلوق وجلب قلوب المخلوقين سواء كان للمحمدة أو المنفعة أو لغيرهما ، وفي مقابل هذه المرتبة اتيان العمل رياءً وهذا هو الرياء الفقهي وهو أحطّ وأدنى مراتب الرياء وصاحبه أرذل المرائين وأخسّهم .

المرتبة الثانية : تصفية العمل عن حصول المقاصد الدنيوية والمآرب الزائلة الفانية . وان كان الداعي هو أن الله تعالى يعطيها بواسطة هذا العمل كإتيان صلاة الليل لتوسعة الرزق وإتيان صلاة أول الشهر للسلامة من الآفات في ذلك الشهر وإعطاء الصدقات للعافية وسائر المقاصد الدنيوية وقد عدّ بعض الفقهاء عليهم الرحمة هذه المرتبة من الاخلاص شرطا لصحة العبادة اذا كان اتيان العمل للوصول الى ذلك المقصود وهو خلاف التحقيق حسب القواعد الفقهية وان كانت هذه الصلاة عند أهل المعرفة لا قيمة لها أصلا فهي كسائر المكاسب المشروعة بل لعلها تكون أقل منها أيضا .

المرتبة الثالثة : تصفيته عن الوصول الى الجنّات الجسمانية والحور والقصور وأمثالها من اللذات الجسمانية ، وفي مقابله عبادة الاجراء كما في

الروايات الشريفة ، وهذا أيضا في نظر أهل الله كسائر المكاسب الا أن أجرة عمل هذا الكاسب أكثر وأعلى اذا قام بالامر ويخلصه عن المفسدات الصورية .

المرتبة الرابعة : أن يصفّي العمل عن خوف العقاب والعذاب الجسماني الموعود ، وفي مقابلها عبادة العبيد كما في الروايات ، وهذه العبادة أيضا في نظر أصحاب القلوب لا قيمة لها وخارجة عن نطاق عبودية الله ولا يفرق في نظر أهل المعرفة أن يعمل الانسان عملا من خوف الحدود والتعزيرات في الدين أو خوف العقاب والعذاب الأخروي أو للوصول الى النساء الدنيوية أو الحور ونساء الجنة والعمل في جميع ذلك ليس لله بل هو الداعي لداعي الأمر الذي يخرج العمل عن البطلان الصوري طبقا للقواعد الفقهية ولكن ليس لهذا المتاع قيمة في سوق أهل المعرفة .

المرتبة الخامسة : تصفية العمل عن الوصول الى السعادات العقلية واللذّات الروحانية الدائمة الازلية الابدية والانسلاك في سلك الكروبيين والانخراط في زمرة العقول القادسة والملائكة المقربين. ، وفي مقابلها العمل لهذا المقصد ، وهذه الدرجة وان كانت درجة عظيمة والمقصد عاليا ومهمّا والحكماء والمحققون يهتمون بهذه المرتبة من السعادة اهتماما كثيرا ويرون لها قيمة ولكن في مسلك أهل الله . هذه المرتبة ايضا هي من نقصان السلوك وسالكها أيضا يعدّ كاسبا من الاجراء وان كان له فروق مع سائر الناس في المتجر والمكسب .

المرتبة السادسة : هي في ازاء هذه المرتبة ، وهي تصفية العمل من خوف عدم الوصول الى هـذه اللذات والحرمـان عن هذه السعـادات، وفي مقابلتها العمل لهذه المرتبة من الخوف ، وهذه ايضا وان كانت مرتبة عالية

وخارجة عن حدّ اشتهاء أمثال الكاتب ولكنها أيضا في نظر أهل الله عبادة العبيد ، وهي عبادة معللة .

المرتبة السابعة : تصفية العمل عن الوصول الى لذات جمال الله والوصول الى بهجات أنوار السبحات غير المتناهية وهي جنة اللقاء . وهذه المرتبة أي جنة اللقاء هي من مهمات مقاصد أهل المعرفة وأصحاب القلوب وأيدي آمال النوع عنها قاصرة ، والاوحدي من أهل المعرفة يتشرّف بشرف هذه السعادة وهم أهل الحب والجذبة من كمّل أهل الله واصفياء الله ولكن ليست هذه المرتبة هي كمال مرتبة الكمّل من أهل الله بل هي من مقاماتهم المعمولة والعادية لهم وما في الادعية كالمناجاة الشعبانية من أن أمير المؤمنين وأولاده الطاهرين استدعوا هذه المرتبة من الله أو أشاروا بكونهم متحققين بها فليس من جهة أن مقاماتهم منحصرة بهذه المرتبة .

كما أن المرتبة الثامنة في ازاء هذه المرتبة وهي عبارة عن تصفية العمل عن خوف الفراق ايضا ليس كمال مقامات الكمّل وما قاله أمير المؤمنين عليه السلام : كيف أصبر على فراقك .. فمن مقاماته المعمولة العادية ومقامات أمثاله كذلك .

وبالجملة ، ان تصفية العمل عن هاتين المرتبتين ايضا لازمة عند أهل الله ، والعمل معها معلل وليست خارجة عن الحظوظ النفسانية ، وهذا كمال الخلوص ، وبعدها مراتب اخرى خارجة عن حدود الخلوص وداخلة تحت ميزان التوحيد والتجريد والولاية لا يناسب المقام بيانها .

الفصل الرابع

في تحذير منكري المقامات وطوائفهم

اذا علمت مراتب الاخلاص ومقامات العبادات الى حدّ فتهيّأ لتحصيله فان العلم بلا عمل لا قيمة له والحجّة على العالم أتمّ والمناقشة عليه أكثر ، فيا للاسف إننا محرومون بالكلية من المعارف الالهية والمقامات المعنوية لاهل الله والمدارج الغالية لاصحاب القلوب ، فطائفة منا ولعلها هي الاكثر تنكر المقامات كلّها وترى أهلها على الخطأ والباطل وعاطلا ومن ذكرهم بشيء أو دعا الى مقاماتهم يحسبونه شاعرا ودعوته شطحا ولا يرجى لهذه الطائفة من الناس أن يقدر أحد على توجيههم الى نقصهم وعيبهم وإيقاظهم من نومهم الثقيل انك لا تهدي من أحببت ولا تسمع من في القبور .. نعم ان الذين هم كالكاتب المسكين ليس عندهم خبر عن شيء وليست قلوبهم حية بحياة المعرفة والمحبة الالهية فهم أموات ، قبورهم البالية غلاف أبدانهم وقد حجبهم غبار هذا الجسم ومضيقة البدن المظلم عن جميع عوالم النور ونور على نور ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .. هذه الطائفة كل ما يُقرأ عليهم من الحديث والقرآن في المحبة والعشق الالهي وحبّ اللقاء والانقطاع الى الحق فيقومون بتأويله وتوجيهه ويفسّرونه على طبق آرائهم

فيوجّهون آيات اللقاء وحب الله على كثرتها الى لقاء أشجار الجنة ونسائها الجميلة ، ولا أدري ان هؤلاء ماذا يصنعون بفقرات المناجاة الشعبانية حيث يقول : « الهي هب لي كمال الانقطاع اليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها اليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل الى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك ، الهي واجعلني ممّن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك » .

فما هذه الحجب النورانية وهل المراد من النظر الى الحق النظر الى أجّاص الجنة ؟ وهل معدن العظمة هو قصور الجنة ؟ وهل تعلّق الارواح بعزّ القدس هو التعلق بذيل حور العين لقضاء الشهوة ؟. هل هذا الصعق والمحو من الجلال يعني به جمال نساء الجنة ؟. وتلك الجذبات والاغشية التي حصلت لرسول الله صلى الله عليه وآله في صلاة المعراج كان يشاهد أنوار العظمة تلك وما فوقها في محفل ما كان الامين جبرائيل محرما لسرّه ولا يتجرّأ للتقدّم قيد أنملة ؟ هل كانت جذبة احدى النساء الحسان في الجنة ؟. أو انه صلى الله عليه وآله كان يرى أنوارا كنور الشمس والقمر أو أشدّ منهما والقلب السليم الذي قال فيه المعصوم عليه السلام : والسليم قلب لقي الله وليس فيه سواه ، هل المقصود عن غير الحق هو غير كرامة الحق التي يكون مرجعها ألا يكون غير أجّاص الجنة ومشمشها (فيا ويلي)[1] فان عنان القلم قد خرج من كفّي واشتغل بالشطحات ولكن لعمر الحبيب أنه ليس لي مقصود في هذا الكلام الا أن يحصل تنبّه للاخوة الايمانيين وخصوصا رجال العلم ولا ينكرون على الاقل مقامات أهل الله فان هذا الانكار منشأ جميع الشقاوات ، وليس مقصودنا ان نبين من هم أهل الله بل مقصودنا ألاّ ننكر المقامات وأما من هو صاحب هذه المقامات ؟ فالله

أعلم ، وهذا أمر لا يطّلع عليه أحد (آن راكه خبرشد خبري باز نيامد)[٢] وطائفة أخرى هم الذين لا ينكرون مقامات أهل المعرفة ولا عناد لهم مع اهل الله ولكن الاشتغال بالدنيا وتحصيلها والاخلاد الى لذاتها الفانية منعتهم من الكسب العملي والعلمي والذوقي والحالي ، فمثلهم كمرضى يصدّقون مرضهم ولكن شهوة البطن لا تدعهم يقدمون على الحمية وشرب الدواء المرّ ، كما أن الطائفة الاولى كمرضى لا يصدّقون المرض الكذائي والمريض الكذائي في دار التحقق ومع أنهم مبتلون بالمرض ينكرون أصل المرض .

وطائفة أخرى هم الذين اشتغلوا بالكسب العلمي واشتغلوا بتحصيل المعارف علما ولكنهم اكتفوا من حقائق المعارف ومعارف أهل الله بالاصطلاحات والالفاظ والعبارات المزركشة وقيّدوا أنفسهم وجمعا من المساكين في سلسلة الالفاظ والاصطلاحات واقتنعوا عن جميع المقامات بالمقالات ، ويوجد ضمن هؤلاء زمرة يعرفون أنفسهم ولكنهم للترؤس على عدة مساكين جعلوا هذه الاصطلاحات اللفظية وبلا لبّ وسيلة لكسب المعيشة ويصيدون القلوب الصافية لعباد الله بالالفاظ الغارّة والاقوال الجالبة ، هؤلاء شياطين من الانس وليس اضرارهم على عباد الله بأقل من ابليس ، هؤلاء المساكين لا يدرون أن قلوب عباد الله منازل الحق تعالى ولا يحق لاحد التصرف فيها ، فهم غاصبون منزل الحق ومخرّبون الكعبة الحقيقية فهم ينحتون أصناما ويضعونها في قلوب عباد الله التي هي الكعبة بل هي البيت المعمور ، وهؤلاء الممرّضون وقد أظهروا أنفسهم في زيّ الطبيب ويبلون عباد الله بالامراض المختلفة المهلكة وعلامة تلك الطائفة أنه يعتنون بارشاد الاغنياء والاكابر أكثر من ارشاد الفقراء والمساكين ، فأكثر مريديهم

من أرباب الجاه والمال وهم بأنفسهم ايضا في زيّ الاغنياء وأرباب الجاه والمال ، ولهؤلاء القوم كلمات غارّة يطهرون أنفسهم عند المريدين عن التعلق بالدنيا مع أنهم في نفس الوقت متلوّثون بآلاف من القذارات الدنيوية ويعدّون أنفسهم في أعينهم من أهل الله وأولئك المساكين البلهاء (اي المريدين) ايضا يغضّون أبصارهم عن جميع عيوبهم المحسوسة ويسرّون بالاصطلاحات والإلفاظ بلا لب والحال اذا انجر الكلام الى هنا ينبغي أن نذكر حديثا أو حديثين يدوران في هذا الموضوع وان كان خارجا عن نسج الكلام ولكن التبرّك بكلام أهل البيت حسن جميل .

عن كتاب الخصال للشيخ الصدوق (رحمه الله) باسناده الى ابي عبد الله عليه السلام قال : « ان من العلماء من يحبُّ ان يجمع علمه ولا يحب أن يؤخذ عنه فذاك في الدرك الاول من النار ، وفي العلماء من اذا وُعِظ أنف واذا وعظ عنف فذاك في الدرك الثاني من النار ، ومن العلماء من يرى أن يضع العلِم عند ذوي الثروة والشرف ولا يرى له في المساكين وضعا فذاك في الدرك الثالث من النار ، ومن العلماء من يذهب في علمه مذهب الجبابرة والسلاطين فان ردّ عليه وقصر في شيء من أمره غضب فذاك في الدرك الرابع من النار ، ومن العلماء من يطلب أحاديث اليهود والنصارى ليغزر به علمه ويكثر به حديثه فذاك في الدرك الخامس من النار ومن العلماء من يضع نفسه للفتيا ويقول : سلوني ولعله لا يصيب حرفا واحدا والله لا يحب المتكلّفين فذاك في الدرك السادس من النار ، ومن العلماء من يتخذ العلم مروّة وعقلا فذاك في الدرك السابع من النار » .

وعن الكليني (رحمه الله) في جامعه الكافي باسناده الى الباقر عليه السلام « من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف

به وجوه الناس اليه فليتبوّأ مقعده من النار ، الرئاسة لا تصلح الا لاهلها » .

وعن الصادق عليه السلام : « اذا رأيتم العالم محبّا للدنيا فاتهموه على دينكم فان كل محبّ بشيء يحوط ما أحبّ » . وقال : « أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام لا تجعل بيني وبينك عالما مفتونا بالدنيا فيصدّك عن طريق محبّتي فان أولئك قطاع طريق عبادي المريدين ان أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم » .

والذين هم في هذه الطائفة ليسوا بحيّالين ولا خدّاعين بل كانوا سالكين طريق الآخرة وهم في صدد تحصيل المعارف والمقامات ، قد يتفق لهم أن الشيطان القاطع للطريق غرّهم فاغترّوا وحسبوا ان المعارف والمقامات في الحقيقة عبارة عن الاصطلاحات العلمية التي صنعوها او استفادوا من صناعة غيرهم ، فهم أيضا قد صرفوا نقد شبابهم وأيام حياتهم الى آخر عمرهم في تكثير الاصطلاح وضبط الكتب والصحف كطائفة من علماء تفسير القرآن الذين يرون ان الاستفادة من القرآن منحصرة في ضبط اختلافات القراءات ومعاني اللغات وتصاريف الكلمات والمحسنات اللفظية والمعنوية ووجوه اعجاز القرآن والمعاني العرفية واختلاف افهام الناس فيها وجمعها ، ويغفلون بالكلية عن دعوات القرآن وجهاته الروحية ومعارفها الالهية ، فهؤلاء ايضا كمريض رجع الى الطبيب وأخذ نسخة دوائه ورأى علاج نفسه في ضبط النسخة وحفظها وكيفية تركيباتها ، فهؤلاء يقتلهم المرض ولا ينتج لهم العلم بالنسخة والرجوع الى الطبيب نتيجة اصلا .

ايها العزيز ان جميع العلوم عملية حتى علم التوحيد فله ايضا أعمال قلبية وقالبية ، ان التوحيد هو من باب التفعيل وهو عبارة عن اعادة الكثرة

الى الوحدة وهذا من الاعمال الروحية والقلبية ، فما دمت واقعا في الكثرات الافعالية ولم تعرف السبب الحقيقي ولم تكن عينك مشاهدة للحق ، والحق في الطبيعة والجهات والكثرات الطبيعية فانية في الحق ولم ترفرف على قلبك راية سلطان وحدة فاعلية الحق فأنت بعيد عن الخلوص والاخلاص والصفاء والتصفية بالكلية ومهجور عن التوحيد ، فالرياءات الافعالية بأجمعها والرياءات القلبية أكثرها من نقصان التوحيد الافعالي فمن يرى المخلوق الضعيف المسكين المستكين مؤثرا في دار التحقق ويعده متصرفا في مملكة الحق كيف يستطيع أن يرى نفسه غنيّا عن جلب قلوب المخلوقين ويخلص عمله ويصفّيه عن شرك الشيطان فلابدّ من أن تصفّى العين والمنبع حتى ينبع منها ماء صافٍ ، والا لم تكن متوقعا أن ينبع الماء الصافي من العين الموحلة ، فأنت اذا علمت أن قلوب عباد الله تحت تصرف الحق وأذقت لذائقة القلب معنى يامقلّب القلوب.. وأسمعت سامعته ذلك فلا تصير مع مافيك من الضعف والمسكنة في صدد صيد. القلوب واذا أفهمت القلب حقيقة بيده ملكوت كل شيء وله الملك وبيده الملك لاستغنيت عن جلب القلوب ولما رأيت نفسك محتاجة الى القلوب الضعيفة لهذا المخلوق الضعيف ويحصل لك الغنى القلبي ، إنّك لمّا أحسست في نفسك الحاجة ورأيت الناس محلا لعقدتك فاحتجت الى جلب القلوب ولمّا ظننت نفسك متصرفة في القلوب باظهار القدس فاحتجت الى الرياء وان كنت ترى أن الخلاّل هو الحق وما رأيت نفسك أيضا متصرفة في الكون لما احتجت الى هذه الانواع من الشرك ، ايها المشرك المدّعي للتوحيد ، وأيها الابليس ابن آدم لقد ورثت هذا من الشيطان اللعين الذي يرى نفسه متصرفا ويهتف هتاف ولأغوينّهم فذلك المنحوس الشقيّ في حجب الشرك ورؤية النفس والذين يرون

العالم وأنفسهم مستقلة لا مستظلّة ومتصرفة لا مملوكة فانهم ورثوا الشيطنة من ابليس فاستيقظ من النوم الثقيل وأوصل الى قلبك الآيات للكتاب الالهي والصحيفة النورانية الربوبية . فان هذه الآيات العظيمة قد أنزلت لاستيقاظي واستيقاظك ، ونحن حصرنا جميع حظوظنا في تجويدها وصورتها وغفلنا عن معارفها حتى حكم الشيطان فينا ووقعنا تحت سلطته . فأنا أختم الكلام على العجالة في هذا المقام وأتركه الى المقام الآخر ، وفي آداب القراءة أشير الى نبذة من هذا المطلب ان شاء الله وأفتح طريق الاستفادة من القرآن لنفسي ولعباد الله بإذن الله وحسن توفيقه والسلام ..

المراجع والحواشي

١ ــ (فيا ويلي) ترجمة كنائية من الجملة التي ذكرها المؤلف دام ظله في المتن وهي (خاك بر فرق من) .

٢ ــ مصراع للشاعر المعروف السعدي الشيرازي يقول : من كان عنده خبر فليس عنه خبر .

الفصل الخامس

في ذكر بعض درجات الاخلاص

فحيث وصل الكلام الى هنا فلابدّ لي من ذكر بعض الدرجات الأخرى للاخلاص تناسب المقام .

فمن درجات الاخلاص تصفية العمل عن رؤية استحقاق الثواب والاجر وفي مقابله شوبه بطلب الاجر ورؤية استحقاق الاجرة والثواب وهذا لا يخلو عن مرتبة من الاعجاب بالعمل ولا بدّ للسالك من تخليص نفسه منه وهذه الرؤية رؤية الاستحقاق فهي من نقصان المعرفة بحاله وبحق الخالق تعالى شأنه ، وهذا أيضا من الشجرة الخبيثة الشيطانية التي مرجعها رؤية النفس وعملها والانيّة والأنانية. فالانسان المسكين مادام هو في حجاب رؤية أعمال نفسه ويراها من عند نفسه ويرى نفسه متصرفا في الأمر فلا ينجو من هذا المرض ولا ينال هذه التصفية والتخليص . فالسالك لابد له أن يجهد ويفهم القلب بالرياضات القلبية والسلوك العقلي والعرفاني ، ان جميع الاعمال من الهبات الالهية والنعم التي أجراها الحق تعالى على يد العبد ، فاذا تمكن التوحيد الفعلي في قلب السالك فلا يرى العمل من عند نفسه ولا يطلب الثواب بل يرى الثواب تفضّلا والنعم ابتدائية ، وقد ذكرت هذه اللطيفة الالهية كثيرا في

كلمات الائمة والاطهار عليهم السلام وخصوصا الصحيفة السجادية ، تلك الصحيفة النورانية التي نزلت من سماء عرفان العارف بالله والعقل النوراني سيد الساجدين لخلاص عباد الله من سجن الطبيعة وتفهيمهم أدب العبودية والقيام في خدمة الربوبية ، كما في الدعاء الثاني والثلاثين يقول عليه السلام : « لك الحمد على ابتدائك بالنعم الجسام والهامك الشكر على الاحسان » . وفي موضع آخر يقول : « نعمك ابتداء واحسانك التفضّل » . وفي مصباح الشريعة يقول : « وأدنى حدّ الاخلاص بذل العبد طاقته ثم لا يجعل لعمله عند الله قدرا فيوجب به على ربه مكافأة لعمله» .

والدرجة الاخرى للاخلاص تصفية العمل من الاستكثار والفرح به والاعتماد وتعلق الخاطر عليه . وهذا أيضا من مهمات سلوك السالك ، والاستكثار يمنع السالك من قافلة السالكين الى الله ويحبسه في سجن الطبيعة ، وهذا أيضا ينبت من الشجرة الخبيثة الشيطانية ومنشؤه حب النفس الذي هو ارث من الشيطان الذي قال : « خلقتني من نار وخلقته من طين »[1] وهذا من جهل الانسان بمقامه ومقام معبوده جلّت عظمته . اذا كان المسكين الممكن يعرف مقام نقصه وعجزه وضعفه ومسكنته ويعرف مقام عظمة الحق ومجده وكماله فلا يرى عمله عظيما أبدا ولا يحسب نفسه قائما بالامر ، فالمسكين يتوقع لعمل لا يساوي سنة منه عند أهل الدنيا في سوقهم أزيد من توامين[2] اذا كانوا واثقين من صحته وإجزائه توقعات غير متناهية لركعتين من ذلك العمل وهذا هو الفرح والاستكثار للعمل الذي هو مبدأ لكثير من المفاسد الاخلاقية والاعمالية يطول ذكرها ، وقد أشاروا عليهم السلام في الاحاديث الى هذا المطلب ، كما في الكافي الشريف باسناده الى موسى بن جعفر سلام الله عليهما أنه قال لبعض

ولده : « يا بني عليك بالجدّ ولا تخرجنّ نفسك من حد التقصير في عبادة الله عزّ وجلّ » . وقال عليه السلام في حديث آخر : « كل عمل تريد به الله عزّ وجلّ فكن مقصّرا عند نفسك فان الناس كلهم في أعمالهم فيما بينهم وبين الله مقصّرون الا من عصمه الله عزّ وجلّ » .

وعنه عليه السلام : « لا تستكثروا كثير الخير » . وفي الصحيفة الكاملة في وصف ملائكة الله يقول عليه السلام : « الذين يقولون اذا نظروا الى جهنم تزفر الى أهل معصيتك سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك » .

فيا أيها الضعيف المقام الذي يعترف فيه رسول الله بالعجز والتقصير ويقول : « ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك » وهو أعرف خلق الله وعمله أنور من أعمال جميع الناس وأعظم من جميعها وكذا الائمة المعصومون يظهرون ذاك النحو من القصور والتقصير في المحضر المقدس (فماذا يتأتى من بعوضة نحيفة)[٢] . نعم ان مقام معرفتهم بعجز الممكن وعزّة الواجب وعظمته تعالى شأنه كانت تقتضي تلك الاظهارات والاعترافات ، وأما نحن المساكين فمن الجهل والحجب المتنوعة قمنا بالتكبر ونعجب بأنفسنا وأعمالنا ، فيا سبحان الله ما أصدق كلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول : « عجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله » . فهذا من فقدان العقل ، ان الشيطان يعمّي لنا أمرا ضروريا ولا نقوم بوزنه في ميزان العقل . انّا نعلم بالضرورة ان أعمالنا وأعمال جميع البشر بل أعمال جميع ملائكة الله والروحانيين في ميزان المقايسة بأعمال رسول الله صلى الله عليه وآله والائمة الهداة سلام الله عليهم ليس لها قدر محسوس ، ولا تعد شيئا ، وفي نفس الوقت الاعتراف بالتقصير واظهار العجز عن القيام بالامر

من تلك الاعاظم متواتر بل فوق حد التواتر ، وهاتان القضيتان الضروريتان تنتجان لنا ألا نفرح بشيء من أعمالنا بل علينا اذا قمنا بالعبادة والطاعة طول عمر الدنيا أن نكون خجلين وننكس رؤوسنا في محضره . ومع هذا الوصف فقد تمكن الشيطان في قلوبنا وحكم على عقولنا وحواسنا بحيث لا نأخذ نتيجة من هذه المقدمات الضرورية بل كانت أحوال قلوبنا بعكس تلك النتيجة . ان مولى كانت ضربة واحدة منه يوم الخندق أفضل من جميع عبادات الجن والانس بتصديق من رسول الله يظهر في عباداته ورياضاته التي كان علي بن الحسين وهو أعبد خلق الله يظهر العجز أن يكون مثله العجز والتذلّل والاعتراف بالقصور والتقصير أكثر منا ورسول الله الذي كان على المرتضى وجميع ما سوى الله عبيدا لجنابه ومتنعمين من سقطات موائد نعمته في معارفه ومتعلمين بتعليمه بعدما خلع بخلعة النبوّة الختمية التي كانت تمام دائرة الكمال واللبنة الاخيرة للمعرفة والتوحيد يقوم بالامر عشر سنوات في جبل حرّاء على قدميه ويقوم بالطاعة حتى تتورّم قدماه الشريفتان وأنزل الله تعالى عليه « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى »[٤] أيها الطاهر الهادي ما أنزلنا عليك القرآن لتلقى المشقة فانك طاهر وهاد وان كان الناس لا يطيعونك فهو من نقصهم وشقاوتهم لا من نقصان سلوكك أو هدايتك ، ومع ذلك يعلن صلوات الله عليه عجزه وقصوره .

ان السيد ابن طاووس (قدس سره) ينقل حديثا عن علي بن الحسين عليه السلام ونحن نُبرِّك هذه الرسالة به وان كان الحديث طويلا في الجملة ولكن حيث إنه في شرح بعض حالات المولى فتتعطّر شامة الارواح به وتلتذ ذائقة القلوب منه .

عنه (قدس سره) في فتح الابواب باسناده عن الزهري[٥] قال :

« دخلت مع علّي بن الحسين عليهما السلام على عبد الملك بن مروان قال : فاستعظم عبد الملك ما رأى من أثر السجود بين عيني علي بن الحسين عليهما السلام فقال : يا أبا محمد لقد بيّن عليك الاجتهاد ولقد سبق لك من الله الحسنى فأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله قريب النسب وكيد السبب وانك لذو فضل عظيم على أهل بيتك وذوي عصرك ولقد أوتيت من الفضل والعلم والدين والورع ما لم يؤت أحد مثلك ولا قبلك الا من مضى من سلفك . وأقبل يثني عليه ويطريه ، فقال علي بن الحسين عليهما السلام : كل ما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه فأين شكره على ما أنعم يا أمير المؤمنين ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقف في الصلاة حتى ترم قدماه ويظمأ في الصيام حتى يعصب فوه فقيل له يا رسول الله ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيقول صلى الله عليه وآله : أفلا أكون عبدا شكورا الحمد لله على ما أولى وأبلى وله الحمد في الآخرة والاولى والله لا يشغلني شيء عن شكره وذكره في ليل ولا نهار ولا سرّ ولا علانية ولولا أن لاهلي عليّ حقّا ولسائر الناس من خاصّهم وعامّهم عليّ حقوقا لا يسعني الا القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أؤديها إليهم لرميت بطرفي الى السماء وبقلبي الى الله ثم لم أرددهما حتى يقضي الله على نفسي وهو خير الحاكمين .. وبكى عليه السلام وبكى عبد الملك » الخبر ..

ونحن أغمضنا عن ترجمة الحديث الشريف كما صرفنا النظر عن بعض مراتب الاخلاص الذي لا يناسب المقام ووضع الرسالة لئلا يوجب طول الكلام وملالة الخاطر .

المراجع والحواشي

١ ــ (الاعراف١٢) .

٢ ــ توامين جمع تومان ، وهو واحد النقد في ايران .

٣ ــ ترجمة مصراع كالمثل في لسان الفرس وهو (ازپشه لاغري چه خيزد ؟) .

٤ ــ (طه١ ــ ٢) .

٥ ــ بضم الزاي وسكون الهاء ابو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن الحرث بن شهاب بن زهرة بن كلاب الفقيه المدني التابعي المعروف وقد ذكره علماء الجمهور وأثنوا عليه ثناء بليغا قيل أنه قد حفظ علم الفقهاء السبعة ولقي عشرة من الصحابة وروى عنه جماعة من أئمة علم الحديث وأمّا علماؤنا فقد اختلفت كلماتهم في مدحه وقدحه وقد ذكر المحدّث القمي قدس سره في سفينة البحار ما يتعلّق به فمن أراد فليراجع .

الباب الرابع

في ذكر نبذة من آداب القراءة وقطعة من أسرارها

وفيه

مصباحان

المصباح الأول

في آداب قراءة القرآن الشريف المطلقة

وفيه ستة فصول

الفصل الأوّل

في آداب القراءة

من أحد الآداب المهمة لقراءة الكتاب الالهي الذي يشترك فيه العارف والعامّي وتحصل منه النتائج الحسنة ويوجب نورانية القلب والحياة الباطنية التعظيم وهو موقوف على فهم عظمته ونبالته وجلالته وكبريائه ، وهذا المعنى وان كان بحسب الحقيقة خارجا عن نطاق البيان وزائدا على طاقة البشر لان فهم عظمة كل شيء بفهم حقيقته وحقيقة القرآن الشريف قبل تنزله الى المنازل الخلقية وتطوّره بالأطوار الفعلية من الشؤون الذاتية والحقائق العلمية للحضرة الواحدية وهو حقيقة الكلام النفسي الذي هو مقارعة ذاتية في الحضرة الاسمائية ، وهذه الحقيقة لا تحصل لاحد لا بالعلوم الرسمية ولا بالمعارف القلبية ولا بالمكاشفة الغيبية الا بالمكاشفة التامة الالهية لذات النبي الخاتم المباركة صلى الله عليه وآله في محفل انس وقاب قوسين بل في خلوة سرّ مقام أو أدنى ، وأيدي آمال العائلة البشرية قاصرة عنها الا الخلّص من أولياء الله الذين اشتركوا في روحانية تلك الذات المقدسة بحسب الانوار المعنوية والحقائق الالهية وفنوا بواسطة التبعية التامة فيه فإنهم يتلقون علوم المكاشفة بالوراثة منه صلى الله عليه وآله ، وتنعكس حقيقة القرآن في قلوبهم

بنفس النورانية والكمال التي تجلّت لقلبه المبارك من دون التنزّل الى المنازل والتطور بالاطوار وهو القرآن من دون تحريف وتغيير ، ومن كتّاب الوحي الالهي من يقدر على تحمّل هذا القرآن هو النفس الشريفة لولي الله المطلق علي بن أبي طالب عليه السلام وأما سائر الخلق فلا يقدرون أخذ هذه الحقيقة الا مع التنزّل عن مقام الغيب الى موطن الشهادة والتطور بالاطوار الملكية والتكسي بكسوة الالفاظ والحروف الدنياوية ، وهذا أحد معاني التحريف الذي وقع في جميع الكتاب الالهي والقرآن الشريف وجميع الآيات الشريفة قد جعلت في تناول يد البشرية بالتحريف بل بالتحريفات الكثيرة على حسب المنازل والمراحل التي طواها من حضرة الاسماء الى أخيرة عوالم الشهادة ، وعدد مراتب التحريف مطابق لعدد مراتب بطون القرآن طباق النعل بالنعل الا أن التحريف عبارة عن التنزّل عن الغيب المطلق الى الشهادة المطلقة على حسب مراتب العوالم ، والبطون عبارة عن الرجوع من الشهادة المطلقة الى الغيب المطلق ، فمبدأ التحريف ومبدأ البطون متعاكسان والسالك الى الله اذا وصل الى أي مرتبة من مراتب البطون قد تخلص من مرتبة من مراتب التحريف الى أن يصل الى البطون المطلقة وهي البطن السابع على حسب المراتب الكلية يتخلص من التحريف المطلق فعلى هذا يمكن أن يكون القرآن الشريف محرّفا لشخص بجميع أنواع التحريف ولشخص آخر ببعض مراتبه ولا يكون لشخص محرّفا أصلا ويمكن أن يكون محرّفا لشخص في حال وله غير محرف في حال آخر ويكون محرّفا ببعض أنواع التحريف في حال ثالث . ففهم عظمة القرآن خارج عن طوق الادراك كما علمت ولكن الاشارة الاجمالية الى عظمة هذا الكتاب المتنزل والمتناول لجميع البشر موجبة لفوائد كثيرة .

اعلم أيها العزيز أن عظمة كل كلام وكل كتاب اما بعظمة متكلمه وكاتبه واما بعظمة المرسل اليه وحامله ، وإمّا بعظمة حافظه وحارسه ، واما بعظمة شارحه ومبيّنه ، واما بعظمة وقت ارساله وكيفية ارساله . وبعض هذه الامور دخيل في العظمة ذاتا وجوهرا وبعضها عرضا وبالواسطة وبعضها كاشف عن العظمة وجميع هذه الامور التي ذكرناها موجودة في هذه الصحيفة النورانية بالوجه الاعلى والاوفى بل هي من مختصاته بحيث ان الكتاب الآخر اما ألاّ يشترك معه في شيء منها أصلا ، أو لا يشترك معه في جميع المراتب .

أما عظمة متكلمه ومنشئه وصاحبه فهو العظيم المطلق الذي جميع انواع العظمة المتصورة في الملك والملكوت وجميع أنواع القدرة النازلة في الغيب والشهادة رشحة من تجليات عظمة فعل تلك الذات المقدسة ولا يمكن أن يتجلى الحق تعالى بالعظمة لاحد وانما يتجلى بها من وراء آلاف الحجب والسرادقات ، كما في الحديث : « ان لله تبارك وتعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفت لاحرقت سبحات وجهه دونه » .

وعند أهل المعرفة قد صدر هذا الكتاب الشريف من الحق تعالى بمبدئيّة جميع الشؤون الذاتية والصفاتية والفعلية ، وبجميع التجليات الجمالية والجلالية ، وليست لسائر الكتب السماوية هذه المرتبة والمنزلة . وأما عظمته بواسطة محتوياته ومقاصده ومطالبه فيستدعي ذلك عقد فصل على حدة ، بل فصول وأبواب ورسالة مستقلة وكتاب مستقل حتى يسلك نبذة منها في سلك البيان والتحرير ، ونحن نشير بطريق الاجمال بفصل مستقل الى كلياته ، وفي ذلك الفصل نشير الى عظمته من حيث النتائج والثمرات ان شاء الله .

وأما عظمة رسول الوحي وواسطة الايصال فهو جبرائيل الامين والروح الاعظم الذي يتصل بذاك الروح الاعظم الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلّم بعد خروجه عن الجلباب البشري وتوجيه شطر قلبه الى حضرة الجبروت وهو أحد أركان دار التحقق الاربعة بل هو أعظم أركانها وأشرف أنواعها لان تلك الذات النورانية ملك موكل للعلم والحكمة وصاحب الارزاق المعنوية والاطعمة الروحانية ، ويستفاد من كتاب الله والاحاديث الشريفة تعظيم جبرائيل وتقديمه على سائر الملائكة .

وأما عظمة المرسل إليه ومتحمّله ، فهو القلب التقي النقي الاحمدي الاحدي الجمعي المحمدي الذي تجلى له الحق تعالى بجميع الشؤون الذاتية والصفاتية والاسمائية والافعالية وهو صاحب النبوة الختمية والولاية المطلقة وهو أكرم البرية وأعظم الخليقة وخلاصة الكون وجوهرة الوجود وعصارة دار التحقق واللبنة الاخيرة وصاحب البرزخية الكبرى والخلافة العظمى .

وأما حافظه وحارسه فهو ذات الحق جلّ جلاله ، كما قال في الآية الكريمة المباركة : « إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون »[1] . وأما شارحه ومبينه فالذوات المطهرة المعصومون من رسول الله الى حجّة العصر عجّل الله فرجه الذين هم مفاتيح الوجود ومخازن الكبرياء ومعادن الحكمة والوحي وأصول المعارف والعوارف وأصحاب مقام الجمع والتفصيل .

وأمّا وقت الوحي فليلة القدر أعظم الليالي وخير من ألف شهر وأنور الازمنة ، وهي في الحقيقة وقت وصول الوليّ المطلق والرسول الخاتم صلى الله عليه وآله .

وأما كيفية الوحي وتشريفاته فهي خارجة عن نطاق البيان في هذا المختصر وتحتاج الى فصل مستقل قد صرفت النظر عنه لعلوله .

المراجع والحواشي

١ ــ (الحجر ــ ٩) .

الفصل الثاني

في بيان مقاصد الكتاب الشريف الالهي
ومطالبه ومشتملاته بطريق الاجمال والاشارة

اعلم أن هذا الكتاب الشريف كما صرّح هو به كتاب الهداية وهادي سلوك الانسانية ومربّي النفوس وشافي الأمراض القلبية ومنير طريق السير الى الله .

وبالجملة ، فان الله تبارك وتعالى لسعة رحمته الى عباده أنزل هذا الكتاب الشريف من مقام قربه وقدسه وتنزل به على حسب تناسب العوالم حتى وصل الى هذا العالم الظلماني وسجن الطبيعة وصار على كسوة الالفاظ وصورة الحروف لاستخلاص المسجونين في سجن الدنيا المظلم وخلاص المغلولين بأغلال الامال والأماني ، وايصالهم من حضيض النفس والضعف والحيوانية الى أوج الكمال والقوة الانسانية ، ومن مجاورة الشيطان الى مرافقة الملكوتيين بل الوصول الى مقام القرب وحصول مرتبة لقاء الله التي هي أعظم مقاصد أهل الله ومطالبهم ، فمن هذه الجهة ان هذا الكتاب هو كتاب الدعوة الى الحق والسعادة . وبيان كيفية الوصول الى هذا المقام ومندرجاته اجمالا ما له دخل في هذا السير والسلوك الالهي أو يعين السالك والمسافر الى الله ، وعلى نحو كلّي أحد مقاصده المهمّة الدعوة

الى معرفة الله وبيان المعارف الالهية من الشؤون الذاتية والاسمائية والصفاتية والافعالية وأكثرها في هذا المقصود هو توحيد الذات والاسماء والافعال ، قد ذكر مستقصي بعضه بالصراحة وبعضه بالاشارة .

وليعلم ان المعارف من معرفة الذات الى معرفة الافعال قد ذكرت في هذا الكتاب الجامع الالهي على نحو تدركه كل طبقة على قدر استعدادها ، كما أن علماء الظاهر والمحدثين والفقهاء رضوان الله عليهم يبيّنون ويفسّرون آيات التوحيد الشريفة وخصوصا توحيد الافعال على نحو يخالف ويباين ما يفسّرها أهل المعرفة وعلماء الباطن .

والكاتب يرى كلا التفسيرين صحيحا في محله لان القرآن هو شفاء الامراض الباطنية ويعالج كل مريض على نحو خاص ، كما أن كريمة « هو الاول والآخر والظاهر والباطن »[1] . وكريمة « الله نور السموات والارض »[2] . وكريمة « هو الذي في السماء وفي الارض إله »[3] . وكريمة « وهو معكم »[4] . وكريمة « أينما تولّوا فثمّ وجه الله »[5] . الى غير ذلك في توحيد الذات والآيات الكريمة في آخر سورة الحشر وغيرها في توحيد الصفات . وكريمة « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »[6] . وكريمة « الحمد لله رب العالمين »[7] . وكريمة « يسبح له ما في السموات والارض » . في توحيد الافعال التي تدل بعضها بوجه دقيق وبعضها بوجه أدقّ عرفاني ، شفاء للأمراض عند كل طبقة من طبقات علماء الظاهر والباطن على نحو . وبعض الآيات الشريفة مثل آيات أول الحديد والسورة المباركة التوحيد التي نزلت للمتعمقين ، في آخر الزمان حسب الحديث الشريف في الكافي ، ففي نفس الحال لاهل الظاهر منها نصيب كاف ، وهذا من معجزات هذا الكتاب الشريف ومن جامعيته .

ومن مقاصده الاخر ومطالبه : الدعوة الى تهذيب النفوس وتطهير البواطن من أرجاس الطبيعة ، وتحصيل السعادة .

وبالجملة ، كيفية السير والسلوك الى الله . وهذا المطلب منقسم الى شعبتين مهمتين .

احداهما : التقوى بجميع مراتبها المندرجة فيها التقوى عن غير الحق والاعراض المطلق عما سوى الله .

وثانيهما : الايمان بتمام المراتب والشؤون المندرج فيه الاقبال الى الحق ، والرجوع والانابة الى ذاته المقدسة ، وهذا من المقاصد المهمة لهذا الكتاب الشريف ، وأكثر مطالبه ترجع الى هذا المقصد إما بلا واسطة أو مع الواسطة .

ومن مقاصد هذه الصحيفة الالهية : قصص الانبياء والاولياء والحكماء وكيفية تربية الحق ايّاهم ، وتربيتهم الخلق . فان في تلك القصص فوائد لا تحصى وتعليمات كثيرة . ومن المعارف الالهية والتعليمات وأنواع التربية الربوبية المذكورة والمرموزة فيها ما يحيّر العقل .

فيا سبحان الله ، وله الحمد والمنّة ، ففي قصة خلق آدم عليه السلام والامر بسجود الملائكة وتعليمه الاسماء وقضايا ابليس وآدم التي كرّر ذكرها في كتاب الله في التعليم والتربية والمعارف والمعالم لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، ما يحيّر الانسان . ولاجل هذه النكتة كرّرت القصص القرآنية كقصة آدم وموسى وابراهيم وسائر الانبياء فليس هذا الكتاب كتاب قصة وتاريخ بل هو كتاب السير والسلوك الى الله ، وكتاب التوحيد والمعارف والمواعظ والحكم . والمطلوب في هذه الامور هو التكرار كي يؤثّر في القلوب القاسية وتأخذ منها موعظته . وبعبارة أخرى ان من يريد أن يربّي ويعلّم وينذر

ويبشر فلابدّ له أن يرزق مقصده بالعبارات المختلفة والبيانات المتشتتة ، فتارة في ضمن قصة وحكاية وأخرى في ضمن تاريخ ونقل ، وحينا بصراحة اللهجة ، وحينا بالكناية والامثال والرموز حتى يتمكن كل من النفوس المختلفة والقلوب المتشتتة من الاستفادة منها ، وحيث أن هذا الكتاب الشريف لاجل سعادة جميع الطبقات وسلسلة البشر قاطبة ، ويختلف هذا النوع الانساني في حالات القلوب والعادات والاخلاق والازمنة والامكنة ، ولا يمكن أن تكون دعوته على نحو واحد ، فربّ نفوس لا تكون حاضرة لاخذ التعاليم بصراحة اللهجة والقاء أصل المطلوب بنحو ساذج ولا تتأثر بهذا النحو فلا بد أن تكون دعوة هؤلاء وفق كيفية تفكيرهم فيفهم ايّاهم المقصد ، ورب نفوس لا شغل لها بالقصص والحكايات والتواريخ وانما علاقتها بلبّ المطالب ولباب المقاصد فلا يوزن هؤلاء مع الطائفة الاولى بميزان واحد ، وربّ قلوب تتناسب مع التخويف والانذار وقلوب لها الالفة مع الوعد والتبشير ، فلهذه الجهة دعا الناس هذا الكتاب الشريف بالاقسام المختلفة والفنون المتعددة والطرق المتشتتة ، والتكرار لمثل هذا الكتاب لازم وحتمي ، والدعوة والموعظة من دون تكرار وتفنّن خارجة عن حد البلاغة ، وما يتوقّع منها وهو التأثير في النفوس لا يحصل من دون تكرار ومع الوصف .

ففي هذا الكتاب الشريف حلاوة اتفاق القضايا على نحو لا يوجب تكرارها الكسالة في الانسان بل هو في كل دفعة يكرّر أصل المطلب ، يذكر فيه خصوصيات ولواحق ليست في غيره ، بل في كل مرّة يركز النظر الى نكتة مهمة عرفانية أو أخلاقية ويطيف المطلب حولها وبيان هذا المطلب يستلزم استقصاءات كاملة في القصص القرآنية ، ولا يسع هذا المختصر ، وفي أمل هذا الضعيف بلا مؤونة أن أؤلف بالتوفيق الالهي وبالمقدار الميسور

كتابا في خصوص القصص القرآنية وحلّ رموزها وكيفية التعليم والتربية فيها ، وان كان القيام بهذا الامر من مثل الكاتب أمل لا ينال ، وخيال باطل في الغاية .

وبالجملة ، ذكر قصص الانبياء عليهم السلام وكيفية سيرهم وسلوكهم وكيفية تربيتهم عباد الله ومواعظهم ومجادلاتهم الحسنة من أعظم أبواب المعارف والحكم ، وأعلى أبواب السعادة والتعاليم قد فتحها الحق تعالى وجلّ مجده على عباده ، فكما أن لارباب المعرفة وأصحاب السلوك منها حظا وافرا ونصيبا كافيا كذلك لسواهم ايضا نصيب واف وسهم غير محدود . فمثلا أهل المعرفة يدركون من الكريمة الشريفة « فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا »[٩] الى آخر الآيات كيفية سلوك ابراهيم عليه السلام ، وسيره المعنوي ، ويعلمون طريق السلوك الى الله والسير الى جنابه وحقيقة سير الانفس والسلوك المعنوي من منتهى ظلمة الطبيعة التي عبّر عنها في ذلك المسلك بـ(جنَّ عليه الليل)الى القاء مطلق الانّيّة والانانية وترك النفسانية وعبادة النفس والوصول الى مقام القدس والدخول في محفل الانس. ووجهت وجهي للذي فطر السموات والارض . الى آخر اشارة الى ذلك في هذا المسلك ، والسائرون يدركون منها السير الافاقي وكيفية تربية خليل الرحمن أمّته وتعليمه ايّاهم . وعلى هذا المنوال سائر القصص والحكايات ، مثل قصة آدم وابراهيم وموسى ويوسف وعيسى وعلامات موسى مع الخضر ، فان استفادات أهل المعارف والرياضات والمجاهدات مع غيرهم متفاوتة .

ويدخل في هذا القسم ، أو هو مقصد مستقل الحكم والمواعظ لذات الحق المقدسة حيث أنه بنفسه دعا العباد بلسان قدرته فيما يناسب الدعوة ، اما الى المعارف الالهية والتوحيد والتنزيه كالسورة المباركة التوحيد أو

أواخر سورة الحشر وأوائل الحديد وسائر موارد الكتاب الشريف الالهي ، ولاصحاب القلوب والسوابق الحسنى من هذه القسمة حظوظ لا تحصى . فمثلا أصحاب المعارف يستفيدون من الكريمة المقدسة « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله »[١٠] . قرب النافلة والفريضة ، وفي نفس الحال يستفيد السائرون الخروج بالبدن والهجرة مثلاً الى مكة أو الى المدينة او أن الحق تعالى دعا الى تهذيب النفوس والرياضات الباطنية كالكريمة الشريفة « قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها »[١١] الى غير ذلك .. أو الدعوة الى العمل الصالح كما هو معلوم ، أو التحذير عن مقابلات كل من ذلك ويدخل في هذا القسم أيضا الحكم اللقمانية وحكم سائر الاجلّة والمؤمنين المذكورة في الموارد المختلفة في هذه الصحيفة الالهية كقضايا أصحاب الكهف .

ومن مطالب هذه الصحيفة النورانية أحوال الكفار والجاحدين والمخالفين للحق والحقيقة والمعاندين للانبياء والاولياء عليهم السلام وبيان كيفية عواقب أمورهم وكيفية بوارهم وهلاكهم كقضايا فرعون وقارون ونمرود وشدّاد وأصحاب الفيل وغيرهم من الكفرة والفجرة ، ففي كل واحدة منها مواعظ وحكم بل معارف لاهله ، وداخل في هذه القسمة أو أنها قسمة مستقلة قضايا غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله فان فيها ايضا مطالب شريفة مذكورة ، منها كيفية مجاهدات أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لايقاظ المسلمين من نوم الغفلة وبعثهم للمجاهدة في سبيل الله وتنفيذ كلمة الحق وإماتة الباطل .

ومن مطالب القرآن الشريف بيان قوانين ظاهر الشريعة والآداب والسنن الالهية ، وقد ذكرت كلّيّاتها ومهماتها في هذا الكتاب النوراني

والعمدة في هذا القسم الدعوة الى اصول المطالب وضوابطها مثل باب الصلاة والزكاة والخمس والحج والصوم والجهاد والنكاح والارث والقصاص والحدود والتجارة وأمثالها . وحيث أن هذا القسم علم ظاهر الشريعة وعامّ المنفعة ومجعول لجميع الطبقات من حيث تعمير الدنيا والاخرة ، وتستفيد كل طبقات الناس منه بمقداره . فالدعوة اليها كثيرة لهذه الجهة ، وفي الاحاديث الشريفة والاخبار ايضا خصوصياتها وتفاصيلها الى حدّ وافر وتصانيف علماء الشريعة في هذه القسمة أكثر وأعلى من سائر القسمات .

ومن مطالب القرآن الشريف : أحوال المعاد والبراهين لاثباته وكيفية العذاب والعقاب والجزاء والثواب وتفاصيل الجنة والنار والتعذيب والتنعيم . وقد ذكرت في هذه القسمة حالات أهل السعادة ودرجاتهم من أهل المعرفة والمقرّبين ومن أهل الرياضة والسالكين ومن أهل العبادة والناسكين . وكذلك حالات أهل الشقاوة ودرجاتهم من الكفار والمحجوبين والمنافقين والجاحدين وأهل المعصية والفاسقين . ولكن ما كان أكثر فائدة لحال العامة كان أكثر ذكرا وبصراحة اللهجة وما كان مفيدا لطبقة خاصة فقد ذكر بطريق الرمز والاشارة مثل رضوان الله الاكبر ، وآيات لقاء الله لتلك الطائفة ، ومثل : « كلاّ انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون »[١٢] للطائفة الأخرى. وقد ذكر هذا القسم اي في قسم تفصيل المعاد والرجوع الى الله معارف لاتحصى وأسرارا صعبة مستصعبة لا يمكن الاطّلاع على كيفيّتها الا بالسلوك البرهاني أو النور العرفاني .

ومن مطالب هذه الصحيفة الالهية كيفية الاحتجاجات والبراهين التي أقامتها الذات المقدسة الحق تعالى بنفسه لاثبات المطالب الحقة والمعارف الالهية مثل الاحتجاج على اثبات الحق والتوحيد والتنزيه والعلم

والقدرة وسائر الاوصاف الكمالية ، وقد توجد في هذه القسمة براهين دقيقة يستفيد أهل المعرفة منها استفادة كاملة مثل : « شهد الله أنه لا اله الا هو »[١٣] . وقد توجد براهين يستفيد الحكماء والعلماء منها على نحو ويستفيد أهل الظاهر وعامة الناس على نحو آخر ، ككريمة «لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا»[١٤] ومثل كريمة «إذاً لذهب كل اله بما خلق »[١٥] . ومثل آيات أول سورة الحديد والسورة المباركة التوحيد وغيرها ، والاحتجاج على اثبات ملائكة الله والانبياء العظام الموجودة في موارد مختلفة من هذا الكتاب الشريف .

هذه حال احتجاجات نفس الذات المقدسة وإما أن الحق تعالى نقل براهين الأنبياء والعلماء على اثبات المعارف مثل احتجاجات خليل الرحمن سلام الله عليه وغيره .

هذه مهمّات مطالب هذا الكتاب .. والا فالمطالب المتفرقة الاخرى ايضا موجودة ويستلزم احصاؤها وقتا كافيا .

المراجع والحواشي

١ ــ (الحديد ــ ٣)

٢ ــ (النور ــ ٣٥)

٣ ــ (الزخرف ــ ٨٤)

٤ ــ (الحديد ــ ٤)

٥ ــ (البقرة ــ ١١٥)

٦ ــ (الانفال ــ ١٧)

٧ ــ (الفاتحة ــ ١)

٨ ــ (الحشر ــ ٣٤)

٩ ــ (الانعام ــ ٧٦)

١٠ــ (النساء ــ ١٠٠)

١١ــ (الشمس ــ ١٠)

١٢ــ (المطففين ــ ١٥)

١٣ــ (آل عمران ــ ١٨)

١٤ــ (الانبياء ــ ٢٢)

١٥ــ (المؤمنون ــ ٩١)

الفصل الثالث

في بيان طريق الاستفادة من القرآن الكريم

فاذا علمت الان مقاصد هذه الصحيفة الالهية ومطالبها فلا بد لك أن تلفت النظر الى مطلب مهم يكشف لك بالتوجّه اليه طريق الاستفادة من الكتاب الشريف ، وتنفتح على قلبك أبواب المعارف والحكم وهو أن يكون نظرك الى الكتاب الشريف الالهي نظر التعليم ، وتراه كتاب التعليم والافادة وترى نفسك موظفة على التعلّم والاستفادة ، وليس مقصودنا من التعليم والتعلم والافادة والاستفادة أن تتعلم منه الجهات الادبية والنحو والصرف أو تأخذ منه الفصاحة والبلاغة والنكات البيانية والبديعية ، أو تنظر في قصصه وحكاياته بالنظر التاريخي والاطّلاع على الامم السالفة ، فانه ليس شيء من هذه داخلا في مقاصد القرآن ، وهو بعيد عن المنظور الاصلي للكتاب الالهي بمراحل والذي أوجب ان تكون استفادتنا من هذا الكتاب العظيم بأقل من القليل هو هذا المعنى . فاما الا ننظر اليه نظر التعليم والتعلّم كما هو الغالب علينا ، ونقرأ القرآن للثواب والاجر فقط ولهذا لا نعتني بغير جهة تجويده ، ونريد أن نقرأه صحيحا حتى يعطي لنا الثواب ونحن واقفون في هذا الحد وقانعون بهذا الامر ، ولذا نقرأ الفرآن اربعين سنة

ولا تحصل الاستفادة منه بوجه الا الاجر وثواب القراءة . وأما أن نشتغل ان كان نظرنا التعليم والتعلّم بالنكات البديعيّة والبيانية ووجوه اعجازه ، وأعلى من هذا بقليل فالى الجهات التاريخية وسبب نزول الآيات وأوقات النزول ، وكون الآيات والسور مكية أو مدنية ، واختلاف القراءات واختلاف المفسرين من العامة والخاصة وسائر الامور العرضية الخارجة عن المقصد بحيث تكون هذه الامور نفسها موجبة للاحتجاب عن القرآن والغفلة عن الذكر الالهي بل ان مفسّرينا العظام ايضا صرفوا عمدة همّهم في احدى هذه الجهات أو أكثر ولم يفتحوا باب التعليمات على الناس. وبعقيدتي أنا الكاتب لم يُكتب الى الان التفسير لكتاب الله لان معنى التفسير على نحو كلّي هو أن يكون شارحا لمقاصد الكتاب المفسّر ويكون مهمّ النظر الى بيان منظور صاحب الكتاب . فهذا الكتاب الشريف الذي هو بشهادة من الله تعالى كتاب الهداية والتعليم ونور طريق سلوك الانسانية ، يلزم للمفسّر أن يعلّم للمتعلم في كل قصّة من قصصه بل في كل آية من آياته جهة الاهتداء الى عالم الغيب وحيثية الهداية الى طريق السعادة ، وسلوك طريق المعرفة والانسانية .

فالمفسر اذا فهّم لنا المقصد من النزول فهو مفسّر سبب النزول كما هو في التفاسير ، ففي قصة آدم وحواء أو قضاياهما مع ابليس من ابتداء خلقهما الى ورودهما في الارض ، وقد ذكرها الحق تعالى مكررة في كتابه . كم من المعارف والمواعظ مذكورة فيها ومرموز اليها . وكم فيها من معايب النفس وكمالاتها ومعارفها وأخلاق ابليس موجودة فيها نتعرف عليها ونحن عنه غافلون .

وبالجملة ، كتاب الله هو كتاب المعرفة والاخلاق والدعوة الى

السعادة والكمال ، فكتاب التفسير ايضا لا بد وأن يكون كتابا عرفانيا وأخلاقيا ومبيّنا للجهات العرفانية والاخلاقية وسائر جهات الدعوة الى السعادة التي في القرآن . فالمفسّر الذي يغفل عن هذه الجهة أو يصرف عنها النظر أو لا يهتم بها فقد غفل عن مقصود القرآن والمنظور الاصلي لانزال الكتب وارسال الرسل . وهذا هو الخطأ الذي حرم الملّة الاسلامية منذ قرون من الاستفادة من القرآن الشريف وسدّ طريق الهداية على الناس ، فلا بد لنا أن نأخذ المقصود من تنزيل هذا الكتاب من نفس هذا الكتاب مع قطع النظر عن الجهات العقلية البرهانية التي تفهمنا المقصد ، فمصنف الكتاب أعرَف بمقصده . فالان اذا نظرنا الى ما قال هذا المصنف فيما يرجع الى شؤون القرآن ، نرى أنه يقول « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين »[1] . فعرّف هذا الكتاب كتاب الهداية ، نرى أنه في سورة قصيرة كرّر مرّات عديدة « ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر »[2] . نرى أنه يقول « وأنزلنا الى الذكر لتبين للناس ما نزّل اليهم ولعلهم يتفكرون»[3] . ونرى أنه يقول « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدّبّروا آياته وليتذكّر أولو الالباب »[4] ، الى غير ذلك من الآيات الشريفة التي يطول ذكرها .

وبالجملة ، ليس مقصودنا من هذا البيان الانتقاد للتفاسير فان كل واحد من المفسرين تحمّل المشاق الكثيرة والاتعاب التي لا نهاية لها حتى صنف كتابا شريفا ، فلله درّهم وعلى الله أجرهم ، بل مقصودنا هو أنه لا بد وأن يفتح للناس طريق الاستفادة من هذا الكتاب الشريف الذي هو الكتاب الوحيد في السلوك الى الله والكتاب الاحدي في تهذيب النفوس والآداب والسنن الالهية ، وأعظم وسيلة للربط بين الخالق والمخلوق والعروة

الوثقى والحبل المتين للتمسّك بعزّ الربوبية فعلى العلماء والمفسرين أن يكتبوا التفاسير فارسية وعربية وليكن مقصودهم بيان التعاليم والمقررات العرفانية والاخلاقية وبيان كيفية ربط المخلوق بالخالق ، وبيان الهجرة من دار الغرور الى دار السرور والخلود على نحو ما أودعت في هذا الكتاب الشريف ، فصاحب هذا الكتاب ليس هو السكاكي[٥] والشيخ[٦] فيكون مقصده جهات البلاغة والفصاحة وليس هو سيبويه[٧] والخليل حتى يكون منظوره جهات النحو والصرف ، وليس المسعودي[٨] وابن خلكان[٩] حتى يبحث حول تاريخ العالم . هذا الكتاب ليس كعصا موسى ويده البيضاء أو نفس عيسى الذي يحيي الموتى فيكون للاعجاز فقط وللدّلالة على صدق النبي الاكرم بل هذه الصحيفة الالهية كتاب احياء القلوب بالحياة الابدية العلمية والمعارف الالهية ، هذا كتاب الله ويدعو الى الشؤون الالهية جلّ وعلا . فالمفسّر لابد وأن يعلم الشؤون الالهية ويرجع الناس إلى تفسيره لتعلّم الشؤون الالهية حتى تتحصل الاستفادة منه «وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا »[١٠] . فأيّ خسران أعظم من أن نقرأ الكتاب الالهي منذ ثلاثين أو أربعين سنة ونراجع التفاسير ونحرم مقاصده ، « ربّنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين »[١١] .

المراجع والحواشي

١ ــ البقرة٢ .

٢ ــ (القمر ــ ١٧)

٣ ــ (النحل ــ ٤٤)

٤ ــ (ص ــ ٢٩)

٥ ــ هو ابو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد الخوارزمي المعتزلي الحنفي الملقب سراج الدين السكاكي صاحب كتاب مفتاح العلوم الذي لخّص القسم الثالث منه خطيب دمشق وشرحه التفتازاني بالمطوّل والمختصر توفي سنة ٧٢٦ (خكو) .

٦ ــ والشيخ هو ابو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي عماد الشيعة ورافع أعلام الشريعة شيخ الطائفة على الاطلاق ورئيسها الذي تلوى اليه الاعناق صنّف في جميع علوم الاسلام وكان القدوة في ذلك والامام تتلمذ على الشيخ المفيد والسيد المرتضى وكان فضلاء تلامذته الذين كانوا مجتهدين وأهل الاقتداء يزيدون على ثلاثمئة من الخاصة والعامة ولد (ره) في شهر رمضان سنة ٣٨٥ بعد وفاة السيد الرضى بسنتين وكان ببغداد ثم هاجر الى مشهد أمير المؤمنين عليه السلام خوفا من الفتنة التي تجدّدت ببغداد واحرقت كتبه وكرسي كان يجلس عليه للكلام فيكلم عليه الخاص والعام وكان ذلك الكرسي ممّا أعطته الخلفاء وكان ذلك لوحيد العصر فكان مقامه في بغداد مع الشيخ المفيد (ره) نحوا من خمس سنين ومع السيد المرتضى نحوا من ثمان وعشرين سنة

وبقي بعد السيد اربعا وعشرين سنة ، اثنتا عشرة سنة منها في بغداد ثم انتقل الى النجف الاشرف وبقي هناك الى أن توفي ليلة الاثنين الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة ٤٦٠ (تس) وكان مدة عمره الشريف خمسا وسبعين سنة ودفن في داره وقبره الان معروف في المسجد الموسوم بالمسجد الطوسي .

وأمّا مصنفاته الشريفة في علوم الاسلام فهي لشهرتها تغنينا عن إيرادها والتفسير الذي أشار إليه الامام الخميني هو البيان الجامع لعلوم القرآن وهو كتاب جليل عديم النظير في التفاسير وشيخنا الطبرسي في تفسيره من بحره يغترف وفي صدر كتابه بذلك يعترف فعليه رضوان الله الخبير اللطيف .

٧ ــ وسيبويه هو أبو الحسن او ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي البيضاوي العراقي البصري النحوي المشتهر كلامه وكتابه في الآفاق الذي قال في حقه العلامة الطباطبائي بحر العلوم رحمه الله تعالى ان المتقدمين والمتأخرين وجميع الناس في النحو عيال عليه أخذ عن الخليل بن أحمد النحوي المعروف الذي ذكره الامام في المتن ويونس والاخفش وعيسى بن عمر ولكن جميع حكاياته عن الخليل وقد كثرت كلمات علماء النحو في مدح كتابه المسمى الكتاب ولهم عليه شروح وتعليقات وردود نشأت من اعتنائهم واشتغالهم به وقصة وروده بغداد ومناظرته مع الكسائي معروفة قالوا توفى حدود سنة ١٨٠ (قف) وقبره في شيراز ، وقال ابن شحنة الحنفي في روضة المناظر قال ابو الفرج ابن الجوزي توفي سيبويه سنة ١٩٤ (قصد) وعمره اثنان وثلاثون عاما بمدينة ساوة وذكر خطيب بغداد عن ابن دريد ان سيبويه توفي بشيراز بمدينة ساوة وقبره بها .(انتهى) . وكان شابا نظيفا جميلا ابيض مشربا بحمرة كأن خدوده لون التفاح ولذلك يقال سيبويه لان التفاح بالفارسية سيب أو لانه كان يعتاد شم التفاح أو كان يشم منه رائحته أقول وعلى الوجهين الأخيرين فالانسب أن يكون اسمه سيبويه بضم الباء وسكون الواو وفتح الياء .

٨ ــ شيخ المؤرخين وعمادهم ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي الهذلي

العالم الجليل الالمعي ذكره العلامة وقال له كتاب في الامامة وغيرها منها كتاب اثبات الوصية لعلي بن ابي طالب (ع) وهو صاحب مروج الذهب (انتهى) .

حكى أنه نشأ في بغداد وساح في البلاد فطاف فارس وكرمان سنة ٣٠٩ وقصد الهند الى ملتان وعطف الى كنباية فسرنديب ثم ركب البحر الى بلاد الصين وطاف البحر الهندي وعاد الى عمّان ورحل رحلة أخرى سنة ٣١٤ الى ما رواء اذربيجان وجرجان ثم الى الشام وفلسطين وكان يسكن مصر تارة والشام اخرى ومن سنة ٣٣٦ الى ٣٤٤ أقام بالفسطاط له كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان في ثلاثين مجلّدا لا يوجد منه الا جزء واحد وله أيضا ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور وكتاب في أخبار الامم من العرب والعجم وكتاب المقالات في أصول الديانات وكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر وقيل انه بقي الى سنة ٣٤٥ (شمه) .

٩ ــ ابن خلِّكان هو ابو العباس احمد بن محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلّكان الاربلي البرمكي الشافعي صاحب كتاب التاريخ المشهور الموسوم بوفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان الذي تعرض فيه لذكر المشاهير من التابعين ومن بعدهم الى زمان نفسه يشتمل على ٨٦٤ ترجمة ولم يذكر فيه الصحابة وقد ذيّله صلاح الدين الصفدي بمجلّدات تدارك فيها ما قد فاته من الوفيات سمّاها الوافي بالوفيات قيل في وجه تسمية جدّ بن خلكان بخلكان انه كان يوما يفاخر اقرانه ويفتخر بآبائه من آل برمك فقيل له خلّ كان أبي كذا ودع جدّي كذا ونسبي كذا وحدّثنا عمّا يكون في نفسك الان كما قال الشاعر :

ليس الفتى من يقول كان أبي ‏ ‏ ‏ ‏ ان الفتى من يقول ها أنا ذا

فعلى هذا يكون خلِّكان بفتح الخاء وتشديد اللّام المكسورة .

١٠ ــ (الاسراء ــ ٨٢)

١١ ــ (الاعراف ــ ٢٣)

الفصل الرابع

في بيان رفع الموانع والحجب
بين المستفيد والقرآن

فاذا علمت الآن عظمة كتاب الله من جميع الجهات المقتضية للعظمة وانفتح طريق استفادة المطالب منه فاللازم على المتعلم والمستفيد من كتاب الله ان يجري أدبا آخر من الاداب المهمة حتى تحصل الاستفادة وهو رفع موانع الاستفادة ، ونحن نعبّر عنها بالحجب بين المستفيد والقرآن ، وهذه الحجب كثيرة نشير الى بعضها :

من الحجب العظيمة حجاب رؤية النفس ، فيرى المتعلم نفسه بواسطة هذا الحجاب مستغنية أو غير محتاجة للاستفادة وهذا من المكائد الاصيلة المهمة للشيطان حيث أنه يزيّن للانسان دائما الكمالات الموهومة ويرضي الانسان ويقنعه بما فيه ويسقط من عينه كل شيء سوى ما عنده ، مثلا يقنّع أهل التجويد بذاك العلم الجزئي ويزيّنه في أعينهم الى حدّ يسقط سائر العلوم عن أعينهم ويطبّق في نظرهم حملة القرآن عليهم ويحرمهم من فهم الكتاب النوراني الالهي والاستفادة منه ، ويرضي أصحاب الادب بتلك الصورة بلا لبّ ويمثّل جميع شؤون القرآن فيما هو عندهم ، ويشغل أهل التفاسير المتعارفة بوجوه القراءات والآراء المختلفة لارباب اللغة ووقت النزول

وشأن النزول وكون الآيات مكية أو مدنية وتعدادها وتعداد الحروف وأمثال تلك الامور . ويقنع أهل العلوم أيضا بعلم فنون الدلالات فقط ووجوه الاحتجاجات وأمثالها حتى أنه يحبس الفيلسوف والحكيم والعارف الاصطلاحي في الغليظ من حجاب الاصطلاحات والمفاهيم وأمثال ذلك . فعلى المستفيد أن يخرق جيمع الحجب هذه وينظر الى القرآن من ورائها ، ولا يتوقف في شيء من هذه الحجب ولا يتأخر عن قافلة السالكين ولا يحرم من الدعوات الحلوة الالهية ، ويستفاد عدم الوقوف وعدم القناعة الى حدّ معين من نفس القرآن .

والاشارة الى هذا المعنى كثيرة في القصص القرآنية ، فموسى الكليم مع ما له من المقام العظيم في النبوّة ما اقتنع بذلك المقام وما توقف في مقام علمه الشامخ ، وبمجرد أن لاقى شخصا كاملا كالخضر قال له بكل تواضع وخضوع : « هل أتّبعك على أن تعلّمني ممّا علّمت رشدا »[1] وصار ملازما لخدمته حتى أخذ منه العلوم التي لا بد من أخذها .

وابراهيم عليه السلام لم يقتنع بمقام شامخ الايمان والعلم الخاص للانبياء فقال : « ربّ أرني كيف تحيي الموتى »[2] . فأراد أن يرتقي من الايمان القلبي الى مقام الاطمئنان الشهودي وأعظم من ذلك ان الله تبارك وتعالى يأمر نبيّه الخاتم وهو أعرف خلق الله بالكريمة الشريفة « وقل ربّ زدني علما »[3] . فهذه الاوامر في الكتاب الالهي ونقل هذه القصص لان نتنبّه ونستيقظ من نوم الغفلة .

ومن الحجب : حجاب الآراء الفاسدة والمسالك والمذاهب الباطلة ، وهذا قد يكون من سوء استعداد الشخص والاغلب انه يوجد من التبعية والتقليد . وهذا من الحجب التي حجبتنا بالاخص عن معارف القرآن مثلا

اذا رسخ في قلوبنا اعتقاد بمجرّد الاستماع من الاب أو الام أو من بعض جهلة أهل المنبر تكون هذه العقيدة حاجبة بيننا وبين الآيات الشريفة الالهية . فان وردت آلاف من الآيات والروايات تخالف تلك العقيدة ، فامّا أن نصرفها عن ظاهرها أو أن الا ننظر فيها نظر الفهم والامثال لذلك فيما يرجع الى العقائد والمعارف كثيرة ولكنّي أكفّ نفسي عن عدّها لاني أعلم بأن هذا الحجاب لا يخترق بكلام مثلي ، ولكن أشير الى واحد منها حيث أنه سهل المأخذ في الجملة .

قد وردت الآيات الكثيرة الراجعة الى لقاء الله ومعرفة الله ، ووردت روايات كثيرة في هذا الموضوع مع كثير من الاشارات والكنايات والصراحات في الادعية والمناجاة للائمة عليهم السلام . فبمجرّد ما نشأت عقيدة في هذا الميدان من العوام وانتشرت بأن طريق معرفة الله مسدود بالكلّية فيقيسون باب معرفة الله ومشاهدة جماله على باب التفكر في الذات على الوجه الممنوع بل الممتنع ، فأمّا أن يؤوّلوا ويوجّهوا تلك الآيات والروايات ، وكذلك الاشارات والكنايات والصراحات في أدعية الائمة ومناجاتهم ، وأمّا الاّ يدخلوا في هذا الميدان أصلا ولا يعرّفوا أنفسهم بالمعارف التي هي قرّة العين للانبياء والاولياء ، فممّا يوجب الاسف الشديد لاهل الله أن بابا من المعرفة الذي يمكن أن يقال أنه غاية بعثة الانبياء ومنتهى مطلوب الاولياء قد سدّوه على الناس بحيث يعدّ التفوّه به محض الكفر وصرف الزندقة إنّ هؤلاء يرون معارف الانبياء والاولياء في ما يختص بذات الحق تعالى وأسمائه وصفاته مساوية لمعارف العوام والنساء فيه ، بل يظهر من هؤلاء أحيانا ما هو أعظم من ذلك فيقول أحدهم : ان لفلان عقائد عامية حسنة فيا ليت لنا مثلما له من العقيدة العامية .. وهذا الكلام منه صحيح لان

هذا المسكين الذي يتفوّه بهذا الكلام قد أخرج من يده العقائد العامية ويرى معارف الخواص وأهل الله باطلة ، فهذا التمنّي منه عينا كتمني الكفار . وقد نقل عنهم في الكريمة الالهية « ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا »[4] . ونحن ان أردنا أن نذكر الآيات والاخبار في لقاء الله بتفاصيلها حتى تتضح فضاحة هذه العقيدة الفاسدة الناشئة عن الجهل والغرور الشيطاني ، فيستلزم ذلك كتابا على حدة فضلا من أن نذكر المعارف التي وقعت وراء ستر النسيان بواسطة هذا الحجاب الغليظ حتى يعلم أن أحد مراتب المهجورية من القرآن . ومهجورية القرآن ولعلّ الاسف عليها أشدّ هو هذه كما يقول تعالى في الكريمة الشريفة : « وقال الرسول يا ربِّ إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا »[5] .

ان مهجورية القرآن لها مراتب كثيرة ومنازل لا تحصى ، ولعلنا متصفون بالعمدة منها . أترى أننا اذا جلّدنا هذه الصحيفة الالهية جلدا نظيفا وقيّما وعند قراءتها او الاستخارة بها قبّلناها ووضعناها على أعيننا ما اتخذناه مهجورا ؟ أترى اذا صرفنا غالب عمرنا في تجويده وجهاته اللغوية والبيانية والبديعية قد أخرجنا هذا الكتاب الشريف عن المهجورية ؟ هل اننا اذا تعلّمنا القراءات المختلفة وأمثالها قد تخلّصنا من عار هجران القرآن ؟ هل اننا اذا تعلمنا وجوه إعجاز القرآن وفنون محسّناته قد تخلّصنا عن شكوى رسول الله ؟ هيهات .. فانه ليس شيء من هذه الامور موردا لنظر القرآن ومنزّلها العظيم الشأن ، ان القرآن كتاب إلهي وفيه الشؤون الالهية . القرآن هو الحبل المتصل بين الخالق والمخلوق ولا بد ان يوجد الربط المعنوي والارتباط الغيبي بتعليماته بين عباد الله ومربّيهم ، ولا بد أن يحصل من القرآن العلوم الالهية والمعارف اللدنيّة ، ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال حسب

ما رواه الكافي « انما العلم ثلاثة : آية محكمة وفريضة عادلة وسنّة قائمة » . فالقرآن الشريف حامل لهذه العلوم فان تعلمنا من القرآن هذه العلوم فما اتّخذناه مهجورا ، واذا قبلنا دعوات القرآن وأخذنا التعليمات من قصص الانبياء عليهم السلام المشحونة بالمواعظ والمعارف والحكم ، اذا اتعظنا نحن من مواعظ الله تعالى ومواعظ الانبياء والحكماء المذكورة في القرآن فما اتّخذناه مهجورا ، والافالغور في الصورة الظاهرية للقرآن ايضا إخلاد الى الارض ومن وساوس الشيطان ولا بد من الاستعاذة بالله منها .

ومن الحجب المانعة من الاستفادة من هذه الصحيفة النورانية : الاعتقاد بأنه ليس لاحد حق الاستفادة من القرآن الشريف الا بما كتبه المفسّرون أو فهموه . وقد اشتبه على الناس التفكر والتدبّر في الآيات الشريفة بالتفسير بالرأي الممنوع ، وبواسطة هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عاريا من جميع فنون الاستفادة واتخذوه مهجورا بالكلية في حال ان الاستفادات الاخلاقية والايمانية والعرفانية لا ربط لها بالتفسير ، فكيف بالتفسير بالرأي ، فمثلا اذا استفاد احد من كيفية مذاكرات موسى مع الخضر وكيفية معاشرتهما وشدّ موسى رحاله اليه مع ما له من عظمة مقام النبوّة لاخذ العلم الذي ليس موجودا عنده وكيفية عرض حاجته الى الخضر كما ذكرت في الكريمة الشريفة : « هل أتّبعك على أن تعلّمني ممّا علّمت رشدا »[٦] . وكيفية جواب الخضر والاعتذارات التي وقعت من موسى عظمة مقام العلم وآداب سلوك المتعلم ، مع المعلّم ولعلها تبلغ من الآيات المذكورة الى عشرين أدبا فأي ربط لهذه الاستفادات بالتفسير فضلا من أن تكون تفسيرا بالرأي والاستفادة من هذا القبيل في القرآن كثيرة ، ففي المعارف مثلا اذا استفاد أحد من قوله تعالى « الحمد لله رب العالمين »[٧] الذي

حصر جميع المحامد لله ، وخصّ جميع الاثنية للحق تعالى التوحيد الافعالي وقال بأنه يستفاد من الآية الشريفة ان كل كمال وجمال وكلّ عزّة وجلال الموجودة في العالم وتنسبها العين الحولاء والقلب المحجوب الى الموجودات من الحق تعالى وليس لموجود من قبل نفسه شيء ، ولذا المحمدة والثناء خاص بالحق ولا يشاركه فيها أحد ، فأيّ ربط لهذا الى التفسير حتى يسمّى بالتفسير بالرأي أو لا يسمى ؟ الى غير ذلك من الامور التي تستفاد من لوازم الكلام ولا ربط لها بوجه الى التفسير ، مضافا الى أن في التفسير بالرأي ايضا كلاماً لعلّه غير مربوط بآيات المعارف والعلوم العقلية التي توافق الموازين البرهانية وبالآيات الاخلاقية التي فيها للعقل دخل ، لان التفاسير التي من هذا القبيل مطابقة للبرهان المتين العقلي أو الاعتبارات العقلية الواضحة ، فاذا كان ظاهر الكلام على خلافها فاللازم أن يصرف الكلام من ظاهره ، مثلا في كريمة « وجاء ربك »[٨] و « الرحمن على العرش استوى »[٩] . التي يكون الفهم العرفي فيها مخالفا للبرهان ليس تفسيرا بالرأي ولا يكون ممنوعا بوجه فمن المحتمل بل من المظنون أن التفسير بالرأي راجع الى آيات الاحكام التي تقصر عنها أيدي الآراء والعقول ، ولابد وأن تؤخذ بصرف التعبّد والانقياد من خزّان الوحي ومهابط ملائكة الله ، كما أن أكثر الروايات في هذا الباب وردت في مقابل علماء العامة الذين كانوا يريدون أن يفهموا دين الله بعقولهم ومقايساتهم ، وما في بعض الروايات الشريفة من أنه ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن .. وكذلك الرواية الشريفة « ان دين الله لا يصاب بالعقول » تشهد بأن المقصود من دين الله الاحكام التعبّديّة للدين والا فباب اثبات الصانع والتوحيد والتقديس واثبات المعاد والنبوّة بل مطلق المعارف حقّ طلق للعقول ، ومن مختصاتها وان ورد في

كلام بعض المحدثين من ذوي المقام العالي ان الاعتماد في اثبات التوحيد على الدليل النقلي ، فمن غرائب الامور بل من المصيبات التي لابد أن يستعاذ بالله منها . ولا يحتاج هذا الكلام الى التهجين والتوهين والى الله المشتكى .

ومن الحجب المانعة من فهم القرآن الشريف ، ومن الاستفادة من معارف هذا الكتاب السماوي ومواعظه حجاب المعاصي والكدورات الحاصلة من الطغيان والعصيان بالنسبة الى ساحة رب العالمين المقدسة ، فتحجب القلب عن إدراك الحقائق .

وليعلم كما أن لكل عمل من الاعمال الصالحة أو السيئة كما أن له صورة في عالم الملكوت تتناسب معه فله صورة أيضا في ملكوت النفس ، فتحصل بواسطتها في ملكوت النفس : امّا النورانية ويكون القلب مطهّرا ومنوّرا وفي هذه الحالة تكون النفس كالمرآة المصقولة صافية ، ويليق للتجليات الغيبية وظهور الحقائق والمعارف فيه ، واما ان يصير ملكوت النفس به ظلمانياً وخبيثاً ، وفي هذه الصورة يكون القلب كالمرآة المريّنة والمدنّسة لا تنعكس فيها المعارف الالهية ولا الحقائق الغيبية ، وحيث أن القلب في هذه الحالة يقع بالتدريج تحت سلطة الشيطان ويكون المتصرف في مملكة الروح ابليس فيقع السمع والبصر وسائر القوى ايضا في تصرف ذاك الخبيث ، وينسد السمع بالكلية عن المعارف والمواعظ الالهية ، ولا ترى العين الآيات الباهرة الالهية وتعمى عن الحق وآثاره وآياته ولا يتفقّه القلب في الدين ويحرم من التفكر في الآيات والبيّنات وتذكر الحق والاسماء والصفات ، كما قال الحق تعالى « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضلّ »[١٠] . فيكون نظرهم الى العالم كنظر الانعام والحيوانات الخالية عن الاعتبار والتدبّر ، وقلوبهم كقلوب

الحيوانات لا نصيب لها من التفكر والتذكّر ، بل تكون حالة الغفلة والاستكبار تزداد فيهم يوما فيوم من النظر في الآيات واستماع المواعظ ، فهم أرذل وأضلّ من الحيوان .

ومن الحجب الغليظة التي هي ستر صفيق بيننا وبين معارف القرآن ومواعظه : حجاب حبّ الدنيا ، فيصرف القلب بواسطته تمام همّته في الدنيا وتكون وجهة القلب تماما الى الدنيا ويغفل القلب بواسطة هذه المحبة عن ذكر الله ، ويعرض عن الذكر والمذكور ، وكلما ازدادت العلاقة بالدنيا وأوضاعها ازداد حجاب القلب وساتره ضخامة ، وربما تغلب هذه العلاقة على القلب ويتسلّط سلطان حب الجاه والشرف على القلب بحيث يطفيء نور فطرة الله بالكلّية وتغلق ابواب السعادة على الانسان ، ولعل المراد من اقفال القلوب المذكورة في الآية الشريفة « أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها »[11] . هذه الاقفال واغلال العلائق الدنيوية ، ومن أراد أن يستفيد من القرآن ويأخذ نصيبه من المواعظ الالهية لابدّ وأن يطهّر القلب من هذه الارجاس ، ويزيل لوث المعاصي القلبية وهي الاشتغال بالغير عن القلب لان غير المطهّر ليس محرما لهذه الاسرار قال تعالى : « انه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسّه الا المطهّرون »[12] . فكما أن غير المطهّر الظاهري ممنوع عن ظاهر هذا الكتاب ومسّه في العالم الظاهر تشريعا وتكليفا ، كذلك ممنوع من معارفه ومواعظه وباطنه وسرّه من كان قلبه متلوثا بأرجاس التعلّقات الدنيوية ، وقال تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين »[13] الى آخر الآية . فغير المتقي بحسب تقوى العامة وغير المؤمن بحسب ايمان العامة محروم من الانوار الصورية لمواعظه وعقائده الحقة ، وغير المتقي وغير المؤمن بحسب سائر مراتب التقوى وهي تقوى الخاص وتقوى خاص الخاص وتقوى

أخصّ الخواص محروم من سائر مراتبها . والتفصيل حول تلك المراتب وذكر سائر الآيات الدالة على المقصود موجب للتطويل ، ولكن نختم هذا الفصل بذكر آية شريفة الهية تكفي لاهل اليقظة بشرط التدبّر ، قال تبارك وتعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط مستقيم »[١٤] .

فخصوصيات هذه الآية الشريفة كثيرة ، والبيان حول نكاتها يستلزم رسالة على حدة ليس الآن مجالها .

المراجع والحواشي

١ ــ (الكهف ــ ٦٦)

٢ ــ (البقرة ــ ٢٦٠)

٣ ــ (طه ــ ١١٤)

٤ ــ (النبأ ــ ٤٠)

٥ ــ (الفرقان ــ ٣٠)

٦ ــ (الكهف ــ ٦٦)

٧ ــ (الفاتحة ــ ١)

٨ ــ (الفجر ــ ٢٢)

٩ ــ (طه ــ ٥)

١٠ ــ (الاعراف ــ ١٧٩)

١١ ــ (محمد ــ ٢٤)

١٢ ــ (الواقعة ــ ٧٨)

١٣ ــ (البقرة ــ ٢)

١٤ ــ (المائدة ــ ١٦)

الفصل الخامس

في التفكّر

من آداب قراءة القرآن حضور القلب ، وقد ذكرناه في الآداب المطلقة للعبادات في هذه الرسالة ولا يلزم اعادته ، ومن الآداب المهمة لها : التفكر ، والمقصود من التفكر أن يتجسس من الآيات الشريفة المقصد والمقصود ، وحيث أن مقصد القرآن كما تقوله نفس الصحيفة النورانية هو الهداية الى سبل السلام والخروج من جميع مراتب الظلمات الى عالم النور ، والهداية الى طريق مستقيم فلا بد أن يحصّل الانسان بالتفكر في الآيات الشريفة مراتب السلامة من المرتبة الدانية والراجعة الى القوى الملكية الى منتهى النهاية فيها وهي حقيقة القلب السليم على ما ورد تفسيره عن أهل البيت، وهو أن يلاقي الحق وليس فيه غيره وتكون سلامة القوى الملكية والملكوتية ضالة قارىء القرآن فانها موجودة في هذا الكتاب السماوي ولا بد أن يستخرجها بالتفكر ، واذا صارت القوى الانسانية سالمة عن التصرّف الشيطاني وتحصّل طرق السلامة وعمل بها ففي كل مرتبة من السلامة تحصل له ينجو من ظلمة ويتجلى فيه النور الساطع الالهي قهرا حتى اذا خلص عن جميع أنواع الظلمات التي أولها ظلمات عالم الطبيعة بجميع شؤونها وآخرها

ظلمة التوجّه الى الكثرة بتمام شؤونها يتجلى النور المطلق في قلبه ويهديه الى طريق الانسانية المستقيم وهو في هذا المقام طريق الربّ « ان ربي على صراط مستقيم »(١) .

وقد كثرت الدعوة الى التفكر وتمجيده وتحسينه في القرآن الشريف قال تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لنبيّن للناس ما نزّل اليهم لعلّهم يتفكرون »(٢) . وفي هذه الآية مدح عظيم للتفكر ، لان غاية انزال الكتاب العظيم السماوي والصحيفة العظيمة النورانية قد جعلت احتمال التفكر وهذا من شدّة الاعتناء به حيث أن مجرد احتماله صار موجبا لهذه الكرامة العظيمة ، وقال تعالى في الآية الاخرى : « فاقصص القصص لعلّهم يتفكرون »(٣) .

والآيات من هذا القبيل أو ما يقرب منه كثيرة والروايات ايضا في التفكر كثيرة . فقد نقل عن الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم انه لما نزلت الآية الشريفة « إنّ في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات »(٤) الى آخرها .. قال صلى الله عليه وآله : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » .

والعمدة في هذا الباب ان يفهم الانسان ما هو التفكر الممدوح ، والا لا شك في أن التفكر ممدوح في القرآن والحديث ، فأحسن التعبير فيه ما عبّر به الخواجة عبد الله الانصاري قال : اعلم ان التفكّر تلمّس البصيرة لاستدراك البغية ، يعني أن التفكر هو تجسّس البصيرة وهي بصر القلب للوصول الى المقصود والمقصود هو السعادة المطلقة التي تحصل بالكمال العلمي أو العملي فلا بد للانسان أن يتحصل على المقصود والنتيجة الانسانية وهي السعادة في الآيات الشريفة للكتاب الالهي وفي قصصه

وحكاياته وحيث أن السعادة هي الوصول الى السلامة المطلقة وعالم النور والطريق المستقيم فلا بد للانسان أن يطلب من القرآن المجيد الشريف سبل السلامة ومعدن النور المطلق والطريق المستقيمة كما أشير اليها في الآية الشريفة السابقة ، فاذا وجد القارىء المقصد وتبصّر في تحصيله وانفتح له طريق الاستفادة من القرآن الشريف وفتحت له أبواب رحمة الحق فانه لا يصرف عمره القصير العزيز ورأس مال تحصيل سعادته على أمور ليست مقصودة لرسالة الرسول صلى الله عليه وآله ويكف عن فضول البحث وفضول الكلام ، في مثل هذا الامر المهم فاذا أشخص بصيرته مدّة الى هذا المقصود وصرف نظره عن سائر الامور تتبصّر عين قلبه ويكون بصره حديدا ويكون التفكر في القرآن للنفس أمرا عاديا وتنفتح طرق الاستفادة وتفتح له أبواب ليست مفتوحة له الى الان ، ويستفيد مطالب ومعارف من القرآن ما كان يستفيدها الى الان بوجه ، فحين ذاك يفهم كون القرآن شفاء للامراض القلبية ، ويدرك مفاد الآية الشريفة «وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا »(٥) ومعنى قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه « وتعلموا القرآن فانه ربيع القلوب واستشفعوا بنوره فانه شفاء الصدور » ولا يطلب من القرآن شفاء الامراض الجسمانية فقط بل يجعل عمدة المقصد شفاء الامراض الروحانية الذي هو مقصد القرآن بل القرآن ما نزل لشفاء الامراض الجسمانية وان كان يحصل به كما أن الانبياء عليهم السلام لم يبعثوا للشفاء الجسماني وان كانوا يشفون فهم أطباء النفوس والشافين للقلوب والارواح .

المراجع والحواشي

١ ــ (هود ــ ٥٦)

٢ ــ (النحل ــ ٤٤)

٣ ــ (الاعراف ــ ١٧٦)

٤ ــ (آل عمران ــ ١٩٠)

٥ ــ (الاسراء ــ ٨٢)

الفصل السادس

في التطبيق

من الاداب المهمة لقراءة القرآن التي تنيل الانسان نتائج كثيرة والاستفادات غير المعدودة هو التطبيق .

وكيفيّته انه حينما يتفكر في كل آية من الآيات الشريفة يطبق مفادها في حاله ويرفع نقصانه بواسطة هذا التطبيق ويشفي أمراضه به ، مثلا في قصة آدم الشريفة يتفكر أن مطرودية الشيطان عن جناب القدس مع تلك السجدات والعبادات الطويلة لماذا ؟ فيطهّر نفسه منه لان مقام القرب الالهي مقام المطهّرين ، فمع الاوصاف والاخلاق الشيطانية لا يمكن القدوم الى ذلك الجناب الرفيع . ويستفاد من الآيات الشريفة أن مبدأ عدم سجود ابليس هو رؤية النفس والعجب فطبّل أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين .. فهذا العجب صار سببا لحب النفس والاستكبار ، وصار سببا للاستقلال والاستكبار وعصيان الامر فصار مطرودا عن الجناب ونحن خطبنا الشيطان من أول عمرنا ملعونا ومطرودا واتصفنا باوصافه الخبيثة ولم نتفكر في أن ما هو سبب المطرودية عن جناب القدس اذا كان موجودا في أي شخص ، فهو مطرود وليس للشيطان خصوصية ، فما كان سببًا لطرده

عن جناب القدس يكون مانعا من أن نتطرّق اليه ، وأنا أخاف من أن نكون شركاء ابليس في اللعن الذي نلعنه .

ونتفكر أيضا في هذه القضية الشريفة ونرى ما هو السّبب لمزيّة آدم وأفضليته على الملائكة ، فنتصف نحن أيضا بمقدار الطاقة بذاك السبب فنرى أن سبب التفضيل هو تعليم الاسماء كما قال تعالى : « وعلّم آدم الاسماء كلّها »[1] والمرتبة العالية من تعليم الاسماء هو التحقق بمقام اسماء الله . كما أن المرتبة العالية من الاحصاء الذي هو في الرواية الشريفة أن لله تسعا وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة ، هو التحقق بحقيقتها التي تنيل الانسان الى جنة الاسماء .

الانسان يستطيع أن يكون مظهرا لاسماء الله ، والآية الكبرى الالهية بالارتياضات القلبية ويكون وجوده وجودا ربّانيا ويكون المتصرّف في مملكته يدا الجمال والجلال الالهي . وفي الحديث ما يقرب من هذا المعنى من أن « روح المؤمن أشدّ اتصالا بالله تعالى من اتصال شعاع الشمس بها أو بنورها » .

وفي الحديث الصحيح « لايزال يتقرّب اليّ عبدي بالنوافل حتى أحبّه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يأخذ بها » . وفي الحديث « عليٌّ عين الله ويد الله » الى غير ذلك .. وفي الحديث « نحن أسماؤه الحسنى » والشواهد العقلية والنقلية في هذا بخصوصه كثيرة .

وبالجملة ، من أراد أن يأخذ من القرآن الشريف الحظ الوافر والنصيب الكافي فلا بد له أن يطبّق كل آية شريفة من الآيات على حالات نفسه حتى يستفيد استفادة كاملة ، مثلا يقول الله تعالى في سورة الانفال

في الآية الشريفة : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربّهم يتوكّلون »[٢] . فلا بد للسالك من أن يلاحظ هل هذه الاوصاف الثلاثة منطبقة عليه ، وهل قلبه يجِلُ اذا ذكر الله ويخاف ؟ واذا تليت عليه الآيات الشريفة الالهية يزداد نور الايمان في قلبه ؟ وهل اعتماده وتوكله على الحق تعالى ؟ أو أنه في كل من هذه المراحل راجل ومن كل هذه الخواص محروم ؟ فإن أراد أن يفهم أنه من الحق تعالى خائف وقلبه من خوفه وجل فلينظر الى أعماله .

الانسان الخائف لا يتجاسر في محضر الكبرياء الى مقامه المقدس ولا يهتك الحرمات الالهية في حضور الحق ، واذا قوي الايمان بتلاوة الآيات الالهية يسري نور الايمان الى المملكة الظاهرية ايضا ، فغير ممكن أن يكون القلب نورانيا ولا يكون اللسان والكلام والعين والنظر والسمع والاستماع نورانيا . فالبشر النوراني هو الذي تكون جميع قواه الملكية والملكوتية منيرة ، فمضافا الى هداية نفسه الى السعادة والطريق المستقيم يكون مضيئا لسائر الخلق ايضا ويهديهم الى طريق الانسانية كما أنه اذا توكل أحد على الله تعالى واعتمد عليه فيقطع الطمع عمّا في أيدي سائر الخلق ويحط رحل حاجته وفقره الى باب الغنى المطلق ولا يرى سائر الذين هم مثله فقراء ومساكين حلاّلين لمشاكله . فوظيفة السالك الى الله هي أن يعرض نفسه على القرآن الشريف ، فكما أن الميزان في صحة الحديث وعدم صحته واعتباره وعدم اعتباره ان يعرض على كتاب الله فما خالف كتاب الله فهو باطل وزخرف . كذلك الميزان في الاستقامة والاعوجاج والشقاوة والسعادة هو أن يكون مستقيما وصحيحا في ميزان كتاب الله ، وكما أن خلق رسول الله هو القرآن فاللازم له أن يجعل خلقه موافقا للقرآن حتى يكون مطابقا لخلق

الوليّ الكامل ايضا ، والخلق الذي يكون مخالفا لكتاب الله فهو زخرف وباطل .

وكذلك جميع المعارف وأحوال قلبه وأعمال الباطن والظاهر له لابد أن يطبّقها على كتاب الله ويعرضها عليه حتى يتحقق بحقيقة القرآن ويكون القرآن له صورة باطنية .

وانت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمر

وفي هذا المقام آداب أخر قد ذكرنا بعضها في أول هذه الرسالة في آداب مطلق العبادات وبعضها مندرج في هذه الآداب ، وذكر بعضها ينجرّ الى التطويل ، فلهذه الجملة صرفنا النظر عنه والله العالم .

خاتمة الفصل

في ذكر ترجمة[٣] نبذة من الروايات الشريفة لتتميم الفائدة والتبرّك بكلام العترة الطاهرة .

ففي الكافي الشريف باسناده الى سعد الخفّاف عن أبي جعفر عليه السلام قال : « ياسعد تعلّموا القرآن فان القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر اليها الخلق والناس صفوف عشرون ومائة ألف صف ثمانون ألف صفّ أمّة محمد وأربعون ألف صف من سائر الامم ، فيأتي على صف المسلمين في صورة رجل فيسلّم فينظرون اليه ثم يقولون لا إله الا الله الحليم الكريم ان هذا الرجل من المسلمين نعرفه بنعته وصسته غير أنه كان أشدّ اجتهادا منا في القرآن فمن هناك أعطي من البهاء والجمال والنور ما لم يُعطَه ، ثم يجاوز حتى يأتي على صف الشهداء فينظرون اليه ثم يقولون : لا اله الا الله الرب الرحيم ان هذا الرجل من الشهداء نعرفه بسمته وصفته غير

أنه من شهداء البحر فمن هناك أعطي من البهاء والفضل ما لم نُعطه . قال : فيتجاوز حتى يأتي صف شهداء البحر في صورة شهيد .. ثم ذكر الحديث اتيانه صفوف النبيين والمرسلين الى أن يعرّفه رسول الله صلى الله عليه وآله » الحديث بطوله .

وقال أبو عبد الله عليه السلام : « اذا جمع الله عزّ وجلّ الاولين والاخرين اذا هم بشخص قد أقبل لم ير قطّ أحسن صورة منه فاذا نظر اليه المؤمنون وهو القرآن قالوا هذا منّا هذا أحسن شيء رأينا ، فاذا انتهى اليهم جازهم » الى آخر الحديث .

والاحاديث بهذا المضمون كثيرة وهي دليل واضح على ما يقوله أهل المعرفة بأن الموجودات في هذا العالم لها صور أخروية ، ومن أحاديث هذا الباب يستفاد أن للاعمال أيضا صورا أخروية .

وفي الكافي الشريف باسناده الى باقر العلوم عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله « أنا أول وافد على العزيز الجبّار يوم القيامة وكتابه وأهل بيتي ثم أمّتي ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيتي » . وفي حديث آخر : « فيقول الجبار : وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لاكرمنّ اليوم من أكرمك ولاهيننّ من أهانك » وليعلم أنه لو لم نكن نحيي أحكام القرآن ومعارفه بالعمل بها والتحقق بحقيقتها لا نستطيع أن نجيب رسول الله في ذلك اليوم فأي إهانة أعظم من أن تنبذ مقاصد القرآن ودعواته وراء الظهر ، فليس إكرام القرآن وأهله وهم أهل بيت العصمة بتقبيل جلد القرآن او الضرائح المقدسة لهم فقط بل التقبيل هذا مرتبة ضعيفة من الاحترام والتكريم ، واذا عملنا بأوامره وأوامرهم عليهم السلام فهذا الاحترام مقبول والا فهو يشبّه بالاستهزاء واللعب وقد حذر تحذيرا شديدا في الاحاديث الشريفة

من قارىء القرآن الذي لا يعمل به كما نقل عن عقاب الاعمال للشيخ الصدوق رضوان الله عليه باسناده عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث « من تعلّم القرآن فلم يعمل به وآثر عليه حبّ الدنيا وزينتها استوجب سخط الله وكان في الدرجة مع اليهود والنصارى الذي ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم»[٤] . « ومن قرأ القرآن وأراد به السمعة والوصول الى الدنيا لقي الله ووجهه عظم لا لحم فيه والقرآن يضرب على قفاه حتى يدخل النار ويسقط في النار مع الذين سقطوا »[٥] . « ومن قرأ القرآن ولم يعمل به حشره الله يوم القيامة أعمى فيقول ربّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتي فنسيتها وكذلك اليوم تنسى فيؤمر به الى النار »[٦] . « ومن قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وتفقها في الدين كان له من الثواب مثل جميع ما يعطى الملائكة والانبياء والمرسلون ، ومن تعلّم القرآن يريده رياء وسمعة ليماري به السفهاء ويباهي به العلماء ويطلب به الدنيا بدّد الله عزّ وجل عظامه يوم القيامة ولم يكن في النار أشدّ عذابا منه وليس نوع من أنواع العذاب الا ويعذب من شدّة غضب الله عليه وسخطه ، ومن تعلّم القرآن وتواضع في العلم وعلّم عباد الله يريد ما عند الله لم يكن في الجنة أعظم ثوابا منه ولا أعظم منزلة منه ولم يكن في الجنة منزلة ولا درجة رفيعة ولا نفيسة الا كان له فيها أوفر النصيب وأشرف المنازل »[٧] .

وقد وردت روايات كثيرة في خصوص التفكر في معاني القرآن والاتعاظ به والتأثر منه . كما في الكافي الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « ان هذا القرآن فيه منار الهدى ومصابيح الدّجى فليجل جال بصره ويفتح للضياء نظره فان التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور » .. ومقصوده عليه السلام أنه كما أن الانسان

لا بد له من النور الظاهري اذا هو يمشي في الظلمات حتى يصان من خطر السقوط في المزلات ، كذلك لا بدّ له أن يمشي في ظلمات طريق السير الى الاخرة والى الله بالقرآن الذي هو نور الهداية والمصباح المنير في طريق العرفان والايمان كي لا يقع في المزلّات المهلكة .

وفي معاني الاخبار ، في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « الفقيه من لا يترك القرآن رغبة عنه ويتوجّه الى غيره ، الا لا خير في علم ليس فيه تفهّم ، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبّر ، ولا خير في عبادة ليس فيها تفقّه » .

وروى في الخصال ومعاني الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « حملة القرآن عرفاء أهل الجنة » . ومن المعلوم أن المراد من هذا الحمل هو حمل معارف القرآن وعلومه وتكون نتيجته في الاخرة ان الحامل يكون في عداد أهل المعرفة وأصحاب القلوب ، كما أنه لو حمل سورة القرآن من دون الاتعاظ بمواعظه وتحمّل معارفه وحكمه والعمل بأحكامه وسننه ، فهو كما قال تعالى: «مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار الذي يحمل أسفارا[٨] .» .والاحاديث الشريفة في شؤون القرآن الشريف وآدابه أكثر من أن تسع في هذا المختصر . والسلام على محمد وآله .

المراجع والحواشي

١ ــ (البقرة ــ ٣١)

٢ ــ (الانفال ــ ٢)

٣ ــ ما ذكرناه نص الروايات لا ترجمتها ، وانما ذكرنا كلمة ترجمة لاداء الامانة في الترجمة ، حيث أتى المصنف ، أدام الله ظلّه بترجمة الروايات في الاصل .

٤ ــ أقول : الرواية بهذه الصورة ليست في النسخة المطبوعة في بيروت والموجودة عندي بل ما ذكر ما بين القوسين تحت رقم(٥) لم يكن موجودا في نسختنا وانما ترجمه المؤلف دام ظله وما ذكر منها تحت رقم (٦) قد ذكر في نسختنا في باب عقاب من تعلم القرآن فلم يعمل به تحت رقم(٣) وما ذكرناه تحت رقم(٧) قد ذكر في نسختنا في باب ثواب قراءة القرآن تحت رقم(٦) .
وأقول : السمعة من أقسام الريا ومعناها انه يسمع العابد للناس بعبادته ليجلب قلوبهم الى نفسه .

٨ ــ (الجمعة ــ ٥)

المصباح الثاني

في ذكر نبذة من آداب القراءة في خصوص الصلاة

وفيه

سبعة فصول

الفصل الاول

في آداب القراءة في الصلاة خاصة

اعلم أن للقراءة في هذا السفر الروحاني والمعراج الالهي مراتب ومدارج نكتفي ببعضها حسب ما يناسب هذه الرسالة :

المرتبة الاولى : الا يشتغل القارىء الا بتجويد القراءة وتحسين العبارة ، ويكون همّه التلفّظ بهذه الكلمات فقط وتصحيح مخارج الحروف حتى يأتي بتكليف ويسقط عنه أمر ، ومعلوم أن التكاليف لهذه الاشخاص موجبة للكلفة والمشقة وقلوبهم منها منضجرة وبواطنهم عنها منحرفة وليس لهم حظ من العبادة الا أنهم ليسوا معاقبين بعقاب تاركها الا ان يتفضّل عليهم من خزائن الغيب ويقعوا موردا للاحسان والانعام بمجرد لقلقة اللسان ، ويتّفق لهذه الطائفة أحيانا أن ألسنتهم مشغولة بذكر الحق وقلوبهم عنه عارية وبريئة ومتعلقة بالكثرات الدنيوية والمشاغل الملكية ، وهذه الطائفة داخلة في الصلاة بحسب الصورة ولكنهم بحسب الباطن والحقيقة مشغولون بالدنيا ومآربها والشهوات الدنيوية ، ويتفق أحيانا أن قلوبهم أيضا مشغولة بالتفكر في تصحيح صورة الصلاة . ففي هذه الصورة قد دخلوا في صورة الصلاة بحسب القلب واللسان ، وهذه الصورة منهم مقبولة ومرضية .

المرتبة الثانية : هم الذين لا يقتنعون بهذا الحد بل يرون الصلاة وسيلة لتذكر الحق ويعدّون القراءة تحميدا وثناء على الحق ، ولهذه الطائفة مراتب كثيرة يطول ذكرها ولعله أشير الى هذه الطائفة في الحديث الشريف القدسي « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي فاذا قال بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله ذكرني عبدي واذا قال الحمد لله يقول الله حمدني عبدي وأثنى عليّ وهو معنى سمع الله لمن حمده . واذا قال الرحمن الرحيم يقول الله عظّمني عبدي ، واذا قال مالك يوم الدين يقول الله مجّدني عبدي ، وفي رواية فوّض إليّ عبدي واذا قال ايّاك نعبد وإيّاك نستعين يقول الله هذا بيني وبين عبدي ، واذا قال اهدنا الصراط المستقيم يقول الله هذا لعبدي ولعبدي ما سأل » . وحيث أن الصلاة قد قسمت بحسب هذا الحديث الشريف بين الحق والعبد فلا بدّ للعبد أن يقوم بحق المولى الى حيث حقّه ويقوم بأدب العبودية الذي ذكره في هذا الحديث حتى يعمل الحق تعالى شأنه معه باللطائف الربوبية كما يقول تعالى « أوفوا بعهدي أوف بعهدكم »[1] .

والحق تعالى قد أقام آداب العبودية في القراءة على أربعة اركان :

الركن الاول : التذكر ، ولا بد أن يحصل في بسم الله الرحمن الرحيم وينظر العبد السالك الى جميع دار التحقق بالنظر الاسمي الذي هو الفناء في المسمّى ويعوّد القلب أن يكون طالباً للحقّ ومحبّا للحق في جميع ذرّات الممكنات وفطرة تعلّم الاسماء التي فطر بها في مخمّر ذاته المشار اليها في قوله تعالى : « وعلّم آدم الاسماء كلّها »[2] لا بدّ وأن تصل من حضرة اسم الله الاعظم الى مرتبة الفعلية والظهور بمقتضى جامعية نشأة الظهور ،ويحصل هذا المقام من الخلوة مع الحق وشدّة التذكر والتفكر في الشؤون الالهية حتى

ينتهى الى حدّ يكون قلب العبد حقانيا ولا يكون في جميع زوايا قلبه اسم سوى الحق . وهذه مرتبة من الفناء في الالوهية ، والقلوب المنكوسة القاسية للجاحدين لا تستطيع انكارها بهذا البيان الذي بيّنّاه الا أن يكون جحوده جحودا ابليسيا ، فان تلك القلوب والعياذ بالله متنفّرة بالطبع عن اسم الحق وذكره وتنقبض اذا جرى حرف من المعارف الالهية أو ذكر من أسماء الله ولا يفتحون بصيرتهم الا الى الشهوات البطنية والفرجية ، وفي هذه الطائفة أفراد لا يعتقدون للانبياء والاولياء عليهم السلام أيضا سوى المقامات الجسمانية والجنة الجسمانية التي يُقضىٰ فيها الوطر الحيواني ، ويحسبون عظمة المقامات الاخروية كالعظمة الدنيوية بسعة الجنات والانهار الجارية وكثرة الحور والغلمان والقصور ، واذا سمعوا كلاما عن العشق والمحبة والجذبة الالهيّة فيحملون على صاحبه بالالفاظ الركيكة والكلمات القبيحة ، فكأن هذا الكلام سبّ لهم فيجبرونه ، هؤلاء مأمورون من قبل الشيطان قد قعدوا على الصراط المستقيم الالهي بمقتضى : « ولاقعدنّ لهم صراطك المستقيم »[٣] . ولا يتركون أحدا يحصل له الانس مع الهه ويخلص من ظلمات التعلّق بالشهوات الحيوانية التي منها التعلّق بالحور والقصور .

ومن الممكن أن يستشهد هؤلاء بشواهد من أدعية الانبياء وأهل بيت العصمة عليهم السلام بانهم ايضا كانوا يطلبون الحور والقصور وهذا من قصور هذه الطائفة حيث أنهم لم يفرقوا بين حبّ كرامة الله حيث يكون النظر فيه الى كرامة المحبوب واعطائه الذي هو علامة المحبة والعناية وبين حب الحور والقصور وأمثالها استقلالا ، الذي هو في خميرة الشهوة الحيوانية ، فحب كرامة الله هو حب الله ويسري الى الكرامة والعناية بالتبع (عاشقم برهمه عالم كه همه عالم ازاواست)[٤] .

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

والا فما لعليّ والحور والقصور ؟ وأي تناسب بينه وبين الاهواء النفسانية والشهوات الحيوانية ؟ من كانت عبادته عبادة الاحرار فلا يكون جزاؤه جزاء التجار .. قد أُرخي عنان القلم وبعدت عن المطلب ، وبالجملة من عوّد نفسه على قراءة الآيات والاسماء الالهية من كتاب التكوين والتدوين الالهي يصوّر قلبه بالتدريج على الصورة الذكرية والآيتية ويتحقق باطن الذات بذكر الله واسم الله وآيات الله كما فسر وطبّق الذكر بالرسول الاكرم وعلي بن أبي طالب صلوات الله عليهما وآلهما والاسماء الحسنى بأئمة الهدى. وكذلك فسّرت وطبّقت آيات الله عليهم ، صلوات الله عليهم ، فهم الآيات الالهية واسماء الله الحسنى وذكر الله الأكبر ومقام الذكر من المقامات العالية الجليلة لا يسع في مجال البيان وحيطة التقرير والتحرير ، وتكفي لاهل المعرفة والجذبة الالهية وأصحاب المحبة والعشق الآية الشريفة الالهية « فاذكروني أذكركم »(٥) . وقال الله تعالى لموسى « يا موسى أنا جليس من ذكرني » .. وفي رواية الكافي قال رسول الله صلى الله عليه وآله « من اكثر ذكر الله أحبه الله » وفي الوسائل باسناده الى الصادق عليه السلام قال : قال الله عزّ وجلّ « يابن آدم اذكرني في نفسك اذكرك في نفسي ، يابن آدم اذكرني في خلاء أذكرك في خلاء يابن آدم أذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملئك » . وقال : « ما من عبد ذكر الله في ملأ من الناس الا ذكره الله في ملأ من الملائكة » .

الركن الثاني : التحميد وهو في قول المصلّي الحمد لله رب العالمين .

اعلم ان المصلّي اذا تحقق بمقام الذكر ورأى جميع ذرّات الكائنات وعوالي الموجودات ودوانيها أسماء إلهية وأخرج عن قلبه جهة الاستقلال ونظر

الى الموجودات عوالم الغيب والشهود بعين الاستظلال تحصل له مرتبة التحميد ويعترف قلبه ان جميع المحامد من مختصات الذات الاحدية وليست لسائر الموجودات فيها شركة لانه ليس لها كمال من عند أنفسها حتى يقع الحمد والثناء لها ، ويأتي البيان التفصيلي لهذه اللطيفة الالهية في تفسير هذه السورة المباركة ان شاء الله .

الركن الثالث : هو التعظيم ، وهو يحصل في الرحمن الرحيم :

إن العبد السالك الى الله اذا حصر المحمدة في ركن التحميد على الحق تعالى وسلب الكمال والتحميد عن الكثرات الوجودية يقرب من أفق الوحدة وتعمي بالتدريج عينه الرائية للكثرة وتتجلى لقلبه الصورة الرحمانية التي هي بسط الوجود والصورة الرحيمية التي هي بسط كمال الوجود . ويصف الحق بالاسمين المحيطين الجامعين المضمحلة فيهما الكثرات فيحصل للقلب بواسطة التجلي الكمالي الهيبة الحاصلة من الجمال بتنزل عظمة الحق في قلبه ، واذا تمكنت هذه الحالة في قلبه ينتقل الى الركن الرابع .

الركن الرابع : الذي هو مقام التقديس الذي هو حقيقة التمجيد . وبعبارة أخرى تفويض الامر الى الله ، وهو عبارة عن رؤية مقام مالكية الحق وقاهريته وزوال غبار الكثرة وانكسار أصنام كعبة القلب ، وظهور مالِكيّة بيت القلب والتصرف فيه بلا مزاحمة الشيطان ، ويصل في هذه الحالة الى مقام الخلوة . ولا يمكن بين العبد والحق حجاب وتقع اياك نعبد واياك نستعين في تلك الخلوة الخاصة ومجمع الانس ، ولهذا قال : هذا بيني وبين عبدي واذا اشتملته العناية الازلية وأفاق يسأله الاستقامة في هذا المقام والتمكين في حضرته بقوله اهدنا الصراط المستقيم ، ولهذا فسّر اهدنا بألزمنا وأدّبنا وثبّتنا وهذا لاولئك

الذين خرجوا من الحجاب ووصلوا الى المطلوب الازلي . وأما أمثالنا نحن أهل الحجاب لا بد وأن نسأل الهداية من الحق تعالى بمعناها المعروف ، ولعلّه تأتي بقية من هذا في تفسير السورة المباركة الحمد ، ان شاء الله تعالى .

تكميل : يظهر من الحديث الشريف أن الصلاة كلها قسمت بين الحق والعبد وقد ذكر الحمد من باب النموذج والمثل فبناء على هذا نقول : ان التكبيرات الصلاتية أعمّ من الافتتاحية وغيرها التي تقال في خلال انقلاب الاحوال الصلاتية كلها حظ الربوبية قسمة الذات المقدسة ، فان قام العبد السالك الى الله بهذه الوظيفة العبودية وأدّى حق الربوبية بمقدار ما في وسعه فيؤدي الحق تعالى أيضا بألطافه الخاصة الازلية حق العبد وهو فتح باب المراودة والمكاشفة ، كما اشار اليه في الحديث الشريف في مصباح الشريعة حيث يقول : « فاذا كبّرت فاستصغر ما بين العلى والثرى دون كبريائه » . الى أن قال : « فاعتبر انت قلبك حين صلاتك فان كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها وقلبك مسرورا بمناجاته ملتذا بمخاطباته فاعلم أنه قد صدّقك في تكبيرك ، والا فقد عرفت من سلب لذة المناجاة وحرمان حلاوة العبادة انه دليل على تكذيب الله لك وطردك عن بابه .

وعلى هذا المقياس ففي كل حال من الاحوال الصلاتية وكل فعل من افعالها حق للحق تعالى لابد للعبد من القيام به وهو آداب العبودية في ذلك المنزل وللعبد حظ ونصيب يعطيه الحق تعالى باللطف الخفي والرحمة الجلية بعد قيام العبد بآداب العبودية ، واذا رأى نفسه في هذه المقامات الالهية محروما فيعلم أنه لم يقم بآداب العبودية وعلامة ذلك للمتوسطين ان

لا تذوّق ذائقة القلب لذة المناجاة وحلاوة العبادات ويحرم عن البهجة والسرور والانقطاع الى الحق .

والعبادة التي خلت عن اللذة والحلاوة عبادة بلا روح ولا يستفيد القلب منها.

فيا أيها العزيز آنس قلبك بآداب العبودية وأذق ذائقة الروح حلاوة الذكر ، وهذه اللطيفة الالهية تحصل في بدء الامر بشدة التذكر والانس بذكر الحق ، ولكن في حال الذكر لا يكون القلب ميّتا ولا تستولي عليه الغفلة ، فاذا آنست قلبك بالتذكر فتشملك العنايات الازلية بالتدريج ويفتح على قلبك أبواب الملكوت وعلامة ذلك التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل حلول الفوت .

اللهم أعطنا نصيباً من لذة مناجاتك وحلاوة مخاطباتك واجعلنا في زمرة الذاكرين والمنقطعين الى عزّ قدسك ، وهب لقلوبنا الميّتة حياة دائمة واقطعها عمّن سواك ووجهها اليك انك ولي الفضل والانعام .

المراجع والحواشي

١ ـــ (البقرة ـــ ٤٠)

٢ ـــ (البقرة ـــ ٣١)

٣ ـــ (الأعراف ـــ ١٦)

٤ ـــ مصراع بيت للشاعر المعروف السعدي الشيرازي يقول : أنا للعالم عاشق حيث منه الكون أجمع .

٥ ـــ (البقرة ـــ ١٥٢)

الفصل الثاني

في بعض آداب الاستعاذة

قال تعالى : « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون انما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون »[1] .

من الآداب المهمة للقراءة وخصوصا القراءة في الصلاة التي هي السفر الروحاني الى الله والمعراج الحقيقي ومرقاة وصول اهل الله ، الاستعاذة من الشيطان الرجيم الذي هو شوكة طريق المعرفة ومانع السير والسلوك الى الله ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن قوله في السورة المباركة الاعراف حيث قال : « فبما أغويتني لاقعدنّ لهم صراطك المستقيم »[2] ، فانه حلف ان يسد الطريق على أولاد آدم ويمنعهم عنه ففي الصلاة التي هي الصراط المستقيم الانساني ومعراج الوصول الى الله لا يتحقق الوصول من دون الاستعاذة من هذا القاطع للطريق ، ولا يحصل الامان من شرّه من دون الاعاذة الى حصن الالوهية الحصين ، ولا تتحقق هذه الاستعاذة بلقلقة اللسان والصورة بلا روح والدنيا بلا آخرة كما هو مشهود في أشخاص قالوا بهذا القول منذ أربعين أو خمسين سنة وما نجوا من شرّ هذا القاطع للطريق

ويتبعون الشيطان في الاخلاق والاعمال بل في العقائد القلبية ، ولو كنا مستعيذين من شرّ هذا الخبيث بالذات المقدسة للحق تعالى وهو الفيّاض المطلق وصاحب الرحمة الواسعة والقدرة الكاملة والعلم المحيط والكرم البسيط لاعاذنا الله ولصلح ايماننا وأخلاقنا وأعمالنا . فلا بدّ أن نفهم بأن التأخّر عن هذا السير الملكوتي والسلوك الالهي مهما كان فهو بواسطة إغواء الشيطان والوقوع تحت السلطنة الشيطانية من قصور أنفسنا أو من تقصيرنا حيث لم نقم بآدابه المعنوية وشرائطه القلبية ، كما أن عدم نيلنا في جميع الاذكار والاوراد والعبادات نتائجها الروحية والآثار الظاهرية والباطنية فهو من أجل هذه الدقيقة ، ويستفاد من الآيات القرآنية والاحاديث الشريفة للمعصومين عليهم السلام آداب كثيرة وتعدادها يحتاج الى الفحص الكامل واطالة الكلام ونحن نكتفي بذكر بعضها ، فمن مهمّات آداب الاستعاذة الخلوص كما نقله سبحانه عن الشيطان انه قال : « فبعزّتك لاغوينّهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين »[٢] وهذا الاخلاص كما يظهر من الكريمة الشريفة أعلى من الاخلاص العملي وأعم من العمل الجوانحي أو العمل الجوارحي لان المخلص بصيغة المفعول ، ولو كان المنظور هو الاخلاص العملي لكان التعبير بصيغة الفاعل ، فالمقصود من هذا الاخلاص هو خلوص الهوية الانسانية بجميع شؤونها الغيبية والظاهرية والاخلاص العملي من رشحاته ، وهذه الحقيقة واللطيفة الالهية وان كانت لا تحصل للعامة في ابتداء السلوك الا بالرياضات العملية الشديدة وخصوصا الرياضات القلبية التي هي أصلها كما أشير اليه في الحديث المشهور : « من أخلص لله أربعين صباحا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » فمن أخلص أربعين صباحا (بمقدار تخمير طينة آدم ، وكان أربعين صباحا ، والربط بينهما معلوم عند أهل المعرفة

وأصحاب القلوب) نفسه لله وأخلص أعماله القلبية والقالبية للحق تعالى ويكون قلبه الهيا ولا ينفجر من القلب الالهي سوى عيون الحكمة ، فيكون لسانه الذي هو أكبر ترجمان للقلب ناطقا بالحكمة .

ففي أول الامر يكون اخلاص العمل موجبا لخلوص القلب فاذا صار القلب خالصا تظهر على مرآة القلب أنوار الجلال والجمال التي أودعت بالتخمير الالهي من طينة آدم وتتجلى وتسري من باطن القلب الى ظاهر ملك البدن .

وبالجملة ، الخلوص الذي يوجب الخروج من تحت السلطنة الشيطانية هو خلوص هوية الروح وباطن القلب لله تعالى ، والى هذا الخلوص يشير أمير المؤمنين سلام الله عليه في المناجاة الشعبانية : إلهي هب لي كمال الانقطاع اليك .. فاذا وصل القلب الى هذه المرتبة من الاخلاص ينقطع بالكلية عما سوى الله ولا يتطرق في مملكة وجوده غير طريق الحق ويقبله الحق تعالى في معاذه ويقع في الحصن الحصين للالوهية ، كما قال تعالى في الحديث القدسي : كلمة لا اله الا الله حصني فمن دخل في حصني أمن من عذابي .. وللدخول في حصن لا اله الا الله مراتب كما أن للامن من العذاب ايضا مراتب ، فمن وقع بباطنه وظاهره وقلبه وقالبه في حصن الحق وصار في معاذه فقد أمن من جميع مراتب العذاب ، وأعلى مراتبها عذاب الاحتجاب عن جمال الحق والفراق عن وصال المحبوب جلّ جلاله فمن حصل له هذا المقام فهو عبد الله على الحقيقة ويقع تحت قباب الربوبية ويكون الحق تعالى متصرفا في مملكته ويخرج عن تحت ولاية الطاغوت . وهذا المقام من أعز مقامات الاولياء وأخص مدارج الاصفياء وليس لسائر الناس منه حظ ، بل لعل القلوب القاسية للجاحدين والنفوس الصلبة للمجادلين

البعيدة عن هذه المرحلة بمراحل تنكر هذه المقامات ،ويحسبون الكلام في أطرافها باطل بل ينسبون والعياذ بالله هذه الامور التي هي قرّة عين الاولياء والكتاب والسنة مشحونة بها الى المنسوجاتُ للصوفية والاراجيف للحشوية .

ونحن ايضا ان تذكرنا هذه المقامات التي هي في الحقيقة مقام الكمّل فليس من جهة أن لنا فيها حظا أو أن نمدّ اليها عين الطمع ، بل من جهة أننا لا نجوّز انكار المقامات ونرى ذكر الاولياء ومقاماتهم دخيلا في تصفية القلوب وتخليصها وتعميرها لان ذكر الخير بالنسبة الى اصحاب الولاية والمعرفة يوجب المحبة والتواصل والتناسب ، وهذا التناسب يوجب التجاذب وبهذا التجاذب يسبّب التشافع الذي ظاهره الاخراج من ظلمات الجهل الى أنوار الهداية والعلم وباطنه الظهور بالشفاعة في العالم الاخرة لان شفاعة الشافعين لا تكون من دون تناسب وتجاذب باطني ولا تكون عن جزاف وباطل .

وبالجملة ، التخليص بهذه المرتبة الكاملة وان كان لا يتيسّر لغير الكمّل من الاولياء والاصفياء عليهم الصلاة والسلام بل المقام الكامل لهذه المرتبة من مختصات النبي الخاتم والقلب الخالص النوراني الاحدي الاحمدي الجمعي المحمّدي صلى الله عليه وآله وسلم بالاصالة وللكمّل والخلّص من أهل بيته بالتبعية ، ولكن لا يجوز للمؤمنين والمخلصين أيضا أن يغضّوا النظر عن جميع مراتبه ويقنعوا بالاخلاص الصوري العملي والخلوص الظاهري الفقهي لان الوقوف في المنازل من الاعمال والافكار العبقرية لابليس ، فهو قاعد على سبيل الانسان والانسانية ويمنعه بأية وسيلة كانت عن العروج الى الكمالات والوصول الى المدارج فلا بدّ من علوّ الهمة وتقوية الارادة ، فلعل هذا النور الالهي واللطيفة الربانية تسري من الصورة الى الباطن ومن الملك الى

الملكوت والانسان اذا نال اي مرتبة من الاخلاص يكون بمقدارها في لواذ الحق وتتحقق حقيقة الاستعاذة وتقصر يد تصرّف العفريت الخبيث والشيطان عن الانسان ، فأنت اذا أخلصت الصورة الملكية الانسانية لله وجعلت الجيوش الظاهرة الدنيوية للنفس التي هي عبارة عن القوى المتشتتة في ملك البدن في ملاذ الحق وطهّرت الاقاليم السبعة الارضية اي البصر والسمع واللسان والبطن والفرج واليد والرجل من قذارات المعاصي وجعلتها تحت تصرّف ملائكة الله الجيوش الالهية فتصير بالتدريج هذه الاقاليم حقانية وتتصرّف بتصرف الحق الى أن يكون هو نفسه ايضا من ملائكة الله أو مثل ملائكة الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فتحصل المرتبة الاولى من الاستعاذة ويرحل الشيطان وجيوشه عن المملكة ويتوجّهون الى الباطن ويهجمون على القوى الملكوتية النفسانية ، فمن هذه الجهة يصير أمر السالك أصعب وسلوكه أدق ولا بد له أن يكون قدم سيره أقوى ومراقبته أكمل ويستعيذ بالله المتعال من المهالك النفسانية من العجب والرياء والكبر والخيلاء وغيرها ، ويشتغل بالتدريج بتصفية الباطن عن الكدورات المعنوية والقذارات الباطنية ، ومن مهمات هذا المقام بل جميع المقامات ، ومن مهمّات السلوك وأركان العروج التوجّه التام الى التوحيد الحق الفعلي وتذكير القلب بهذه اللطيفة الالهية والمائدة السماوية ، واذاقة القلب حقيقة مالكية الحق تعالى للسموات والارض والباطن والظاهر والملك والملكوت حتى يرتاض القلب بالتوحيد في الالهية ونفي الشريك في التصرف ويخمّر بالتخمير الالهي ويربّي بتربية التوحيدي ، فلا يرى القلب ولا يعلم في هذه الحالة مفزعا ولا ملجأً ولا ملاذا ولا معينا سوى الحق ، ويستعيذ بالحق ومقام الالوهية بالطوع والحقيقة ، وما لم يقطع القلب عن تصرّف سائر الخلق ولم يغمض عين

الطمع عن الموجودات لا يلوذ بالله على الحقيقة وتكون دعواه كاذبة وينسلك في مسلك أهل المعرفة في زمرة المنافقين وينسب الى الخدعة والتغرير وفي هذا الوادي المهيب والبحر العميق الخطير استفادة التوحيدات الثلاثة استفادة علمية من نفخة حكيم رباني أو عارف نوراني يعين باطن القلب اعانة لائقة ، ولكن شرط هذه الاستفادة أن يشتغل بها بنظر الآية والعلامة والسير والسلوك الى الله ولا تكون نفس هذه الاستفادة شوكا للطريق وحجابا لرؤية جمال المحبوب كما لقّب رسول الله صلى الله عليه وآله هذا العلم في الحديث الشريف للكافي : « آية محكمة » .

وبالجملة ، اذا استحكم في القلب أصل التوحيد الفعلي للحق وسقي بماء العلم التوأم بالعمل اللطيف الذي يقرع باب القلب تكون نتيجته تذكر مقام الالوهية ويصفى القلب بالتدريج للتجلي الفعلي للحق . فاذا خلت الدار من الغدّار والعش من الغش يتصرف في البيت صاحبه وتأخذ يد ولاية الحق القوى الملكوتية والملكية من ملكوت الباطن والقلب الى الملك وظاهر البدن تحت تصرفه وحكومته وترتحل الشياطين أجمع من هذه المرحلة أيضا وترجع المملكة الباطنية الى استقلاله الذي هو عين الاستظلال للحق ، وهذه المرتبة الثانية (من اللطيفة الربانية للاستعاذة) . وبعد هذا المقام هو استعاذة الروح واستعاذة السر وسائر مراتب الاستعاذة لا تناسب هذه الاوراق ، وهذا المقدار ايضا ظهر في صورة الترقيم من طغيان القلم أو من جراء قلم المولى جلّ وعلا وإليه المفزع .

ومن الآداب والشرائط الاستعاذة التي أشير اليها في الآية الشريفة التي ذكرناها في أول الفصل الايمان وهو غير العلم ، حتى العلم الذي

حصل بالبرهان الحكمي ، فان الشيطان مع أن له العلم بالمبدأ والمعاد بنصّ القرآن محسوب في زمرة الكفّار ، فلو كان الايمان عبارة عن هذا العلم البرهاني يلزم أن يكون الواجدون لهذا العلم بعيدين عن تصرّف الشيطان ويتلألأ فيهم نور هداية القرآن ، مع أننا نرى أن هذه الاثار لا تحصل بالايمان البرهاني فان اردنا أن نخرج من تصرّف الشيطان ونقع تحت عوذة الحق لا بد وأن نوصل الحقائق الايمانية الى القلب بالارتياض القلبي الشديد ودوام التوجّه أو كثرته وشدّة المراودة والخلوة فاذا صار القلب إلهياً يخلو من تصرّف الشيطان كما قال الله تعالى : « الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور »[4] . فالمؤمنون الذين يتصرف ويتولىّ الحق تعالى في ظاهرهم وباطنهم وسرّهم وعلانيتهم خالصون من تصرّفات الشيطان وداخلون في سلطان الرحمن ، ويخرجهم من جميع مراتب الظلمات الى النور المطلق فينتقلون من ظلمة المعصية والطغيان ومن ظلمة كدورات الاخلاق الرذيلة وظلمة الجهل والكفر والشرك ورؤية النفس وحب النفس والعجب الى نور الطاعة والعبادة وأنوار الاخلاق الفاضلة ونور العلم وكمال الايمان والتوحيد ورؤية الله وطلب الله وحب الله .

كما أن من آداب الاستعاذة التوكل ، وهو ايضا من شعب الايمان ومن الانوار الحقيقية للّطيفة الايمانية وهو تفويض الامور الى الحق الذي يحصل من ايمان القلب بالتوحيد الفعلي وتفصيله خارج عن نطاق هذه الأوراق .

فاذا لم ير العبد السالك مفزعا وملاذا غير الحق تعالى وعلم أن التصرّف في الامور منحصر في الذات المقدسة تحصل في القلب حالة الانقطاع والالتجاء والتوكل وتصير استعاذته حقيقية ، فاذا لجأ بالحقيقة الى

حصن الربوبية والالوهية الحصين فيأخذه لا محالة في كنف ظلّه ورحمته الكريمة انه ذو فضل عظيم .

تتميم ونتيجة : قد علم من مطالب الفصل السابق ان حقيقة الاستعاذة عبارة عن حالة وكيفية نفسانية تحصل من العلم الكامل البرهاني بمقام التوحيد الحق الفعلي والايمان به بمعنى أنه بعدما فهم من طريق العقل المنور بالبرهان المتين الحكمي والشواهد النقلية المستفادة من النصوص القرآنية واشارات الكتاب الالهي والاحاديث الشريفة وبدائعها ان السلطنة الايجادية والاستقلال في التأثير بل أصل التأثير منحصرة بالذات الالهية المقدسة وليس لسائر الموجودات فيها شركة ، كما قرّر في محله لابد له من تنبيه القلب بها وأن يكتب بقلم العقل على لوحة القلب حقيقة لا اله الا الله ولا مؤثّر في الوجود الا الله فاذا آمن القلب بهذه اللطيفة الايمانية والحقيقة البرهانية تحصل حالة انقطاع والتجاء . واذا وجد الشيطان قاطع طريق الانسانية والعدو القوى لنفسه تحصل له حالة الاضطرار وهذه الحالة القلبية هي حقيقة الاستعاذة ، وحيث أن اللسان ترجمان القلب يظهر بلسانه تلك الحالة القلبية مع كمال الاضطرار والاحتياج ويقول على الحقيقة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، واذا لم يكن في القلب اثر من هذه الحقائق ويكون المتصرف في القلب وسائر المملكة الوجودية هو الشيطان وتكون استعاذته ايضا بتصرف الشيطان وتدبيره ، وفي التلفّظ يقول بالاستعاذة بالله من الشيطان ولكن في الحقيقة حيث أن التصرف شيطاني تقع الاستعاذة بالشيطان من الله تعالى وتحقق نفس الاستعاذة عكس المطلوب ويستهزىء الشيطان بقائلها وتتبين نتيجة هذه السخرية بعد كشف الغطاء وانطواء

حجاب الطبيعة ومثل هذا الشخص الذي استعاذته لفظية فقط كمثل من يريد أن يستعيذ من شرّ العدوّ الجرّار الى حصن منيع ولكن يمشي هو نفسه نحو العدوّ ويولّي الوجه عن الحصن ويقول لفظاً إنّي أعوذ من شرّ هذا العدو بهذا الحصن . هذا الشخص مضافا الى أنه يبتلي بشر العدو يكون سخرية له ايضا .

المراجع والحواشي

١ ــ (النحل ــ ٩٨ ــ ٩٩ ــ ١٠٠)
٢ ــ (الاعراف ــ ١٦)
٣ ــ (ص ــ ٨٢ ــ ٨٣)
٤ ــ (البقرة ــ ٢٥٧)

الفصل الثالث

في أركان الاستعاذة

وهي أربعة :

الاول : المستعيذ . الثاني : المستعاذ . الثالث : المستعاذ به . الرابع : المستعاذ لأجله .

اعلم أن لهذه الاركان تفصيلات كثيرة خارجة عن مجال هذه الاوراق ونحن نكتفي بذكر مختصر منها .

الركن الاول في المستعيذ :

وهو الحقيقة الانسانية من أول منزل السلوك الى الله الى منتهى النهاية للفناء الذاتي ، واذا تم الفناء المطلق هلك الشيطان وتمت الاستعاذة. وتفصيل هذا الاجمال ان الانسان ما دام مقيما في بيت النفس والطبيعة ولم يشتغل بالسفر الروحاني والسلوك الى الله وهو تحت السلطنة الشيطانية بجميع شؤونها ومراتبها لم يتلبس بحقيقة الاستعاذة وقلقلة اللسان بلا فائدة بل هي تثبيت وتحكيم للسلطنة الشيطانية الا بالتفضل والعناية الالهية ، فاذا تلبس بالسير والسلوك الى الله وشرع في السفر الروحاني. فما دام هو في السير والسلوك فكل ما كان مانعا له من هذا السفر وشوكا في طريقه فهو شيطان سواء أكان من القوى الروحانية الشيطانية أم من الجن والانس لان الجن والانس ايضا اذا كانت شوكة الطريق ومانعة السلوك الى الله فبتأييد

الشيطان وتصرفه كما أشار اليه سبحانه وتعالى في سورة الناس المباركة حيث يقول : « من شرّ الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس »[1] فالشيطان ان كان جنّا فيستفاد من الآية الشريفة ان الوسواس الخنّاس الذي هو الشيطان جنّ وانس احدهما بالاصالة والاخر بالتبعية ، وان كان الشيطان حقيقة أخرى شبيهة للجنة فيعلم من الآية الشريفة أن هذين النوعين يعني الجن والانس ايضا تمثّلات شيطانية ومظاهره ، وقد اشار الى هذا المعنى في آية أخرى ايضا حيث يقول : « شياطين الانس والجن »[2] وقد اشار سبحانه في هذه السورة المباركة الى الاركان الاربعة المذكورة كما هو ظاهر .

وبالجملة الانسان قبل شروعه في السلوك الى الله ليس مستعيذا وبعد تمام سيره ، وبعد أن لم يبق من آثار العبودية شيء ونال الفناء الذاتي المطلق فلا يبقى اثر من الاستعادة والمستعاذ منه والمستعيذ ولا يكون في قلب العارف شيء سوى الحق والسلطنة الالهية ، وليس له خبر من قلبه ولا من نفسه ايضا ، وأعوذ بك منك ايضا ليس في هذا المقام فاذا أتاه الصحو والانس والرجوع تكون للاستعاذة حقيقة أيضا ولكن لا كاستعاذة السالك . ولهذا أمر الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله أيضا بالاستعاذة كما قال الله تعالى : « قل أعوذ بربّ الفلق »[3] و « قل أعوذ بربّ الناس »[4] . و« قل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك ربّ أن يحضرون »[5] . فالانسان ليس مستعيذا في مقامين أحدهما قبل السلوك وهو حالة الاحتجاب المحض تحت تصرف الشيطان وسلطنته . والاخر بعد ختم السلوك وحصول الفناء المطلق ، لانه لا يكون ثمة خبر من المستعيذ والمستعاذ له والاستعاذة .

والانسان مستعيذ في مقامين أحدهما حال السلوك الى الله ، وهو يستعيذ من أشواك الوصول التي قعدت على الصراط المستقيم للانسانية كما حكى سبحانه من قول الشيطان : « فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم »[٦] والاخر في حال الصحو والرجوع من الفناء المطلق ، فهو إذاً يستعيذ من الاحتجابات التلوينية وغيرها .

الركن الثاني في المستعاذ منه :

وهو ابليس والشيطان الرجيم الذي يمنع الانسان بحبائله المتنوعة من الوصول الى المقصد ، وحصول المقصد وما ذكره بعض أعاظم أهل المعرفة من أن حقيقة الشيطان عبارة عن جميع العالم بجنبته السوائية فليس بتام لدى الكاتب لان الجنبة السوائية التي هي عبارة عن الصورة الموهومة العارية عن الحقيقة الخالية عن التحقق والواقعية من حبائل ابليس التي يشغل الانسان بها ، ولعله الى ذلك أشير في قوله تعالى : « ألهٰكم التكاثر حتى زرتم المقابر »[٧] . والا فنفس ابليس هي حقيقة ذات تجرّد مثالي وذات حقيّقة ابليسية كلّية ، هي رئيس الابالسة وابليس الكل ايضا ، كما أن الحقيقة العقلية المجرّدة الكلية وهي آدم الاول هي عقل الكل . وان القوى الواهمة الجزئية الملكية من مظاهر ابليس وشؤونه ، كما أن العقول الجزئية شؤون العقل الكلّي ومظاهره . وتفصيل هذا المقام وتحقيقه خارج عن مجال هذه الرسالة .

وبالجملة ، ما كان في هذا السلوك الالهي والسير الى الله مانعا من السير وشوكا في الطريق فهو الشيطان أو مظاهره التي أعمالها ايضا عمل الشيطان ، وما كان من عوالم الغيب والشهود والعوارض الحاصلة للنفس

وحالاتها المختلفة حجابا لجمال المحبوب سواء أكان من العوالم الملكية الدنيوية كالفقر والغنى والصحة والمرض والقدرة والعجز والعلم والجهل والآفات والعاهات وغيرها ، أو كان من العوالم الغيبية التجردية والمثالية كالجنة وجهنم ، والعلم المتعلق بها حتى العلوم العقلية البرهانية الراجعة الى توحيد الحق وتقديسه كل ذلك من حبائل ابليس التي تمنع الانسان عن الحق والانس به والخلوة معه وتشغله بذلك حتى الاشتغال بالمقامات المعنوية والوقوف في المدارج الروحانية الذي ظاهره الوقوف في الصراط الانساني وباطنه الوقوف في صراط الحق الذي هو جسر روحاني لجنهم الفراق والبعد وينتهي الى جنة اللقاء . وهذا الجسر مخصوص لطائفة قليلة من أهل المعرفة وأصحاب القلوب ، وهذا الاشتغال من الحبائل العظيمة لابليس الابالسة ولابد من الاستعاذة منه الى ذات الحق المقدسة جلّ شأنه .

وبالجملة ، ما منعك عن الحق وحجبك عن جمال المحبوب الجميل فهو شيطانك سواء أكان في صورة الانسان أو الجن ، وكل ما يمنعك به الشياطين عن هذا المقصد والمقصود فهو حبائل الشيطان سواء كان من سنخ المقامات والمدارج او العلوم والكمالات أو الحرف والصنائع أو العيش والراحة او المشقة والذلّة او غيرها ، وهذه عبارة عن الدنيا المذمومة وحبائل الشيطان ولابد من الاستعاذة منها . وما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه كان يقول : « أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التي لا يجاوزهنّ بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها وشر ما ينزل من الارض وما يخرج منها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر طوارق الليل والنهار الا طارقا يطرق بخير » فلعل المقصود منه هذا المعنى والاستعاذة بوجه الله وبكلمات الله هي الاستغراق في بحر الجمال والجلال ، وما منع الانسان منه

فهو من الشرور ومرتبط بعالم الشيطان ومكائده ولا بدّ من الاستعاذة منه بوجه الله سواء أكان من الحقائق الكاملة السماوية أو الناقصة الارضية الا أن يكون طارقا بخير وهو الطارق الالهي الذي يدعو الى الحق تعالى .

الركن الثالث : في المستعاذ به :

اعلم أن حقيقة الاستعاذة حيث أنها متحققة في السالك الى الله ومتحصلة في السير والسلوك الى الحق ، بمعنى ان الاستعاذة تختص بالسالك في مراتب السلوك فتختلف الاستعاذة والمستعيذ والمستعاذ منه والمستعاذ به على حسب مقامات السائرين ومدارجهم ومنازل سالكي الحقيقة ، ويمكن أن تكون اشارة الى ذلك السالك السورة الشريفة الناس حيث يقول تعالى : « قل أعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس »[٨] فيستعيذ السالك بمقام الربوبية من مبادىء السلوك الى حدود مقام القلب ، ويمكن أن تكون هذه الربوبيّة ، الربوبية الفعلية فتطابق أعوذ بكلمات الله التامات ، فاذا انتهى سير السالك الى مقام القلب فيظهر في القلب مقام السلطنة الالهية فيستعيذ في هذا المقام بمقام ملك الناس من شر تصرفات ابليس القلبية وسلطنته الباطنية الجائرة ، كما يستعيذ في المقام الاول من شر تصرفاته الصدرية ، ولعل ما قاله تعالى « الذي يوسوس في صدور الناس »[٩] . مع أن الوسوسة في القلوب والارواح أيضا من الخناس لان الانسب في مقام التعريف أن يكون التعريف بالشأن العمومي والصفة الظاهرة عند الكل .

فاذا تجاوز السالك عن مقام القلب أيضا الى مقام الروح الذي هو من النفخة الالهية واتصاله بالحق أشدّ من اتصال شعاع الشمس بالشمس فيشرع في هذا المقام مبادىء الحيرة والهيمان والجذبة والعشق والشوق ،

فيستعيذ في هذا المقام بإله الناس ، فاذا ترقى من هذا المقام وتكون الذات بلا مرآة الشؤون نصب عينه ، وبعبارة أخرى يصل الى مقام السر ، فالمناسب له أعوذ بك منك ، وفي هذه المقامات تفصيل لا يناسب هذه المقالة .

واعلم أن الاستعاذة باسم الله لجامعيته تناسب جميع المقامات وهي في الحقيقة الاستعاذة المطلقة ، وسائر الاستعاذات استعاذات مقيّدة .

الركن الرابع : في المستعاذ له ، يعني غاية الاستعاذة :

اعلم أن ما هو المطلوب بالذات للانسان المستعيذ فهو من نوع الكمال والسعادة والخير ، ويتفاوت ذلك على حسب مراتب السالكين ومقاماتهم تفاوتا كثيرا . فالسالك ما دام في بيت النفس وحجاب الطبيعة تكون غاية سيره حصول الكمالات النفسانية والسعادات الخسيسة الطبيعية وهذا في مبادىء السلوك ، فاذا خرج من بيت النفس وذاق شيئا من المقامات الروحانية والكمالات التجردية فيصير مقصده أعلى ومقصوده أكمل فيلقي المقامات النفسانية وراء ظهره وتكون قبلة مقصوده حصول الكمالات القلبية والسعادات الباطنية فاذا ألفت عنان السير عن هذا المقام ايضا ووصل الى منزل السر الروحي فتبرز في باطنه مبادىء التجليات الالهية ويكون لسان روحه في بادىء الامر وجّهت وجهي لوجه الله ثم بعد ذلك وجهت وجهي لاسماء الله أو لله ثم بعد ذلك وجهت وجهي له ، ولعل الجهة في وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض راجعة الى المقام الاول بمناسبة الفاطرية .

وبالجملة ، فالسالك غايته الحقيقية في كل مقام حصول الكمال

والسعادة بالذات ، وحيث أن مع السعادات والكمالات في كل مقام شيطانها هو لها قرين وحبالة من حبائله مانعة للحصول فلا بد للسالك أن يستعيذ بالحق تعالى من ذلك الشيطان وشروره وحبائله للوصول الى المقصود الاصلي والمنظور الذاتي ، ففي الحقيقة غاية الاستعاذة للسالك حصول ذلك الكمال المترقب والسعادة المطلوبة والحق تعالى جلت عظمته غاية الغايات ومنتهى الطلبات ، والاستعاذة من الشيطان تقع بالتبع . والحمد لله أولا وآخرا .

المراجع والحواشي

١ ــ (الناس ــ ٤ ــ ٥ ــ ٦)

٢ ــ (الأنعام ــ ١١٢)

٣ ــ (الفلق ــ ١)

٤ ــ (الناس ــ ١)

٥ ــ (المؤمنون ــ ٩٧ ــ ٩٨)

٦ ــ (الأعراف ــ ١٦)

٧ ــ (التكاثر ــ ١ ــ ٢)

٨ ــ (الناس ــ ١ ــ ٣)

٩ ــ (الناس ــ ٤)

الفصل الرابع

في بعض آداب التسمية

روي في التوحيد عن الرضا[1] عليه السلام حين سئـل عن تفسير البسملة : « معنى قول القائل بسم الله اي اسم على نفسي سمة من سمات الله ، وهي العبادة . قال الراوي : فقلت : ما السمة ؟ قال : العلامة » .

اعلم جعلنا الله واياك من المتّسمين بسمات الله أن الدخول في منزل التسمية لا يتيسر للسالك الا بعد الدخول في منزل الاستعاذة واستيفاء حظوظ ذاك المنزل ، فما دام الانسان في تصرّف الشيطان ومقهوراً تحت سلطنته فهو متّسم بالسمات الشيطانية ، واذا غلب على باطنه وظاهره غلبة تامة يصير هو بجميع مراتبه آية وعلامة له ، واذا اتى بالتسمية في هذا المقام فيقولها بالارادة الشيطانية والقوة الشيطانية واللسان الشيطاني ولا يحصل من استعاذته وتسميته سوى تأكيد السلطنة الشيطانية فان أفاق بتوفيق الله من نوم الغفلة ووجدت له حالة اليقظة وأحسّ لزوم السير والسلوك الى الله بنور الفطرة الالهية وأنوار التعليمات القرآنية وسنن الهداة الى طريق التوحيد في منزل اليقظة وأدرك القلب موانع السير فتحصل له حالة الاستعاذة بالتدريج وبعد ذلك يدخل منزل الاستعاذة بالتوفيق الرباني فاذا تطهّر من القذارات

الشيطانية فيتجلى في مرآة السالك من تلك الانوار الالهية على حسب ما يناسبه بمقدار تطهيره الباطن والظاهر وفي أول الامر تكون الانوار مشوبة بالظلمات بل تكون الظلمة غالبة ، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . وبالتدريج فكلما قوي السلوك ، فبمقدار قوة السلوك يغلب النور على الظلمة وتظهر سمات الربوبية في السالك فتصير تسميته حقيقية الى حد ما ، والعلامات الشيطانية وهي في الظاهر المخالفة لنظام المدينة الفاضلة ، وفي الباطن العجب والاستكبار وأمثالهما ، وفي باطن الباطن رؤية النفس وحبها وأمثالهما ترتحل بالتدريج عن مملكة باطن السالك وظاهره وتسكن في مكانها سمات الله وهي في الظاهر حفظ نظام المدينة الفاضلة وفي الباطن العبودية وذلة النفس وفي باطن الباطن حب الله ورؤية الله ، فاذا صارت المملكة الهية وخلت من شياطين الجن والانس وظهرت فيها السمات الالهية يتحقق السالك بنفسه بمقام الاسمية ، فأول تسمية السالك عبارة عن الاتصاف بالسمات الالهية وعلاماتها ثم يترقى عن هذه المرتبة ويصل بنفسه مقام الاسمية ، وهذا أوائل قرب النافلة ، فاذا تحقق بقرب النافلة نال تمام الاسمية فلا يبقى بعد شيء من العبد والعبودية ، واذا وصل احد الى هذا المقام تقع جميع صلاته بلسان الله وهذا يتحقق في القليل من الاولياء ، وأما للمتوسطين أمثالنا الناقصين فالادب ان نسمَ القلب بسمة العبودية وكيّها عند التسمية ونعلن القلب من سمات الله والعلامات الالهية والا نكتفي بلقلقة اللسان ، فلعل من العنايات الازلية نبذة تشمل حالنا وتجبر ما سبق منا وينفتح لقلوبنا طريق الى تعلّم الاسماء ويحصل سبيل الى المقصود .

ويمكن أن يكون المقصود من السمة من سمات الله في هذا الحديث الشريف سمة الرحمة الرحمانية والرحمة الرحيمية وعلامتها لان هذين الاسمين

الشريفين من الاسماء المحيطة التي وصلت جميع دار التحقق في ظلّ هذين الاسمين الشريفين الى أصل الوجود وكماله ، ويستمر هذا الوصول ، والرحمة الرحمانية والرحيمية شاملة لجميع دار الوجود ، حتى ان الرحمة الرحيمية التي جميع هدايات الهادين الى طريق التوحيد من تجلياتها تشمل الجميع الا ان الخارجين عن فطرة الاستقامة بسوء اختيارهم ، حرموا أنفسهم منها لان الرحمة غير شاملة لحالهم حتى أنه في عالم الاخرة وهي يوم حصاد ما زرع من الحسنة والسيئة فالذين زرعوا السيئة فهم بأنفسهم قاصرون عن الاستفادة من الرحمة الرحيمية .

وبالجملة ، اذا أراد السالك ان تكون تسميته حقيقيّة فلا بد له أن يوصل مراحم الحق تعالى الى قلبه ويتحقق بالرحمة الرحمانية والرحيمية ، وعلامة حصول نموذج منها في القلب انه ينظر الى عباد الله بنظر العناية والتلطف ويطلب الخير والصلاح للجميع وهذا هو نظر الانبياء العظام والاولياء الكمل عليهم السلام ، غاية الامر أن لهم نظرين أحدهما النظر الى سعادة المجتمع ونظام العائلة والمدينة الفاضلة ، والاخر النظر الشخصي ، ولهم علاقة كاملة بهاتين السعادتين والقوانين الالهية التي تؤسس وتنفّذ وتكشف وتجري بأيديهم ، يراعون فيها هاتين السعادتين حتى اجراء القصاص والحدود والتعزيرات وأمثالها والتي تبدو في النظر انها أسّست وتقنّنت مع لحاظهم نظام المدينة الفاضلة ، قد لوحظ فيها كلتا السعادتين لان لهذه الامور دخالة كاملة في التربية الروحية في الاكثر وايصالهم الى السعادة حتى الذين ليس لهم نور الايمان والسعادة فيقتلونهم بالجهاد وأمثاله كيهود بني قريظة ، فهذا القتل لهم أيضا صلاح واصلاح ويمكن أن يقال أن قتلهم كان من الرحمة الكاملة للنبي الخاتم لانهم مع وجودهم في هذا العالم

يهيّئون لانفسهم في كل يوم أنواع العذاب الذي لا يقابل يوما من عذاب الآخرة وعسرها جميع مدة الحياة في هذا العالم ، وهذا المطلب واضح جدا عند أولئك الذين يعلمون ميزان عذاب الاخرة وعقابها والاسباب والمسببات فيها ، فالسيف الذي يضرب أعناق بني قريظة يهود وأمثالهم كان أقرب الى أفق الرحمة ، والآن هو ايضا اقرب منه الى أفق الغضب والسخط .

وباب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من وجهة الرحمة الرحيمية فلابد للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ان يذيق قلبه من الرحمة الرحيمية ولا يكون نظره في الامر والنهي اراءة نفسه والتكبّر وفرض أمره ونهيه لانه ان مشى بهذا النظر لا يحصل المنظور من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو حصول سعادة العباد واجراء أحكام الله في البلاد ، بل ربما تحصل النتيجة المعكوسة من الامر بالمعروف ومن انسان جاهل ، وتزداد عدة منكرات لاجل أمر أو نهي من جاهل يقع من جهة الهوى النفسي والتصرف الشيطاني ، واما اذا كانت دواعي الانسان لارشاد الجاهلين وايقاظ الغافلين حس الرحمة والشفقة وحق النوعية والاخوة تكون كيفية البيان والارشاد المترشحة من القلب الرحيم على نحو يؤثر في الموارد اللائقة تأثيرا حسنا وتنزل القلوب الصلبة القاسية عن استكبارها واستنكارها .

يا للاسف ، اننا لا نتعلم من القرآن ، وليس نظرنا الى هذا الكتاب الكريم الالهي نظر التدبر والتعلم ، واستفادتنا من هذا الذكر الحكيم قليلة وضئيلة ، ففكر الان في الاية الشريفة : « اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا ليّنا لعلّه يتذكر أو يخشى »[٢] ينفتح لك طرق من المعرفة ويفتح على قلب الانسان ابواب من الرجاء .

ان فرعون الذي قد بلغ من الطغيان الى حد أنه قال : « أنا ربكم

الاعلى »[٣] وبلغ علوه وفساده الى درجة نزلت فيه « يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم »[٤] وبمجرد أنه رأى مناما وأخبرته الكهنة والسحرة أن موسى بن عمران سيطلع فرّق بين الرجال والنساء ، وذبح الاطفال الابرياء وأفسد ذلك الفساد ، فان الله الرحمن نظر برحمته الرحيمية على جميع وجه الارض فانتخب من نوع البشر اشدّهم تواضعا وأكملهم ، ونبيّا عظيم الشأن ورسولا عالي المقام المكرم كموسى بن عمران على نبيّنا وآله وعليه السلام وعلّمه وربّاه بيده التربوية كما قال تعالى : « ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين »[٥] وشدّد ظهره بأخ كريم مثل هارون عليه السلام ، وانتخب تبارك وتعالى هاتين الزبدتين في العالم الانساني كما قال تعالى : « وأنا اخترتك »[٦] . وقال تعالى : « ولتصنع على عيني »[٧] . وقال تعالى : « واصطنعتك لنفسي اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري »[٨] . وسائر الآيات الشريفة الواردة في هذا الموضوع الخارجة عن مجال البيان ، وللقلب منها نصيب لا يمكن أن يقال وخصوصا من هاتين الكلمتين الشريفتين ولتصنع على عيني .. واصطنعتك لنفسي .. وأنت ايضا لو فتحت عين قلبك لتسمع نغمة روحانية لطيفة تمتلىء جميع مسامع قلبك وشراشر وجودك من سرّ التوحيد .

وبالجملة ، ان الله تبارك وتعالى بعد هذه التشريفات هيّأ التهيّئات وروّض موسى الكليم بالرياضات الروحانية كما قال تعالى : « وفتنّاك فتونا »[٩] . وارسله سنين في خدمة شعيب شيخ طريق الهداية والمرتاض في عالم الانسانية ، كما قال تعالى : « فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى »[١٠] ثم بعثه للاختبار والافتتان الاعلى الى واد ، في طريق الشام وأضلّه الطريق وأمطر عليه المطر وغلب عليه الظلمة وعرّض زوجته

للمخاض ، فاذا أغلقت عليه جميع ابواب الطبيعة وانضجر قلبه عن الكثرات وانقطع الى الحق بجبلة الفطرة الصافية وانتهى السفر الروحاني الالهي في ذلك الوادي الظلماني غير المتناهي ، آنس من جانب الطور نارا الى أن قال : « فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الايمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى اني أنا الله رب العالمين »[11] ، وبعد هذه الامتحانات الكثيرة والتربية الروحانية المتكثرة هيّأه سبحانه لماذا ؟ لان يدعو ويهدي ويرشد وينجي عبدا طاغيا ، باغيا ، يضرب طبل أنا ربكم الاعلى .. وأفسد في الارض ذلك الفساد الكبير . وكان في امكانه تعالى أن يحرقه بصاعقة غضبه ولكن الرحمة الرحيمية ترسل اليه رسولين عظيمين ويوصيهما في نفس الوقت أن يقولا له قولا لينا لعله يتذكر الله او يخشى من عمله وعاقبة أمره . هذا هو دستور الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هذه كيفية ارشاد مثل فرعون الطاغوت .

فاذا أردت أيضا أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وترشد خلق الله فتذكر من هذه الآيات الشريفة التي أنزلت للتذكر والتعليم وتعلّم منها ، فالق عباد الله بقلب مملوء من المحبة وفؤاد عطوف لعباد الله وكن طالبا لخيرهم من صميم القلب ، فاذا وجدت قلبك رحمانيا ورحيميا فقم بالامر والنهي والارشاد كي يلين برق عطف قلبك القلوب القاسية وتلين حديد القلوب بالموعظة الخليطة بنار المحبة ، وهذا الوادي غير وادي البغض في الله والحب في الله ولا بد للانسان أن يعادي أعداء الدين ، كما ورد في الروايات الشريفة والقرآن الكريم فهو في محله صحيح وهذا ايضا في محله صحيح وليس الان مجال بيانه .

المراجع والحواشي

١ ــ هو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام ، الامام الثامن من الائمة الاثني عشر .

٢ ــ (طه ــ ٢٤ ــ ٢٥)

٣ ــ (النازعات ــ ٣)

٤ ــ (القصص ــ ٤)

٥ ــ (القصص ــ ١٤)

٦ ــ (طه ــ ١٣)

٧ ــ (طه ــ ٣٩)

٨ ــ (طه ــ ٤١ ــ ٤٢)

٩ ــ (طه ــ ٤٠)

١٠ــ (طه ــ ٤٠) .

١١ــ (القصص ــ ٣٠) .

الفصل الخامس

في البيان الاجمالي من تفسير سورة الحمد المباركة
وفيه نبذة من آداب التحميد والقراءة

اعلم أن العلماء اختلفوا في متعلق باء بسم الله الرحمن الرحيم وذكر كل حسب مشربه من العلم والعرفان متعلقا لها كما أن علماء الادب اشتقوا من مادة الابتداء أو الاستعانة كلمة وجعلوها في التقدير وما ورد في بعض الروايات ايضا من أن بسم الله هي أستعين اما على وفق مذاق العامة كما أنه شائع في كثير من الروايات واختلاف الاحاديث الكثيرة محمول بهذا المعنى ، ولهذا قال الرضا عليه السلام في هذا ايضا : بسم الله أي اسم نفسي بسمة من سمات الله او ان المقصود من الاستعانة ألطف مما يدركه العامة .

وبعض أهل المعرفة جعله متعلقا بظهر وقال : اي ظهر الوجود باسم الله وهذا على حسب مسلك أهل المعرفة وأصحاب السلوك والعرفان حيث أنهم يرون جميع الموجودات وذرات الكائنات وعوالم الغيب والشهادة تجليا للاسم الجامع الالهي يعني الاسم الاعظم الظاهر ، فبناء على هذا فإن الاسم بمعنى الآية والعلامة أو بمعنى العلّو والارتفاع عبارة عن التجلي الفعلي الانبساطي للحق الذي يسمى الفيض المنبسط والاضافة الاشراقية لانه على حسب هذا المسلك جميع دار التحقق من العقول المجردة الى آخر مراتب

الوجود تعينات لهذا الفيض وتنزلات لهذه اللطيفة ومؤيد هذا المسلك كثير من الآيات الشريفة الالهية والاحاديث الكريمة لاهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام ، كما يقول في الحديث الشريف الكافي : « ان الله خلق المشيئة بنفسها ثم خلق الاشياء بالمشيئة » وقد يوجّه هذا الحديث الشريف كل على حسب مسلكه توجيها ، وأظهر التوجيهات ما يطابق هذا المسلك ، وهو أن يكون المراد من المشيئة المشيئة الفعليّة وهي عبارة عن الفيض المنبسط ، والمراد من الاشياء مراتب الوجود التي هي عينات هذه اللطيفة وتنزلاتها فيكون معنى الحديث هكذا .

ان الله تعالى خلق المشيئة الفعلية التي هي ظلّ المشيئة الذاتية القديمة بنفسها وبلا واسطة وخلق سائر موجودات عالم الغيب والشهادة بتبعها ، وللسيد المحقق الداماد[1] (قدس سره) مع ما له من مقام التحقيق والتدقيق توجيه عجيب للحديث المزبور ، كما أن توجيه الفيض المرحوم أيضا بعيد عن الصواب .

وبالجملة ، الاسم عبارة عن نفس التجلي الفعلي الذي به تحققت جميع دار التحقق واطلاق الاسم على الامور العينية في لسان الله ولسان رسوله وأهل بيت العصمة عليهم السلام كثير ، مثل ما ورد عنهم عليهم السلام : « نحن الاسماء الحسنى ».. وفي الادعية الشريفة : « وباسمك الذي تجليت به على فلان » كثيرة .

ويحتمل أن يكون بسم الله في كل سورة متعلقا بتلك السورة ، فمثلا بسم الله سورة الحمد المباركة متعلق بالحمد وهذا مطابق للذوق العرفاني ومسلك أهل المعرفة لانه اشارة الى أن حمد الحامدين وثناء المثنين ايضا بقيمومة اسم الله ، فبناء على هذا فالتسمية في مقدمة جميع الاقوال والافعال التي هي من جملة المستحبات للتذكّر بأن كل قول وفعل (لابد وأن يتحقق بقيمومة اسم الله ، فبناء على هذا الاحتمال معنى بسم الله الرحمن الرحيم في

أوائل السور)[٢] يختلف . وقال الفقهاء لابد وأن يتعين بسم الله الرحمن الرحيم لكل سورة فاذا قرأ بسم الله بنية سورة في الصلاة فلا يجوز ابتداء سورة اخرى بتلك التسمية ، وهذا القول على المسلك الفقهي لا يخلو من وجه ، وعلى هذا التحقيق وجيه ، وبالنظر الى اضمحلال الكثرات في حضرة اسم الله الاعظم فلبسم الله في جميع السور معنى واحد كما أن هاتين النظرتين موجودتان في مراتب الوجود ومنازل الغيب والشهود . فبنظر الكثرة ورؤية التعينات والموجودات متكثرة ومراتب الوجود وتعينات عالم الاسماء مختلفة ، فرحمانية ورحيمية وقهرية ولطفية ، وفي نظر اضمحلال الكثرات وانمحاء انوار الوجودية في النور الازلي للفيض المقدس ، فليس من سوى الفيض المقدس والاسم الجامع الالهي خبر ولا اثر ، وهذان النظران موجودان في الاسماء والصفات الالهية ايضا ، فبالنظر الاول فحضرة الواحدية مقام كثرة الاسماء والصفات وان جميع الكثرات من تلك الحضرة ، وبالنظر الثاني ليس من سوى حضرة اسم الله الاعظم اسم ولا رسم وهذان النظران حكميان وبقدم الفكر ، واما اذا كان النظر نظر العارف بفتح أبواب القلب وبقدم السلوك والرياضات القلبية فيتجلى الحق تعالى بالتجليات الفعلية والاسمية والذاتية لقلوب اصحاب التجلي تارة بنعت الكثرة وطورا بنعت الوحدة . وقد أشير الى هذه التجليات في القرآن الشريف تارة بالصراحة مثل قوله تعالى : « فلما تجلى ربّه للجبل جعله دكّا وخرّ موسى صعقا »[٣] وأخرى بالاشارة مثل مشاهدات ابراهيم ورسول الله صلى الله عليه وآله المذكورة في سورتي الانعام والنجم والاشارة الى ذلك في الاخبار وأدعية المعصومين عليهم السلام كثيرة خصوصا في دعاء السمات العظيم الشأن الذي لا يتجرأ المنكرون على انكار سنده ومتنه وهو مقبول للعامة والخاصة ، والعارف والعامّي ، وفي ذلك الدعاء الشريف من المضامين العالية والمعارف الكثيرة ما يغشي شميمه قلب العارف ونسيمه ينفخ النفخة الالهية في روع

السالك مثل قوله : « وبنور وجهك الذي تجلّيت به للجبل فجعلته دكّا وخرّ موسى صعقا وبمجدك الذي ظهر على طور سيناء فكلّمت به عبدك ورسولك موسى بن عمران عليه السلام وبطلعتك في ساعير وبظهورك في جبل فاران » .

وبالجملة ، لا بد للسالك الى الله في وقت التسمية أن يفهم قلبه أن جميع الموجودات الظاهرة والباطنة وجميع عوالم الغيب والشهادة تحت تربية أسماء الله ، بل ظاهرة بظهور اسماء الله وجميع حركاته وسكناته وجميع العالم بقيمومية اسم الله الاعظم ، فمحامده للحق وعبادته وإطاعته وتوحيده واخلاصه كل ذلك بقيمومة اسم الله ، فاذا أحكم واستقرّ هذا المقام وهذه اللطيفة الالهية في قلبه بواسطة التذكر الشديد الذي هو غاية العبادات ، كما قال تعالى في خلوة الانس ومحفل القدس لكليمه موسى بن عمران : « انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري »[4] . فجعل غاية اقامة الصلاة ذكره ، فبعد التذكر الشديد يفتح لقلب العارف طريق آخر من المعارف ويجذب الى عالم الوحدة حتى يكون لسان حاله وقلبه بالله الحمد لله وأنت كما أثنيت على نفسك وأعوذ بك منك .

هذا اجمال من سرّ تعلق باء بسم الله ، ونبذة من المعارف التي يستفاد منها .

وأما أسرار الباء ونقطة تحت الباء التي باطنها مقام الولاية العلوية ومقام جمع الجمع القرآني فيستلزم مجالا أوسع .

وأما حقيقة الاسم فان لها مقاما غيبيا وغيب الغيبي ، وسرّيا وسرّ السرّي ، ومقام ظهور وظهور الظهور ، وحيث ان الاسم علامة للحق وفان في الذات المقدسة فكل اسم يكون أقرب الى أفق الوحدة وأبعد من عالم الكثرة فهو في الاسمية أكمل ، وأتم الاسماء اسم يكون مبرأ عن الكثرات

حتى عن الكثرة العلمية وهو التجلي الغيبي الاحدي الاحمدي في حضرة الذات بمقام الفيض الاقدس ، ولعله تشير اليه كريمة أو أدنى وبعده التجلي بحضرة اسم الله الاعظم في الحضرة الواحدية ، وبعده التجلي بالفيض المقدس ، وبعده التجليات بنعت الكثرة في حضرات الاعيان الى أخيرة دار التحقّق ، وقد كتبت تفصيل هذا الاجمال في رسالتي مصباح الهداية وشرح دعاء السحر[٥] .

والله مقام الظهور بالفيض المقدس ان كان المراد بالاسم التعينات الوجودية واطلاق الله له من جهة اتحاد الظاهر والمظهر وفناء الاسم في المسمى بلا اشكال . ولعل كريمة « الله نور السموات والارض »[٦] وكريمة « هو الذي في السماء اله وفي الارض اله »[٧] تكون اشارة الى هذا المقام وشاهدا لهذا الاطلاق ، وان كان المراد من الاسم مقام التجلي بالفيض المقدس فالله مقام الواحدية وجمع الاسماء ، وبعبارة أخرى مقام الاسم الاعظم ، ولعل هذا أظهر من سائر الاحتمالات وان كان المقصود من الاسم : الاسم الاعظم ، فمقام الذات أو مقام الفيض الاقدس ويختلف مقام الرحمن الرحيم على حسب هذه الاحتمالات كما هو ظاهر .

والرحمن الرحيم يمكن أن يكونا صفتي الاسم ويمكن أن يكونا صفتي الله والانسب أن يكونا صفتي الاسم لانهما في التحميد صفتي الله فعلى هذا تكون مصونة من احتمال التكرار وان كان له توجيه حتى اذا كانا صفة لله ، وفي التكرار ايضا نكتة البلاغة وان أخذناهما صفة للاسم فيؤيد أن المراد من الاسم الاسماء العينية لان المتصف بالصفات الرحمانية والرحيمية ليس الا الاسماء العينية ، فاذا كان المراد من الاسم الاسم الذاتي والتجلي

بالمقام الجمعي فالرحمانية والرحيمية من الصفات الذاتية التي ثبتت لحضرة اسم الله في التجليات بمقام الواحدية ، والرحمة الرحمانية والرحيمية الفعلية من تنزلاتها ومظاهرها . وان كان المراد من الاسم التجلي الجمعي الفعلي وهو مقام المشيئة ، فالرحمانية والرحيمية من صفات الفعل ، فالرحمة الرحمانية هي بسط أصل الوجود وهي عامة لجميع الموجودات ولكنها من الصفات الخاصة للحق لانه ليس له شريك في بسط أصل الوجود . وسائر الموجودات قاصرة الايدي من الرحمة الايجادية ولا مؤثر في الوجود الا الله ولا اله في دار التحقق الا الله . وأما الرحمة الرحيمية وهداية هداة الطريق ايضا من رشحاتها فهي مخصوصة للسعداء والفطر التي من العلّيّين ولكنها من الصفات العامة التي لسائر الموجودات ايضا منها حظ ونصيب ، وان كنا أشرنا سابقا ان الرحمة الرحيمية ايضا من الرحمة العامة وعدم شمولها الاشقياءٔ من جهة نقصانهم لا من ناحية تحديد الرحمة ، ولهذا كانت الهداية والدعوة عامة لجميع العائلة البشرية كما يدلّ عليه القرآن الشريف ، وبنظر آخر الرحمة الرحيمية ايضا مختصة للحق تعالى وليس لغيره فيها شركة . وفي الروايات بينت الرحمة الرحيمية بما يختلف على حسب اختلاف النظر والاعتبار فتارة قالوا « ان الرحمن اسم خاص لصفة عامة ، والرحيم اسم عام لصفة خاصة » وقالوا « الرحمن بجميع خلقه والرحيم بالمؤمنين خاصة » ، وقالوا « يا رحمن الدنيا ورحيم الاخرة » ، وأخرى « يا رحمن الدنيا والاخرة ورحيمهما » .

تحقيق عرفاني : ان علماء الادب قالوا : ان الرحمن والرحيم مشتق من الرحمة وللمبالغة ولكن المبالغة في الرحمن أكثر منها في الرحيم والقياس يقتضي أن يكون الرحيم مقدما على الرحمن ولكن الرحمن حيث أنه بمنزلة

العلم الشخصي ولا يطلق على سائر الموجودات فلذا قدم وقال البعض ان كليهما بمعنى واحد، وتكرارهما لمحض التأكيد .

وأما الذوق العرفاني الذي نزل القرآن بأعلى مراتبه فيقتضي أن يكون الرحمن مقدما على الرحيم لان القرآن الشريف عند أصحاب القلوب نازلة التجليات الالهية والصورة الكتبيّة للاسماء الحسنى الربوبية ، وحيث أن اسم الرحمن اكثر الاسماء الالهية احاطة بعد الاسم الاعظم وقد حقق عند أصحاب المعرفة أن التجلي بالاسماء المحيطة مقدّم على التجلي بالاسماء المحاطة ، وكل اسم يكون أكثر احاطة فالتجلي به أيضا مقدّم ، فلذا كان التجلي الاول في الحضرة الواحدية التجلي باسم الله الاعظم وبعده التجلي بمقام الرحمانية ، وان التجلي بالرحيمية بعد التجلي بالرحمانية وهكذا في التجلي الظهوري الفعلي ايضا التجلي بمقام المشيئة الذي هو الاسم الاعظم في هذا المشهد وظهور الاسم الاعظم الذاتي مقدم على جميع التجليات ، والتجلي بمقام الرحمانية الذي له الاحاطة على جميع موجودات عالم الغيب والشهادة ، واليه الاشارة « ورحمتي وسعت كلّ شيء »[٨] مقدم على سائر التجليات واليه يشير سبقت رحمته غضبه ببعض الوجوه .

وبالجملة ، حيث أن بسم الله على حسب الباطن والروح صورة التجليات الفعلية ، وعلى حسب السر وسرّ السرّ صورة التجليات الاسمائية بل الذاتية والتجليات المذكورة هي التجليات بمقام الله اولا وبعده بمقام الرحمن وبعد بمقام الرحيم ، فلا بد أن تكون صورتها اللفظية والكتبية ايضا كذلك حتى تطابق النظام الالهي والرباني ، وأما تأخر الرحمن الرحيم في السورة المباركة الحمد عن رب العالمين فلعله من جهة أنه في بسم الله النظر الى ظهور الوجود من مكامن غيب الوجود ، وفي السورة الشريفة النظر الى

الرجوع والبطون وفي هذا الاحتمال اشكال ، ولعل التأخر إشارة الى إحاطة الرحمة الرحمانية والرحيمية ، ولعله لنكتة أخرى ، وعلى كل حال ما ذكر من النكتة في بسم الله جدير بالتصديق ولعلها من بركات الرحمة الرحيمية في قلبي ، قلب الاقل الاقل وله الحمد على ما أنعم .

بحث وتفصيل :

قال علماء الظاهر أن الرحمن والرحيم مشتقة من الرحمة ومأخوذ فيها العطوفة والرقة . وروي عن ابن عباس (رضي الله عنه) أنهما « اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر فالرحمن الرقيق والرحيم العطوف على عباده بالرزق والنعم » . وحيث أن العطوفة والرقة يلزمها الانفعال ، فمن هذه الجهة قالوا بالتأويل والتوجيه في إطلاقهما على الذات المقدسة وذهبوا الى أنه مجاز ، وبعض على أن مطلق الاوصاف من هذا النحو من قبيل : خذ الغايات واترك المبادىء . فإطلاقها للحق بلحاظ الآثار والافعال لا بلحاظ المبادىء والاوصاف فمعنى الرحيم والرحمن للحق تعالى من هذا القبيل أو ما يقرب منه وبناء عليه فاطلاقها أيضا على الحق مجاز ، وعلى كل حال فكونها مجازا بعيد وخصوصا في الرحمن فإنه بناء على المجازية لا بد أن يلتزم بأمر عجيب وهو أن هذه الكلمة قد وضعت لمعنى لا يجوز الاستعمال فيه ولا يمكن ، وفي الحقيقة هذا مجاز بلا حقيقة فتأمل .

وقال أهل التحقيق في جواب الاشكالات من هذا النوع أن الالفاظ موضوعة للمعاني العامة والحقائق المطلقة ، فبناء على هذا فالتقييد بالعطوفة والرقة ليس داخلا في الموضوع له ، وفيما وضع له لفظ الرحمة ، وهذا التقييد هو مخترع الاذهان العامية والا فلا دخل له في أصل الوضع ، وهذا

المطلب بعيد عن التحقيق ظاهرا لانه من المعلوم أن الواضع أيضا أحد هذه الأشخاص المتعارفة ولم يلاحظ في حين الوضع المعاني المجردة والحقائق المطلقة ، نعم لو كان الواضع هو الحق تعالى أو الانبياء بالوحي أو الإلهام الالهيين لكان لهذا المطلب وجه ولكن هو أيضا غير ثابت .

وبالجملة ، فظاهر هذا الكلام مخدوش ولكن ليس من المعلوم أن يكون هذا الظاهر ايضا مقصودا لاهل التحقيق بل يمكن أن يقال في بيان هذا المطلب أن واضع اللغات وان لم يلاحظ في حين الوضع المعاني المطلقة المجردة ولكن ما وضعت له الالفاظ في ازائه هو المعاني المجردة المطلقة ، فمثلا لفظ النور اذا أراد الواضع أن يضعه فما كان في لحاظه من الانوار وان كانت هذه الانوار الحسية العرضية لانه ما كان يدرك ما وراء هذه الانوار ولكن ما وقع لفظ النور في ازائه هو الجهة النورية لا جهة اختلاط النور بالظلمة بحيث لو قيل له بأن هذه الانوار العرضية المحدودة ليست نورا صرفا بل هي نور مختلط بالظلمة والفتور . فهل وضع لفظ النور بازاء تلك الجهة النوريّة أو بإزاء النورية والظلمانية ، فبالضرورة كان الجواب انه في إزاء جهة النورية ، وامّا جهة الظلمة فليس لها دخل في الموضوع له بوجه من الوجوه كما أنّا كلّنا نعلم أن الواضع حينما وضع لفظ النار ما كان في نظره غير النيران الدنيوية وما كان سببا لانتقاله الى هذه الحقيقة هو النيران الدنيوية وكان غافلا عن نار الآخرة ونار الله الموقدة التي تطّلع على الافئدة خصوصا اذا لم يكن معتقدا بعالم الاخرة ، ومع ذلك لا تكون هذه الوسيلة للانتقال موجبة للتقييد في الحقيقة بل النار وقعت بازاء الجهة النارية فلا نقول أن الواضع جرّد المعاني حتى يكون أمرا مستغربا بعيدا بل نقول أن الالفاظ وقعت في إزاء تلك الجهات للمعاني من دون التقييد بقيد ، فبناء

على هذا ليس ثمة جهة للاستبعاد في الامر وكلما كان المعنى خاليا من الغرائب والاجانب فهو الى الحقيقة أقرب ومن شائبة المجاز أبعد ، مثلا كلمة نور وهي موضوعة لما فيه جهة الظاهرية بالذات والمظهرية للغير وان كان إطلاقها على هذه الانوار العرضية الدنيوية لا يخلو من الحقيقة لان في إطلاقها عليها لم نلاحظ الجهة المحدودية والاختلاط بالظلمة ، بل الملاحظ هو الظهور الذاتي والمظهرية ولكن اطلاقها على الانوار الملكوتية التي ظهورها أكمل وبأفق الذاتية ومظهريتها كمّا وكيفا أكثر ، واختلاطها بالظلمة والنقص أقل ، الى الحقيقة أقرب ، واطلاقها على الذات المقدسة جل وعلا وهو نور الانوار وخالص من جميع جهات الظلمة وصرف النور والنور الصرف حقيقة محضة وخالصة بل يمكن أن يقال أن النور لو كان موضوعا للظاهر بذاته والمظهر لغيره فاطلاقه على غير الحق تعالى حقيقة عند العقول الجزئية وأما عند العقول المؤيدة وأصحاب المعرفة فمجاز ، واطلاقه على الحق تعالى حقيقة فقط وهكذا جميع الالفاظ التي وضعت للمعاني الكمالية يعني الامور التي من سنخ الوجود والكمال ، فبناء على ذلك نقول أن في بسم الله الرحمن الرحيم والعطوف والرؤوف وأمثالها جهة كمال وتمامية وجهة انفعال ونقص وهذه الالفاظ موضوعة بإزاء تلك الجهة الكمالية التي هي أصل تلك الحقيقة ، وأما الجهات الانفعالية التي هي من لوازم النشأة وأجانب الحقيقة وغرائبها والتي تتلازم وتتشابك معها بعد تنزل هذه الحقائق في البقاع الامكانية والعوالم النازلة الدنيوية كالظلمة التي اختلطت بالنور في النشأة النازلة،فلا دخل لها في المعنى الموضوع له،فإطلاقه على موجود واجد لجهة الكمال مبرىءٍ من جهات الانفعال والنقص صرف الحقيقة وحقيقة صرفة .

وهذا المطلب بهذا البيان مضافا الى أنه قريب من ذوق أهل المعرفة

مناسب لوجدان أهل الظاهر أيضا فعلى هذا فقد علم أن اطلاق هذا النحو من أوصاف الكمال التي اختلطت مع أمر آخر وتلازمت معه في بعض النشآت بعد التنزّل ، والذات المقدسة الحق جلّت عظمته منه مبرّأ فاطلاقه على الحق تعالى ليس بمجاز ، والله الهادي .

قوله : **الحمد لله** يعني جميع أنواع الحمد مختصة بذات الالوهية المقدسة .

اعلم ايها العزيز ان تحت هذه الكلمة الشريفة سر التوحيد الخاص بل أخص الخواص . واختصاص جميع المحامد من جميع الحامدين للحق تعالى على حسب البرهان واضح مبيّن عند أصحاب الحكمة وأئمة الفلسفة العالية لانه قد لزم بالبرهان ان جميع دار التحقق ظل منبسط وفيض مبسوط لحضرة الحق وجميع النعم ظاهرة وباطنة من أي منعم ، وان كانت على حسب الظاهر ، وفي انظار العامة من ذاك المنعم فهي من الحق تعالى جل وعلا وليس لاحد من الموجودات فيها شركة ، حتى ان الشركة الاعدادية ايضا عند أهل الفلسفة العامية لا الفلسفة العالية ، فحيث أن الحمد في مقابل النعمة والانعام والاحسان ، وليس في دار التحقيق منعم سوى الحق فجميع المحامد مختصة له ، وايضا ليس جمال وجميل سوى جماله وسواه ، فالمدائح ايضا ترجع اليه .

وببيان آخر كل حمد ومدح من كل حامد ومادح بازاء جهة النعمة والكمال ومحل النعمة والكمال وموردهما التي تنقصهما وتحدّدهما ليس دخيلا في الحمد والمدح بوجه من الوجوه بل مناف ومضادّ لهما ، فالمحامد والمدائح كلها ترجع الى حظ الربوبية وهو الكمال والجمال لا الى حظ المخلوق وهو النقص والتحديد .

وببيان آخر من الفطر الالهية التي فطر جميع الخلق عليها ثناء الكامل وشكر المنعم وحمده .

وايضا من الفطر الالهية التنفّر من النقص والناقص ومنقّص النعمة . وحيث أن النعمة المطلقة الخالصة من أي شوب أو نقص والجمال والكمال التام التمام المبرأ من كل نقص ، مختصة بالحق وسائر الموجودات تنقص النعم المطلقة والجمال المطلق وتحددهما دون أن تزيدهما وتؤيدهما ففطرة جميع الناس حامدة ومادحة للذات المقدسة ومتنفرة من سائر الموجودات الا الموجودات التي فنيت في ذات ذي الجلال على حسب السير في ممالك الكمال وبلاد العشق فان العشق والمحبة لتلك الموجودات وحمدها ومدحها عين العشق للحق وحمده (حب خاصان خدا حب خدا است)[٩] .

وما ذكر الى هنا ايضا على حسب مقامات المتوسطين الذين فيهم بقية من حجاب الكثرة ولم يبرؤوا من جميع مراتب الشرك الخفيّ والاخفى ولم يصلوا الى كمال مراتب الخلوص والاخلاص ، وأما على حسب عرفان أصحاب القلوب الفانية في بعض الحالات الخاصة ، فجميع النعم والكمال والجمال والجلال صورة التجلي الذاتي وجميع المحامد والمدائح مرتبطة بذات الحق تعالى المقدسة ، بل المدح والحمد من نفسه لنفسه ، كما يشير الى هذا المعنى تعلّق بسم الله بالحمد لله .

واعلم أن السالك الى الله والمجاهد في سبيل الله لا بد له أن الا يقتنع بالحد العلمي لهذه المعارف ولا يصرف جميع عمره في الاستدلال الذي هو حجاب بل الحجاب الاعظم لان هذه المرحلة لا يمكن طيّها بالرجل الخشبية بل ولا بطائر سليمان[١٠] ان هذا الوادي وادي المقدسين وهذه المرحلة مرحلة الاحرار ، فما لم يخلع نعلي حب الجاه والشرف والاهل والولد وما لم يلق عصا

الاعتماد والتوجّه الى الغير عن اليمين لا يمكن وضع القدم على الوادي المقدس الذي هو مكان المخلصين ومنزل المقدسين ، واذا خطى السالك في هذا الوادي بحقائق الاخلاص وألقى الكثرات والدنيا (وهي خيال في خيال) وراء ظهره فان بقي فيه بقايا من الانانية فيؤيد من عالم الغيب ويندك جبل انّيته بالتجليات الالهية وتحصل له حالة الصعق والفناء ، وقبول هذه المقامات للقلوب القاسية التي ليس عندها خبر سوى الدنيا وحظوظها ولا تتعارف الا بالغرور الشيطاني يكون صعبا جدا وينسب الى نسج الاوهام مع أن الفناء الذي نحن الان فيه بالنسبة الى الطبيعة والدنيا بحيث أننا غافلون بالكلية عن عوالم الغيب التي هي أظهر من جميع الجهات من هذا العالم ، بل اننا غافلون عن الذات وصفات الذات المقدسة التي يختص بها الظهور[11] ونتشبث لاثبات تلك العوالم والذات المقدسة للحق جلّ وعلا بذيل البرهان والاستدلال اغرب واعجب بمراتب من الفناء الذي يدّعيه اصحاب العرفان والسلوك .

حيرت اندر حيرت آمد زين قصص

بيهشيّ خاصكان اندر اخصّ (اخس)

وان كان الأخص بالصاد فليس لشدة الحيرة حينئذ مجال لان فناء الناقص في الكامل امر طبيعي وموافق للسنة الالهية فالحيرة في الحيرة في محل يكون الاخس بالسين كما أن هذا الصعق والفناء متحقق الان لنا أجمع وقد انغمرت اسماعنا وأبصارنا في الطبيعة الى حد ليس لنا أيّ خبر من ضوضاء عالم الغيب .

نقل وتحقيق :

اعلم أن علماء الادب والظاهر قالوا ان الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري وحيث أنهم غافلون عن جميع الالسنة غير هذا اللسان اللحمي فلهذا حملوا تسبيح الحق تعالى وتحميده بل مطلق كلام ذاته المقدسة على نوع من المجاز وكذلك يحملون كلام الموجودات وتسبيحها على المجاز فيرون ان التكلم للحق تعالى عبارة عن ايجاد الكلام ويقولون ان التسبيح والتحميد في سائر الموجودات هو التسبيح والتحميد الذاتي التكويني ، فهؤلاء في الحقيقة يحصرون النطق في نوع البشر ويظنون ان الذات المقدسة الحق جل وعلا وسائر الوجودات غير ناطقة ، بل نعوذ بالله ، يظنونها خرساء ويتوهمون ان ذلك تنزيه للذات المقدسة مع أن هذا تحديد بل تعطيل[١٣] والحق سبحانه منزّه عن هذا التنزيه ، كما أن الغالب لتنزيهات العامة التحديد والتشبيه ، ونحن ذكرنا من قبل كيفية وضع الالفاظ للمعاني العامة والمطلقة ، والان نقول انّا لا نتقيد بالصدق اللغوي أو لزوم تحقق الحقيقة اللغوية في هذه الحقائق الالهية بل الميزان في هذه المباحث هو صحة الاطلاق ووجود الحقيقة العقلية وان كانت الحقيقة اللغوية ايضا ثابتة بالبيان السابق فنقول :

ان للّسان والتكلم والكلام والكتابة والكتاب والحمد والمدح مراتب على حسب النشآت الوجودية تتناسب كل مرتبة مع نشأة من النشآت ومرتبة من مراتب الوجود وحيث أن الحمد في كل مورد على جميل والمدح على جمال وكمال فالحق جلّ وعلا على حسب علمه الذاتي شاهد جماله الجميل في حضرة غيب الهوية بأتمّ مراتب العلم والشهود فكان مبتهجا بذاته

الجميلة أشد مراتب الابتهاج[٤٤] فتجلي بالتجلي الازلي بأعلى مراتب التجليات في حضرة الذات لحضرة الذات وهذا التجلي واظهار ما في المكنون الغيبي والمقارعة الذاتية هو الكلام الذاتي الذي وقع بلسان الذات في حضرة الغيب ومشاهدة هذا التجلي الكلامي هو سمع الذات ، وثناء الذات هذا لذات الحق هو ثناء الحق وتعجز سائر الموجودات عن ادراكه كما أن الذات المقدسة للنبي الخاتم الذي هو أقرب الموجودات وأشرفها يعترف بالعجز ويقول « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ومعلوم أن احصاء الثناء فرع المعرفة بالكمال والجمال ، وحيث أن المعرفة التامة للجمال المطلق لا تحصل ، فالثناء الحقيقي ايضا لا يقع وغاية معرفة أصحاب المعرفة عرفان العجز عن المعرفة .

ويقول أهل المعرفة : ان الحق تعالى يحمد ويمدح نفسه بالالسنة الخمسة وهي لسان الذات من حيث هي ، ولسان أحدية الغيب ، ولسان الواحدية الجمعية ، ولسان الاسماء التفصيلية ، ولسان الاعيان ، وهذه الالسن غير لسان الظهور الذي أوله لسان المشيئة الى آخر مراتب التعينات أي لسان الكثرات الوجودية .

واعلم أن لجميع الموجودات حظا بل حظوظا من عالم الغيب الذي هو الحياة محضا والحياة سارية في جميع دار الوجود ، وهذا المطلب ثابت عند أرباب الفلسفة العالية بالبرهان وعند أصحاب القلوب والمعرفة بالمشاهدة والعيان ، وتدل عليه الآيات الشريفة وأخبار أولياء الوحي عليهم الصلاة والسلام دلالة تامة ، والمحجوبون من أهل الفلسفة العامية وأهل الظاهر حيث لم يدركوا نطق الموجودات قاموا بتأويله وتوجيهه .

ومن العجيب ان أهل الظاهر الذين كانوا يطعنون أهل الفلسفة بأنهم

يُؤوّلون كتاب الله على حسب عقولهم ، أوّلوا في هذه الموارد الآيات الصريحة والاحاديث الصحيحة على كثرتها بمجرد أنهم لم يدركوا نطق الموجودات مع أنه ليس بيدهم برهان فيؤوّلون القرآن من دون برهـان ، وعلى مجرد الاستبعاد .

وبالجملة ، ان دار الوجود أصل الحياة وحقيقة العلم والشعور وتسبيح الموجودات تسبيح نطقي شعوري ارادي لا التكويني الذاتي الذي يقوله المحجوبون ، ولجميع الموجودات على حسب حظها من الوجود معرفة بمقام الباري جلّت عظمته ، وحيث أنه ليس لموجود الاشتغال بالطبيعة والانغمار في الكثرة الى الحد الذي هو للانسان فلهذا كانت محجوبية الانسان أكثر من جميع الموجودات الا أن يخرج من جلباب البشرية ويخرق حجب الكثرة والغيرية فيشاهد جمال الجميل بلا حجاب فيكون حمده ومدحه أجمع المحامد والمدائح ، وهو إذاً يثني على الحق ويعبده بجميع الشؤون الالهية وكل الاسماء والصفات .

تتميم :

اعلم ان الكلمة الشريفة « الحمد لله » على حسب ما بينّاه من الكلمات الجامعة التي اذا حمد بها الحق تعالى بلطائفها وحقائقها فقد أدّى حق الحمد بقدر ما في الطاقة البشرية ،ولهذا وردت في الروايات الشريفة الاشارة الى هذا المعنى كما عن باقر العلوم سلام الله عليه ما مضمونه انه خرج من دار وليس مركوبه على بابها فقال : لو وجد المركوب لحمدت الله حق حمده ، فلمّا وجد المركوب ركب عليه وسوّى ثيابه فقال الحمد لله[1] .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال : « لا اله الا الله نصف الميزان والحمد لله يملؤه » .

وهذا لما بيّناه من أن الحمد جامع للتوحيد ايضا .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله « قول العبد الحمد لله أثقل في ميزانه من السموات السبع والارضين السبع » . ونقل عنه صلى الله عليه وآله ما معناه : « لو ان الله سبحانه أعطى جميع الدنيا عبدا من عباده ثم يقول العبد الحمد لله لكان قوله أفضل مما أعطى » .. وعنه صلى الله عليه وآله ايضا « ما من شيء أحب الى الله من قول القائل الحمد لله .. ولهذا أثنى الله به على نفسه » والاحاديث في هذا الباب كثيرة .

قوله تعالى رب العالمين : الرب ان كان بمعنى المتعالي والثابت والسيد فهو من الاسماء الذاتية ، وان كان بمعنى المالك والصاحب والغالب والقاهر فهو من الإسماء الصفاتية ، وان كان بمعنى المربّي والمنعم والمتمم فهو من الاسماء الافعالية .

والعالم ان كان عبارة عن ما سوى الله الشامل لجميع مراتب الوجود ومنازل الغيب والشهود فلا بد أن يعد الرب من اسماء الصفات وان كان المراد من العالم عالم الملك الذي هو تدريجي الحصول والكمال ، فالمراد من الرب اسم الفعل ، وعلى أي حال ليس المراد منه هنا اسم الذات ولعله بقرينة أن المراد من العالمين هذه العوالم الملكية التي هي تحت التربية والتمشية الالهية حتى تصل الى كمالها اللائق ، فان المراد من الربّ هو المربّي الذي هو من اسماء الافعال .

واعلم أننا نكف في هذه الرسالة عن ذكر الجهات التركيبية واللغوية والادبية للآيات الشريفة فقد تعرّض لها العلماء غالبا ، وانما نذكر هنا بعض الامور التي لم يتعرّض لها أصلا أو ذكرت ذكرا ناقصا .

وليعلم أن اسماء الذات والصفات والافعال التي أشير اليها فهي على

طبق اصطلاح ارباب المعرفة وبعض المشايخ من أهل المعرفة قسمت الأسماء في كتاب انشاء الدائرة الى اسماء الذات واسماء الصفات واسماء الافعال وقال إن اسماء الذات هي الله الرب الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر العلي العظيم الظاهر الباطن الاول الآخر الكبير الجليل المجيد الحق المبين الواجد الماجد الصمد المتعالي الغنيّ النور الوارث ذو الجلال الرقيب .

واسماء الصفات هي : الحي الشكور القهار القاهر المقتدر القوي القادر الرحمن الرحيم الكريم الغفّار الغفور الودود الرؤوف الحليم الصبور البرّ العليم الخبير المحصي الحكيم الشهيد السميع البصير .

وأسماء الافعال هي المبدىء الوكيل الباعث المجيب الواسع الحسيب المقيت الحفيظ الخالق البارىء المصوّر الوهّاب الرّزّاق الفتاح القابض الباسط الخافض الرافع المعزّ المذلّ الحكيم العدل اللطيف المعيد المحيي المميت الوالي التوّاب المنتقم المقسط الجامع المغني المانع الضارّ النافع الهادي البديع الرشيد . (انتهى) .

وذكروا في ميزان هذا التقسيم أن الاسماء وان كانت كلها اسماء الذات ولكنها باعتبار ظهور الذات يقال لها اسماء الذات وباعتبار ظهور الصفات والافعال يقال لها الاسماء الصفاتية والافعالية بمعنى أن الاسم تابع لاعتبار يكون اظهر. فلهذا قد يجتمع في بعض الاسماء اعتباران او اعتبارات ثلاثة فيكون من الاسماء الذاتية والصفاتية والافعالية ، او الاثنين من هذه مثل الرب كما ذكر .

وهذا المطلب لا يستقيم على مذاق الكاتب ولا يطابق الذوق العرفاني بل ما يبدو للنظر في هذا التقسيم ان الميزان في هذه الاسماء هو ان السالك

بقدم المعرفة اذا حصل له الفناء الفعلي ، فالتجليات لقلبه من الحق تعالى هي التجليات باسماء الافعال ، وبعد حصول الفناء الصفاتي تكون التجليات الصفاتية وبعد الفناء الذاتي تكون التجليات بأسماء الذات ، واذا كان قلبه قادرا للحفظ بعد الصحو فما يخبره من المشاهدات الافعالية فهو أسماء الافعال ، ومن المشاهدات الصفاتية فهو أسماء الصفات . وهكذا أسماء الذات ، ولهذا المقام تفصيل لا ينبغي لهذه الاوراق .

وما ذكره في انشاء الدائرة فهو غير صحيح طبقا للميزان الذي عيّنه نفسه كما يتضح ذلك بالنظر الى الاسماء .

ويمكن أن يقال ان هذا التقسيم الثلاثي للاسماء اشير اليه في القرآن الشريف في الآيات الاخيرة من سورة الحشر قال تعالى : « هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم » الى آخر الآيات الشريفة ، ولعل الاولى من هذه الآيات الشريفة تكون اشارة الى الاسماء الذاتية ، والثانية اشارة الى الاسماء الصفاتية والثالثة اشارة الى الاسماء الافعالية وتقديم الذاتية على الصفاتية والتجليات الصفاتية على الافعالية على حسب ترتيب الحقائق الوجودية الالهية لا على حسب ترتيب مشاهدات أصحاب المشاهدة والتجليات القلبية لارباب القلوب .

ليعلم أن للآيات الشريفة رموزا اخرى لا يناسب المقام ذكرها ، وأما كون الآية الثانية من الاسماء الصفاتية والثالثة من الافعالية فواضح ، وامّا كون عالم الغيب والشهادة والرحمن والرحيم من الاسماء الذاتية فمبني على أن يكون الغيب والشهادة عبارة عن الاسماء الباطنة والظاهرة والرحمانية والرحيمية من تجليات الاقدس لا الفيض المقدس . واختصاص هذه الاسماء

بالذكر مع أن الحي والثابت والرب وأمثالها يبدو للنظر أنها أقرب الى الاسماء الذاتية فلعله لاحاطتها لانها من أمهات الاسماء ، والله العالم .

تنبيه :

فقد وقع اختلاف عظيم في لفظ العالمين واشتقاقه ومعناه ، فبعض على أن العالمين جمع ومشتمل على جميع أصناف الخلق من المادي والمجرد ، وكل صنف هو عالم بنفسه ، وهذا الجمع ليس له مفرد من جنسه ، وهذا القول مشهور ، وقال بعض ان العالَم بفتح اللام اسم مفعول وعالِم بكسر اللام اسم فاعل وعالمين بمعنى معلومين وهذا القول مضافا الى أنه في حد نفسه لا شاهد له وبعيد ، فإطلاق رب المعلومين بارد جدا وبلا مورد . وقال بعض ان اشتقاقه من العلامة وعليه فيطلق على جميع الموجودات لانها كلها علامة وآية للذات المقدسة والواو والنون باعتبار الاشتمال على ذوي العقول وتغليبها على سائر الموجودات .

وذهب بعض الى انه مشتق من العلم ، وعلى كل حال فاطلاقه على جميع الموجودات صحيح كما أن إطلاقه على ذوي العقول ايضا وجيه ولكن العالم يطلق على ما سوى الله ويطلق العالم ايضا على كل فرد وصنف ، فان كان الذي يطلق اللفظ من أهل العرف واللغة فباعتبار أن كل فرد علامة لذات الباري وفي كل شيء له آية ، وان كان عارفا الهيا فباعتبار أن كل موجود ظهور بالاسم الجامع ومشتمل على كل الحقائق بطريق ظهور أحدية الجمع وسر الوجود ومن هذه الجهة يمكن أن يقال ان جميع العالم وكل جزء منه هو الاسم الاعظم بمقام احدية الجمع والاسماء كلها في الكل وكذا الآيات ، وبناء على ما ذكر فايراد الفيلسوف العظيم الشأن صدر الملة والدين

(قدس سره) على أمثال البيضاوي وارد لانهم لم يتذوقوا هذا المشرب ، وأما في مسلك أهل العرفان فليس بصحيح ، وحيث أن الكلام البيضاوي في هذا المقام وكلام الفيلسوف المذكور طويل تركنا ذكره فمن أراد فليراجع تفسير السورة الفاتحة للفيلسوف المرحوم .

والرب ان كان من اسماء الصفات بمعنى المالك والصاحب وأشباههما فيمكن أن يكون المراد من العالمين جميع ما سوى الله سواء أكان من الموجودات لعالم الملك او الموجودات المجردة الغيبية ، وأما ان كان من أسماء الافعال ، ولعل هذا هو الاظهر فالمراد من العالمين هو عالم الملك فقط لان الرب حينئذ بمعنى المربّي ، وهذا المعنى يستلزم التدريج والعوالم المجردة منزّهة عن التدريج الزماني وان كان روح التدريج بمعنى متحقق في عالم الدهر عند الكاتب وبذاك المعنى أثبتنا الحدوث الزماني بمعنى روح الزمان ودهرية التدريج في العوالم المجردة ايضا ، وفي المسلك العرفاني ايضا نقول بأن الحدوث الزماني ثابت لجميع العوالم لكن لا على نحو يسعه فهم المتكلمين وأصحاب الحديث .

تنبيه آخر :

اعلم ان الحمد حيث أنه في مقابل الجميل ، ويستفاد من الآية الشريفة أن الحمد والثناء ثابتة لمقام الاسم الاعظم الذي هو الاسم الجامع له مقام ربوبية العالمين والرحمة الرحمانية والرحيمية وهو مالك يوم الدين ، فلا بد أن يكون لهذه الأسماء الشريفة مدخلية تامة في التحميد .

ونحن نذكر بعد ذلك في ذيل مالك يوم الدين بيانا تفصيليا عن هذا المطلب .

ونتكلم الان من مناسبة مقام ربوبية العالمين للتحميد وهذا التناسب من جهتين .

الجهة الاولى : ان الحامد حيث أنه بنفسه من العالمين بل هو ربما يكون عالما برأسه أحيانا بل في نظر أهل المعرفة كل موجود من الموجودات عالم برأسه فيحمد الحق لانه ربّاه بيده التربوية في مقام الربوبية فأخرجه من الضعف والنقص والوحشة والظلمة والعدم والهيولاني الى القوة والكمال والطمأنينة ونورانية العالم الانساني وأوصله عبر المنازل الجسمية والعنصرية والمعدنية والنباتية والحيوانية تحت النظام المرتب بالحركات الذاتية والجوهرية وأنواع العشق الفطري والجبلي الى منزل الانسانية الذي هو أشرف منازل الموجودات ، وبعد ذلك ايضا يربيه الى أن يصل الى حدّ لا يتّسع في الوهم .

آنچه اندروهم نايد آن شوم
پس عدم كردم عدم چون ارغنون
گويدم كانا اليه راجعون[١٥]

الجهة الثانية : حيث أن تربية نظام عالم الملك من الفلكيات والعنصريات والجوهريات والعرضيات مقدمة وجود الانسان الكامل ، وفي الحقيقة هذه الوليدة عصارة عالم التحقق والغاية القصوى للعالمين ولهذه الجهة صارت الوليدة الاخيرة ، وحيث أن عالم الملك متحرك بالحركة الذاتية الجوهرية وهذه الحركة ذاتية استكمالياً فأينما انتهت فهو غاية الخلقة ونهاية السير ، فاذا نظرنا بالطريق الكلي الى الجسم الكلي والطبع الكل والنبات الكل والحيوان الكل والانسان الكل ، فان الانسان هو الوليدة الاخيرة التي

وجدت بعد الحركات الذاتية الجوهرية للعالم وانتهت الحركات اليه ، فيد التربية للحق تعالى قد ربّت الانسان في جميع دار التحقق والانسان هو الاول والاخر .

تنبيه آخر :

وهذا الذي ذكرناه في الافعال الجزئية وبالنظر الى مراتب الوجود والا فبحسب الفعل المطلق ليست لفعل الحق تعالى غاية سوى ذاته المقدسة كما هو مبرهن في محالّه ، واذا نظرنا الى الافعال الجزئية ايضا فغاية خلقة الانسان عالم الغيب المطلق كما ورد في القدسيات « يابن آدم خلقت الاشياء لاجلك وخلقتك لاجلي » .. وفي القرآن الشريف يخاطب موسى ابن عمران على نبينا وآله وعليه السلام ويقول « اصطنعتك لنفسي »[١٦] . وأيضا يقول : « وأنا اخترتك »[١٧] . فالانسان مخلوق لاجل الله ومصنوع لذاته المقدسة وهو المصطفى والمختار من بين الموجودات ، وغاية سيره الوصول الى باب الله والفناء في ذات الله والعكوف لفناء الله ومعاده الى الله ومن الله وفي الله وبالله كما يقول سبحانه في القرآن : « إنّ إلينا إيابهم » .. وسائر الموجودات بواسطة الانسان ترجع الى الحق تعالى بل مرجعها ومعادها الى الانسان كما يقول في الزيارة الجامعة المظهرة لنبذة من مقامات الولاية « واياب الخلق اليكم وحسابهم عليكم » . ويقول : « بكم فتح الله وبكم يختم » .. وفي قول الله تعالى : « إنّ إلينا ايابهم ثم إنّ علينا حسابهم »[١٨] .. وقوله عليه السلام في الزيارة الجامعة « وإياب الخلق اليكم وحسابهم عليكم » سر من اسرار التوحيد واشارة الى ان الرجوع الى الانسان الكامل هو الرجوع الى الله لان الانسان الكامل فانٍ مطلق وباقٍ

ببقاء الله وليس له من عند نفسه تعيّن وإنيّة وأنانية بل هو نفسه من الاسماء الحسنى وهو الاسم الاعظم .

كما ان الاشارة الى هذا المعنى كثيرة في القرآن والاحاديث الشريفة وان القرآن الشريف قد جمع من لطائف التوحيد وحقائقه وسرائره ودقائقه ما تتحير فيه عقول أهل المعرفة وهذا هو الاعجاز العظيم لهذه الصحيفة النورانية السماوية لا ان حسن التركيب ولطف البيان وغاية الفصاحة ونهاية البلاغة وكيفية الدعوة والاخبار عن المغيبات واحكام الاحكام واتقان التنظيم للعائلة وامثالها فحسب التي يكون كل واحد منها باستقلاله اعجازا فوق الطاقة وخارقا للعادة بل يمكن أن يقال أن معروفية القرآن بالفصاحة واشتهار هذا الاعجاز من بين سائر المعجزات في الآفاق لانه كان للاعراب في الصدر الاول هذا التخصص وأدركوا هذه الجهة من الاعجاز فحسب ، وأما الجهات الاخرى المهمة التي كانت فيه وكانت جهة اعجازها أرفع ، وأساس ادراكها أعلى فلم يدركها أعراب ذلك الزمان ، والحال ايضا ان المتحدين معهم في أفق الفهم لا يدركون من هذه اللطيفة الالهية سوى التركيبات اللفظية والمحسنات البديعية والبيانية ، وأما المطلعون على اسرار المعارف ودقائقها والخبراء بلطائف التوحيد والتجريد فوجهة نظرهم في هذا الكتاب الإلهي وقبلة أمالهم في هذا الوحي السماوي انما هي معارفه وليس لهم توجّه كثير إلى الجهات الأخرى . ومن نظر إلى عرفان القرآن وعرفاء الإسلام الذين اكتسبوا المعارف من القرآن وقايس بينهم وبين سائر علماء الأديان وتصنيفاتهم ومعارفهم يعرف حد معارف الإسلام والقرآن التي هي أساس الدين والديانة والغاية القصوى لبعث الرسل وانزال الكتب ويصدق بلا مؤونة ان هذا الكتاب وحي الهي وهذه المعارف معارف الهية .

ايقاظ ايماني :

اعلم أن ربوبية الحق جلّ شأنه للعالمين على نحوين :

الاول: الربوبية العامة التي تشارك فيها جميع موجودات العالم وهي التربية التكوينية التي توصل كل موجود من حد النقص الى حدّ الكمال اللائق له تحت التصرف الربوبي وتقع جميع الترقيات الطبيعية والجوهرية والحركات والتطورات الذاتية والعرضية تحت التصرفات الربوبية .

وبالجملة ، التربية التكوينية من منزل مادة المواد والهيولى الاولى الى المنزل الحيواني وحصول القوى الجسمانية والروحانية الحيوانية ، وانّ كلا منها يشهد بأن الله جلّ جلاله ربي .

والثاني من مراتب الربوبية ، الربوبية التشريعية المختصة بالنوع الانساني وليس لسائر الموجودات فيها نصيب ، وهذه التربية هي هداية طرق النجاة واراءة سبل السعادة والانسانية والتحذير من منافياتها قد أظهرها الله سبحانه بتوسط الانبياء عليهم السلام ، فاذا وقع انسان بقدمه الاختيارية تحت تربية رب العالمين وتصرفه وصار مربى بتلك التربية بحيث لم تكن تصرفات أعضائه وقواه الظاهرية والباطنية تصرفات نفسانية بل كانت تصرفات الهية وربوبية يصل الى مرتبة الكمال الانساني المختص بالنوع الانساني .

ان الانسان الى أن يصل الى منزل الحيوانية يكون متماشيا مع سائر الحيوانات ومن هذا المنزل يكون امامه سبيلان لابد أن يسلكهما بقدم الاختيار ، احداهما طريق السعادة وهي الصراط المستقيم لرب العالمين ، ان ربي على صراط مستقيم .

والثانية : طريق الشقاوة وهو الطريق المعوّج للشيطان الرجيم فان جعل قواه وأعضاء مملكته في تصرّف رب العالمين وصار مربى بتربيته فيسلم القلب وهو سلطان هذه المملكة له واذا صار القلب مربوبا لرب العالمين فيقتدي سائر جنوده به وتصير المملكة كلها مربوبة له ، وفي هذا الوقت يتمكن لسانه الغيبي وهو ظلّ القلب ان يجيب ملائكة عالم القبر حين تقول له من ربك ؟ بأن : الله جلّ جلاله ربي . وحيث إن هذا الشخص قد أطاع رسول الله واقتدى بأئمة الهدى وعمل بكتاب الله فينطق لسانه بقوله : محمد صلّى الله عليه وآله نبيّي ، وعليّ وأولاده المعصومون أئمتي والقرآن كتابي ، ولكنه اذا لم يصر القلب الهيا وربوبيا ولم ينتقش نقش لا اله الا الله ومحمد رسول الله وعلي ولي الله على لوح القلب ولم يصر صورة باطنية للنفس ولم ينتسب الى القرآن بالعمل به والتفكر والتذكر والتدبّر فيه ولم يرتبط هو بالقرآن ارتباطا روحيا ومعنويا ، ففي سكرات الموت وشدائده وفي حال الموت الذي هو الداهية العظمى تنمحي جميع المعارف عن خاطره .

أيا عزيزي ، ان الانسان ينسى جميع معلوماته عند ابتلائه بمرض او ضعف قواه الدماغية الا امورا قد صارت بشدة التذكر والانس بها جزءا من فطراته الثانوية ، واذا دهمته داهية عظمى ومخوفة فيغفل عن أكثر أموره ويخط خط النسيان على معلوماته ، فماذا يكون حالة في أهوال الموت وشدائده وسكراته ، واذا كان سمع القلب غير منفتح ولم يكن قلبه سميعا فلا ينفعه تلقين العقائد حين الموت وبعد الموت ، والتلقين ينفع لمن يكون قلبه خبيرا بالعقائد الحقة ويكون سمع قلبه منفتحا ، وقد حصلت له غفلة ما في تلك السكرات والشدائد فيصير التلقين وسيلة الى أن يوصلها ملائكة الله الى سمعه ، ولكن اذا كان الانسان أصمّ ولم يكن له سمع عالم البرزخ ابدا فلا

يؤثر التلقين في حاله ، وقد أشير الى بعض ما قلناه في الاحاديث الشريفة .

قوله تعالى : الرحمن الرحيم :

اعلم أن لجميع الاسماء والصفات للحق تعالى وجل وعلا مقامين ومرتبتين على النحو الكلّي :

أحدهما مقام الاسماء والصفات الذاتية الثابتة في الحضرة الواحدية كالعلم الذاتي الذي هو من الشؤون الذاتية والقدرة والارادة الذاتيتين وسائر الشؤون الذاتية .

والثاني : مقام الاسماء والصفات الفعلية الثابتة للحق بتجلي الفيض المقدس كالعلم الفعلي الذي يثبته الاشراقيون ويرونه مناطا للعلم التفصيلي ، وقد أقام البرهان عليه أفضل الحكماء الخواجة نصير الدين الطوسي[19] نضّر الله وجهه ، وتبع الاشراقيين في هذا المعنى وهو ان الميزان في العلم التفصيلي العلم الفعلي ، وهذا المطلب وان كان على خلاف التحقيق بل العلم التفصيلي ثابت في مرتبة الذات وإنّ كشف العلم الذاتي وتفصيله أعلى وأكثر من العلم الفعلي ، كما ثبت وحقق في محله على وجه البرهان النوري ، ولكن اصل المطلب وهو أن نظام الوجود هو العلم الفعلي التفصيلي للحق ثابت ومحقق في سنّة البرهان ومشرب العرفان وان كان للمسلك الاعلى العرفاني وذوقه الاصلي طريقة غير هذه الطرق . (مذهب عاشق زمذهبها جداست)

وبالجملة ، ان للرحمة الرحمانية والرحيمية مرتبتين وتجليين . أحدهما : في مجلى الذات في حضرة الواحدية بتجلي الفيض الاقدس .

والثاني في مجلى الاعيان الكونية بتجلي الفيض المقدس ، ففي السورة

المباركة ان كان الرحمن الرحيم من الصفات الذاتية كما هو ظاهر ففي الآية الشريفة بسم الله الرحمن الرحيم يمكن أن تجعل هاتين الصفتين تابعتين للاسم ، فتكونا من الصفات الفعلية ، وبناء على هذا فليس في المقام تكرار أصلا حتى يقال إنه للتأكيد والمبالغة وعلى هذا الاحتمال فمعنى الآيات الشريفة والعلم عند الله يكون هكذا :

بمشيئته الرحمانية والرحيمية الحمد لذاته الرحمانية والرحيمية وكما أن مقام المشيئة هو تجلي الذات المقدسة فمقام الرحمانية والرحيمية الذي هو من تعينات مقام المشيئة تجلي الرحمانية والرحيمية الذاتيتين ، وهنا احتمالات أخر تركنا ذكرها لكون هذا الاحتمال أظهر .

قوله تعالى مالك يوم الدين :

قرأ كثير من القرّاء ملك بفتح الميم وكسر اللام وذكروا لكل من هاتين القراءتين ترجيحات أدبية ، حتى أن بعض الاعاظم من العلماء رحمه الله كتب رسالة في ترجيح ملك على مالك ، وما ذكره الطرفان ليس مما يحصل به الاطمئنان ، وما في نظر الكاتب أن مالك راجح بل متعيّن لان هذه السورة المباركة والسورة المباركة التوحيد ليستا كسائر السور القرآنية بل حيث أن الناس يقرأون هاتين السورتين في فرائضهم ونوافلهم وفي كل عصر من العصور يسمعها ملايين من المسلمين من مئات ملايين المسلمين وهم كذلك من مئات الملايين سابقيهم وهكذا بالتسامع ثبتت هاتان السورتان الشريفتان على هذا النحو الذي يقرؤونه من دون تقدم حرف وتأخره ومن دون زيادة حرف ونقصه عن الائمة الهداة والنبي صلى الله عليه وآله . ومع أن أكثر القراء قرؤوها ملك وكثير من العلماء رجّحوا ملك مع ذلك ما ضرّت

هذه الامور في هذا الامر الثابت الضروري والمتواتر القطعي ولم يتبعهم الناس ومع أن العلماء يجوّزون تبعية كل من القرّاء لم يقرأ أحد في مقابل هذه الضرورة (ملك) في صلاته الا الشّاذ الذي لا يعتنى بقوله ، وان قرأ أحد ملك قرأ مالك أيضا من باب الاحتياط ، كما أن شيخنا العلاّمة في العلوم النقلية الحاج الشيخ عبد الكريم اليزدي قدس سره كان يقرأ ملك ايضا باستدعاء من أحد علمائنا الاعلام المعاصر ولكن هذا الاحتياط في غاية الضعف بل على عقيدة الكاتب مقطوع خلافه . ومن هذا البيان الذي ذكرناه علم ضعف ما قالوا ان ملك ومالك متشابهان في الخط الكوفي لان هذا ربما يمكن أن يدعى في السور التي ليست كثيرة التداول على الالسنة على اشكال فيه ايضا ، ولكن في مثل هذه السورة التي ثبوتها بالتسامع والقراءة كما هو واضح جدا دعوى بلا محتوى وقول بلا اعتبار ، وهذا الكلام الذي ذكرناه جار في كفوا أيضا لان القراءة بالواو المفتوحة والفاء المضمومة مع أنها قراءة عاصم فقط فمع ذلك هي ايضا ثابتة بالضرورة بالتسامع ، وان القراءات الاخر لا تعارض هذه الضرورة وان كان البعض يحتاط بزعمه ويقرؤها بضمّ الفاء والهمزة طبقا لقراءة الاكثر ولكن لا مورد لهذا الاحتياط ولو نوقش في الروايات التي أمر فيها بالقراءة كقراءة الناس ، كما أنها ايضا محل المناقشة ، ومن المظنون أن المراد من تلك الروايات ان اقرؤوا كما يقرأ عامة الناس لا انكم مخيّرون بين القراءات السبع مثلا ، فحينئذ تكون قراءة ملك وكفوا بغير ما هو مشهور بين المسلمين ومسطور في الصحف غلطا ، وعلى كل حال الاحوط قراءتها على النحو المتداول بين الناس والمشهور على الالسنة والمسطور في القرآن لان القراءة على هذا النحو صحيحة على جميع المسالك والله أعلم .

تحقيق حكمي :

اعلم أن مالكية الحق تعالى ليست كمالكية العباد مملوكاتهم ولا كمالكية السلاطين ممالكهم لانها اضافات اعتبارية وليست اضافة الحق الى الخلق من هذا القبيل ، وان كان هذا النحو من المالكية ثـابتاً للحق تعالى طولا عند علماء الفقه وهو لا ينافي ما هو ملحوظ ومذكور في هذا النظر .

وليست من قبيل مالكية الانسان أعضاءه وجوارحه وليست أيضا من قبيل مالكيته قواه الظاهرية والباطنية وان كانت هذه المالكية اقرب الى مالكيته تعالى من سائر انواع المالكية المذكورة سابقا . وليست من قبيل مالكية النفس لافعالها الذاتية التي هي من شؤون النفس كايجاد الصور الذهنية التي يكون قبضها وبسطها الى حد تحت ارادة النفس ايضا وليست ايضا من قبيل مالكية العوالم العقلية ما دونها وان كانت تلك العوالم متصرفة في هذه العوالم بالايجاد والاعدام لان جميع دار التحقق الامكانية الثابت في ناصيتها ذل الفقر محدودة بحدود ومقدرة بقدر ولو بالحد الماهوي وكل ما كان محدودا بحد يكون بينه وبين فعله بينونة عزلية على قدر محدوديته وليس له احاطة قيومية حقانية ، فجميع الاشياء متباينة مع منفعلاتها ومتقابلة معها بحسب مرتبة ذاتها ولهذه الجهة ليست لها احاطة ذاتية قيومية ، واما مالكية الحق تعالى التي هي بالاضافة الاشراقية والاحاطة القيومية مالكية ذاتية حقيقية حقة بحيث ليست شائبة البينونة العزلية بوجه من الوجوه في ذاته وصفاته لموجود من الموجودات ، وان مالكية الذات المقدسة لجميع العوالم على السواء من دون ان يتفاوت بوجه لموجود من الموجودات أو أن تكون احاطته بعوالم الغيب والمجردات أكثر أو أقرب من العوالم الاخر لانه يستلزم

المحدودية والبينونة العزلية ويلازم الافتقار والامكان تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا كما أنه يمكن أن تكون الاشارة الى هذا المعنى قوله تعالى : «ونحن أقرب اليه منكم »[21] ، و « نحن أقرب اليه من حبل الوريد »[22] ، و « الله نور السموات والارض »[23] ، و« هو الذي في السماء اله وفي الارض اله » ، و « له ملك السموات والارض »[24] . وقول رسول الله على ما نقل « لو دليتم بحبل الى الارضين السفلى لهبطتم على الله » . وقول الصادق عليه السلام في رواية الكافي « لا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان ولا يكون الى مكان اقرب منه الى مكان » .. وقول الامام علي النقي عليه السلام[26] . « واعلم أنه اذا كان في السماء الدنيا فهو كما هو على العرش والاشياء كلها له سواء علما وقدرة وملكا واحاطة » . ومع أن مالكية الذات المقدسة لجميع الاشياء ولجميع العوالم على السواء مع ذلك يقول في الآية الشريفة مالك يوم الدين .. وهذا الاختصاص يمكن أن يكون امّا لاجل ان يوم الدين هو يوم الجمع ، فلهذه الجهة مالك يوم الدين الذي هو يوم الجمع مالك سائر الايام المتفرقات ، والمتفرقات في النشأة الملكية هي مجتمعات في النشأة الملكوتية ، واما لان ظهور مالكية الحق وقاهريته تعالى مجده هو في يوم الجمع الذي هو يوم رجوع الممكنات الى باب الله وصعود الموجودات الى فناء الله .

وتفصيل هذا الاجمال على وجه يناسب هذه الرسالة هو ان نور الوجود وشمس الحقيقة ما دامت في السير التنزلي والنزول عن مكامن الغيب الى عالم الشهادة ، يكون سيرها في الاحتجاب والغيبة ، وبعبارة أخرى في كل تنزّل وتعيّن وفي كل تعيّن وتقيّد حجاب والانسان حيث أنه مجتمع

التعيّنات والتقيدات فهو محتجب بجميع الحجب السبعة الظلمانية والحجب السبعة النورية التي هي الارضون السبع والسموات السبع على حسب التأويل ، ولعل الرد الى اسفل السافلين ايضا عبارة عن الاحتجاب بجميع أنواع الحجب ، ويمكن أن يعبّر بالليل وليلة القدر عن هذا الاحتجاب لشمس الوجود وصرف النور في أفق التعينات ، وما دام الانسان محتجبا في تلك الحجب فهو محجوب عن مشاهدة جمال الازل ومعاينة النور الاول ، وحيث إن جميع الموجودات في السير الصعودي عن المنازل السافلة لعالم الطبيعة بالحركات الطبيعية التي هي في جبلة ذاتها وأودعت فيها من نور جاذبة فطرة الله بتقدير من الفيض الاقدس في الحضرة العلميّة اذا رجعت الى الوطن الاصلي والميعاد الحقيقي كما أشير الى ذلك كثيرا في الآيات الشريفة ، فانها تتخلص ثانيا من الحجب النورانية والظلمانية وتتجلى مالكية الحق تعالى وقاهريته ، ويتجلى الحق بالوحدة والقاهرية وعند ذلك اذا رجع الاخر الى الاول واتصل الظاهر بالباطن وسقط حكم الظهور وتجلت حكومة الباطن فيجيء الخطاب عن المالك على الاطلاق وليس له مخاطب سوى ذاته المقدسة لمن الملك اليوم .. وحيث إنه ليس ثمة مجيب فيقول نفسه : لله الواحد القهّار .. وهذا اليوم المطلق الذي هو يوم خروج شمس الحقيقة عن حجاب أفق التعينات يوم الدين بمعنى ، لأن كل موجود من الموجودات في ظلّ الاسم المناسب له يفنى في الحق فاذا نفخ في الصور فيظهر من ذلك الاسم ويقترن مع توابع ذلك الاسم فريق في الجنة وفريق في السعير والانسان الكامل في هذا العالم على حسب السلوك الى الله والهجرة اليه يخرج عن هذه الحجب وتظهر وتثبت له أحكام القيامة والساعة ويوم الدين فيظهر الحق على قلبه بمالكيته في هذا المعراج الصلاتي ويكون لسانه ترجمانا

لقلبه وظاهره لسانا لمشاهدات باطنه ، وهذا أحد أسرار اختصاص المالكية بيوم الدين .

الهام عرشي :

اعلم أن في باب العرش وحملته اختلافات وفي ظواهر الاخبار الشريفة أيضا اختلافا وان كان الاختلاف منفيا على حسب الباطن فان العرش في النظر العرفاني والطريق البرهاني يطلق على معان كثيرة ، واحد تلك المعاني ولم أره في لسان القوم هو الحضرة الواحدية التي هي مستوى الفيض الأقدس وحملته أربعة من أمهات الاسماء وهي : الاول والاخر والظاهر والباطن ، والمعنى الاخر وما رأيته ايضا في لسان القوم الفيض المقدّس الذي هو مستوى الاسم الاعظم وحامله الرحمن والرحيم والرب والمالك ، ومن اطلاقاته جميع ما سوى الله وحامله اربعة من الملائكة اسرافيل وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل ، والمعنى الاخر هو جسم الكل وحامله أربعة أملاك وهي صور أرباب الانواع وقد أشير اليه في رواية الكافي . وربما أطلق على العلم ولعل المراد من العلم ، العلم الفعلي للحق الذي هو عبارة عن مقام الولاية الكبرى وحملته أربعة من الاولياء الكمّل في الامم السابقة وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى على نبينا وآله وعليهم السلام ، وأربعة من الكمّل في هذه الامة الرسول الخاتم وأمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام ، فاذا علمت هذه المقدمة فاعلم :

انه في السورة الشريفة الحمد بعد اسم الله الذي هو اشارة الى الذات اختصت بالذكر هذه الاسماء الشريفة الاربعة وهي الرب والرحمن والرحيم والمالك ، ويمكن أن يكون هذا الاختصاص لان هذه الاسماء الشريفة

الاربعة حملة عرش الوحدانية على حسب الباطن ومظاهرها الملائكة الاربعة المقرّبون للحق تعالى حملة عرش التحقق ، فالاسم المبارك الرب باطن ميكائيل وهو بمظهريته للرب موكل بالارزاق ومربي دار الوجود ، والاسم الشريف الرحمن باطن اسرافيل منشيء الارواح والنافخ في الصور وباسط الارواح والصور كما ان بسط الوجود ايضا باسم الرحمن ، والاسم الشريف الرحيم هو باطن جبرائيل الموكل على تعليم الموجودات وتكميلها . والاسم الشريف المالك هو باطن عزرائيل الموكل بقبض الارواح والصور وارجاع الظاهر الى الباطن ، فالسورة الشريفة الى مالك يوم الدين مشتملة على عرش الوحدانية وعرش التحقق ومشيرة الى حوامله ، فجميع دائرة الوجود وتجليات الغيب والشهود التي ترجمانها القرآن مذكورة الى هذا الموضع من السورة ، وهذا المعنى موجود جمعا في بسم الله الذي هو الاسم الاعظم وفي الباء التي هي مقام السببية وفي النقطة التي هي سر السببية وعليّ عليه السلام هو سر الولاية والله أعلم .

تنبيه عرفاني :

لعل في تقديم الرب وذكر الرحمن والرحيم بعده وفي تأخير المالك ، إشارة لطيفة الى كيفية سلوك الانسان من النشأة الملكية الدنيوية حتى الفناء الكلي او حتى مقام الحضور عند مالك الملوك . فالسالك ما دام في مبادىء السير فهو تحت تربية رب العالمين التدريجية لانه ايضا من العالمين وسلوكه تحت تصرف الزمان والتدرج فاذا انسلخ عن عالم الطبيعة المتصرمة بقدم السلوك تتجلى لقلبه مرتبة الاسماء المحيطة التي لا تتعلق بالعالم فقط الذي يغلب عليه جانب السوائية ، وحيث ان للاسم الرحمن الشريف مزيد

اختصاص بين الاسماء المحيطة فلهذه الجهة قد ذكر ، وحين أن الرحمن ظهور الرحمة ومرتبة البسط المطلق فقد قدم على الرحيم الاقرب الى أفق البطون .

ففي السلوك العرفاني تتجلى أولا الاسماء الظاهرة وبعدها الاسماء الباطنة لان سير السالك من الكثرة الى الوحدة حتى ينتهي الى الاسماء الباطنية المحصنة التي منها اسم المالك ، ففي التجلي بالمالكية تضمحل كثرات عالم الغيب والشهادة ويحصل الفناء الكلّي والحضور المطلق فاذا تخلص عن حجب الكثرة بظهور الوحدة والسلطنة الالهية ونال المشاهدة الحضورية فيخاطب مخاطبة حضورية ويقول : اياك نعبد . فدائرة سير السائرين ايضا بتمامها مذكورة في السورة المباركة من أخيرة حجب عالم الطبيعة الى رفع جميع الحجب الظلمانية والنورانية وحصول الحضور المطلق وهذا الحضور هو القيامة الكبرى للسالك وقيام ساعته ، ولعل المقصود من المستثنى في الآية الشريفة « فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله» . هو هذا النوع من أهل السلوك فانه قد حصل لهم الصعق والمحو قبل النفخ الكلي في الصور ، ولعل هذا المعنى احد محتملات قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « انا والساعة كهاتين » وجمع بين السبّابتين الشريفتين .

تنبيه أدبي :

ما رأيناه في التفاسير المتداولة أو نقل عنهم أنهم فسّروا الدين بمعنى الجزاء والحساب ، وقد ذكر هذا المعنى في كتب اللغة أيضا واستشهد عليه بقول الشعراء العرب ، مثل قول الشاعر « واعلم بأنّ كما تدين تدان »

والقول المنسوب الى شهل بن ربيعة « ولم يبق سوى العدوان دنّاهم كما دانوا » وقالوا بأن الديّان وهو من الاسماء الالهية ايضا بهذا المعنى ولعل المراد من الدين الشريعة الحقة ، وحيث أن آثار الدين تظهر في يوم القيامة وتلقي الستار عن وجه الحقائق الدينية فيحق أن يقال لذاك اليوم يوم الدين ، كما أن يومنا هذا هو يوم الدنبا لانه يوم ظهور آثار الدنيا ولم تظهر صورة حقيقة الدين بعد ، وهذا يتنبه قوله تعالى : « وذكرهم بأيام الله »[٢٨] ، وهي الايام التي يعامل فيها الحق تعالى قوما بالقهر والسلطنة ، ويوم القيامة ايضا يوم الله وكذلك هو يوم الدين أيضا لانه يوم ظهور السلطنة الالهية ويوم بروز حقيقة دين الله .

قوله تعالى : اياك نعبد واياك نستعين :

اعلم أيها العزيز أنه اذا علم السالك في طريق المعرفة ان المحامد والمدائح بتمامها مختصة بذات الحق وعلم أن قبض الوجود وبسطه منه وعلم أن أزمّة الامور في الاول والاخر والمبدأ والمنتهى بيد مالكيته وتجلى لقلبه توحيد الذات والصفات والافعال فانه يحصر العبادة والاستعانة بالحق ، ويرى جميع دار التحقق خاضعة لذاته المقدسة طوعا أو كرها ولا يرى قادرا في دار التحقق حتى ينسب الاعانة اليه ، وما ذكره بعض أهل الظاهر من أن حصر العبادة حقيقي واما حصر الاستعانة فليس بحقيقي لانه يستعان بغير الحق ، وفي القرآن الشريف ذكر سبحانه ايضا « وتعاونوا على البِرّ والتقوى »[٢٩] . وقال : « واستعينوا بالصبر والصلاة »[٣٠] وايضا من المعلوم بالضرورة أن سيرة النبي الاكرم والائمة الهداة وأصحابهم المسلمين قائمة على الاستعانة بغير الحق في غالب الامور المباحة مثل الاستعانة بالدابة

والخادم والزوجة والرفيق والرسول والاجير وغير ذلك ، فهذا كله كلام على أسلوب أهل الظاهر ، وأما من له علم بالتوحيد الفعلي للحق تعالى ويرى أن نظام الوجود صورة فاعلية الحق تعالى ويرى ببصيرته وقلبه النوراني اما برهانا او عيانا انه لا مؤثر في الوجود الا الله ، فهو يرى حصر الاستعانة ايضا حصرا حقيقيا ويرى اعانة سائر الموجودات صورة لاعانة الحق ، وبناء على ما يذكره أهل الظاهر فاختصاص المحامد لله ايضا لا وجه له لانه على هذا المسلك ، فلسائر الموجودات تصرفات واختيارات وجمال وكمال تليق بها للمدح والحمد بل الاحياء والاماتة والرزق والخلق وسائر الامور مشتركة بين الحق والخلق ، وهذه الامور في نظر أهل الله هي الشرك وقد عبّر في الروايات عن هذه الامور بالشرك الخفيّ ، كما ان ادارة الخاتم لتذكر شيء عدّت من الشرك الخفيّ .

وبالجملة ، اياك نعبد واياك نستعين من متفرعات الحمد لله الذي هو اشارة الى التوحيد الحقيقي ، ومن لم تتجلّ حقيقة التوحيد في قلبه ولم يطهر قلبه من مطلق الشرك فقوله إيّاك نعبد عار عن الحقيقة ولا يتمكن من حصر العبادة والاستعانة بالحق ولا يكون شاهدا لله وطالبا لله ، واذا تجلى التوحيد في القلب فانه ينصرف عن الموجودات ويتعلق بعزّ قدس الحق بمقدار تجلّيه الى أن يشاهد انه باسم الله يقع اياك نعبد واياك نستعين وتتجلى لقلبه بعض حقائق « انت كما أثنيت على نفسك » .

تنبيه إشراقي :

قد تبيّن من بيانات هذه الرسالة نكتة العدول عن الغيبة الى

الخطاب ، وهذا وان كان بنفسه من محسنات الكلام ومزايا البلاغة وكثيرا ما يقع في كلام الفصحاء والبلغاء ويوجب حسن الكلام ، ونفس الالتفات من حال الى حال يرفع السآمة عن المخاطب ويعطي روحه نشاطا جديدا ، ولكن حيث ان الصلاة معراج الوصول الى حضرة القدس ومرقاة حصول مقام الانس فهذه السورة الشريفة تعطي تقريرا للترقي الروحاني والسفر العرفاني . وحيث أن العبد في بدء السلوك الى الله محجوب في الحجب الظلمانية لعالم الطبع والحجب النورانية لعالم الغيب ومحبوس فيها ، والسفر الى الله هو الخروج من هذه الحجب بقدم السلوك المعنوي ، وفي الحقيقة المهاجرة الى الله هي الرجوع من بيت النفس وبيت الخلق الى الله وترك الكثرات ورفض غبار الغيرية وحصول التوحيدات والغيبة عن الخلق والحضور لدى الرب ، فاذا رأى في الآية الشريفة مالك يوم الدين الكثرات منطوية تحت سطوع نور المالكية والقاهرية فتحصل له حالة المحو عن الكثرة ويحصل له الحضور في الحضرة ويقدم العبودية بالمخاطبة الحضورية ومشاهدة الجمال والجلال ويعرض مشاهداته لله وطلبه لله على محضر القدس ومحفل الانس ، ولعل النكتة في أن العبد يؤدي هذا المقصد بضمير إياك هي ان هذا الضمير راجع الى الذات مضمحلة فيها الكثرات فيمكن ان تحصل للسالك في هذا المقام حالة التوحيد الذاتي وينصرف عن كثرة الاسماء والصفات ايضا وتكون وجهة القلب حضرة الذات بلا حجب الكثرات. وهذا هو كمال التوحيد الذي يقوله امام الموحدين ومقدم حلقة العارفين وقائد العاشقين ورأس سلسلة المجذوبين والمحبوبين أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أولاده المعصومين : « وكمال التوحيد نفي الصفات عنه » لان للصفة وجهة الغيرية والكثرة . وهذا التوجه الى الكثرة الاسمائية بعيد عن سرائر

التوحيد وحقائق التجريد ، ولهذا فلعل سر خطيئة آدم عليه السلام كان التوجّه الى الكثرة الاسمائية التي هي روح الشجرة المنهية .

تحقيق عرفاني :

اعلم أن أهل الظاهر ذكروا في ذكر نعبد ونستعين بصيغة المتكلم مع الغير مع أن العابد واحد ، نكاتا منها أن العابد يحتال حيلة شرعية تكون عبادته بها مقبولة لجناب الحق تعالى وهي أن يقدم عبادته لجناب القدس وحضرة الرحمة ضمن عبادة سائر المخلوقين ومنهم كمّل أولياء الله الذين يقبل الله تعالى عبادتهم كي تكون بهذه الوسيلة عبادته أيضا مقبولة ضمنا لان تبعض الصفقة ليس من عادة الكريم .

ومنها تشريع الصلاة اذ كانت في أول الامر مع الجماعة ، فمن هذه الجهة أدّيت بلفظ الجمع ونحن ذكرنا نكتة في السرّ الجملي للاذان والاقامة يكتشف منها هذا السر في الجملة ، وهي أن الاذان اعلان لقوى السالك الملكية والملكوتية بالحضور في المحضر وان الاقامة هي اقامتها في الحضور ، فاذا أحضر السالك قواه الملكية والملكوتية في المحضر وقام القلب الذي هو إمامها بسمة الامامة فقد قامت الصلاة وان المؤمن وحده جماعة .. فقول نعبد ونستعين واهدنا كلها لاجل هذا الجمع الحاضر في محضر القدس ، وقد اشير الى هذا المعنى في الروايات والادعية الصادرة عن أهل بيت العصمة والطهارة منابع العرفان والشهود .

والوجه الاخر الذي يتراءى في نظر الكاتب هو أن السالك في الحمد لله اذا جعل المحامد والاثنية من كل حامد ومثن في الملك والملكوت مقصورة ومخصوصة بالذات المقدسة للحق وقد ظهر ايضا في مدارك برهان أئمة

البرهان وقلوب أصحاب العرفان أن لجميع دائرة الوجود بملكها وملكوتها وقضها وقضيضها حياة شعورية ادراكية حيوانية بل انسانية وهي حامدة مسبحة للحق تعالى عن استشعار وإدراك . وان الخضوع لدى حضرة الكامل المقدسة والجميل على الاطلاق ثابت في فطرة جميع الموجودات وخصوصا النوع الانساني وناصية الكل في جناب قدسه على التراب كما قال تعالى في القرآن الشريف : « وان من شيء الا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم »[٣١] وسائر الآيات الشريفة وأخبار المعصومين المشحونة بهذه اللطيفة الالهية مؤيدة بالبرهان الحكمي المتين ، فاذا وجد السالك الى الله هذه الحقيقة بقدم الاستدلال البرهاني او الذوق الايماني او المشاهدة العرفانية فهو سيدرك في أي مقام هو فيه ان جميع ذرات الوجود وسكنة الغيب والشهود عابدة للمعبود على الاطلاق وتطلب موجدها فيظهر بصيغة الجمع ان جميع الموجودات في جميع حركاتها وسكناتها تعبد الذات المقدسة للحق تعالى وتستعين به .

تنبيه ونكتة :

اعلم ان العلماء قالوا في وجه تقديم اياك نعبد واياك نستعين مع ان القاعدة تقتضي ان تكون الاستعانة في العبادة مقدمة على نفس العبادة ، ان ما قدّم هو العبادة على الاستعانة لا على الاعانة وربما تكون الاعانة من دون الاستعانة .

وايضا حيث أنهما مرتبطتان احداهما بالاخرى فلا فرق في التقديم والتأخير كما يقال قضيت حقي فأحسنت اليّ ، وأحسنت إليّ فقضيت حقي .

وايضا الاستعانة هي للعبادة المستأنفة لا العبادة الواقعة ، وبرودة هذه الوجوه ليست مختفية لاهل الذوق ، ولعل النكتة فيه أن حصر الاستعانة بالحق تعالى متأخر عن حصر العبادة على حسب السلوك الى الله كما هو واضح فان كثيرا من الموحدين في العبادة والحاصرين العبادة في الحق مشركون في الاستعانة ولا يحصرون الاستعانة بالحق كما نقلناه عن بعض أرباب التفسير ان حصر الاستعانة ليس حقيقيا ، فالحصر في العبادة بمعناه المتعارف من أوائل مقامات الموحدين واما حصر الاستعانة فهو ترك غير الحق مطلقا ولا يخفى ان المقصود من الاستعانة ليس الاستعانة في العبادة فقط بل الاستعانة في مطلق الامور وهذا انما يكون بعد رفض الاسباب وترك الكثرات والاقبال التام على الله .

وبعبارة اخرى ، حصر العبادة هو حب الحق وطلب الحق وترك طلب الغير ، وأما حصر الاستعانة فهو رؤية الحق وترك رؤية الغير ، وفي مقامات العارفين ومنازل السالكين ترك رؤية الغير متأخّر عن ترك طلب الغير .

فائدة عرفانية :

اعلم ايها العبد السالك ان حصر العبادة والاستعانة للحق ايضا ليس من مقامات الموحّدين والمدارج الكمالية للسالكين لان فيه دعوى تنافي التوحيد والتجريد بل رؤية العبادة والعابد والمعبود والمستعين والمستعان به والاستعانة كلها منافية للتوحيد ، وفي التوحيد الحقيقي الذي يتجلى لقلب السالك تستهلك كل هذه الكثرات وتضمحلّ رؤية كل هذه الامور ، نعم الذين انتبهوا من الجذبة الغيبية وحصل لهم مقام الصحو فليست الكثرة حجابا لهم وذلك لان الناس على طوائف .

فطائفة هم المحجوبون أمثالنا المساكين المستغرقون في الحجب الظلمانية للطبيعة ، وطائفة هم السالكون المسافرون الى الله والمهاجرون الى حضرة القدس . وطائفة هم الواصلون قد خرجوا عن حجب الكثرة واشتغلوا بالحق ، وهم عن الخلق محجوبون وغافلون وقد حصل لهم الصعق الكلي والمحو المطلق ، وطائفة هم الراجعون الى الخلق الذين لهم منصب المكمّلية والهادويّة كالانبياء العظام والاوصياء لهم ، عليهم السلام ، وهذه الطائفة مع وقوعهم في الكثرة واشتغالهم بارشاد الخلق لا تكون الكثرة حجابا لهم ، ولهم مقام البرزخية ، فبناء على هذا يفرق اياك نعبد واياك نستعين على حسب حالات هؤلاء الطوائف ، فمن امثالنا المحجوبين فهو ادّعاء صرف وصورة محضة فان تنبّهنا لحجابنا ووجدنا نقصاننا ، فبمقدار ما اطّلعنا على نقصاننا تنوّر عبادتنا وتقع موردا لعناية الحق تعالى وأما من السالكين فيقع هذا القول بمقدار سلوكهم قريبا من الحق ومن الواصلين فهو بالنسبة الى رؤيتهم الحق حقيقة وبالنسبة الى رؤية الكثرة صورة صرفة وجري على العادة ، ومن الكاملين حقيقة صرفة فليس لهم حجاب حقي ولا حجاب خلقي .

ايقاظ ايماني :

اعلم ايها العزيز اننا ما دمنا في هذه الحجب الغليظة لعالم الطبيعة ونصرف الوقت في تعمير الدنيا ولذائذها غافلين عن الحق تعالى وذكره ، والتفكر فيه فجميع عباداتنا وأذكارنا وقراءاتنا عارية عن الحقيقة فلا في الحمد لله نتمكن من حصر المحامد للحق ولا في اياك نعبد واياك نستعين نسلك طريقا من الحقيقة بل نحن مع هذه الدعاوى الفارغة مخزيون وناكسو الرؤوس

في محضر الحق تعالى والملائكة المقربين والانبياء المرسلين والاولياء المعصومين فان من كان لسان حاله ومقاله مشحونا بمدح أهل الدنيا كيف يقول الحمد لله ، وان من كانت وجهة قلبه الى الطبيعة ولم يشمّ رائحة الالوهية وكان اعتماده واتكاله على الخلق فبأي لسان يقول اياك نعبد واياك نستعين ، فاذا كنت من رجال هذا الميدان فشمّر ذيل الهمة وأوصل الى قلبك هذه الحقائق واللطائف التي ذكرت في خلال هذه الرسالة في أوائل الامر بشدّة التذكر والتفكر في عظمة الحق وفي ذلة المخلوق وعجزه وفقره ، وأحيي قلبك بذكر الحق تعالى كي تصل رائحة من التوحيد الى شامة قلبك وتجد طريقا الى صلاة أهل المعرفة بالامداد الغيبي ، وان لم تكن من رجال هذا الميدان فلا أقل من أن تجعل نقصك نصب عينيك . وتوجّه الى ذلتك وعجزك وقم بالامر بالخجلة والاستحياء ، واحذر من دعوى العبودية واقرأ هذه الآيات الشريفة التي لست متحققا بلطائفها اما بلسان الكمّل ، واما ان يكون في نيّتك قراءة صورة القرآن صرفا حتى لا تدّعي باطلا ولا يكون ادّعاؤك كاذبا على الاقل .

فرع فقهي :

ذهب بعض الفقهاء الى عدم جواز قصد الانشاء في ايّاك نعبد واياك نستعين وأمثاله ظنّا منهم أنه ينافي القرآنية والقراءة لان القراءة هي نقل كلام الغير .

وهذا الكلام ليس له وجه لان الانسان كما يمكن أن يمدح بكلامه مثلا انسانا يمكن أن يمدحه بكلام الاخرين ، فمثلا اذا مدحنا شخصا بشعر من الحافظ يصدق انّا مدحناه ويصدق ايضا انا قرأنا شعر الحافظ

فإذا أنشأنا حقيقة جميع المحامد للحق بالحمد لله رب العالمين وأنشأنا قصر العبادة للحق بايّاك نعبد يصدق أنّا حمدنا الله بكلامه وقصرنا العبادة لله بكلامه بل نقول :

اذا جرد أحد كلامه عن هذا المعنى الانشائي ، فهذا التجريد مخالف للاحتياط ان لم نقل ببطلان قراءته ، نعم لو لم يعلم أحد معناه فلا يلزم له أن يتعلم بل تكفي له قراءة صورة الآية بما لها من المعنى ، وفي الروايات الشريفة اشارة الى ان القارىء ينشىء كما في الحديث القدسي : « فاذا قال ـــ اي العبد ـــ في صلاته بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله ذكرني عبدي واذا قال الحمد لله يقول الله حمدني عبدي » الى اخره .. وما لم يكن انشاء الحمد والتثنية من جانب العبد فلا معنى لذكرني وحمدني وفي احاديث المعراج يقول « الآن وصلت فسمّ باسمي » . ويعلم من الحالات التي كانت تحصل لائمة الهدى في مالك يوم الدين واياك نعبد وتكرار بعضهم هذه الآيات انهم كانوا ينشؤون وليست قراءتهم قراءة صرفة ومن قبيل اسماعيل يشهد ان لا اله الا الله ، ومن احدى مهمات اختلاف مراتب صلاة أهل الله الاختلاف في قراءاتهم كما اشير في السابق الى نبذة منها ، وهذا لا يتحقق الا اذا كان القارىء منشئا للقراءة والاذكار ، والشواهد على هذا المعنى أكثر مما ذكرنا .

وبالجملة فجواز انشاء هذه المعاني بالكلام الالهي بلا اشكال .

فائدة :

ان أهل اللغة قالوا بأن العبادة بمعنى غاية الخضوع فلا تليق الا لمن له أعلى مراتب الوجود والكمال وأعظم مراتب النعم والاحسان . ومن هذا

تكون عبادة غير الحق شركا ولعل في العبادة التي في اللغة الفارسية بمعنى (پرستش وبندگي) معنى مأخوذا في حقيقتها أكثر من المعنى الذي ذكروه لها ، وهو عبارة عن الخضوع للخالق ولله ولهذا يلازم هذا النحو من الخضوع اتخاذ المعبود الها وخالقا أو نظيرا وشبيها ومظهرا له مثلا فلهذه الجهة تكون عبادة غير الحق تعالى شركا وكفرا ، وأمّا مطلق الخضوع من دون هذا الاعتقاد أو التجزّم بهذا المعنى ولو تكلّفا فانه لا يوجب الكفر والشرك وان بلغ غاية الخضوع وان كان بعض أنواعه حراما كتعفير الجبين بالتراب للخضوع فهذا وان لم يكن عبادة لكنه ممنوع شرعا على الظاهر ، فالحرمات التي يراعيها ارباب المذاهب لاعاظم مذاهبهم مع الاعتقاد بأنهم عباد فقراء الى الحق تعالى في كل شيء في أصل الوجود وكماله وعباد صالحون ، ومع انهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرّا ولا موتا ولا حياة ومقربو جناب الحق تعالى ومورد عناياته ووسائل عطياته بواسطة العبودية ليس فيها شائبة الشرك والكفر ، وحرمة خاصة الله حرمته و (حبّ خاصان خدا حبّ خدا است)(٣٢) واشهد بالله وكفى بالله شهيدا ان فيما بين الطوائف الطائفة التي امتازت عن جميع طوائف العائلة البشرية في توحيد الحق تعالى وتقديسه وتنزيهه ببركة أهل بيت الوحي والعصمة وخزّان العلم والحكمة هي طائفة الشيعة الاثنا عشرية وكتبهم في أصول العقائد مثل الكتاب الشريف اصول الكافي والكتاب الشريف توحيد الشيخ الصدوق رضوان الله عليه ، وخطب أئمتهم المعصومين وأدعيتهم عليهم السلام التي صدرت في توحيد الحق جلّ وعلا وتقديسه من معادن الوحي والتنزيل تشهد أن تلك العلوم لم تكن لها سابقة لدى البشر وبعد الكتاب المقدس الوحي الالهي والقرآن الشريف الذي كتب بيد القدرة لم يقدّس ولم ينزّه أحد الحق

تعالى مثلهم ، وعلى الرغم من أن الشيعة في جميع الامصار والاعصار اتّبعت هؤلاء الائمة المعصومين المنزّهين الموحّدين وعرفت الحق ونزّهته ووحّدته بالبراهين الواضحة . فمع ذلك فان بعض الطوائف المعلوم من عقائدهم وكتبهم الالحاد لما فيهم من النصب الباطني قد فتحوا باب الطعن واللعن على الشيعة ونسبوا التابعين لاهل بيت العصمة الى الشرك والكفر وهذا وان كان في سوق أهل المعرفة لا يقوّم بشيء ولكن فيه مفسدة ان يبعّد الناس الناقصين والعوام الجاهلين عن معادن العلم ويسوقهم الى الجهل والشقاوة وهذه جناية عظيمة لنوع البشر لا يمكن جبرانها بوجه ، فلهذه الجهة طبقا للموازين العقلية والشرعية يكون وزر هذه الجماعة القاصرة الجاهلة المسكينة وذنبها على الذين لم يراعوا الانصاف ومنعوا نشر المعارف والاحكام الالهية لمنافع خيالية في أيام معدودة وأوجبوا الشقاوة للنوع البشري وضيّعوا وأبطلوا جميع ما تحمّل خير البشر صلوات الله عليهم من التعب وأغلقوا باب أهل بيت الوحي والتنزيل على الناس ، اللهم العنهم لعنا وبيلا وعذبهم عذابا أليما .

قوله تعالى : اهدنا الصراط المستقيم الى آخر السورة :

اعلم ايها العزيز حيث أن في السورة الشريفة الحمد اشارة الى كيفية سلوك ارباب المعرفة والارتياض وإلى إياك نعبد جميع كيفية السلوك من الخلق الى الحق فاذا ارتقى السالك من التجليات الافعالية الى التجليات الصفاتية ومنها الى التجليات الذاتية وخرج من الحجب النورانية والظلمانية ووصل الى مقام الحضور والمشاهدة فحصلت له مرتبة الفناء التام واصابه الاستهلاك الكلي ، فاذا تمّ السير الى الله بغروب أفق العبودية وطلوع سلطنة المالكية في

مالك يوم الدين ففي منتهى هذا السلوك تصيبه حالة التمكن والاستقرار ويصحو السالك وتحصل له حالة الصحو ويتوجّه الى مقامه ولكن بتبع التوجّه الى الحق بعكس حال الرجوع الى الله الذي كان التوجه الى الحق فيه بتبع التوجه الى الخلق ، وبعبارة أخرى في حال السلوك الى الله كان يرى الحق في الحجاب الخلقي وبعد الرجوع من مرتبة الفناء الكلي التي حصلت في مالك يوم الدين يرى الخلق في حجاب الحق ، ومن هذه الجهة يقول اياك نعبد بتقديم ضمير ايّا وكاف الخطاب على ذاته وعبادته وحيث أنه لا يمكن ألاّ يكون لهذه الحالة ثبات ويتصوّر في هذا المقام ايضا الزلّة فيطلب من الحق تعالى ثباته ولزومه بقوله اهدنا اي ألزمنا كما فسر بهذا .

وليعلم أن هذا المقام الذي ذكر ، والتفسير الذي بيّن انما هو للكمّل من أهل المعرفة الذين مقامهم الاول أنهم في مقام رجوعهم من السير الى الله يكون الحق تعالى حجابا لهم عن الخلق ومقام كمالهم هو حالة البرزخية الكبرى التي لا يكون الخلق فيها حجابا لهم من الحق كأمثالنا المحجوبين ولا الحق يكون حجابا لهم عن الخلق كالواصلين المشتاقين والفانين المجذوبين ، فالصراط المستقيم لهم عبارة عن هذه الحالة البرزخية المتوسطة بين النشأتين وهي صراط الحق وبناء على هذا يكون المقصود من الذين أنعمت عليهم هؤلاء الذين قدر الحق تعالى في الحضرة العلمية بالتجلي بالفيض الاقدس استعدادهم وبعد الفناء الكلي أرجعهم الى مملكتهم ويكون المغضوب عليهم على هذا التفسير المحجوبين قبل الوصول والضالين هم الفانون في الحضرة واما غير الكمّل فانهم إن لم يردوا في السلوك فهذه الامور في حقهم غير صحيحة وصراطهم صراط ظاهر الشريعة ولهذا فسّر الصراط المستقيم بالدين والاسلام وأمثالهما وإن كانوا من أهل السلوك فالمقصود من الهداية ومن الصراط

المستقيم اقرب طرق الوصول الى الله وهو طريق رسول الله وأهل بيته كما فسّر برسول الله وأئمة الهدى وأمير المؤمنين عليهم السلام ، وكما في الحديث أن رسول الله رسم خطا مستقيما ورسم في أطرافه خطوطا وقال صلى الله عليه وآله هذا الخط الوسط المستقيم لي ولعل المراد من الامة الوسط في قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا »[٣٣] . الوسطية بقول مطلق وبجميع المعاني ومن جملتها الوسطية في جميع المعارف والكمالات الروحية وهي مقام البرزخية الكبرى والوسطية العظمى ولهذا يختص هذا المقام بالكمّل من اولياء الله ، ولذا ورد في الرواية ان المقصود من هذه الآية أئمة الهدى عليهم السلام كما قال الباقر عليه السلام ليزيد بن معاوية العجلي : « نحن الامة الوسط ونحن شهداء الله تبارك وتعالى على خلقه » الحديث . وفي رواية أخرى « الينا يرجع الغالي وبنا يلحق المقصّر » وفي هذا الحديث اشارة الى ما ذكر .

تنبيه إشراقي وإشراق عرفاني :

اعلم ايها الطالب للحق والحقيقة ان الحق تبارك وتعالى لما خلق نظام الوجود ومظاهر الغيب والشهود على حسب الحب الذاتي بالمعروفية في حضرة الاسماء والصفات بمقتضى الحديث الشريف : كنت كنزا مخفيّا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف .. فأودع وأبدع في فطرة جميع الموجودات الحب الذاتي والعشق الجبلي ، فجميع الموجودات بتلك الجذبة الالهية ونار العشق الرباني تتوجه الى الكمال المطلق وتطلب وتعشق الجميل على الاطلاق وجعل سبحانه لكل واحد منها نورا فطريا الهيا يجد بذلك النور طريق الوصول الى المقصد والمقصود ، وهذه النار وهذا النور أحدهما رفرف

الوصول والاخر براق العروج ، ولعل براق رسول الله ورفرفه كانت رقيقة هذه اللطيفة وصورة ممثلة ملكية لهذه الحقيقة ولهذا أنزلت من الجنة التي هي باطن هذا العالم ، وحيث أن الموجودات نزلت في مراتب التعينات وحجبت عن جمال الجميل المحبوب جلت عظمته فيخرجها الحق تعالى بهذه النار والنور عن حجب التعينات الظلمانية والإنّيّات النورانية بالاسم المبارك الهادي الذي هو حقيقة هذه الرقائق ويوصلها الى المقصد الحقيقي وجوار محبوبها في أقرب الطرق ، فذاك النور نور هداية الحق تعالى وتلك النار نار التوفيق الالهي ، والسلوك في الطريق الاقرب هو الصراط المستقيم والحق تعالى على ذاك الصراط المستقيم ولعله تكون الاشارة الى هذه الهداية وهذا السير وهذا المقصد الآية الشريفة : « ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم »[٣٤] كما هو ظاهر لاهل المعرفة .

وليعلم أن لكل من الموجودات صراطا خاصّا به ونورا وهداية مخصوصا به والطرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق ، وحيث أن في كل تعيّن حجابا ظلمانيا وفي كل وجود وانيّة حجابا نورانيا ، والانسان مجمع التعيّنات وجامع الموجودات فهو أحجب الموجودات عن الحق تعالى ولعله الى هذا المعنى تشير الآية الكريمة : « ثم رددناه أسفل سافلين »[٣٥] ومن هذه الجهة فصراط الانسان أطول الصرط وأظلمها ، وايضا حيث ان رب الانسان حضرة اسم الله الاعظم ونسبة الظاهر والباطن والاول والاخر والرحمة والقهر . وبكلمة أخيرة نسبة جميع الاسماء المتقابلة له على السواء فلا بد أن يحصل لنفس الانسان في منتهى سيره مقام البرزخية الكبرى ، ولهذه الجهة يكون صراطه أدق من جميع الصرط .

تنبيه ايماني :

كما ذكر وعلم أن للهداية على حسب أنواع سير السائرين ومراتب سلوك السالكين الى الله مقامات ومراتب ونحن نشير بطريق الاجمال الى بعض مقاماتها ليعلم في ضمنه الصراط المستقيم وصراط المفرطين . وصراط المفرِّطين الذين هم المغضوب عليهم والضالون على حسب كل مرتبة من المراتب .

الاول : نور الهداية الفطري وقد أشير اليه في التنبيه السابق . فالصراط المستقيم في هذه المرتبة من الهداية عبارة عن السلوك الى الله بلا احتجاب بالحجب الملكية أو الملكوتية او أنه السلوك الى الله بلا احتجاب بحجب المعاصي القالبية او المعاصي القلبية أو أنه السلوك الى الله بلا احتجاب بالحجب النورانية او الظلمانية ، او السلوك الى الله بلا احتجاب بحجب الوحدة او الكثرة ولعل آية : « يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء »[٣٦] تشير الى هذه المرتبة من الهداية والاحتجاب التي قدرت في حضرة القدر وهي عندنا عبارة عن مرتبة الواحدية بالتجلي بحضرات الاعيان الثابتة ، وتفصيله خارج عن مجال هذه الرسالة بل عن نطاق التحرير والبيان وهو سرّ من أسرار الله وستر من استار الله .

الثاني : الهداية بنور القرآن وفي مقابله الغلوّ والتقصير عن معرفته أو الوقوف على الظاهر والوقوف على الباطن ، كما أن بعض أهل الظاهر يرون أن علوم القرآن عبارة عن المعاني العرفية العامية والمفاهيم السوقية والوضعية ولهذه العقيدة لا يتفكرون في القرآن ولا يتدبرونه ، واستفادتهم من هذه الصحيفة النورانية المتكفّلة لجميع السعادات الروحية والجسمية والقلبية والقالبية

منحصرة بالمقررات الصورية الظاهرية ، والآيات الكثيرة الدالة على أن التدبّر والتذكّر لازم أو راجح ويفتح أبوابا من المعرفة بالاستنارة بنور القرآن يجعلونها وراء ظهورهم فكأن القرآن نزل للدعوة الى الدنيا ومستلذاتها الحيوانية وتأكيد المقام الحيواني والشهوات البهيمية .

وبعض أهل الباطن اتباعا لظنونهم ينصرفون عن ظاهر القرآن ودعواته الصورية التي هي برنامج التأدّب بآداب المحضر الالهي وكيفية السلوك الى الله وهم عنها غافلون وينحرفون عن ظاهر القرآن بتلبيسات ابليس اللعين والنفس الامارة بالسوء ويتشبّثون بزعمهم بالعلوم الباطنية مع أن طريق الوصول الى الباطن بالتأدب بالظاهر فهاتان الطائفتان خارجتان عن جادة الاعتدال ومحرومتان من نور الهداية الى الصراط المستقيم القرآني ومنسوبتان الى الافراط والتفريط ولكن العالم المحقق والعارف المدقق يقوم بالظاهر والباطن ويتأدب بالآداب الصورية والمعنوية ؛ فكما أنه ينوّر الظاهر بنور القرآن ينوّر الباطن ايضا بأنوار معارفه وتوحيده وتجريده .

فليعلم أهل الظاهر أن قصر القرآن على الآداب الصورية الظاهرية ونبذة من الوظائف العملية والاخلاقية والعقائد العامية في باب التوحيد والاسماء والصفات إنكار لحق القرآن واعتقاد النقص في الشريعة الختمية التي لا بد ألا يتصوّر أكمل منها والا تكون خاتميته في سنّة العدل محالا ، فحيث أن هذه الشريعة خاتمة الشرائع والقرآن خاتم الكتب النازلة والرابطة الاخيرة بين الخالق والمخلوق ، فلا بد أن يكون في حقائق التوحيد والتجريد والمعارف الالهية التي هي المقصد الاصلي والغاية الذاتية للاديان والشرائع والكتب النازلة الالهية ، في المرتبة النهائية ومنتهى أوج الكمال والا يلزم النقص في الشريعة وهو خلاف العدل الالهي واللطف الربوبي وهذا بنفسه

محال فضيح وعار قبيح لا تغسل وَسْمَةَ عاره عن وجه الاديان الحقّة بسبعة أبحر والعياذ بالله.

وليعلم أهل الباطن أن الوصول الى المقصد الاصلي والغاية الحقيقية لا يمكن الا بتطهير الظاهر والباطن ، وبدون التشبّث بالصورة والظاهر لا يمكن الوصول الى اللبّ والباطن ، وبدون التلبّس بلباس ظاهر الشريعة لا يوجد الطريق الى الباطن ، ففي ترك الظاهر ابطال لظاهر الشريعة وباطنها وهذا من تلبيسات شياطين الجن والانس ، وقد ذكرنا نبذة من هذا المطلب في كتاب شرح أربعين حديثا .

الثالث : الهداية بنور الشريعة .

الرابع: الهداية بنور الاسلام .

الخامس : الهداية بنور الايمان .

السادس: الهداية بنور اليقين .

السابع : الهداية بنور العرفان .

الثامن: الهداية بنور المحبة .

التاسع : الهداية بنور الولاية .

العاشر : الهداية بنور التجريد والتوحيد ، ولكل منها طرفان : افراط وتفريط وغلوّ وتقصير ، وتفصيلها موجب للتطويل و لعله الى بعضها أو الى جميعها يشير الحديث الشريف للكافي : « نحن آل محمد النمط الاوسط الذي لا يدركنا الغالي ولا يسبقنا التالي » . وفي الحديث النبوي صلى الله عليه وآله « خير هذه

الامـــة النمط الاوسط يلحـق بهم التـــــالي ويرجـــــع
اليهم الغالي » .

تنبيه عرفاني :

اعلم أن لكل من موجودات عوالم الغيب والشهادة والدنيا والاخرة مبدأ ومعادا وان كان مبدأ الكل ومرجعه الهوية الالهية ولكن حيث إنه ليس للذات المقدسة الحق جل وعلا من حيث هو بلا حجاب الاسماء تجلّ للموجودات العالية والسافلة وبحسب هذا المقام اللامقامي لا اسم له ولا رسم وغير متصف بالاسماء الذاتية والصفاتية والافعالية وليس لاحد من الموجودات معه تناسب ولا ارتباط ولا اختلاط ، أين التراب ورب الارباب ، كما ذكرت تفصيل هذه اللطيفة مستقصى في كتاب مصباح الهداية فمبدأ ذاته المقدسة ومصدريتها في الحجب الاسمائية والاسم عين الحال انه نفس المسمّى فهو حجابه ايضا ، فالتجلي في عوالم الغيب والشهادة على حسب الاسماء وفي حجابها ، فمن هذه الجهة للذات المقدسة وفي جلوات الاسماء والصفات تجليات في الحضرة العلمية يسمي أهل المعرفة تعيناتها بالاعيان الثابتة فبناء على هذا يلزم لكل تجلّ اسمي في الحضرة العلمية عين ثابت ولكل اسم بتعيّنه العلمي مظهر في النشأة الخارجية ومبدأ هذا المظهر ومرجعه الى الاسم الذي يناسبه ورجوع كل الموجودات من عالم الكثرة الى غيب الاسم الذي هو مصدره ومبدؤه عبارة عن الصراط المستقيم له ،فلكلٍ سير وصراط مخصوص ومبدأ ومرجع مقدر في الحضرة العلمية طوعا أو كرها ، واختلاف المظاهر والصرط باختلاف الظاهر وحضرات الاسماء .

وليعلم أن تقويم الانسان في أعلى علّيّين للجمع الاسمائي ، فلهذه

الجهة رد الى اسفل السافلين ويشرع صراطه في أسفل السافلين ويختم بأعلى عليين وهذا صراط الذين أنعم الله عليهم بالنعمة المطلقة وهي نعمة كمال الجمع الاسمائي التي هي أعلى النعم الالهية ، والصراط الاخر سواء أكان صراط السعداء والمنعم عليهم أو صراط الاشقياء ، فبمقدار نقصانه من فيض النعمة المطلقة فهو داخل في أحد طرفي الافراط والتفريط فصراط الانسان الكامل فقط صراط المنعم عليهم بقول مطلق ، وهذا الصراط بالاصالة مختص بالذات المقدسة للنبي الخاتم وثابت لسائر الاولياء والانبياء بالتبعية ، وفهم هذا الكلام مع أن النبي الاكرم هو الخاتم للنبيين يحتاج الى فهم حضرات الاسماء والاعيان وكفيله رسالة مصباح الهداية ، والله الهادي الى سبيل الرشاد .

نقل كلام زيادة في الافهام :

قال الشيخ الجليل البهائي[٣٧] قدس سره في رسالة العروة الوثقى[٣٨] ان نعم الله سبحانه وان كانت أجلّ من أن تحصى كما قال الحق تعالى : « وان تعدّوا نعمة الله لاتحصوها »[٣٩] لكنها جنسان النعم الدنيوية والاخروية وكل منهما اما وهبي أو كسبي ، وكل منهما اما روحاني أو جسماني فالمجموع ثمانية أقسام :

الاول : الدنيوي الوهبي الروحاني كنفخ الروح وإفاضة العقل والفهم .

الثاني : الدنيوي الوهبي الجسماني مثل خلق الاعضاء وقواها .

الثالث : الدنيوي الكسبي الروحاني كتخلية النفس من الامور الدنية وتحليتها بالخلق الذكية والملكات العالية .

الرابع : الدنيوي الكسبي الجسماني كالتزيّن بالهيئة الحميدة والحليّ الحسنة .

الخامس : الاخروي الوهبي الروحاني كأن يغفر الله ذنوبنا ويرضى عنّا من تاب سابقا (عبارة الشيخ في هذا المثال ما ذكر والظاهر أنه وقع سهو من الناسخ ولعل الصحيح ان الله يغفر لنا من دون سبق التوبة . فراجع ...) .

السادس : الاخروي الوهبي الجسماني كأنهار من لبن وعسل .

السابع : الاخروي الكسبي الروحاني كالمغفرة والرضوان مع سبق التوبة وكاللذات الروحانية التي استجلبت بفعل الطاعات .

الثامن : الاخروي الكسبي الجسماني ، كاللذات الجسمانية التي استجلبت لفعل الطاعات ، والمراد من النعمة هنا الاقسام الاربعة الاخيرة وما يكون وسيلة للبلوغ الى هذه الاقسام الاربعة من الاقسام الاربعة الاول .. انتهت ترجمة الشيخ قدس سره .

وهذه التقسيمات للشيخ وان كانت لطيفة ولكن الاهم من النعم الالهية وأعظم مقصد الكتاب الشريف الالهي قد سقط من قلم الشيخ الجليل واكتفى فقط بنعم الناقصين أو المتوسطين ، وفي كلامه قدس سره ، وان جرى ذكر من اللذة الروحانية ولكن اللذة الروحانية الاخروية التي استجلبت بفعل الطاعات حظ المتوسطين ان لم نقل بأنها حظ الناقصين ، وبالجملة غير ما ذكره الشيخ الجليل الراجع الى اللذات الحيوانية والحظوظ النفسانية نعم أخرى وعمدتها ثلاث :

الاولى : نعمة معرفة الذات والتوحيد الذاتي التي أصلها السلوك الى الله ونتيجتها جنة اللقاء ، واذا كان السالك نظر الى النتيجة ففي

السلوك نقصان لأن هذا المقام مقام ترك النفس ولذاتها والتوجه الى حصول النتيجة توجه الى النفس وهذا هو عبادة للنفس لا لله وتكثير لا توحيد وتلبيس لا تجريد .

الثانية نعمة معرفة الاسماء وهذه النعمة تتشعب على حسب الكثرة الاسمائية ، فان حسبت مفرداتها فألف وان حسبت بالتركيب من الاسمين أو الاسماء فخارجة عن حد الاحصاء وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها[39] والتوحيد الاسمائي في هذا المقام نعمة معرفة الاسم الاعظم الذي هو مقام أحدية جمع الاسماء ، ونتيجة معرفة الاسماء جنة الاسماء لكل على مقدار معرفة اسم أو اسماء فردا أو جمعا .

الثالثة : نعمة معرفة الافعال ، ولهذه ايضا شعب كثيرة غير متناهية ومقام التوحيد في هذه المرتبة هو أحدية جمع التجليات الفعلية التي هي مقام الفيض الاقدس ومقام الولاية المطلقة ونتيجتها جنة الافعال التي هي تجليات افعالية للحق تعالى لقلب السالك ، ولعل التجلي لموسى بن عمران في بدء الامر اذ قال : « آنست نارا »[40] كان بالتجلي الافعالي والتجلي الذي اليه الاشارة في قوله تعالى : « فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكّا وخرّ موسى صعقا »[41] . كان تجلّيا اسمائيا او ذاتيا فصراط المنعم عليهم في المقام الاول صراط السلوك الى ذات الله والنعمة في ذلك المقام التجلي الذاتي . وفي المقام الثاني صراط السلوك الى اسماء الله ، والنعمة في ذلك المقام التجليات الاسمائية وفي المقام الثالث السلوك الى فعل الله ونعمته التجلي الافعالي ، سواء أكانت

روحانية أو جسمانية كما أثبت هذا المقام في الروايات لبعض المؤمنين ايضا .

خاتمة :

اعلم ان السورة المباركة الحمد كما أنها مشتملة على جميع مراتب الوجود ، كذلك هي مشتملة على جميع مراتب السلوك ، ومشتملة بطريق الاشارة على جميع مقاصد القرآن . والغور في هذه المطالب وان كان يحتاج الى بسط تام ومنطق غير هذا المنطق ، ولكن الاشارة الى كل واحد منها لا تخلو من فائدة بل فوائد لاصحاب المعرفة واليقين .

فنقول في المقام الاول : انه يمكن ان يكون بسم الله الرحمن الرحيم اشارة الى دائرة الوجود بتمامها وقوس النزول والصعود ، فاسم الله مقام أحدية القبض والبسط والرحمن مقام البسط والظهور وهو قوس النزول . والرحيم مقام القبض والبطون وهو قوس الصعود .

والحمد لله يمكن أن يكون اشارة الى عالم الجبروت والملكوت الاعلى التي حقائقها المحامد المطلقة .

ورب العالمين بمناسبة التربية وبمناسبة العالمين التي هي مقام السوائية والغيرية يمكن أن يكون اشارة الى عوالم الطبيعة التي بجوهر ذاتها متحركة ومتصرمة وتحت التربية . ومالك يوم الدين اشارة الى مقام الوحدة والقهارية ورجوع دائرة الوجود .

والى هنا يختتم دائرة الوجود بتمامها نزولا وصعودا .

ونقول في المقام الثاني : ان الاستعاذة وهي مستحبة لعلها اشارة الى ترك غير الحق والفرار من السلطنة الشيطانية . وحيث أن هذه مقدمة

المقامات لا جزءها لان التخلية مقدمة للتحلية وليست بالذات من المقامات الكمالية ، ولهذه ليست الاستعاذة جزءا للسورة بل مقدمة للدخول فيها .

والتسمية لعلها اشارة الى مقام التوحيد الفعلي والذاتي والجمع بينهما .

والحمد لله رب العالمين لعلّها إشارة الى التوحيد الفعلي .

ومالك يوم الدين اشارة الى الفناء التام والتوحيد الذاتي ، ومن إياك نعبد تشرع حالة الصحو والرجوع .

وبعبارة أخرى الاستعاذة هي السفر من الخلق الى الحق والخروج من بيت النفس ، والتسمية اشارة الى التحقق بالحقانية بعد الخلع عن الخلقية وعالم الكثرة .

والحمد الى رب العالمين اشارة الى السفر من الحق الى الحق في الحق .

وفي مالك يوم الدين يتم هذا السفر .

ونقول في المقام الثالث : ان هذه السورة الشريفة مشتملة على عمدة المقاصد الالهية في القرآن الشريف لان أصل مقاصد القرآن هو تكميل معرفة الله وتحصيل التوحيدات الثلاثة والرابطة فيما بين الحق والخلق ، وكيفية السلوك الى الله ، وكيفية رجوع الرقائق الى حقيقة الحقائق ، وتعريف التجليات الالهية جمعا وتفصيلا وفردا وتركيبا ، وإرشاد الخلق سلوكا وتحققا ، وتعليم العباد علما وعملا وعرفانا وشهودا . وجميع هذه الحقائق موجودة في هذه السورة الشريفة فاتحة الكتاب وأم الكتاب وصورة اجمالية عن مقاصد القرآن الكريم وحيث أن جميع مقاصد الكتاب الالهي ترجع الى مقصد واحد وهو حقيقة التوحيد التي هي غاية النبوات ونهاية مقاصد الانبياء العظام عليهم السلام .

فحقائق التوحيد وسرائره منطوية في الآية المباركة بسم الله الرحمن الرحيم ، فهذه الآية الشريفة أعظم الآيات الالهية ومشتملة على جميع مقاصد الكتاب الالهي كما ورد في الحديث الشريف وحيث أن الباء ظهور التوحيد ونقطة تحت الباء سرّه فجميع الكتاب ظهورا وسرا موجودة فيها ، والانسان الكامل يعني الوجود العلوي المبارك عليه الصلاة والسلام هو نقطة سر التوحيد ، وليست في العالم آية أكبر من ذلك الوجود المبارك بعد الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله كما ورد في الحديث الشريف .

تتمة :

في ذكر بعض الروايات الشريفة التي وردت في فضل هذه السورة المباركة :

منها ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال لجابر بن عبد الله الانصاري رضي الله عنه[٤٢] « يا جابر ،ألا أعلّمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه ؟ فقال جابر : بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله علّمنيها . قال : فعلّمه الحمد أم الكتاب ثم قال : يا جابر ، ألا أخبرك عنها ؟ قال : بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله أخبرني . قال : هي شفاء من كل داء الا السأم » .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لكل شيء أساس وأساس القرآن الفاتحة وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم » وعنه صلى الله عليه وآله « فاتحة الكتاب شفاء من كل داء » . وعن الصادق عليه السلام : « من لم تبرئه الحمد لم يبرئه شيء » .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال ، قال رسول الله صلى الله

عليه واله : « ان الله تعالى قال لي : يا محمد ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم فأفرد الامتنان عليّ بفاتحة الكتاب وجعلها بإزاء القرآن وان فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش وان الله خصّ محمدا وشرّفه بها ولم يشرك فيها أحدا من أنبيائه ما خلا سليمان فانه أعطاه منها بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تراه يحكي عن بلقيس حين قالت إنّي ألقيَ إليّ كتاب كريم إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا فمن قرأها معتقدا لموالاة محمد وآله منقادا لأمرها مؤمنا بظاهرها وباطنها أعطاه الله بكل حرف منها حسنة كل واحدة منها أفضل له من الدنيا بما فيها من أصناف أموالها وخيراتها ومن استمع الى قارىء يقرؤها كان له قدر ثلث ما للقارىء فليستكثر أحدكم من هذا الخير المعرّض له فانه غنيمة لا يذهبنّ أوانه فتبقى في قلوبكم الحسرة » .

وعن الصادق عليه السلام : « لو قرأت الحمد على ميّت سبعين مرة ثم ردّت فيه الروح ما كان عجيبا » وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « أيّما مسلم قرأ فاتحة الكتاب أعطي من الاجر كأنّما قرأ ثلثي القرآن وأعطي من الاجر كأنما تصدّق على كل مؤمن ومؤمنة » . وروى هذا الخبر بعينه من طريق آخر الا أنه قال « كأنما قرأ القرآن » . وروي عن أبيّ ابن كعب[٤٣] قال : « قرأت على رسول الله فاتحة الكتاب فقال : والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها هي أمّ الكتاب وهي السبع المثاني وهي مقسومة بين الله وعبده ولعبده ما سأل » . وعن حذيفة بن يمان[٤٤] رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « ان الله تعالى يرسل العذاب الحتم المقضي الى قوم فيقرأ صبّى من صبيانهم في الكتاب الحمد لله رب العالمين فلما سمع الله يرفع

العذاب عنهم أربعين سنة » وعن ابن عباس[٤٥] قال : « بينما رسول الله ﷺ جالس وعنده جبرائيل اذ سمع نقيضا ـــ يعني صوتا ـــ فرفع رأسه فاذا باب من السماء قد فتح فنزل عليه ملك وقال : ان الله يبشّرك بنورين لم يعطهما نبيّا قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لا يقرؤهما أحد إلا أعطيته حاجته »[٤٦] .

المراجع والحواشي

١ ــ هو السيد الاجل محمد باقر بن محمد الحسيني الاسترابادي المعروف بالميرداماد المحقق المدقق العالم الحكيم المتبحّر النقّاد ذو الطبع الوقّاد الذي حلى بعقود نظمه وجواهر نثره عواطل الاجياد سمّي الداماد لان والده كان صهرا للمحقق الثاني رضوان الله عليه فيدعى دامادا وله من المؤلفات القبسات والرواشح السماوية والصراط المستقيم والحبل المتين وشارع النجاة وضوابط الرضاع وغير ذلك من الكتب الكثيرة وله حواش على الكافي والفقيه والصحيفة السجادية وغير ذلك وله ديوان شعر بالعربية والفارسية وحكي أنه لم يأو بالليالي الى فراشه للاستراحة مدة أربعين سنة ولم يفت منه (ره) نوافله مدة تكليفه ذهب في آخر عمره الشريف من أصبهان بمرافقة السلطان شاه صفي الى زيارة العتبات العالية فمات (ره) هناك وذلك في ١٠٤١ (غما) ودفن في النجف الاشرف .

٢ ــ ما ذكر بين القوسين لم يكن فيما عندي من النسخة ويحتمل أن يكون سقطا في العبارة فمع الاعتذار عن الاستاذ أضيفت تلك الجملات لانسجام المطلب ــ المترجم .

٣ ــ (الاعراف ــ ١٤٣)

٤ ــ (طه ــ ١٤)

٥ ــ طبعت هاتان الرسالتان بترجمة منّي في ايران وبتعليقات مني أيضا في بيروت وهما من أنفس الكتب في العرفان .

٦ ــ (النور ــ ٣٥)

٧ ــ (الزخرف ــ ٨٤)

٨ ــ (الاعراف ــ ١٥٦)

٩ ــ مصراع بيت للمولى العارف الرومي : (حب المخصوصين بالله هو حبّ الله) .

١٠ ــ الرجل الخشبية عبارة عن الخشبة التي يأخذها المقعد تحت إبطيه ويمشي بها ، هنا اشارة الى بيت معروف من المولى العارف الرومي يقول :

(پاي استدلاليان چوبين بود   پاي چوبين سخت بي تمكين بود)

الاستدلاليون يمشون في طريق العلم بالرجل الخشبية فكما أنه لا يمكن الاعتماد عليها فانها تنكسر فكذلك لا يمكن الاعتماد على الاستدلال . وهذا في مقابل الشهود والعيان واما طائر سليمان فتعبير دائر في لسان الشعراء يكنّون به عن سرعة السير كما يقول الحافظ الشيرازي :ــ قطع اين مرحله بامر غ سليمان كردم ــ : انهيت هذه المرحلة بمساعدة طائر سليمان .

١١ ــ وقد اشار الى ذلك مولانا ابي عبد الله عليه السلام في دعاء عرفة « ألغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك » .

١٢ ــ الشعر للعارف الرومي ذكره في ضمن نقل رواية يرويها ان رسول الله صلى الله عليه وآله استدعى جبرائيل أن يريه صورته الاصلية فظهر جبرائيل في صورته الاصلية وقد ملأت المشرقين فخرّ رسول الله ﷺ مغشيّا عليه ثم يقول ان الحيرة في الحيرة تأتي من جهة أنه كيف يمكن أن يكون الخاص مدهوشا في الاخصّ فذكر الاستاذ مدّ ظلّه التفصيل المذكور في المتن للأخصّ . فتدبّر .

١٣ ــ بيّن في الروايات الواردة عن الائمة المعصومين ان التوحيد عبارة عن اخراج الذات المقدسة عن حدّ التعطيل والتشبيه ولتفصيل الكلام محل آخر .

١٤ ــ قولنا مبتهج بذاته لا يذهب عليك ان اطلاق لفظ الابتهاج في حقه تعالى وكذلك ألفاظ العشق والحبّ وأمثالهما التي تلازم نوعا من التجدّد والحدوث والانفعال والامكان هو على حسب معانيها العامة المتعارفة بل انها ايضا من

الالفاظ التي وضعت للمعاني المجردة وإطلاقها على الحق تعالى كإطلاق العطوف والرحمن وأمثالهما وهذه الأمور ليست من الامور التي يستقيم بالافهام العرفية لعوام الناس بل تحتاج الى بحث دقيق فلسفيّ وذوق فوّار عرفاني رزقنا الله وإياكم .

« المؤلف دام ظلّه »

١٥ ــ مصراع وبيت من أبيات العارف الرومي .

١٦ ــ (طه ــ ٤٠)

١٧ ــ (طه ــ ١٣)

١٨ ــ (الغاشية ــ ٢٥)

١٩ ــ هو حجة الفرقة الناجية الفيلسوف المحقق أستاذ البشر وأعلم أهل البدو والحضر محمد بن محمد بن الحسن الطوسي الجهرودي ممدوح أكابر الآفاق ومجمع مكارم الاخلاق الذي لا يحتاج الى التعريف لغاية شهرته مع أن كل ما يقال فيه فهو دون رتبته . ولد في ١١ جمادى الاولى سنة ٥٩٧ بطوس ونشأ بها ولذلك اشتهر بالطوسي وصنّف كتبا ورسائل نافعة نفيسة في فنون العلم له تجريد الكلام وهو كتاب كامل في شأنه وصفه الفاضل القوشجي بأنه مخزون بالعجائب مشحون بالغرائب صغير الحجم وجيز النظم كثير العلم جليل الشأن حسن الانتظام مقبول الائمة العظام ولم يظفر بمثله علماء الاعصار وهو في الاشتهار كالشمس في رابعة النهار (انتهى) .

شرحه جمع من أعاظم العلماء أولهم آية الله العلامة (ره) وله كتاب التذكرة النصيرية في علم الهيئة الذي شرحه النظام النيسابوري والاخلاق الناصرية وآداب المتعلمين وأوصاف الاشراف وكتاب قواعد العقايد وتحرير المجسطي وتحرير أصول الهندسة لاقليدس الى غير ذلك . حكي أنه قدس سره قد عمل الرصد العظيم بمدينة مراغة واتخذ في ذلك خزانة عظيمة ملأها من الكتب وكانت تزيد على أربعمئة الف مجلّد وكان من أعوانه على الرصد من العلماء جماعة ارسل اليهم ا لملك هلاكوخان منهم العلامة قطب الدين

الشيرازي ومؤيد الدين العروضي الدمشقي وكان متبحرا في الهندسة وآلات الرصد ومحيي الدين الاخلاطي وكان مهندسا متبحرا في العلوم الرياضية وغيرهم من الفضلاء فضبطوا حركات الكواكب .

وحكي من أخلاقه الكريمة أن ورقة حضرت اليه من شخص فكان ممّا فيها : يا كلب بن الكلب . فكان الجواب : أما قولك يا كذا فليس بصحيح لان الكلب من ذوات الاربع وهو نابح طويل الاظفار وأما أنا فمنتصب القامة بادي البشرة عريض الاظفار ناطق ضاحك فهذه الفصول والخواص غير تلك الفصول والخواص ، وأطال في نقض كل ما قاله . هكذا ردّ عليه بحسن طوية وتأنّ غير منزعج ولم يقل في الجواب كلمة قبيحة ، وتوفي قدس سره في يوم الغدير سنة ٦٧٣ (خعج) ودفن في جوار الامامين موسى بن جعفر والجواد عليهما السلام في المكان الذي أعدّ للناصر العبّاسي فلم يدفن فيه .

٢٠ ــ

٢١ ــ (الواقعة ــ ٨٥)

٢٢ ــ (ق ــ ١٦)

٢٣ ــ (النور ــ ٣٥)

٢٤ ــ (الزخرف ــ ٨٤)

٢٥ ــ (الحديد ــ ٢)

٢٦ ــ هو الامام العاشر والبدر الباهر ذو الشرف والكرم والمجد والايادي أبو الحسن الثالث علي النقي الهادي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم . ولد عليه السلام بصريا من المدينة للنصف من ذي الحجة سنة ٢١٢ اثنتي عشرة ومئتين ، وقيل يوم الجمعة ثاني رجب وقيل خامسه من تلك السنة . أمّه المعظّمة الجليلة سمّانة المغربية وفي الدر النظيم هي تعرف بالسيّدة وتكنّى أم الفضل .

وقبض عليه السلام مسموما بسرّ من رأى في يوم الاثنين ثالث رجب سنة ٢٥٤ (رند) سنة أربع وخمسين ومئتين وله يومئذ احدى وأربعون سنة وأشهر . وكانت مدة امامته ثلاثا وثلاثين سنة وأشهرا وكان في أيام امامته بقية ملك المعتصم ثم ملك الواثق ثم ملك المتوكل ثم ملك المنتصر ثم ملك المستعين ثم ملك المعتز ودفن في داره بسرّ من رأى وخرج أبو محمد عليه السلام في جنازته وقميصه مشقوق وصلّى عليه ودفنه وقال المسعودي :

وكانت وفاة ابي الحسن عليه السلام في خلافة المعتز بالله وذلك في يوم الاثنين لاربع بقين من جمادى الاخرة سنة ٢٥٤ وهو ابن اربعين سنة وقيل ابن اثنتين وأربعين وقيل أكثر من ذلك . وسمع في جنازته جارية تقول ماذا لقينا في يوم الاثنين قديما وحديثا وصلى عليه احمد بن المتوكل على الله في شارع ابي أحمد في داره بسامرّا ودفن هناك (انتهى) .

٢٧ ــ (الزمر ــ ٦٨)

٢٨ ــ (ابراهيم ــ ٥)

٢٩ ــ (المائدة ــ ٢)

٣٠ ــ (البقرة ــ ٤٥)

٣١ ــ (الأسراء ــ ٤٤)

٣٢ ــ مصراع بيت للعارف الرومي يقول : حب خواص الله حب الله .

٣٣ ــ (البقرة ــ ١٤٣)

٣٤ ــ (هود ــ ٥٦)

٣٥ ــ (التين ــ ٥)

٣٦ ــ (فاطر ــ ٨)

٣٧ ــ هو شيخ الاسلام والمسلمين محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجبعي العاملي الحارثي قال صاحب السلافة في حقه ما ملخّصه هو علامة البشر ومجدّد دين الائمة على رأس القرن الحادي عشر اليه انتهت رئاسة المذهب والملة الى أن

قال مولده بعلبك عند غروب الشمس يوم الاربعاء لثلاث عشر بقين من ذي الحجة سنة ٩٥٣ (ظنج) وانتقل به والده وهو صغير الى الديار العجمية فنشأ في حجرة الاقطار المحمية وأخذ عن والده وغيره من الجهابذ حتى أذعن له كل مناضل ومنابذ . فلما اشتد كاهله وصفت له من العلم مناهله ولي بها شيخ الاسلام وفوّضت اليه امور الشريعة على صاحبها الصلاة والسلام ولم يزل آنفا من الانحياز الى السلطان راغبا في العزلة عازفا عن الاوطان يؤمل العود الى السياحة ويرجو الاقلاع من تلك الساحة فلم يقدر له حتى وافاه حِمامه وترنّم على أفنان الجنان حَمامه وأخبرني بعض ثقات الاصحاب ان الشيخ (ره) قصد قبل وفاته زيارة المقابر في جمع من الاجلاء الاكابر فما استقرّ بهم الجلوس حتى قال لمن معه اني سمعت شيئا فهل فيكم من سمعه ؟ فأنكروا سؤاله واستغربوا مقاله وسألوه عما سمعه فأوهم وعمى في جوابه ثم رجع الى داره فأغلق بابه فلم يلبث أن أصاب داعي الردى فأجابه وكانت وفاته لاثنتي عشرة خلون من شوال المكرّم سنة ١٠٣١ (غلا) باصبهان ونقل قبل دفنه الى طوس فدفن بها في داره قريبا من الحضرة الرضوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحية (انتهى) .

حكي عن المجلس الاول قال في ترجمة استاذه الشيخ بهاء الدين انه سمع قبل وفاته بستة أشهر صوتا من قبر بابا ركن الدين وكنت قريبا منه فنظر الينا وقال سمعتم ذلك الصوت ؟ فقلنا : لا . فاشتغل بالبكاء والتضرّع والتوجّه الى الآخرة وبعد المبالغة العظيمة قال اني أُخبرت باستعداد الموت وبعد ذلك بستة أشهر تقريبا توفي وتشرفت بالصلاة عليه مع جميع الطلبة والفضلاء وكثير من الناس يقربون من خمسين ألفا (انتهى) .

له مصنفات فائقة مشهورة أكثرها مطبوعة . منها : حبل المتين وشرق الشمسين والاربعين والجامع العباسي والكشكول والمخلاة والعروة الوثقى ونان

وحلوا والزبدة والصمدية وخلاصة الحساب وتشريح الافلاك والرسالة الهلالية ومفتاح الفلاح . وهذه الكتب كلها مطبوعة في ايران .

٣٨ ـــ لم تكن الرسالة موجودة عندي . وما ذكرته ترجمة لما ترجمه المؤلف دام ظله من رسالة العروة الوثقى .

٣٩ ـــ ابراهيم٣٤ .

٤٠ ـــ طه١٠ .

٤١ ـــ الأعراف١٤٣ .

٤٢ ـــ جابر بن عبد الله بن عمرو بن خزام الانصاري . صحابي جليل القدر وانقطاعه الى أهل البيت عليهم السلام وجلالته أشهر من ان يذكر . مات سنة ٧٨ (عح) حكي عن أسد الغابة انه قال في جابر (رض) انه شهد مع النبي ثمان عشرة غزوة وشهد صفين مع علي بن أبي طالب وعميَ في آخر عمره وكان يحفي شاربه وكان يخضب بالصفرة وهو آخر من مات بالمدينة ممن شهد العقبة الى أن قال وكان من المكثرين للحديث الحافظين للسنن (انتهى) . قال العلامة النوري في المستدرك في ترجمة جابر الانصاري هو من السابقين الاولين الذين رجعوا الى أمير المؤمنين وحامل سلام رسول الله الى باقر علوم الاولين والاخرين وأول من زار ابا عبد الله الحسين في يوم الاربعين المنتهي اليه سند أخبار اللوح السّمائي الذي فيه نصوص من الله رب العالمين على خلافة الائمة الراشدين الفائز بزيارته من بين جميع الصحابة عند سيدة نساء العالمين وله بعد ذلك مناقب أخرى وفضائل لا تحصى (انتهى) .

٤٣ ـــ أبيّ بن كعب صحابي شهد العقبة مع السبعين وكان يكتب الوحي شهد بدرا والعقبة الثانية وبايع رسول الله وكان من الاثني عشر الذين أنكروا على أبي بكر خلافته وأرادوا تنزيله عن منبر رسول الله وكفى في فضله وجلالته ان الصادق عليه السلام ينقل الحديث عنه كما في مصباح الشريعة أن الصادق عليه السلام قال حسن الظن أصله من حسن ايمان المرء وسلامة صدره الى

أن قال قال أبي بن كعب اذا رأيتم احد اخوانكم في خصلة تستنكرونها منه فتأوّلوا لها سبعين تأويلا فان اطمأنت قلوبكم على أحدها والا فلوموا أنفسكم حيث لم تعذروه في خصلة سترها عليه سبعين تأويلا وانتم أولى بالانكار على أنفسكم

٤٤ ـ حذيفة بن اليمان العنسي من أصحاب رسول الله احد الاركان الاربعة سكن الكوفة ومات بالمدائن وعن أسد الغابة انه كان صاحب سرّ رسول الله ﷺ بالمنافقين لم يعلمهم احد الا حذيفة أعلمه بهم رسول الله (انتهى) . قتل أبوه في أحد قتله المسلمون خطأ يحسبونه من العدو وحذيفة يصيح بهم فلم يفقهوا قوله حتى قتل فلما رأى حذيفة ان اباه قد قتل استغفر للمسلمين فقال : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . فبلغ ذلك رسول الله فزاده عنده خيرا وحكي أن له درجة العلم بالسنّة وعن العلامة الطباطبائي أنه يستفاد من بعض الاخبار ان له درجة العلم بالكتاب ايضا وقال ايضا وعند الفريقين انه كان يعرف المنافقين بأعيانهم وأشخاصهم . عرفهم ليلة العقبة حين أرادوا ان ينفروا ناقة رسول الله في منصرفهم من تبوك وكان حذيفة تلك الليلة قد أخذ بزمام الناقة ويقودها وكان عمار من خلف الناقة يسوقها . وتوفي في المدائن بعد خلافة أمير المؤمنين (ع) بأربعين يوما سنة ست وثلاثين وأوصى ابنيه صفواناً وسعيداً بلزوم أمير المؤمنين واتباعه فكانا معه بصفين وقتلا بين يديه وفي أمالي الشيخ الصدوق (ره) عن الثمالي قال : دعا حذيفة بن اليمان ابنه عند موته فأوصى اليه وقال : يا بني اظهر اليأس عما في أيدي الناس فان فيه الغنى واياك وطلب الحاجات الى الناس فانه فقر حاضر وكن اليوم خيرا منك أمس واذا أنت صليت فصلّ صلاة مودّع للدنيا كانك لا ترجع واياك وما يُعتذر منه .

٤٥ ـ عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أمّه لبابة بنت الحرث بن الحزن اخت ميمونة زوج النبي ﷺ قال العلامة كان محبا لعلي (ع) وتلميذه ، حاله في

الجلالة والاخلاص لامير المؤمنين اشهر من أن يخفى وقد ذكر الكشي احاديث تتضمن قدحا فيه وهو أجلّ من ذلك وقد ذكرناه في كتابنا الكبير وأجبنا عنه (انتهى) . ذكروا أنه ولد بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين ودعا له النبي ﷺ بالفقه والتأويل وكان حبر هذه الامة وترجمان القرآن وكان عمر يقربه ويشاوره مع جملة الصحابة كف بصره في أواخر عمره وتوفي بالطائف سنة ٦٨ (سح) وله تفسير مطبوع وابنه ابو محمد علي بن عبد الله بن العباس جدّ السفاح والمنصور كان شريفا وكان أصغر أولاد أبيه روي أنه لما ولد أخرجه ابوه الى أمير المؤمنين عليه السلام فحنكه ودعا له ثم ردّه اليه وقال خذ اليك أبا الاملاك قد سميته عليا وكنيته أبا الحسن .

٤٦ ــ هذه الرواية ذكرها في المجمع وقد اشار اليها المؤلف دام ظله بانها قريبة المضمون للرواية التي ذكر ترجمتها المؤلف في الاصل .

لفت نظر : ما ذكرته في صفحة ٤٠٢ من الرواية عن باقر عليه السلام ترجمة لما ذكره المؤلف دام ظله واليك نصّ الحديث روى المحدث المجلسي في البحار عن كشف الغمة للعالم علي بن عيسى الاربلي قال جعفر (عليه السلام) فَقَدَ أبي بغلة له فقال لئِن ردّها الله تعالى لاحمدنّه بمحامد يرضاها فما لبث أن أُتي بها بسرجها ولجامها فلما استوى عليها وضمّ اليه ثيابه رفع رأسه الى السماء فقال الحمد لله فلم يزد ثم قال ما تركت ولا بقّيت شيئا جعلت كل أنواع المحامد لله عزّ وجلّ فما من حمد الاّ وهو داخل في ما قلت .

اقول : قد علق على الرواية في الطبع الجديد للبحار انّه أخرج ذلك ابن طلحة في مطالب السؤول ص٨٠ وابو نعيم في الحلية ج٣ ص١٨٦ بتفاوت . ولعلّ المؤلف أخذها عن غير الاربلي كما هو ظاهر .

الفصل السادس

في نبذة من تفسير السورة المباركة التوحيد:

اعلم أن هذه السورة الشريفة حيث أنها نسب الحق تعالى كما في الاحاديث الشريفة منها ما في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام : ان اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : « أنسب لنا ربّك ، فلبث ثلاثا لا يجيبهم ثم نزلت : قل هو الله أحد الى آخرها » فلهذا تعجز عقول البشر عن فهم حقائقها ودقائقها وأسرارها ولكن مع هذا الوصف فما هو نصيب أهل المعرفة منها وما هو حظ قلوب أهل الله منها لا يسعه ميزان العقل المجرّد ، ولعمر الحبيب إن هذه السورة الشريفة من الامانات التي عجزت عن حملها سماوات الارواح وأراضي الاشباح وجبال الإنّيّات وأشفقن منها ولا يليق بحملها الا الانسان الكامل الذي تجاوز عن حدود الامكانية وصار مجذوبا وبلا حواس ولكن مع ذلك هنا بشارة تقرّ بها عيون أهل آخر الزمان وتعطي الاطمئنان لقلوب أهل المعرفة وهي الحديث الذي في الكافي الشريف قال : « سئل علي بن الحسين عليه السلام عن التوحيد فقال : ان الله عزّ وجلّ علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل الله تعالى قل هو الله أحد والآيات من سورة الحديد الى قوله وهو عليم بذات الصدور فمن رام وراء ذلك فقد هلك » .

ويعلم من هذا الحديث الشريف أن فهم هذه الآيات وهذه السورة المباركة يحق للمتعمقين وأصحاب الانظار الدقيقة . ودقائق التوحيد والمعرفة وسرائرها منطوية فيها ، وان الحق تعالى أنزل لطائف العلوم الالهية لاهلها ، والذين ليس لهم حظ من سرائر التوحيد والمعارف الالهية فليس لهم حق النظر في هذه الآيات ، وليس لهم حق أن يحملوا ويفسّروا هذه الآيات على ما يفهمونه من المعاني العامية السوقية .. وفي الآيات الاولى من السورة المباركة الحديد دقائق من التوحيد والمعارف الجليلة من الاسرار الالهية والتجريد ما لا يوجد له نظير في شيء من المسفورات الالهية وصحف أهل المعرفة وأرباب القلوب ، ولو لم تكن لصدق النبوّة وكمال شريعة النبي الخاتم سوى هذه الآيات لكفت أهل النظر والمعرفة . وان أعظم شاهد على أن هذه المعارف خارجة عن تحمل البشر ، وفوق أن يحيط بها الفكر الانساني ، انه من قبل ان تنزل هذه الآيات الشريفة وأمثالها من المعارف المشتمل عليها القرآن الشريف لم يكن عند البشر سابقة هذا القسم من المعارف ولم يكن لهم طريق الى هذه السرائر ، وان الكتب والصحف لاعاظم فلاسفة العالم موجودة الان ، مع أن علومهم ايضا من منبع الوحي الالهي ولعل أعلاها وألطفها الكتاب الشريف «اثولوجيا» التصنيف القيّم للفيلسوف عظيم الشأن والحكيم الجليل ارسطاطاليس الذي سجد في جنابه أعجوبة الدهر ونادرة الزمان الشيخ الرئيس[1] خضوعا له وتحقيرا لنفسه ، ومن رشحات فكره المنطق وتنظيم قواعده ولهذه الجهة سمّي المعلّم الاول . وقال الشيخ الرئيس : انه منذ نظّم ذاك العظيم قواعد المنطق لم يستطع أحد أن يخدش في احدى قواعده أو يؤسّس قاعدة زائدة ، ومع هذا الوصف كله ومع أن أسّس وقنّن ذلك الكتاب الشريف لمعرفة الربوبية فلاحظوه هل تجدون من أول ذلك

الكتاب الشريف الى آخره لتعريف مقام الربوبية مثل هذه الكريمة الشريفة أول سورة الحديد أو ما يقرب من مفادها أو ما يكون فيه رائحة من هذا السر العظيم للتوحيد وهي قوله تعالى : « هو الاول والاخر والظاهر والباطن »[٢] أو أن في جميع أقوال الفلاسفة هل يوجد مثل « وهو معكم أينما كنتم »[٣] . والاقوام المتعمقون وأصحاب النظر والمعرفة يعلمون اليوم ما في هذه الآيات من الاسرار وان الله تعالى كيف شرّف أقواما في آخر الزمان ومنّ عليهم بهذا الكلام الشريف والسرّ العظيم . ومن راجع المعارف الرائجة في أديان العالم وعند الفلاسفة الكبار للاديان وقاس المعارف في المبدأ والمعاد مع المعارف في الدين الحنيف الاسلام وعند الحكماء العظام الاسلاميين والعرفاء الشامخين لهذه الملّة ليصدّق كاملا أن هذه المعارف من نور معارف القرآن الشريف وأحاديث النبي الخاتم وأهل بيته عليهم السلام المستفادة والمصطلاة من منبع نور القرآن ، فيعرف حينئذ أن الحكمة الاسلامية والعرفان الاسلامي ليست من اليونان واليونانيين بل لا تشبه حكمتهم أصلا .

نعم قد مشى بعض حكماء الاسلام على منوال الحكمة اليونانية كالشيخ الرئيس ولكن حكمة الشيخ في سوق أهل المعرفة وفي باب معرفة الربوبية والمبدأ والمعاد غير رائجة ، وفي جناب أهل المعرفة لا قيمة لها .

وبالجملة ، ان نسبة فلسفة حكماء الاسلام اليوم والمعارف الجليلة لاهل المعرفة الى حكمة اليونان ناشئة من عدم الاطلاع على كتب القوم مثل الفيلسوف العظيم الشأن الاسلامي صدر المتألّهين قدّس سره[٤] وتلميذه الجليل الفيض الكاشاني فدس سره والتلميذ العظيم الشأن للفيض والعارف

الجليل الايماني القاضي سعيد القمي قدس سره ، وايضا من عدم الاطلاع على معارف الصحيفة الالهية وأحاديث المعصومين عليهم السلام فنسبوا كل حكمة الى اليونان وظنّوا حكماء الاسلام تابعي حكمة اليونان ، ونحن قد بيّنا نبذة من لطائف السورة الكريمة التوحيد وبعض اشارات الآيات الشريفة في كتاب شرح الاربعين وايضا فسّرنا هذه السورة تفسيرا بالاختصار في سرّ الصلاة ، وهنا نكتب مختصرا منه وعلى الله التكلان ، فنقول :

ان بسم الله هذه السورة ان كانت متعلقة بنفس هذه السورة كما احتملنا ذلك في سورة الحمد فلعلّهاتكون اشارة الى أن شرح نسب الحق تعالى وبيان اسرار التوحيد لا يمكن بأنانية النفس واللسان المنسوب الى النفس بل السالك ما لم يخرج من حجاب النفس ولم يتحقق بمقام المشيئة المطلقة وحضرة الفيض المقدّس وفانيا في الهوية المطلقة لم يدرك سرائر التوحيد .

و « قل » أمر من الحضرة الاحدية الجمعية بمقام البرزخية الكبرى ومرآة الجمع والتفصيل يعني قل يا محمد يا مرآة ظهور أحدية الجمع في مقام التدلي الذاتي أو المقام المقدس أو أدنى الذي يمكن أن يكون اشارة الى مقام الفيض الاقدس (باللسان الفاني من نفسك الباقي ببقاء الله) هو الله أحد .

اعلم أيها السالك سبيل المعرفة والتوحيد والعارج معارج التنزيه والتجريد ان الذات المقدسة للحق تعالى من حيث هي منزّهة عن التجليات الظاهرة والباطنة ومبرّأة عن الاشارة والاسم والصفة والرسم فأيدي آمال أهل المعرفة قاصرة عن ذيل كبريائه وأرجل أصحاب القلوب في السلوك راجلة عن الوصول الى بلاط قدسه ، ان غاية معرفة الاولياء الكمل : « ما

عرفناك » ونهاية سير اصحاب الاسرار : « ما عبدناك » ورئيس سلسلة أهل المعرفة وأمير أصحاب التوحيد يقول في هذا المقام الرفيع : « كمال الاخلاص نفي الصفات عنه » وأمام أهل السلوك وسيد الساجدين والعارفين يترنم في هذا الجناب المنيع : « ضلّت فيك الصفات وتفسّخت دونك النعوت » وأصحاب السلوك العلمي والاصطلاحات يسمون الذات المقدسة الغيب المصون والسر المكنون وعنقاء المغرب والمجهول المطلق ، ويقولون :

ان الذات بلا حجاب الاسماء والصفات لن تتجلى في مرآة في المرائي ولن تظهر في نشأة من نشآت الوجود وفي عالم من عوالم الغيب والشهود ولكن على حسب كل يوم هو في شأن .. ان للذات المقدسة اسماء وصفات وشؤونا جمالية وجلالية ولها أسماء ذاتية في مقام الاحدية الذي هو مقام الغيب ، ولابدّ ان يقال لتلك الاسماء الاسماء الذاتية ، وبتعيّن الاسماء الذاتية يتجلى بالفيض الاقدس ، وبهذا التجلي في كسوة الاسماء الذاتية يتعيّن ويظهر مقام الواحدية وحضرة الاسماء والصفات ومقام الالوهية ، فعلم أنه بعد الذات المقدسة من حيث هي ، ثلاث مقامات ومشاهد أخر :

مقام الغيب الاحدي ومقام التجلي بالفيض الاقدس ، ولعل العماء الواردة في الحديث النبوي تكون اشارة اليه ، ومقام الواحدية الذي هو الاسم الاعظم بأحدية الجمع ، ومقام الاسماء والصفات بالكثرة التفصيلية ، وتفصيل هذه المقامات يحتاج الى بسط خارج عن مجال هذه الاوراق .

فبعدما علمت هذه المقدمة نقول :

يمكن أن يكون (هو) اشارة الى مقام الفيض الاقدس وهو تجلي الذات بتعيّن الاسماء الذاتية (الله) اشارة الى مقام أحدية الجمع الاسمائية

وهو حضرة الاسم الاعظم و (احد) اشارة الى مقام الاحدية ، وبناء على هذا فالآية الشريفة في صدد اثبات ان هذه المقامات الثلاثة مع أنها في مقام التكثير الاسمائي متكثرة لكنها في نفس الحال لفي غاية الوحدة على حسب الحقيقة ، وان التجلي بالفيض الاقدس على حسب مقام الظهور فهو الله وعلى حسب مقام البطون أحد .

ولعل (هو) يكون اشارة الى مقام الذات ، وحيث هو اشارة غيبية فهو في الحقيقة اشارة الى المجهول والله وأحد اشارة الى مقام الواحدية والاحدية فيعرف الذات التي هي المجهول المطلق بالاسماء الذاتية والاسماء الواحدية الصفاتية ، فهو في الحقيقة اشارة الى أن الذات هي الغيب وأيدي الآمال عنها قاصرة وصرف العمر في التفكر في الذات موجب للضلالة ، وما هو مورد لمعرفة أهل الله وعلم العالمين بالله هو مقام الواحدية والاحدية ، فالواحدية لعامة أهل الله والاحدية للخلّص من أهل الله .

تنبيه حكمي :

اعلم أن للحق تعالى صفات ثبوتية وصفات سلبية في نظر الحكماء وقالوا أن الصفات السلبية ترجع الى سلب السلب اي سلب النقص ، وقال بعض : ان الصفات الثبوتية هي صفات الجمال والصفات السلبية هي صفات الجلال ، وذو الجلال والاكرام جامع جميع الصفات السلبية والثبوتية ، وهذا الكلام في كلتا المرحلتين خلاف التحقيق أما المرحلة الاولى فالصفات السلبية ليست بصفات على التحقيق بل لا سبيل الى ذات الحق تعالى لا للسلب ولا لسلب السلب والحق تعالى ليس متصفا بالاوصاف السلبية لان الاتصاف بالسلب في القضايا المعدولة وعقد القضية المعدولة(٥)

للحق تعالى غير جائز لانه مصحح للجهات الامكانية ومستلزم للتركيب في الذات المقدسة بل الاوصاف السلبية بطريق السلب المطلق البسيط وهو سلب الصفة لا اثبات صفة سلب السلب ، وبعبارة أخرى النقائص مسلوبة عن الحق تعالى بالسلب البسيط لا أن سلب النقائص ثابت له بطريق الايجاب العدولي فالصفات التنزيهية ليست بصفات على الحقيقة وانما الحق تعالى متصف بالصفات الثبوتية فقط .

واما المرحلة الثانية : فان صفات الجمال عند أهل المعرفة صفات يحصل منها الانس والعلاقة ، وصفات الجلال صفات يحصل منها الوحشة والحيرة والهيمان ، فما كان متعلقا باللطف والرحمة فهو من صفات الجمال كالرحمن والرحيم واللطيف والعطوف والرب وأمثالها ، وما كان متعلقا بالقهر والكبرياء فهو من صفات الجلال كالمالك والملك والقهّار والمنتقم وأمثالها ، وان كان في سر كل جمال جلال لان كل جمال يبطن حيرة وهيماناويظهر للقلب بسرّ العظمة والقدرة ، وكل جلال في باطنه الرحمة . والقلب يأنس به باطنا ، ولهذا كما أن القلب بفطرته مجذوب للجمال والجميل ، فهو كذلك مجذوب للقدرة والعظمة والقادر والعظيم ، فهذان النوعان من الصفات صفة ثبوتية لا سلبية ، فاذا علم هذا المطلب فاعلم ان (الله) وان كان هو الاسم الاعظم وان صفات الجمال والجلال تحت حيطته لكن ربما يطلق على صفات الجمال كالالهية والالوهية مقابلاً صفات الجلال ، فان الالهية والالوهية راجعتان الى صفات الجمال نوعا وخصوصا اذا وقعت في مقابل صفة الجلال .

وفي الآية الشريفة (قل هو الله أحد) يمكن أن يكون (أحد) اشارة لاحدى أمّهات صفات الجلال وهي مقام كمال بساطة الذات المقدسة

والله اشارة الى اسم الجمال ، ففي الآية قد عرّفت نسبة الحق تعالى على حسب مقام الاحدية والواحدية والتجلي بالفيض الاقدس ، وهذه الثلاثة جميع الشؤون الالهية .

وبناء على الاحتمال الاول الذي ذكر قبل هذا التنبيه عرفت نسبة الحق تعالى على حسب مقام الاسماء الجمالية والجلالية المحيطة بجميع الاسماء .

تنبيه عرفاني :

اعلم أن كلام كل متكلم جلوة ذاته على حسب مقام الظهور وبروز ملكاته الباطنية في مرآة الالفاظ بمقدار استعداد النسج الالفاظي ، كما أنه اذا كان قلب نورانيا وصافيا من ألواث عالم الطبيعة وكدوراته يكون كلامه ايضا نورانيا بل نورا وتتجلى تلك النورانية للقلب في كسوة الالفاظ ، وقد ورد في شأن أئمة الهدى « كلامكم نور » وورد « لقد تجلى في كلامه لعباده » . وفي نهج البلاغة « انما كلامه فعله » . والفعل جلوة ذات الفاعل بلا كلام منه ، واذا كان قلبا ظلمانيا ومكدرا يكون فعله وقواه ايضا ظلمانية ومكدرة مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة .. وحيث أن الذات المقدسة للحق جل وعلا على حسب كل يوم هو في شأن .. يتجلى لقلوب الانبياء والاولياء في كسوة الاسماء والصفات وتختلف التجليات على حسب اختلاف قلوبهم ، والكتب السماوية التي نزلت على قلوبهم بنعت الايحاء بتوسط ملك الوحي جبرائيل تختلف على حسب اختلاف هذه التجليات وعلى حسب اختلاف الاسماء التي لها المبدئية للتجليات كما أن اختلاف الانبياء وشرائعهم ايضا باختلاف

الدول الاسمائية فكل اسم تكون احاطته أكثر وكان أجمع ، تكون الشريعة التابعة له أكثر احاطة وأدوم ، وحيث أن النبوّة الختمية والقرآن الشريف وشريعة سيد البشر من مظاهر المقام الجامع الاحدي وحضرة اسم الله الاعظم ومجاليها أو من تجلياتها وظهوراتها فلهذا صارت اكثر النبوات والكتب والشرائع احاطة وأجمعها ، ولا يتصور أكمل وأشرف من نبوّته وكتابه وشريعته ولا يتنزل من عالم الغيب على بسيط الطبيعة علم أعلى منه أو شبيه له بمعنى أن هذا هو آخر ظهور للكمال العلمي المربوط بالشرائع وليس للاعلى منه امكان النزول في عالم الملك ، فنفس الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله أشرف الموجودات ومظهر تام للاسم الاعظم ،ونبوته ايضا أتمّ النبوّات الممكنة وصورة لدولة الاسم الاعظم الازلية الابدية والكتاب النازل اليه ايضا نزل عن مرتبة الغيب بتجلي الاسم الاعظم ولهذه الجهة لهذا الكتاب أحدية الجمع والتفصيل وهو من جوامع الكلم ، كما أن كلامه صلى الله عليه وآله ايضا كان من جوامع الكلم ، والمراد من كون القرآن وكلامه ﷺ من جوامع الكلم ليس أن القرآن أو انه ﷺ بينّا الكليات والضوابط الجامعة ، وان كانت أحاديثه صلى الله عليه واله ايضا من الجوامع والضوابط كما أن ذلك معلوم في علم الفقه بل جامعيته عبارة عن أن القرآن نزل لجميع طبقات الانسان في جميع أدوار العمر البشري وهو رافع لجميع حوائج هذا النوع . وحقيقة هذا النوع حيث إنها حقيقة جامعة وواجدة لتمام المنازل من المنزل الاسفل الملكي الى أعلى مراتب الروحانية والملكوت والجبروت ولهذه الجهة تختلف أفراد هذا النوع في هذا العالم الاسفل الملكي اختلافا تاما ، والاختلاف والتفاوت الموجودان في أفراد هذا النوع لا يوجدان في أفراد سائر الموجودات ، في هذا النوع الشقيّ في كمال الشقاوة موجود ، والسعيد في

كمال السعادة موجود وفي هذا النوع أن بعض أفراده أسفل من جميع الحيوانات وبعض أفراده أشرف من جميع الملائكة المقربين .

وبالجملة ، حيث إن أفراد هذا النوع مختلفة ومتفاوتة في المدارك والمعارف ، فالقرآن نزل على نحو يستفيد كل منه على حسب كمال إدراكه ومعارفه وضعفها وعلى حسب ما له من الدرجة العلمية .

فمثلا الآية الشريفة «لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا»[٦] فأهل المعرفة وأهل الادب واللغة يفهمون منها شيئا ، وفي نفس الحال يستفيد منها علماء الكلام طورا آخر والفلاسفة والحكماء معنى آخر والعرفاء والاولياء يستفيدون منها معنى آخر . فأهل العرف يفهمون منها بيانا خطابيا على حسب ذوقهم مثلا يقولون مملكة واحدة لا تسع لسلطانين ، واذا كان رئيسان في طائفة واحدة فذلك يوجب الفساد، ومختاران في قرية فذلك يوجب الاختلاف والتخاصم والتنازع ، وهكذا اذا كان في العالم ايضا الٰهان لكان فيه الفساد والتنازع والاختلاف والتشاجر ،وحيث إن هذا الاختلاف غير موجود ونظام السموات والارض محفوظ فهذا دليل على ان مدير العالم واحد .

والمتكلمون يستفيدون منها برهان التمانع[٧] والفلاسفة والحكماء يقيمون منها البرهان المتين الحكمي من طريق (الواحد لا يصدر منه الا الواحد والواحد لا يصدر الا من الواحد) . وأهل المعرفة ايضا من طريق أن العالم مرآة الظهور ومجليً لتجليات الحق يستفيدون الوحدانية منها بطور آخر الى غير ذلك من المعاني التي يطول ذكر كل واحد منها .

فاذا علمت هذه المقدمة فاعلم أن السورة الشريفة قل هو الله أحد من جوامع الكلم كسائر القرآن يستفيد كل منه على طور ، كما أن علماء

الادب والظاهر يرون أن هو ضمير الشأن والله علم الذات ، وأحد بمعنى الواحد أو مبالغة في الوحدة يعني أن الله واحد أو أنه لا شريك له في الالهية أو ليس كمثله شيء أو أنه لا شريك له في الالهية والقدم أو أن أفعاله واحدة بمعنى أن جميع أفعاله طبق الصلاح والاحسان ولا يجر نفعا لنفسه ، والله الصمد يعني أنه سيد كريم اليه مرجع الناس في الحوائج أو أنه صمد بمعنى انه لا جوف له فلا يتولد منه شيء ولا يتولد هو من شيء وليس له أحد شبيها ونظيرا . وهذا بيان عرفي عامّي مقابل الكفار الذين كانت لهم آلهة متصفة بالصفات الامكانية فأمر النبي الاكرم صلى الله عليه وآله أن يقول لهم ليس الهنا كإلهكم بل أوصافه هذه الاوصاف المذكورة . هذا تفسير هذه السورة بطريق العرف والعادة وهذا التفسير يختص بطائفة ولا ينافي أن يكون لها معنى أو معان أدقّ كما ذكرنا بعضها .

تفسير حكمي :

يمكن أن يكون للسورة المباركة التي نزلت للمتعمقين في آخر الزمان تفسير حكمي موافق للموازين الحكمية والبراهين الفلسفية وهذا ما استفدته عن الشيخ الجليل العارف شاه آبادي (مدّ ظلّه) فـ (هو) اشارة الى صرف الوجود والهوية المطلقة وهو برهان على ستة براهين شامخة حكمية أثبتت في السورة المباركة للحق تعالى .

الاول : مقام الالوهية وهومقام استجماع جميع الكمالات وأحدية جمع الجمال والجلال ، فانه قد ثبت في المقامات المناسبة من المسفورات الحكمية ان صرف الوجود والهوية المطلقة هو صرف الكمال والا يلزم الا يكون صرف الوجود ايضا ،

وحيث إن بيان هذا المطلب يطول ويحتاج الى مقدمات فأكتفي منه بالاشارة .

الثاني : وهو اشارة الى البساطة التامة العقلية والخارجية والماهوية والوجودية والتنزّه عن مطلق التركيبات العقلية وسواء أكانت جنسا أو فصلا . سواء أكانت مادة وصورة عقلية أو خارجية أو مادة وصورة خارجية أو أجزاء مقدارية ، وبرهان هذا المطلب ايضا هو برهان صرف الوجود والهوية المطلقة لان الصرف اذا لم يكن احديّ الذات يلزم أن يخرج عن الصرفية وينسلخ عن ذاتيته .

الثالث : مقام الصمدية : وهو الاشارة الى نفي الماهية وعدم الجوف له وكونه غير مجوف ايضا اشارة الى أنه ليس له الماهية ولا النقص الامكاني لان جميع الممكنات مرتبة ذاتها التي هي بمنزلة باطنها وجوفها مجوفة وخالية ، وحيث أن الذات المقدسة صرف الوجود والهوية المطلقة ليس له النقص الامكاني الذي أصله الماهية ، لان الماهية منتزعة من الحدود الوجودية واعتبارها من تعيّن الوجود . وصرف الوجود منزه ومبرّأ عن الحد والتعيّن لان كل محدود هوية مقيدة ووجود مخلوط لا الوجود المطلق ولا الصرف .

الرابع : عدم انفصال شيء منه لان انفصال شيء عن شيء مستلزم للهيولوية بل للاجزاء المقدارية وهو ينافي الهوية المطلقة وصرافة الوجود ووجود المعلولات من العلة ليس بطريق الانفصال بل بطريقُ التجلي والظهور والتشأن والصدور وهو بحيث أنه لا

ينقص من صدورها شيء من العلة ولا يضاف برجوعها شيء الى العلّة .

الخامس : عدم انفصاله عن شيء وهو (اي الانفصال عن شيء) مضافا الى المفسدة السابقة ينافي صرافة الوجود واطلاق الهوية من طريق آخر لانه يلزم ان يتقدم صرف الوجود شيء آخر ، وقد ثبت في الفلسفة العالية أن الصرف أقدم الاشياء والمتعين متأخر عن المطلق .

السادس : عدم الكفؤ والمثل ونفي المثل والشبيه وهو أيضا ببرهان صرف الوجود ثابت لا ينكر ، فلا تتصور هويتان مطلقتان وليس المقيد للمطلق صنوا ونظيرا ، ولكل من هذه المطالب مقدمات وأصول تفصيلها خارج عن مجال هذا المختصر .

حكمة مشرقية :

اعلم أن هذه السورة المباركة مع كمال اختصارها مشتملة على جميع الشؤون الالهية ومراتب التسبيح والتنزيه . وفي الحقيقة هي نسبة الحق تعالى بما يمكن أن يقع في قالب الالفاظ ونسيج العبارات كما أن هو الله أحد تمام حقائق صفات الكمال ومشتمل على جميع الصفات الثبوتية ، ومن الصمد الى آخر السورة الصفات التنزيهية واشارة الى سلب النقائص .

وايضا في السورة الشريفة اثبات الخروج من الحدين حد التعطيل والتشبيه اللذين هما كلاهما خروج عن حد الاعتدال وحقيقة التوحيد ، فالآية الشريفة الاولى اشارة الى نفي التعطيل وتتمة السورة اشارة الى نفي التشبيه .

وهي ايضا مشتملة على الذات من حيث هي ومقام الاحدية وهو التجلي بالاسماء الذاتية ومقام الواحدية وهو التجلي بالاسماء والصفات كما ذكر تفصيله بما يناسب .

تتميم :

روى الشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) عن أبي البختري وهب بن وهب القرشي عن أبي عبد الله الصادق جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي الباقر عليه السلام في قول الله عز وجل : « قل هو الله أحد » قال : (قل) اي اظهر ما أوحينا اليك ونبّأناك به بتأليف الحروف التي قرأنا لك ليهتدي بها من ألقى السمع وهو شهيد و « هو » اسم مكنى يشار به الى الغائب ، فالهاء تنبيه عن معنى ثابت والواو اشارة الى الغائب عن الحواس ، كما أن قولك « هذا » إشارة الى الشاهد عند الحواس ، وهذه الاشارة الى الغائب لان الكفار نبّهوا عن آلهتهم بحرف اشارة الشاهد المدرك فقالوا هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالابصار ، فأشر أنت يا محمد الى الهك الذي تدعو اليه حتى نراه وندركه ولا نتألّه فيه ، فأنزل ا لله سبحانه وتعالى قل هو الله أحد فالهاء تثبيت الثابت والواو تشير الى الغائب عن درك الابصار ولمس الحواس والله تعالى عن ذلك بل هو مدرك الابصار ومبدع الحواس » .

وقال الباقر عليه السلام : « معناه المعبود الذي أله الخلق عن درك ماهيته والاحاطة بكيفيته ، ويقول العرب أله الرجل اذا تحيّر في الشيء فلم يحط به علما ، ووله اذا فزع الى شيء مما يحذره أو يخافه ، فالاله هو المستور عن حواس الخلق » .

وقال الباقر عليه السلام : « الاحد الفرد المتفرد والاحد والواحد بمعنى

واحد وهو المتفرد الذي لا نظير له ، والتوحيد الاقرار بالوحدة وهو الانفراد والواحد المتباين الذي لا ينبعث من شيء ولا يتحد بشيء ، ومن ثم قالوا : ان بناء العدد من الواحد وليس الواحد من العدد لان العدد لا يقع على الواحد بل يقع على الاثنين ، فمعنى قوله الله أحد أي المعبود الذي يأله الخلق عن إدراكه والاحاطة بكيفيته فرد بالهيته متعال عن صفة خلقه » .
وقال الباقر عليه السلام : وحدّثني أبي زين العابدين عليه السلام عن أبيه الحسين عليه السلام انه قال : « الصمد الذي لا جوف له والصمد الذي قد انتهى سؤدده والصمد الذي لا يأكل ولا يشرب والصمد الذي لا ينام والصمد الدائم الذي لم يزل ولا يزال » . قال الباقر عليه السلام « كان محمد بن الحنفية رضي الله عنه يقول الصمد القائم بنفسه الغني عن غيره » . وقال غيره : « الصمد المتعالي عن الكون والفساد والصمد الذي لا يوصف بالتغاير » . قال الباقر عليه السلام « الصمد السيد المطاع الذي ليس فوقه آمر وناه » .

قال : وسئل علي بن الحسين زين العابين عليهما السلام عن الصمد فقال : « الذي لاشريك له ولا يؤوده حفظ شيء ولا يعزب عنه شيء » .

قال وهب بن وهب القرشي : قال زين العابدين عليّ عليه السلام « الصمد الذي اذا أراد شيئا يقول له كن فيكون والصمد الذي أبدع الاشياء فخلقها اضدادا واشكالا وأزواجا وتفرّد بالوحدة بلا ضدّ ولا شكل ولا مثل ولا ندّ » .

وقد نقل وهب بن وهب ايضا من كلام الامام علي بن الحسين سلام الله عليهما في تفسير الصمد ، ونقل ايضا كلاما في أسرار حروف الصمد عن الباقر عليه السلام ثم يقول :

ثم قال عليه السلام « لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عز وجل حملة لنشرت التوحيد والاسلام والايمان والدين والشرائع من الصمد وكيف لي بذلك ولم يجد جدي أمير المؤمنين حملة لعلمه حتى كان يتنفّس الصعداء ويقول على المنبر : سلوني قبل أن تفقدوني فان بين الجوانح مني علما جمّا هاه هاه ألا لا أجد من يحمله » الحديث .

خاتمة :

ونختم هذا المقام بذكر بعض الاحاديث الشريفة في فضل هذه السورة المباركة وان كانت الاحاديث في فضلها خارجة عن مجال هذا المختصر .

ففي الكافي الشريف باسناده الى باقر العلوم عليه السلام : « من قرأ قل هو الله أحد مرّة بورك عليه ، ومن قرأها مرّتين بورك عليه وعلى أهله ، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى أهله وعلى جيرانه ، ومن قرأها اثنتي عشرة مرة بنى الله له اثنى عشر قصرا في الجنة فيقول الحفظة اذهبوا بنا الى قصور أخينا فلان فننظر اليها ، ومن قرأها مائة مرة غفرت له ذنوب خمس وعشرين سنة ما خلا الدماء والاموال ومن قرأها اربعمائة مرة كان له أجر أربعمائة شهيد كلهم قد عقر جواده وأريق دمه ، ومن قرأها ألف مرة في يوم وليلة لم يمت حتى يرى مقعده في الجنة أو يرى له » . وأيضا في الكافي باسناده الى الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله « من قرأ قل هو الله أحد مائة مرة حين يأخذ مضجعه غفر الله له ذنوبه خمسين سنة » .

وروى عن الصادق عليه السلام قال : « كان أبي صلوات الله عليه يقول قل هو الله أحد ثلث القرآن وقل يا أيها الكافرون ربع القرآن » وعن

أبي عبد الله عليه السلام ان النبي صلى الله عليه وآله صلى على سعد بن معاذ فقال : « لقد وافى من الملائكة سبعون ألفا وفيهم جبرائيل يصلّون عليه ، فقلت : يا جبرائيل لم يستحق صلواتكم عليه ؟ فقال : لقراءته قل هو الله أحد قائما وقاعدا وراكبا وماشيا وذاهبا وقادماً » .

وروي في الوسائل عن المجالس ومعاني الاخبار عن الصادق عن آبائه عليهم السلام في حديث عن سلمان أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من قرأ قل هو الله أحد مرة فقد قرأ ثلث القرآن ومن قرأها مرتين فقد قرأ ثلثي القرآن ومن قرأها ثلاثا فقد ختم القرآن » . وفي ثواب الاعمال : « من مضت له جمعة ولم يقرأ فيها بقل هو الله أحد ثم مات ، مات على دين أبي لهب » .

وروي في المستدرك أحاديث طويلة وكثيرة في فضل هذه السورة الشريفة فمن أراد فليرجع اليه والى الوسائل والحمد لله .

المراجع والحواشي

١ ـــ هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري الشيخ الفيلسوف المعروف الملقب بالشيخ الرئيس كان أبوه من بلخ في شمال أفغانستان وسكن مملكة بخارا في زمن نوح بن منصور من الدولة السامانية فولد ولده بها وكان أعجوبة في الذكاء والحفظ أفتى على مذهب ابي حنيفة وهو ابن اثنتي عشر سنة وصنف القانون وهو ابن ست عشرة سنة فمرض نوح بن منصور الساماني فجمعوا الاطباء لمعالجته فجمعوه معهم فرأوا معالجته خيرا من معالجات كلّهم فصلح على يده فسأله أن يوصي خازن كتبه ان يعيره كلّ كتاب طلب ففعل فرأى في خزانته كتب الحكمة من تصانيف ابي نصر طرخان الفارابي فاشتغل بتحصيل الحكمة ليلا ونهارا حتى حصّلها . قال فلما انتهى عمري الى أربع وعشرين كنت أفكّر في نفسي ما كان شيء من العلوم انّي لا أعرفه . ويحكى انه لم يكن في آن فارغا من المطالعة والكتابة وقليلا من الليل يهجع واذا تردّد في مسألة يتوضأ ويعزم جامع البلد ويصلّي فيه ركعتين بالخشوع ويشتغل بالدعاء والاستعانة الى أن ترتفع شبهته ومرت به طواري مختلفة وقاسى ما يقاسيه طالب العلى وله تأليفات مشهورة منها : القانون والشفا والاشارات وقد شرح القسم الالهيات من الاشارات الخواجة نصير الدين الطوسي والفخر الرازي وكتب القطب الرازي المحاكمات وهو شرح له حكم بينهما في شرحيهما على الاشارات ، وله القصيدة الرائعة المشهورة العينية .

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنّع

محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع

وصلت على كره الـــيك وربما — كرهت فراقك وهي ذات تفجع

أنفت وما ألـفت فلمّـا واصلت — ألـــفت مجاورة الخراب البلقـــع

وأظنّهـا نسيت عهـودا بالحمـــى — ومنـــازلا بفراقهـــا لم تقنـــع

حتـى اذا اتصلت بهاء هبوطهـا — من ميم مركزهـا بذات الاجرع

علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت — بين المعـــالم والطلـــول الخضع

تبكي وقد نسيت عهودا بالحمى — بمدامـع تهمـــي ولمّـــا تقلـــع

حتى اذا قرب المسير الى الحمى — ودنا الرحيل الى الـفضاء الأوسع

وغـدت تغـرّد فوق ذروة شاهـق — والعلـم يرفـع كل من لم يرفـــع

وتعـــود عالمة بكـــلّ خفيّـــــة — في العـالمين فخرقهـــا لم يرقـــع

القصيدة وآخرها :

فكـــأنها برق تألّـــق بالحمـــى — ثم انطـــوى فكأنـــه لم يلمـــع

٢ ــ (الحديد ــ ٣)

٣ ــ (الحديد ــ ٤)

٤ ــ محمد بن ابراهيم الشيرازي الحكيم المتأله المعروف كان عالم أهل زمانه في الحكمة متقنا لجمع الفنون له الاسفار الاربعة وشرح الكافي وتفسير بعض السور القرآنية وكسر الاصنام الجاهلية وشواهد الربوبية وغير ذلك . توفي بالبصرة وهو متوجه الى الحج سنة ١٠٥٠ قال صاحب نخبة المقال في تاريخه :

ثم ابن ابراهيم صدر الأجلّ في سفر الحج مريض (١٠٥٠) ارتحل .

قدوة أهـــل العلـــم والصفـــاء — يروي عن الدامـــاد والبهائي

٥ ــ موضوع القضية الحملية قد يكون شيئا (محصَّلا) بالفتح اي يدل على شيء موجود أو صفة موجودة وقد يكون موضوعها أو محمولها شيئا معدولا أي داخلا عليه حرف السلب على وجه يكون جزئا من الموضوع أو المحمول مثل لا انسان ، لا عالم . وعليه فالقضية باعتبار تحصيل الموضوع والمحمول وعدولهما تنقسم الى قسمين : محصّلة ومعدولة :

١ ــ المحصلة : ما كان موضوعها ومحمولها محصلا سواء أكانت موجبة أو سالبة مثل : الهواء نقي ، الهواء ليس نقيا .

٢ ــ المعدولة ما كان موضوعها او محمولها او كلاهما معدولا سواء أكانت موجبة أو سالبة وتسمى معدولة الموضوع او معدولة المحمول او معدولة الطرفين حسب دخول العدول على أحد طرفيها أو كليهما .

مثال معدولة الطرفين : كل لا عالم هو غير صائب الرأي مثال معدولة المحمول : الهواء غير فاسد ، الهواء ليس هو غير فاسد .

مثال معدولة الموضوع : غير العالم مستهان غير العالم ليس بسعيد .

وتمتاز معدولة المحمول عن السالبة محصلة المحمول :

١ ــ في المعنى : فان المقصود بالسالبة سلب الحمل وبمعدولة المحمول حمل السلب اي يكون السلب في المعدولة جزءا من المحمول فيحمل المسلوب بما هو مسلوب على الموضوع .

٢ ــ في اللفظ : فان السالبة تجعل الرابطة فيها بعد حرف السلب لتدل على سلب الحمل والمعدولة تجعل الرابطة فيها قبل حرف السلب لتدل على حمل السلب وبالدقة فيما ذكرناه يتضح ما ذكره المؤلف دام ظله من ان الحق تعالى ليس متصفا بالاوصاف السلبية ..

٦ ــ الانبياء٢٢ .

٧ ــ أقول برهان التمانع المستفاد من الآية الكريمة ربما يطرح بصورة بسيطة ، وحاصلها أنه لو كان المبدأ وواجب الوجود متعددا لوقع التزاحم والتمانع بين اراداتهم ، فاذا تزاحمت الارادات فاما ان تغلب احدى الارادات على الاخرى واما الا تغلب ارادة من الارادات على غيرها .

أما الاول فمحال ، وتكون ارادة من واجب مغلوبة لارادة أخرى لان المغلوبية منافية للكمال ووجوب الوجود .

وأما الثاني : فيلزم منه الفساد في عالم الكون لان المفروض أنّ شيئا من

الارادات لم تكن مؤثرا ، فاذا لم تكن ثمة إرادة فينقطع الرابط بين الكون والواجب ولا شكّ أن الممكن لا بدّ له من الربط بالواجب ولا تقع حادثة بل لا يوجد ولا يبقى موجود وهذا معنى الفساد ، ولكن هذا التقرير غير تام لانه لا موجب لنا أن نفرض الارادات الواجبة متزاحمة بل لا بدّ لها أن تكون متعاطفة غير متزاحمة لان المفروض ان كلها للوجود الواجب العليم الحكيم لا يعمل واجب على خلاف المصلحة والحكمة ، وحيث المصلحة والحكمة ليست بأزيد من واحدة فارادات الواجبة وان كانت أزيد من ورق الاشجار وقطر الامطار تكون متحدة لا محالة وبعبارة أخرى ، تزاحم الارادات انما ينشأ اما من جلب النفع الشخصي وحب النفس أو من الجهل وكلاهما غير متصورة في حق الواجب تعالى ، فبرهان التمانع ليس مبنيا على تضادّ الارادات وتخالفها بل هو مبني على امتناع وجود كل حادثة ممكنة من ناحية تعدد الارادات ، بمعنى أنه لو كان واجب الوجود متعددا لكان التمانع في الوجود موجودا حتى مع فرض توافق الارادات وعدم تخالفها وتزاحمها ،وهذا البرهان مبتنى على ثلاثة أصول :

الاصل الاول : ان واجب الوجود بالذات واجب من جميع الجهات والحيثيات وتوضيحه اجمالا انه لا يمكن أن يكون في ذات الواجب حيثية الامكان والقوة بوجه من الوجوه فذات الواجب وجوب صرف فهو عالم بالوجوب لا بالامكان وقادر بالوجوب لا بالامكان ، وهكذا جميع صفاته فذات الواجب فيّاضة وخلاّقة بالوجوب لا بالامكان بمعنى أنه من المحال أن يكون امكان الوجود في موجود ولا يفاض الوجود له من الواجب .

الاصل الثاني : ان حيثية وجود المعلول متحدة مع حيثية انتسابه الى العلّة وليست في المعلول حيثيتان فيكون منتسبا الى الفاعل والعلة باحدى الحيثيتين وموجودا بالاخرى ، وقد بيّن هذا المعنى صدر المتألهين وعبّر عن هذا بأنّ وجود المعلول هو عين الربط والانتساب الى العلّة .

وقد كرر هذه الدقيقة في كلام الاستاذ (دام ظله) ولهذه الجهة الايجاد متحد مع الوجود لا أن الوجود شيء والايجاد شيء آخر .

الاصل الثالث : انه من المحال الترجيح بلا مرجّح ، وهذا الاصل لا يحتاج الى توضيح زائد فانه من الواضح انه اذا كانت نسبة شيء الى شيئين متساوية فمن المحال أن يتغير هذا التوازن والتساوي من دون دخالة أمر خارجي ، وكما أن الترجيح بلا مرجّح محال كذلك الترجّح بلا مرجح ايضا محال لكن الاول يستعمل غالبا في مورد الفواعل والثاني في مورد الاثار .

وقد تصدى بعض المتكلمين على امكان الترجيح بلا مرجّح من باب أن ادل الدليل على امكان شيء وقوعه ولهذا عنون مسألتي (رغيفي الجائع وطريقي الهارب) غفلة من أن هذه الامثلة تكون مثالا للموضوع اذا أحطنا على جميع العوامل والشرائط الدخيلة على الموضوع . والحال ان العوامل الدخيلة في شعورنا الظاهر والباطن في أمثال هذه الموارد بمقدار لا يمكننا الاحاطة بها فالبرهان العقلي لا يُردّ ولا يُمنع بهذه الأمثلة السوقيّة العامية فنقول نظرا الى المقدمات الثلاثة المذكورة : ان كان في الوجود واجبان أو أكثر فبحكم المقدمة الاولى وهي أن كلّ شيء يمكن تحقّق وجوده بتوفر شرايط وجوده فلا محالة يفاض الوجود عليه ومن المعلوم أن نسبة الواجبين أو أكثر الى هذا الشيء واحدة وتعلّق إرادة كل منهم اليه سواء فلا بد أن يفاض الوجود اليه من طرف الواجبين أو أكثر وبحكم المقدمة الثانية وجود كل معلول مساو لانتسابه الى علته فالايجاد ان تستلزم وجودين وحيث أن المعلول المفروض وجوده لا يمكن له أزيد من وجود واحد فلا يمكن انتسابه الا الى واحد فحينئذ انتساب المعلول الى احد الواجبين أو أكثر منهما مع أن المفروض عدم وجود رجحان في أحدها على الاخرين ترجحّ بلا مرجح وانتسابه الى الجميع يساوي تعدد وجود المعلول بعدد الواجب

وهذا أيضا محال لان المفروض أن الشيء الذي توفرت فيه شرايط ينتهي الى واحد لا يكون متعددا فتكون النتيجة ان ألا يوجد شيء اصلا . فعلى فرض تعدّد وجود الواجب يلزم الا يوجد شيء لان وجوده محال فيصحّ ان يقال لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا صدق الله العليّ العظيم .

الفصل السابع

في نبذة في تفسير السورة المباركة القدر بقدر ما يناسب هذه الاوراق

قوله تعالى : انّا أنزلناه في ليلة القدر : وفي هذه الآية الشريفة مطالب عالية لا تخلو الاشارة الى بعضها من الفائدة :

المطلب الاول : في أن الآية الشريفة وكثيرا من الآيات الشريفة تنسب تنزيل القرآن الى ذاته المقدسة كقوله تعالى : « انا أنزلناه في ليلة مباركة »[1] . « انا نحن نزلنا الذكر وانّا له لحافظون »[2] ، الى غير ذلك من الآيات الشريفة ، وفي بعضها تنسب الى جبرائيل وهو الروح الامين كقوله تعالى : « نزل به الروح الامين »[3] .

فعلماء الظاهر يقولون في هذه المقامات : هذا مجاز من قبيل « يا هامان ابن لي صرحا »[4] فنسبة التنزيل الى الحق تعالى مثلا من باب ان الذات المقدسة سبب للتنزيل وآمر به أو ان التنزيل بالنسبة الى الحق تعالى حقيقة وينسب الى الروح الامين مجازا لانه واسطته ، وهذا من جهة انهم يحسبون ان نسبة فعل الحق الى الخلق كنسبة فعل الخلق الى الخلق فيرون مأمورية جبرائيل وعزرائيل عن الحق تعالى كمأمورية هامان عن فرعون والبنّائين والمعماريين عن هامان ، وهذا قياس باطل كثيرا وقياس مع الفارق وان فهم نسبة الخلق الى الحق وفعل الخلق والخالق من مهمات المعارف

الالهية وأمهات المسائل الفلسفية تنحل به كثير من المهمات ومن جملتها مسألة الجبر والتفويض ، ومطلبنا هذا من شعبها .

وليعلم أنه من المقرر والثابت في العلوم العالية أن جميع دار التحقق ومراتب الوجود صورة الفيض المقدس الذي هو التجلي الاشراقي للحق تعالى ، وكما ان الاضافة الاشراقية هي محض الربط وصرف الفقر كذلك تعيناتها وصورها ايضا محض الربط وليست لها من أنفسها حيثية واستقلال . وبعبارة أخرى جميع دار التحقق فانية في الحق ذاتا وصفة وفعلا لانه لو استقل موجود من الموجودات في شأن من الشؤون الذاتية سواء أكان في الهوية الوجودية أم في شؤونها لخرج عن حدود بقعة الامكان فيتبدل الى الوجوب الذاتي وهذا واضح البطلان فاذا رسخت هذه اللطيفة الالهية في القلب وذاقها الفؤاد كما ينبغي فيكشف له سرّ من أسرار القدر وتنكشف لطيفة من حقيقة الامر بين الامرين فيمكن اذاً نسبة الاثار والافعال الكمالية الى الخلق بنفس النسبة التي لها الى الحق من دون أن تكون مجازا في جانب ، وهذا يتحقق في نظر الوحدة في الكثرة والجمع بين الامرين ، نعم من كان واقعا في الكثرة محضها ومحجوبا عن الوحدة ينسب الفعل الى الخلق ويغفل عن الحق كنحن المحجوبين ، ومن تجلت في قلبه الوحدة فيحجب عن الخلق وينسب جميع الافعال الى الحق ، والعارف المحقق يجمع بين الوحدة والكثرة وفي حال انه ينسب الفعل الى الحق من دون شائبة مجاز ينسبه في نفس الحال الى الخلق بلا شائبة مجاز والآية الشريفة « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » التي نفت الرمي في عين اثباته وأثبتته في عين نفيه تشير الى هذا المشرب العرفاني الاحلى والمسلك الايماني الدقيق ، وانما قلنا من نسبة الافعال والاثار الى الله سبحانه وقيّدناها بالكمالية لنخرج النقائص من هذه النسبة

لان النقائص ترجع الى الاعدام وهي من تعينات الوجود وليست منسوبة الى الحق الا بالعرض ولا يمكن شرح هذا المبحث في هذه الاوراق . فاذا علمت هذه المقدمة تعلم نسبة التنزيل الى جبرائيل والى الحق والاحياء الى اسرافيل والى الحق ، والاماتة الى عزرائيل والملائكة موكلة على النفوس والى الحق ، والاشارة الى هذا المطلب في القرآن كثيرة وهذا من احدى معارف القرآن التي لم يكن قبل هذا الكتاب الشريف في آثار الحكماء والفلاسفة منها عين ولا أثر ، والعائلة البشرية في هذه اللطيفة مرهونة لعطيّة هذه الصحيفة الالهية كسائر المعارف الالهية القرآنية .

المطلب الثاني : في الاشارة الى نكتة أنه تعالى قال « انّا » بصيغة الجمع وأنزلناه بصيغة الجمع .

اعلم ان نكتة ذلك هي تفخيم مقام الحق تعالى بمبدئيّته لتنزيل هذا الكتاب الشريف ولعل هذه الجمعية باعتبار الجمعية الاسمائية والاشارة الى أن الحق تعالى مبدأ لهذا الكتاب الشريف بجميع الشؤون الاسمائية والصفاتية ولهذه الجهة كان هذا الكتاب الشريف صورة أحدية جمع جميع الاسماء والصفات ومعرفا لمقام الحق المقدس بتمام الشؤون والتجليات .

وبعبارة أخرى هذه الصحيفة النورانية صورة الاسم الاعظم كما أن الانسان الكامل ايضا صورة الاسم الاعظم بل حقيقة هذين في الحضرة الغيبية واحدة وهما في عالم التفرقة متفرقان على حسب الصورة ولكن على حسب المعنى ايضا لا يتفرقان وهذا أحد معاني لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض .. وكما أن الحق تعالى خمّر طينة آدم الاول والانسان الكامل بيدي الجلال والجمال كذلك أنزل الكتاب الكامل والقرآن الجامع بيدي الجمال والجلال ، ولعله لهذه الجهَة ايضا يقال له القرآن لان مقام الأحدية جمع

الوحدة والكثرة ولهذه الجهة ليس هذا الكتاب قابلا للنسخ والانقطاع لان الاسم الاعظم ومظاهره أزلي وأبدي ، وجميع الشرائع دعوة الى هذه الشريعة والولاية المحمدية ، ولعل الذكر في الآية الشريفة « انّا عرضنا الامانـة »[٦] بصيغة الجمع لما ذكرنا من النكتة في « انّا أنزلنا » لان الامانة على حسب الباطن هي حقيقة الولاية وعلى حسب الظاهر هي الشريعة او دين الاسلام أو القرآن والصلاة .

المطلب الثالث : في اجمال كيفية نزول القرآن :

وهذا من لطائف المعارف الالهية ومن أسرار الحقائق الدينية التي قلما يوجد من يطّلع على نبذة منها بالطريق العلمية ولا يتيسر لاحد الاطلاع على هذه اللطيفة الالهية بطريق الكشف والشهود الا للكمّل من الاولياء أوّلهم نفس الرسول والخاتم وبعده سائر الاولياء وأهل المعارف وبمساعدته صلى الله عليه وآله لان مشاهدة هذه الحقيقة لا تكون الا بالوصول الى عالم الوحي والخروج عن حدود العوالم الامكانية ونحن نبيّن هنا من هذه الحقيقة بيانا بالرمز والاشارة فليعلم ان القلوب التي تسير الى الله بطريق السلوك المعنوي والسفر الباطني وتهاجر من منزل النفس المظلم وبيت الإنّيّة والانانية طائفتان بالطريق الكلّي .

الاولى هم الذين يدركهم الموت بعد اتمام السفر الى الله ويبقون في هذه الحال من الجذبة والفناء والموت فقد وقع أجرهم على الله وهو الله وهؤلاء محبوبون فانون تحت قباب الله لا يعرفهم احد ولا يرتبطون بأحد ولا يعرفون أحدا الا الحق تعالى « أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري » .

الطائفة الثانية هم الذين فيهم قابلية ان يرجعوا الى أنفسهم بعد تمامية السير الى الله وفي الله وتحصل لهم حالة الصحو والتنبيه هؤلاء الذين قدّر

استعدادهم على حسب تجلّي الفيض الاقدس الذي هو سرّ القدر وانتجبهم لتكميل العباد وتعمير البلاد وهؤلاء بعد الاتصال بالحضرة العلمية والرجوع الى حقائق الاعيان يحصل لهم السير في الاعيان بالكشف فيتصلون بحضرة القدس ويكون سفرهم الى الله والى السعادة ويخلّعون بخلعة النبوة ، وهذا الكشف وحي الهي قبل التنزّل الى عالم الوحي الجبرائيلي وبعدما توجهوا من هذا العالم الى العوالم النازلة يكتشفون ما في الاقلام العالية والالواح القدسية بقدر احاطتهم العلمية ونشأتهم الكمالية المختصة بهم التابعة للحضرات الاسمائية . واختلاف الشرائع والنبوات بل جميع الاختلافات من هنا .

وفي هذا المقام تلك الحقيقة الغيبية والسريرة القدسية التي شوهدت في الحضرة العلمية والاقلام والالواح العالية تنزل الى قلوبهم المباركة تارة عن طريق غيب النفس وسرّ روحهم الشريف بتوسط ملك الوحي وهو جبرائيل وأخرى يتمثل لهم جبرائيل تمثلا مثاليا في حضرة المثال وثالثة يتمثل تمثلا ملكيا ، وبتوسّط تلك الحقيقة يظهر عن مكمن الغيب الى مشهد عالم الشهادة ويتنزل بتلك اللطيفة الالهية وصاحب الوحي يدركها ويشاهدها في كل نشأة على طور ، ففي الحضرة العلمية على طور وفي حضرة الأعيان على طور وفي حضرات الاقلام على طور وفي حضرات الالواح على طور وفي حضرة المثال على طور وفي الحس المشترك على طور وفي الشهادة المطلقة على طور وهذه سبع مراتب من التنزّل ولعل نزول القرآن على سبعة أحرف يكون اشارة الى هذا المعنى وهذا لا ينافي ما قال عليه السلام القرآن واحد من واحد كما هو معلوم ولهذا المقام تفصيل لا يناسب ذكره .

المطلب الرابع : في سر (هاء) في انّا أنزلناه :

قد علم ان للقرآن قبل التنزل الى هذه النشأة مقامات وكينونات فمقامه الاول : كينونته العلمية في الحضرة الغيبية بالتكلم الذاتي والمقارعة الذاتية بطريق أحدية الجمع ، ولعل ضمير الغائب يكون اشارة الى ذاك المقام وقد ذكره تعالى بضمير الغيبة لافادة هذا المعنى فكأنه يقول : هذا القرآن النازل في ليلة القدر هو ذاك القرآن العلمي في السرّ المكنون ، والغيبي في النشأة العلمية قد أنزلناه عن تلك المراتب وكان متحدا في مقام مع الذات وكان من التجليات الاسمائية وهذه الحقيقة الظاهرة ذلك السرّ الالهي وهذا الكتاب الذي ظهر في كسوة العبارات والالفاظ هو صورة التجليات الذاتية في مرتبة الذات وعين التجلي الفعلي في مرتبة الفعل ، كما قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه « انما كلامه فعله » .

المطلب الخامس : في بيان ليلة القدر :

وفيه مباحث كثيرة ومعارف لا تعدّ قد بحث عنها العلماء الاعلام رضوان الله عليهم على حسب مشاربهم ومسالكهم ، ونحن نبيّن في هذه الاوراق بعضا منها بطريق الاشارة ونشير الى مطالب اخرى لم يذكروها وذلك في ضمن امور :

الاول : في وجه تسمية ليلة القدر :

ان العلماء قد اختلفوا فيه فبعضهم على أن ليلة القدر حيث أنها صاحبة شرف ومنزلة وقد نزل فيها القرآن صاحب القدر بتوسط ملك صاحب القدر على رسول صاحب القدر لامة صاحبة القدر فلهذا سميت بليلة القدر .

وقال بعض : ان تسميتها ليلة القدر لاجل تقدير الامور والآجال وأرزاق الناس في تلك الليلة .

وقال بعض : لان الارض تضيق بواسطة كثرة الملائكة فسميت ليلة القدر وهذا من قبيل « ومن قدر عليه رزقه » وهذه كلمات قيلت في المقام وفي كل من تلك الوجوه تحقيقات لاتخلو الاشارة اليها اجمالا من الفائدة .

أما المطلب الاول وهو كونها بمعنى صاحبة المنزلة والقدر .

فاعلم أن في هذا المقام كلاما وهو أن مطلق الزمان والمكان الذي بعض منه شريف وبعض غير شريف وبعض سعيد وبعض نحس فهل هذا من نفس ذات الزمان ومن تشخصاته الذاتية ، وهكذا في المكان أو أنه بواسطة وقوع الوقائع وحصول الامور الشريفة والخسيسة يكون صاحب تلك المزية بالعرض ، وهذا وان لم يكن مبحثا مهما وشريفا والبحث في أطرافه ليس له كثير فائدة ولكن نأتي بذكر منه بطريق الاختصار .

ان وجه ترجيح الاحتمال الاول هو أن ظاهر الاخبار والآيات التي أثبتت للزمان والمكان شرافة أو نحوسة انها صفة نفس الزمان والمكان لا انها صفة للحال المتعلق وحيث أنه لا مانع عقليا فيتعيّن حملها على ظاهرها .

ووجه ترجيح الاحتمال الثاني ان حقيقة كل من الزمان والمكان حقيقة واحدة بل شخصية كل منهما ايضا شخصية واحدة فلهذه الجهة لا يمكن أن يكون شخص واحد متجزيا ومختلفا في الحكم . فبناء على هذا فلا بد أن يحمل ما ورد في شرفهما أو نحوستهما على الوقائع والقضايا الحاصلة فيهما ، وهذا الوجه ليس برهانيا لان الزمان وان كان شخصا واحدا ولكن حيث أنه متدرج وممتد وحقيقة مقدارية لا مانع من أن يكون بعض أجزائه مع بعض آخر مختلفا في الحكم والاثر ولم يقم برهان بأن الشخص كيفما كان لا

يكون له حكمان وأثران بل خلافه ظاهر ، فمثلا أفراد الانسان مع أن كل واحد منهما شخص واحد فلهم مع ذلك في الصورة الجسمية اختلافات كثيرة مثلا الجليدية والدماغ والقلب أشرف وألطف من الاعضاء الاخر وكذلك القوى الباطنية والظاهرة منه بعضها أشرف من بعض وهذا لان الانسان لم يظهر في هذا العالم بنعت الوحدة التامة وان كان شخصا واحدا ولكن حيث إنه ظاهر بنعت الكثرة فاحكامه ايضا تختلف .

وأما وجه ترجيح الاحتمال الاول فليس أيضا وجها صحيحا مرضيا لان مرجع هذا الوجه الى أصالة الظهور وأصالة الحقيقة مثلا وقد علم في الاصول ان اصالة الحقيقة وأصالة الظهور لتعيين المراد في مورد الشك في المراد لا انها بعد معلومية المراد لتعيين الحقيقة فتأمل[٧] .

فبناء على هذا فكلا الوجهين محتمل ، ولكن الثاني أرجح في النظر .
فبناء عليه ان ليلة القدر صارت صاحبة قدر لانها ليلة وصال النبي الخاتم وليلة وصول العاشق الحقيقي الى محبوبه ، وقد علم في المباحث السابقة أن تنزل الملائكة ونزول الوحي يكون بعد حصول الفناء والقرب الحقيقي .

ويستفاد من الاخبار الكثيرة والآيات الشريفة ايضا أن شرف الازمنة والامكنة ونحوستها بسبب الوقائع فيها وهذا يعلم بمراجعتها وان كان يستفاد من بعضها الشرف الذاتي أيضا .

أما الاحتمال الاخر وهو أنها تسمى بليلة القدر لتقدير أمور أيام السنة فيها فاعلم أن حقيقة القضاء والقدر وكيفيتها ومراتب ظهورها من أجلّ العلوم الالهية وأشرفها ، وقد نهي عامة الناس عن الغور في أطرافها ولانه يوجب الحيرة والضلالة لكمال دقتها ولطافتها ولهذا لا بد أن تعد هذه الحقيقة من

أسرار الشريعة وودائع النبوة ويصرف النظر عن البحث الدقيق في أطرافها ، ونحن نشير الى مبحث منه يناسب هذا المقام .

وهو أن تقدير الامور مع أنها كانت في علم الحق تعالى في أزل الآزال وليس من الامور التدريجية بالنسبة الى مقام العلم الربوبي المنزه فما معنى التقدير في كل سنة في ليلة معينة ؟

اعلم أن للقضاء والقدر مراتب تتفاوت أحكامها على حسب تلك المراتب :

المرتبة الاولى من تلك المراتب عبارة عن الحقائق التي تتقدر وتتحدد في حضرة العلم بالتجلي بالفيض الاقدس تبعا لظهور الاسماء والصفات وبعده تقدر وتحكم في الاقلام العالية والالواح العالية على حسب الظهور بالتجلي الفعلي ولا تقع التغيرات والتبديلات في هذه المراتب ، والقضاء الحتم الذي لا يبدل هو الحقائق المجردة الواقعة في حضرات الاعيان والنشأة العلمية والنازلة في الاقلام والالواح المجردة ثم تظهر الحقائق بالصور البرزخية والمثالية في الالواح الاخر والعالم الانزل وهو عالم الخيال المنفصل وخيال الكل الذي يقال له عالم المثل المعلقة على طريقة حكماء الاشراق ، وفي هذا العالم يمكن وقوع التغيرات والاختلافات بل هي واقعة .

ثم يكون التقديرات والتحديدات بتوسط الملائكة الموكلين بعالم الطبيعة ، وفي لوح القدر هذا تغييرات دائمية وتبديلات أبدية ، بل هو نفسه الصورة السيالة والحقيقة المتصرمة والمتدرجة والحقائق في هذا اللوح قابلة للشدة والضعف والحركات قابلة للسرعة والبطء والزيادة والنقيصة ومع ذلك فالوجهة التي تلي الله والوجهة الغيبية لهذه الاشياء التي هي جهة

التدلي بالحق وصورة ظهور الفيض المنبسط والظل الممدود وحقيقة العلم الفعلي للحق لا مجال فيها للتغيير والتبديل بوجه .

وبالجملة ، فجميع التغيرات والتبدلات وزيادة الآجال وتقدير الارزاق تقع عند الحكماء في لوح القدر العلمي وهو عالم المثال ، وعند الكاتب تقع في لوح القدر العيني الذي هو محل نفس التقديرات على أيدي الملائكة الموكلين بها فبناء على هذا فلا مانع من أن تقع التغيرات والتبديلات في عالم الطبع في ليلة القدر بما أنه ليلة التوجه التام للولي الكامل وليلة ظهور سلطنته الملكوتية بتوسط النفس الشريفة للولي الكامل وأمام كل عصر وقطب كل زمان وهو اليوم حضرة بقية الله في الارضين سيدنا ومولانا وإمامنا وهادينا الحجة بن الحسن (ارواحنا لمقدمه الفداء) فما أراد عليه السلام من جزئيات الطبيعة يبطىء حركته ، وما أراد سرعته يسرعه وما أراد من رزق يوسعه وما أراد يضيقه ، وهذه الارادة ارادة الحق وظل الارادة الازلية وشعاعها وتابعة للفرامين الالهية كما أن ملائكة الله ايضا لا يتصرفون من عند أنفسهم . وتصرفات جميعهم بل تصرفات جميع ذرات الوجود تصرف الهي وهي من تلك اللطيفة الغيبية الالهية « فاستقم كما أمرت »[٨] .

وأما ما ذكر من الاحتمال في وجه تسمية ليلة القدر من أن الارض تضيق بواسطة الملائكة ولهذا سميت ليلة القدر ، فهذا الوجه وان كان بعيدا وان كان القائل به أعجوبة الزمان الخليل بن أحمد رضوان الله عليه ولكن ما يمكن أن يقع موردا للبحث هو أن ملائكة الله ليست من سنخ عالم الطبيعة والمادة فما معنى ضيق الارض بهم ؟

فاعلم انه قد ورد نظير هذا المطلب في الروايات الشريفة مثل قضية تشييع سعد بن معاذ رضي الله عنه[٩] ومثل بسط الملائكة أجنحتهم لطالب

العلم ، فهذا اما من باب تمثّل الملائكة بالصور المثالية وتنزلها من عالم الغيب الى عالم المثال وتضييق ملكوت الارض أو من باب تمثلهم الملكي في ملك الارض وان كانت الابصار الطبيعية الحيوانية لا تراها . وبالجملة التضييق باعتبار التمثلات المثالية او الملكية .

الامر الثاني في حقيقة ليلة القدر :

اعلم أن لكل رقيقة حقيقة ولكل صورة ملكية باطناً ملكوتياً وغيبيّاً وأهل المعرفة يقولون أن مراتب نزول حقيقة الوجود باعتبار احتجاب شمس الحقيقة في أفق تعينات الليالي ومراتب الصعود باعتبار خروج شمس الحقيقة من آفاق تعينات الايام وان شرافة الايام والليالي ونحوستها تتضح على حسب هذا البيان .

وباعتبار قوس النزول ، فليلة القدر المحمدية وباعتبار قوس الصعود فيوم القيامة الاحمدية لان هذين القوسين مدّ النور المنبسط الذي هو الحقيقة المحمدية وجميع التعيينات هي من التعين الأولي للاسم الاعظم .

ففي نظر الوحدة ، العالم ليلة القدر ويوم القيامة وليس أكثر من ليلة واحدة ويوم واحد وهذا تمام دار التحقق أي وليلة القدر المحمدية ويوم القيامة الاحمدية ، ومن تحقق بهذه الحقيقة فهو دائما في ليلة القدر ويوم القيامة وهذان يجتمعان .

وباعتبار نظر الكثرة تظهر الليالي والايام،فبعض الليالي صاحبة القدر وبعضها ليست بصاحبة القدر وبين جميع الليالي البنية الاحمدية والتعين المحمدي صلي الله عليه وآله التي غرب في أفقها نور حقيقة الوجود بجميع شؤونه وكذلك الاسماء والصفات بكمال نوريتها وتمام حقيقتها قد غربت فيها

هي ليلة القدر المطلقة كما أن اليوم المحمدي يوم القيامة وأما سائر الليالي والايام فهي ليال وأيام مقيّدة ونزول القرآن في هذه البنية الشريفة والقلب المطهّر نزول في ليلة القدر ، فالقرآن كما أنه نزل جملة في ليلة القدر بطريق الكشف المطلق الكلي كذلك نزل نجوما في خلال ثلاث وعشرين سنة نجوما في ليلة القدر ، والشيخ العارف شاه آبادي دام ظله كان يقول ليلة القدر هي الدورة المحمدية ، وهذا امّا باعتبار أنّ جميع الادوار الوجودية هي الدورة المحمدية واما ان في هذه الدورة الاقطاب الكمّل المحمدية والائمة الهداة المعصومين ليالي القدر .

ويدل على هذا ما ذكرنا من حقيقة ليلة القدر الحديث الشريف المطوّل في تفسير البرهان نقله عن الكافي الشريف ، وفي ذلك الحديث : « ان نصرانيا قال لموسى بن جعفر عليه السلام ما تفسير باطن حم والكتاب المبين انّا أنزلناه في ليلة مباركة انّا كنّا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم ؟ فقال عليه السلام : اما حم محمد واما الكتاب المبين أمير المؤمنين علي وأما الليلة فاطمة عليها السلام » .

وفي رواية فسرت ليال عشر بالائمة الطاهرين من الحسن الى الحسن وهذه احدى مراتب ليلة القدر قد ذكرها موسى بن جعفر عليه السلام ومما يشهد بأن ليلة القدر تمام الدورة المحمدية .. الرواية التي في تفسير البرهان عن الباقر عليه السلام وهذه الرواية حيث أنها رواية شريفة وتشير الى معارف عديدة وتكشف أسرارا مهمّة ننقلها نصّا تيمّنا .

قال رحمه الله وعن الشيخ ابي جعفر الطوسي عن رجاله عن عبد الله بن عجلان السكوني قال : سمعت ابا جعفر عليه السلام يقول : « بيت علي وفاطمة حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسقف بيتهم عرش رب

العالمين وفي قعر بيوتهم فرجة مكشوطة الى العرش معراج الوحي . والملائكة تنزل عليهم بالوحي صباحا ومساء وكل ساعة وطرفة عين والملائكة لاتنقطع أفواجهم ، فوج ينزل وفوج يصعد وان الله تبارك وتعالى كشف لابراهيم عليه السلام عن السموات حتى أبصر العرش وزاد الله في قوّة ناظره وان الله زاد في قوة ناظر محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وكانوا يبصرون العرش ولا يجدون لبيوتهم سقفا غير العرش ، فبيوتهم مسقفة بعرش الرحمن ومعارج الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام .. قال : قلت : من كل أمر سلام ؟ قال : بكل أمر ، فقلت : هذا التنزيل ؟ قال نعم .

والتدبر في هذا الحديث الشريف يفتح أبوابا من المعرفة لأهلها فتنكشف له نبذة من حقيقة الولاية وباطن ليلة القدر .

الأمر الثالث :

اعلم كما أن لليلة القدر حقيقة وباطنا قد أشرنا اليهما ، كذلك لها صورة ومظهر ، بل مظاهر في عالم الطبع وحيث أنه من الممكن أن تكون في المظاهر من جهة النقص والكمال فروق كثيرة فمن هذه الجهة يمكن أن يجمع بين الاقوال والاخبار التي وردت في تعيين ليلة القدر بأن الليالي الشريفة التي وردت في الروايات كلها من مظاهر ليلة القدر الا أنه يفرق بعضها في الشرافة وكمال المظهرية والليلة الشريفة التي لها تمام ظهور ليلة القدر وليلة الوصول التام الختمي والوصول الكامل الخاتمي مختفية في ليالي جميع السنة أو شهر رمضان المبارك أو في العشر الاخير أو في الليالي الثلاثة منه ، وفي الروايات للعامة والخاصة ايضا اختلافات ، وفي روايات الخاصة

ذكر بالترديد في ليلة التاسع عشر والحادي والعشرين والثالث والعشرين وفي بعضها الترديد بين الحادي والعشرين والثالث والعشرين .

قال شهاب بن عبد ربّه : قلت لابي عبد الله عليه السلام : اخبرني بليلة القدر . قال (ع) « هي ليلة احدى وعشرين او ثلاث وعشرين » . وعن عبد الواحد بن المختار الانصاري قال : سألت أبا جعفر عن ليلة القدر ، قال : « في ليلتين ليلة احدى وعشرين وثلاث وعشرين . فقلت افرد لي احداهما . قال : وما عليك أن تعمل في ليلتين هي احداهما » .

وعن حسان بن أبي علي قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ليلة القدر فقال : « اطلبها في تسع عشرة واحدى وعشرين وثلاث وعشرين » .

وقال السيد العابد الزاهد رضي الله عنه في الاقبال : اعلم أن هذه الليلة الثالثة والعشرين من شهر رمضان وردت أخبار صريحة بأنها ليلة القدر على الكشف والبيان فمن ذلك ما رويناه باسناده الى سفيان السمط قال : قلت لابي عبد الله : « افرد لي ليلة القدر ، قال : ليلة ثلاث وعشرين » . ومن ذلك ما رويناه باسناده الى زرارة عن عبد الواحد بن المختار الانصاري قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن ليلة القدر فقال « أخبرك والله ثم لا أعمي عليك هي أول ليلة من السبع الاخر » . ثم يروي عن زرارة انه قال كان ذلك الشهر تسعة وعشرين ثم يروي روايات أخر ان ليلة القدر هي ليلة ثلاث وعشرين منها قضية الجهني المعروفة[١٠] .

تنبيه عرفاني :

كما ذكرنا في السورتين المباركتين المذكورتين الاظهر ان بسم الله في كل سورة متعلق بتلك السورة فلهذا يكون المعنى في السورة المباركة القدر انّا أنزلنا الحقيقة الشريفة القرآنية واللطيفة المقدسة الالهية في ليلة القدر المحمدية باسم الله الذي هو الحقيقة الجمعية الاسمائية والاسم الاعظم الربوبي والمتعين بالرحمة المطلقة الرحمانية والرحيمية بمعنى ان ظهور القرآن بتبعية الظهور الجمعي الالهي والقبض والبسط الرحيمية والرحمانية بل حقيقة القرآن هي مقام ظهور اسم الله الاعظم بظهور الرحمانية والرحيمية وجامع للجمع والتفصيل . فهذا الكتاب لهذه الجهة قرآن وفرقان . كما أن روحانية الرسول الخاتم ومقام ولايته المقدس أيضا قرآن وفرقان ومقام أحدية الجمع والتفصيل .

فعلى هذا الاحتمال كأن الذات المقدسة تقول :

إنّا بالتجلي بمقام الاسم الاعظم وهو مقام أحدية الجمع والتفصيل بظهور رحمة الرحمانية والرحيمية نزّلنا القرآن في ليلة القدر المحمدية ، وحيث أن في عالم الفرق بل فرق الفرق حصلت الفرقانية بين القرآنين يعني القرآن المكتوب المنزل والقرآن المنزل عليه يعني الكتاب الالهي والحقيقة المحمدية فواصلنا بين القرآنين وجمعنا بين الفرقانين في ليلة الوصال ، وبهذا الاعتبار ايضا هذه الليلة ليلة القدر ولكن لا يعرف أحد قدرها كما ينبغي غير نفس خاتم النبيين صاحب ليلة القدر بالاصالة وأوصيائه المعصومين اصحابها بالتبعية .

تتمة : في ذكر بعض الروايات التي وردت في فضل ليلة القدر :

منها : ما رواه العارف بالله السيد ابن طاووس في كتاب الاقبال

الشريف ، قال : ووجدت في كتاب كنز اليواقيت تأليف أبي الفضل ابن محمد الهروي اخبارا في ليلة القدر الى أن قال عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال : « قال موسى : الهي اريد قربك قال : قربي لمن استيقظ ليلة القدر . قال : الهي اريد رحمتك ، قال : رحمتي لمن رحم المساكين ليلة القدر . قال : الهي اريد الجواز على الصراط ، قال : ذلك لمن تصدّق في ليلة القدر . قال : الهي اريد من أشجار الجنة وثمارها قال : ذلك لمن سبّح تسبيحة في ليلة القدر . قال : الهي أريد النجاة ، قال : النجاة من النار ؟ قال : نعم ، قال : ذلك لمن استغفر في ليلة القدر . قال : الهي أريد رضاك ، قال : رضائي لمن صلى ركعتين في ليلة القدر » .

ومن الكتاب المذكور عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال : « تفتح أبواب السماء في ليلة القدر فما من عبد يصلي فيها الا كتب الله تعالى له بكل سجدة شجرة في الجنة لو يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يقطعها وبكل ركعة بيتا في الجنة من در وياقوت وزبرجد ولؤلؤ ، وبكل آية تاجا من تيجان الجنة وبكل تسبيحة طائرا من العجب وبكل جلسة درجة من درجات الجنة وبكل تشهّد غرفة من غرفات الجنة وبكل تسليمة حلّة من حلل الجنة ، فاذا انفجر عمود الصبح أعطاه الله من الكواعب المؤلفات والجواري المهذبات والغلمان المخلّدين والنجائب المطيرات والرياحين المعطرات والانهار الجاريات والنعيم الراضيات والتحف والهديات والخلع والكرامات ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين وانتم فيها خالدون » .

ومن هذا الكتاب عن الباقر عليه السلام « من أحيا ليلة القدر غفرت له ذنوبه ولو كانت ذنوبه عدد نجوم السماء ومثاقيل الجبال ومكاييل البحار » . والاخبار في فضائلها أكثر من أن تكتب في هذه الاوراق

قوله تعالى : وما أدراك ما ليلة القدر :

هذا التركيب للتفخيم والتعظيم وعظمة المطلب وعظمة الحقيقة خصوصا بملاحظة المتكلم والمخاطب ، فمع أن الحق تعالى جلّت قدرته هو المتكلم والرسول الاكرم هو المخاطب ، مع هذا الوصف ربما يكون المطلب ذا عظمة بمقدار لا يمكن اظهاره في نسج الألفاظ وتركيب الحروف والكلمات فكأنه تعالى يقول : لا تدري ما ليلة القدر في حقيقتها العظيمة ولا يمكن بيان حقيقتها ونسج الحروف والكلمات ونظمها لا يليق بتلك الحقيقة .

ولهذا مع أن كلمة ما لبيان الحقيقة فقد صرف النظر عن بيانها وقال ليلة القدر خير من ألف شهر فعرّفها بخواصها وآثارها لان بيان حقيقتها غير ممكن ، ومن هنا أيضا يحتمل بحدس قوي أن تكون حقيقة ليلة القدر وباطنها غير هذه الصورة والظاهر ، وان كان هذا الظاهر ايضا ذا أهمية وعظمة ولكن ليس بمثابة يعبّر هذا النحو من التعبير بالنسبة الى رسول الله الولي المطلق والمحيط على كل العوالم .

ان قلت : بناء على ما ذكر من أن باطن ليلة القدر حقيقة الرسول المكرم وبنيته التي احتجبت فيها شمس الحقيقة بتمام شؤونها فالاشكال يكون أعظم لانه لا يمكن أن يقال له ـــ صلى الله عليه وآله ـــ نفسه ما أدراك ما ليلة القدر التي هي الصورة الملكية لك .

قلت ان لهذا المطلب وهذه اللطيفة باطنا وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد .

فاعلم أيها الغزيز .. حيث إن في باطن ليلة القدر الحقيقيّة يعني في

البنية المحمدية والصورة الملكية او في العين الثابتة المحمدية جلوة الاسم الاعظم والتجلي الاحدي الجمعي الالهي فلهذه الجهة ما دام العبد السالك الى الله يعني الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله في حجاب نفسه فانه لا يتمكن من مشاهدة ذلك الباطن وتلك الحقيقة كما ورد في القرآن الشريف في حق موسى بن عمران لن تراني يا موسى .. مع أن التجلي الذاتي أو الصفاتي قد حصل له عليه السلام بدليل : « فلما تجلّى ربّه لجبل جعله دكّا وخرّ موسى صعقا » . وبدليل فقرات الدعاء الشريف العظيم الشأن السمات كما هو واضح جدا ، والنكتة في هذا ايضا أنه يا موسى ما دمت في الحجاب الموسوي والاحتجاب النفسي لا يمكنك المشاهدة لان مشاهدة جمال الجميل لمن خرج عن نفسه ، فاذا خرج عن نفسه فيرى بعين الحق وعين الحق ترى الحق لا محالة فجلوة الاسم الاعظم التي هي الصورة الكمالية لليلة القدر لا ترى مع الاحتجاب بالنفس ، فهذا التعبير بناء على هذا التحقيق يكون صحيحا وفي مورده .

فان قلت : ان ليلة القدر هي نفس البنية الاحمدية باعتبار احتجاب شمس الحقيقة فيها لا نفس الشمس حتى يصحّ هذا التوجيه . قلت : في لسان أهل النظر شيئية الشيء بصورته الكمالية والاشياء ذوات الاسباب وخصوصا السبب الالهي لا تعرف بحقيقتها الا بمعرفة اسبابها .

وفي لسان أهل المعرفة نسبة الظاهر والباطن والجلوة والمتجلي ليسا أمرين مفترقين بل الحقيقة الواحدة تتجلى بالتجلي الظهوري حينا وبالتجلي البطوني حينا آخر ، كما يقول العارف المعروف :

ماعدم مهائيم هستيها نما   تو وجود مطلق وهستي ما[١٢]

وفي هذا الكلام كما يقول العارف الرومي لاانتهاء له[١٣] وصرف النظر عنه أولى .

قوله تعالى : ليلة القدر خير من ألف شهر :

اذا لاحظنا الصورة الظاهرة الملكية لليلة القدر فكونها خيرا من ألف شهر بمعنى أنها خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، أو أنها والعبادة والطاعة فيها خير من ألف شهر حمل اليهود فيها السلاح ليقاتلوا في سبيل الله .

أو أن ليلة القدر خير من ألف شهر سلطنة بني فلان كما في الروايات الشريفة .

واذا لوحظت حقيقة ليلة القدر فيمكن أن يكون ألف شهر كناية عن جميع الموجودات باعتبار أن ألف العدد الكامل ، والمراد من الشهر أنواعها ، يعني أن البنية الشريفة المحمدية وهي الانسان الكامل خير من ألف نوع وهي جميع الموجودات كما قال بعض أهل المعرفة .

وقد لاح في نظر الكاتب احتمال آخر وهو أن تكون ليلة القدر اشارة الى مظهر الاسم الاعظم يعني المرآة التامة المحمدية صلى الله عليه وآله وألف شهر عبارة عن مظاهر الاسماء الاخر ، وحيث أن للحق تعالى واحدا وألف اسم . واحد من الاسماء مستأثر في علم الغيب فلهذه الجهة ليلة القدر ايضا مستأثرة وليلة قدر البنية المحمّدية ايضا مستأثرة ولا يطّلع عليها غير الذات المقدسة للرسول الخاتم صلى الله عليه وآله .

تنبيه عرفاني :

وليعلم كما أن الولي الكامل والنبي الخاتم صلى الله عليه وآله ليلة

القدر باعتبار بطون الاسم الاعظم فيه واحتجاب الحق فيه بجميع شؤونه كذلك هويوم القدر أيضا باعتبار ظهور شمس الحقيقة وبروز الاسم الجامع من أفق تعيّنه كما هو نفسه صلى الله عليه وآله يوم القيامة أيضا .

وبالجملة ، ذاته المقدسة ليلة القدر ويومه ، ويوم القيامة ايضا يوم القدر ، فبناء على هذا لعل النكتة في التعبير عن سائر المظاهر بالشهر وعن هذا المظهر المقدس التام بالليلة هي أن مبدأ الشهور والسنين هو اليوم والليلة كما أن الواحد مبدأ للعدد وهو صلى الله عليه وآله بباطن الحقيقة ـــ وهو الاسم الاعظم ـــ مبدأ لسائر الاسماء وبتعينه وعينه الثابتة اصل الشجرة الطيبة ومبدأ التعينات ، تدبر ، تعرف ، واغتنم .

قوله تعالى: «تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر»

وفي هذه الآية الشريفة مطالب نذكر بعضها بطريق الاجمال :

الامر الاول

في ذكر صنوف ملائكة الله والاشارة الى حقيقتها على الاجمال :

اعلم أن بين المحدثين والمحقّقين اختلافا في تجرّد ملائكة الله وتجسّمها ، وكافة الحكماء والمحققين وكثير من الفقهاء يقولون بتجردها وبتجرد النفس الناطقة ، وأقاموا لذلك براهين متينة ، ويستفاد التجرد من كثير من الروايات والآيات الشريفة كما قال المحدث المحقق مولانا محمد تقي المجلسي[١٤] الوالد الماجد للمرحوم المجلسي في شرح الفقيه في ذيل بعض الروايات : ان هذا يدلّ على تجرّد النفس الناطقة .

وقال بعض الاكابر من المحدثين بعدم التجرد ، وغاية ما استدلّوا به أن القول بالتجرد مناف للشريعة وصرّحوا بأن المجرد ليس سوى ذات الحق

تعالى وتقدس . وهذا الكلام ضعيف في الغاية لان نظرهم في هذا لعلها كانت معطوفة على أمرين :

الاول قضية حدوث العالم زمانا فتوهم أن تجرد شيء سوى الحقّ ينافيه .

والثاني : كون الحق تعالى فاعلا باختيار ، فتوهموا أنه يخالف تجرّد عالم العقل والملائكة ، وكلا المسألتين من المسائل المعنونة في العلوم العالية وقد اتضح فيها عدم تنافي المسائل من هذا القبيل مع الوجود المجرّد بل القول بعدم تجرد النفوس الناطقة وعالم العقل وملائكة الله ينافي كثيرا من المسائل الالهية وكثيرا من العقائد الحقة وليس الان مجال لبيانه ، والحدوث الزماني للعالم على نحو ما توهمته هذه الطائفة مناف لاصل مسألة الحدوث الزماني فضلا عن أنه مخالف لكثير من القواعد الالهية والحق الموافق للعقل والنقل عند الكاتب ان لملائكة الله أصنافا كثيرة وكثير منها مجرد وكثير منها جسماني برزخي ولا يعلم جنود ربك الا هو .. وأصنافها على حسب التقسيم الكلي ما قالوا أن الموجودات الملكوتية على قسمين :

قسم لا تعلّق به بعالم الاجسام لا تعلقا حلوليّا ولا تعلقا تدبيريا . والقسم الآخر ما له التعلق بأحد هذين الوجهين .

والطائفة الاولى قسمان : قسم يقال له الملائكة المهيمنة وهم المستغرقون في جمال الجميل والمتحيرون في ذات الجليل وعن سائر الخلق غافلون ولا يتوجهون الى سائر الموجودات .

ففي أولياء الله ايضا طائفة بهذه الصفة ، فكما أننا مستغرقون في البحر الظلماني للطبيعة وعن عالم الغيب وذات ذي الجلال غافلون مع أن الحق تعالى ظاهر بالذات وكل ظهور شعاع ظهوره كذلك هم غافلون عن

العالم وما فيه ومشغولون بالحق وجمال الجميل . وفي الرواية : « ان لله خلقا لا يعلمون ان الله خلق آدم وابليس » .

والقسم الثاني : طائفة جعلها الله تعالى وسائط رحمته وجوده وهي مبادىء سلسلة الموجودات وغاية أشواقها ، ويقال لهذه الطائفة أهل الجبروت ويقدمها ويرأسها الروح الاعظم ، ولعل الآية الشريفة ، « تنزّل الملائكة والروح »[١٥] . ايضا تكون اشارة الى هذه الطائفة من الملائكة واختصاص الروح بالذكر مع أنه من الملائكة لعظمته ، كما في الآية الشريفة : « يوم يقوم الروح والملائكة صفا »[١٦] ايضا اشارة الى ذلك .

ويقال للروح باعتبار القلم الاعلى كما قال ﷺ « أول ما خلق الله القلم » .

ويقال له باعتبار آخر العقل الاول كما قال ﷺ « أول ما خلق الله العقل » . وقال بعض : ان الروح هو جبرائيل .. وعند الفلاسفة جبرائيل آخر الملائكة الكروبيين وانه الروح القدس ويعتقدون أن الروح أول الملائكة الكروبيين . وفي الروايات الشريفة ايضا « ان الروح أعظم من جبرائيل » كما في الكافي الشريف عن أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل : « يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي »[١٧] قال : « خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله وهو مع الائمة وهو من الملكوت » .

وفي بعض الروايات ان الروح ليس من الملائكة بل أعظم من الملائكة ، ولعل للروح في لسان القرآن ، والاحاديث اطلاقين كما ان له في لسان أهل الاصطلاح اطلاقات ، فروح من صنوف الملائكة كما قال عليه السلام « انه من الملكوت » وروح هو روح حضرات الاولياء وليس من

الملائكة وأعظم منها ، فبناء على هذا يمكن أن يكون الروح في السورة الشريفة القدر باعتبار التنزّل في ليلة القدر عبارة عن الروح الامين أو الروح الاعظم ، وفي الآية الشريفة « ويسألونك عن الروح »[١٧] عبارة عن الروح الانساني الذي هو في مرتبة الكمال أعظم من جبرائيل وسائر الملائكة وهو من عالم الامر بل ربما يتحد مع المشيئة التي هي الامر المطلق .

والقسم الاخر من ملائكة الله هو الملائكة الموكلة بالموجودات الجسمانية والمدبرات فيها ولها صنوف كثيرة وطوائف لا تعدّ لان لكل موجود علوي او سفلي فلكي أو عنصري وِجهة ملكوتية ينتقل بتلك الوجهة الى عالم ملائكة الله ويتصل بجنود الحق ، كما أن الحق تعالى يشير الى ملكوت الاشياء بقوله « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » .

وقال النبي صلى الله عليه وآله في كثرة الملائكة كما في الرواية « أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم الا وفيه ملك ساجد أو راكع » . وقد ذكر في الروايات الشريفة الكثيرة ما يرجع الى كثرة الملائكة وكثرة صنوفها .

الامر الثاني

في بيان كيفية نزول الملائكة على ولي الامر

اعلم ان الروح الاعظم وهو خلق أعظم من ملائكة الله بمعنى أنه واقع في الرتبة الاولى من ملائكة الله وأشرف وأعظم من الكل وملائكة الله المجردة قطان عالم الجبروت ولا يتجافون عن مقامهم والنزول والصعود لهم بالمعنى الذي للاجسام مستحيل لان المجرد مبرأ ومنزه عن لوازم الاجسام

فتنزلهم أعم من أن يكون في مرتبة القلب أو الصدر أو الحس المشترك للولي أو أن يكون في بقاع الارض والكعبة وحول قبر رسول الله أو في البيت المعمور بطريق التمثّل الملكوتي أو الملكي كما قال تعالى في شأن تنزل الروح الامين على مريم . فتمثل لها بشرا سويا[١٨] كما ان للاولياء الكمَّل ايضا يمكن أن يكون تمثل ملكوتي وتروّح جبروتي فلملائكة الله استطاعة الدخول في الملك والملكوت وقدرته وقوته على نحو التمثل ، وللكمّل من الاولياء قدرة الدخول في الملكوت والجبروت على طور التروّح ، والرجوع من الظاهر الى الباطن ، وتصديق هذا المعنى لمن فهم حقائق المجردات سهل سواء المجرد الملكوتي أو الجبروتي أو النفوس الناطقة التي هي ايضا من المجردات الجبروتية او الملكوتية وتصور مراحل الوجود ومظاهرها ونسبة الظاهر الى الباطن والباطن الى الظاهر .

وليعلم أنه لا يمكن تمثل الجبروتيّين والملكوتيّين في قلب البشر وصدره وحسه المشترك الا بعد خروجه من الجلباب البشري وحصول المناسبة بينه وبين تلك العوالم ، والا فما دامت النفس مشتغلة بالتدبيرات الملكية وغافلة عن تلك العوالم لايمكن ان تحصل لها هذه المشاهدات او التمثلات ، نعم ربما يمكن أن يحصل للنفس انصراف عن هذه العوالم باشارة من أحد الاولياء وتدرك ادراكا معنويا او صوريا من عوالم الغيب بمقدار لياقتها وربما يكون للنفس انصراف عن الطبيعة بواسطة بعض الامور الهائلة فتدرك انموذجة عن عالم الغيب كما ينقل الشيخ الرئيس قضية رجل صافي الضمير أنه أخذ براءة من النار في حج بيت الله . وينقل ما يشبهها الشيخ العارف محي الدين فجميع هذه الامور ايضا من انصراف النفوس من الملك وتوجهها الى الملكوت وربما يمكن أن نفوس الاولياء الكمل بعد انسلاخها عن العوالم

ومشاهدة الروح الاعظم أو سائر ملائكة الله تصحو وتحفظ حضرات الغيب والشهادة بواسطة قوتها ، وفي هذه الصورة تشاهد حقائق الجبروتيين في جميع النشآت في آن واحد وربما يحصل تنزل الملائكة بقدرة الولي الكامل بنفسه والله العالم .

الامر الثالث

اعلم أن ليلة القدر حيث أنها ليلة مكاشفة رسول الله وأئمة الهدى عليهم السلام فلهذا تنكشف لهم جميع الامور الملكية عن غيب الملكوت وتظهر لهم الملائكة الموكلة بكل أمر من الامور لحضراتهم في نشأة الغيب وعالم القلب وتنكشف وتعلم لهم جميع الامور التي قدرت للخلائق في مدة السنة وكتبت في الالواح العالية والسافلة على نحو الكتابة الملكوتية والاستجنان الوجودي ، وهذه المكاشفة مكاشفة ملكوتية محيطة بجميع ذرات عالم الطبيعة ولا يخفي لولي الامر شيء من أمور الرعية .

ولا ينافي ان ينكشف لهم في ليلة واحدة أمر السنة وفي حالة جميع الامور وفي لحظة جميع المقدرات الملكية والملكوتية .

وتنكشف ايضا بالتدريج في ايام السنة الامور اليومية على طريق الاجمال والتفصيل .

فمثلا ورد في كيفية نزول القرآن في الحديث انه نزل جملة واحدة في البيت المعمور ونزل في طول ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ، والورود في البيت المعمور ايضا نزول على رسول الله .

وبالجملة ربما يتصل ولي الامر بالملأ الاعلى والاقلام العالية والالواح المجردة فتحصل له المكاشفة التامة لجميع الموجودات أزلا وأبدا ، وربما يتصل

بالالواح السافلة فيكتشف مدة مقدرة . وتمام صفحة الكون حاضرة في محضره الولوي وكل أمر يقع يكون منظورا لهم عليهم السلام وقد ورد في روايات عرض الاعمال على ولي الامر انه كان في كل خميس واثنين تعرض الاعمال على رسول الله وأئمة الهدى عليهم السلام .

وفي بعض الروايات انها تعرض في صبيحة كل يوم . وفي بعضها تعرض عليهم أعمال العباد صباحا ومساء وهذه كلها ايضا على حسب الاجمال والتفصيل والجمع والتفريق ، وقد وردت في هذه الأبواب روايات شريفة عن أهل بيت العصمة والطهارة مذكورة في كتب التفاسير كتفسير البرهان والصافي .

قوله تعالى : سلام هي حتى مطلع الفجر :

هذه الليلة المباركة هي السلامة من الشرور والبليات والافات الشيطانية حتى مطلع الفجر أو انها سلام على أولياء الله وأهل الطاعة ، أو أن ملائكة الله التي تلاقيهم لتسلم عليهم من الله تعالى الى طلوع الفجر .

تنبيه عرفاني :

كما ذكر سابقا في بيان حقيقة ليلة القدر انها تعبّر عن مراتب الوجود وتعينات الغيب والشهود بالليل باعتبار احتجاب شمس الحقيقة في أفقهم وبناء عليه فليلة القدر هي ليلة احتجب فيها الحق تعالى بجميع الشؤون واحدية جمع الاسماء والصفات التي هي حقيقة الاسم الاعظم وهي التعين والبنية للولي الكامل وهو في زمان رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه المقدسة وبعده أئمة الهدى واحدا بعد واحد ، فبناء على هذا ففجر ليلة القدر هو وقت ظهور آثار شمس الحقيقة من خلف حجب التعينات ،

وطلوع الشمس من أفق التعينات فجر يوم القيامة ايضا وحيث انه من مدة الغروب واحتجاب شمس الحقيقة في أفق تعينات هؤلاء الاولياء الكمل الى وقت طلوع الفجر وهو مدّة ليلة القدر تلك الليلة صاحبة الشرف سالمة من التصرفات الشيطانية مطلقا ، وكما احتجبت الشمس من دون كدورة وبلا تصرفات شيطانية تطلع بهذه الصفة فقال تعالى : « سلام هي حتى مطلع الفجر » وأما سائر الليالي فهي : فاما أن السلامة ليست فيها أصلاً وهـــي ليالي بني اميّة وامثالهم أو أنها فاقدة للسلامة بمجموع معانيها وهي ليالي سائر الناس .

خاتمة :

قد علم من البيانات العرفانية والمكاشفات الايمانية التي ظهرت بتأييد من الاولياء العظام على القلوب المنيرة لاهل المعرفة إن السورة المباركة التوحيد كما أنها نسبة الذات المقدسة للحق جل وعلا كذلك السورة الشريفة القدر نسبة أهل البيت العظام عليهم السلام ، كما ورد في روايات المعراج مثل ما رواه محمد بن يعقوب باسناده عن أبي عبدالله عليه السلام في صلاة النبي صلى الله عليه وآله في السماء في حديث الاسراء قال عليه السلام « ثم أوحى الله عز وجل اليه اقرأ يا محمد نسبة ربك تبارك وتعالى الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . وهذا في الركعة الاولى ثم أوحى الله عز وجل اليه اقرأ بالحمد لله فقرأها مثلما قرأ أولا ثم أوحى الله اليه : اقرأ : انّا أنزلناه فانها نسبتك ونسبة أهل بيتك الى يوم القيامة » .

والروايات الشريفة في فضل السورة المباركة القدر كثيرة منها ما في الكافي الشريف عن أبي جعفر عليه السلام قال « من قرأ انّا أنزلناه في ليلة

القدر يجهر بها صوته كان كالشاهر سيفه في سبيل الله ومن قرأها سرّا كان كالمتشحّط بدمه في سبيل الله ، ومن قرأها عشر مرات غفرت له على نحو ألف ذنب من ذنوبه » . وفي خواص القرآن روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله « من قرأ هذه السورة كان له أجر من قاتل في سبيل الله » والحمد لله أولا وآخرا .

اعتذار :

مع أنه كان في نية الكاتب في هذه الرسالة أن يكفّ عن المطالب العرفانية غير مأنوسة النوع ، ويكتفى بالآداب القلبية فقط للصلاة .. والان أرى أن القلم قد طغى وفي خصوص تفسير السورة الشريفة قد تجاوزت عن الموضوع المقرّر عندي فلا بدّ لي من أن أعتذر للاخوة الايمانيين والاخلاّء الروحانيين ، وفي ضمن الاعتذار أقول :

اذا رأيتم في هذه الرسالة مطلبا غير مطابق لذوقكم فلا ترموه بالباطل بلا تأمّل لان كل علم له أهل ولكل طريق سالك رحم الله امرأ عرف قدره ولم يتعدّ طوره .. ويمكن أن يغفل بعض عن حقيقة الحال ولعدم اطّلاعهم على المعارف القرآنية ودقائق السنن الالهية يظنّون أن بعض مطالب هذه الرسالة تفسير بالرأي وهذا الظنّ خطأ محض وافتراء فاحش لانه :

اولا : ان هذه المعارف واللطائف كلها مستفادة من القرآن الشريف والاحاديث الشريفة ولها شواهد سمعية كما ذكر بعضها في خلال المباحث ولم يذكر أكثرها رعاية للاختصار .

وثانيا : جميع تلك المعارف أو أكثرها موافقة للبراهين العقلية أو العرفانية ، والامر بهذه الصفة لا يكون تفسيرا بالرأي .

وثالثا : ان ما ذكرنا من المطالب أو نذكره في بيان الآيات الشريفة فهو من قبيل بيان مصاديق المفاهيم غالبا وبيان المصداق ومراتب الحقائق ليس بتفسير اصلا حتى يكون تفسيراً بالرأي .

ورابعا : بعد جميع المراحل ذكرنا المطالب في الموارد غير الضرورية على سبيل الاحتمال وبيان أحد المحتملات رعاية لغاية الاحتياط في الدين مع أنه ليس هنا محل للاحتياط ، ومن المعلوم أن باب الاحتمال ليس مسدودا على أحد وليس مربوطا بالتفسير بالرأي وهنا مطالب أخرى كففنا عنها رعاية للاختصار .

المراجع والحواشي

١ ــ (الدخان ــ ٣)

٢ ــ (الحجر ــ ٩)

٣ ــ (الشعراء ــ ٩٣)

٤ ــ (فاطر ــ ٣٦)

٥ ــ (الانفال ــ ١٧)

٦ ــ (الاحزاب ــ ٧٢)

٧ ــ وجه التأمل أنه يمكن أن يقرر هذا الدعوى بوجه آخر وهو أن الظاهر في نسبة موضوع الى محمول هو أن الموضوع واجد للحكم وتمام الموضوع له كما أن شيخنا واستاذنا في العلوم النقلية كان يثبت بهذا البيان الاطلاق في باب الاطلاق من دون حاجة الى مقدمات الاطلاق منه عفي عنه : أي من المؤلف دام ظله .

٨ ــ (هود ــ ١١٢)

٩ ــ في الكافي : صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على سعد بن معاذ مع تسعين ألف ملك فيهم جبرائيل (الحديث) .

١٠ ــ أقول : قال السيد بن طاووس قدس سره : ومن ذلك ما رويناه .. باسنادنا أيضا الى حماد بن عيسى عن محمد بن يوسف عن أبيه قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول أن الجهني أتى الى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال يا رسول الله ان لي ابلا وغنما وغلمة فأحب ان تأمرني ليلة أدخل فيها فأشهد الصلاة وذلك في شهر رمضان فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فساره في أذنه

قال : فكان الجهني اذا كانت ليلة ثلاث وعشرين دخله بإبله وغنمه وأهله وولده وغلمته فكان تلك الليلة ليلة ثلاث وعشرين بالمدينة فاذا أصبح خرج بأهله وغنمه وإبله الى مكانه واسم الجهني عبد الرحمن بن أنيس الانصاري .

١١ــ الاعراف١٤٣ .

١٢ــ البيت للعارف الرومي يقول :

نحن أعدام نتظاهر بالوجود وأنت الوجود المطلق وأنت وجودنا

١٣ــ قد تكررت في اشعار العارف الرومي جملة (اين سخن پايان ندارد) اي هذا الكلام لا انتهاء له فمقصود الامام دام ظلّه من نقل القول هذه الجملة فقط لا أصل المطلب فتنبّه « المترجم » .

١٤ــ هو والد المولى محمد باقر المجلسي كان وحيد عصره وفريد دهره اورع أهل زمانه وأزهدهم وأعبدهم استفاد العلم من شيخ الاسلام والمسلمين الشيخ بهاء الدين العاملي والعلامة الزاهد المقدس الورع المولى عبدالله الشوشتري وبعد فراغه من التحصيل أتى النجف الاشرف واشتغل بالرياضات وتهذيب الاخلاق وتصفية الباطن وله مكاشفات ومنامات حسنة ليس هاهنا مقام ذكرها ومصنفاته كثيرة منها شرحاه العربي والفارسي على كتاب من لا يحضره الفقيه كل منها يزيد على مئة ألف بيت وارتحل الى جوار رحمة الله تعالى في سنة ١٠٧٠ (غع).

١٥ــ (القدر ــ ٤)

١٦ــ (النبأ ــ ٣٨)

١٧ــ (الاسراء ــ ٨٥)

١٨ــ (مريم ــ ١٧)

الباب الخامس

في نبذة من آداب الركوع وأسراره

وفيه

خمسة فصول

الفصل الاول

في التكبير قبل الركوع

والظاهر أن هذا التكبير من متعلقات الركوع ولاجل تهيّؤ المصلي للدخول الى منزل الركوع . وأدبه ان ينظر المصلي الى مقام عظمة الحق وجلاله وعزة الربوبية وسلطنتها ويجعل ضعف العبودية وعجزها وفقرها وذلّها نصب عينيه . وفي هذه الحال يكبر الحق تعالى عن التوصيف بمقدار معرفته عن الربوبية وذل العبودية ، ويلزم أن يكون توصيف العبد السالك الحق تعالى وتسبيحه وتقديسه إيّاه لاطاعة الامر محضا ولاذن الحق تعالى في التوصيف والعبادة والا فليس له تلك الجسارة ان يجازف بالتوصيف والتعظيم في المحضر الربوبي ، عبد ضعيف مثله وهو في الحقيقة لا شيء . وما فيه فهو أيضا من المعبود العظيم الشأن .

في مقام يقول علي بن الحسين بلسانه الولوي الاحلى الذي هو لسان الله « أفبلساني هذا الكالّ أشكرك؟ » . (فما يتأتى من بعوضة ضئيلة)[1] فاذا أراد العبد السالك أن يرد منزل الركوع الخطير فلا بد له من التهيّؤ لذاك المقام وان يلقي بيده توصيفه وتعظيمه وعبادته وسلوكه على قفاه ويرفع يديه الى حذاء الاذن ويقلب كفيه الخاليتين حذاء القبلة ويرد منزل

الركوع صفر اليدين وخالي الكفين وبقلب مملوء بالخوف والرجاء . خوف التقصير والقصور عن القيام بمقام العبودية والرجاء الواثق بمقام الحق المقدس حيث شرّفه وأذن له بالدخول الى هذه المقامات التي هي للخلّص من الاولياء والكمّل من الاحبّاء .

ولعل الرفع بهذه الكيفية هو ترك لمقام القيام وترك الوقوف الى ذاك الحدّ واشارة الى عدم التزوّد من منزل القيام . والتكبير اشارة الى التعظيم والتكبير عن التوصيفات التي صدرت في منزل القيام . وعند أهل المعرفة حيث أن الركوع منزل توحيد الصفات فتكبير الركوع تكبير عن هذا التوحيد ، ورفع اليد اشارة الى رفض صفات الخلق .

المراجع والحواشي

١ ــ مصراع بيت لشعر معروف كمثل رايج :

جائي كه عقاب پربريزد   از پشه لاغري چه خيزد ؟

في مكان يسقط جناح العقاب ويعجز عن الطيران فماذا يتأتى من بعوضة ضئيلة .

الفصل الثاني

في آداب الانحناء الركوعي

اعلم أن عمدة أحوال الصلاة ثلاثة ، وسائر الاعمال والافعال مقدّماتها ومهيئات لها ، الاول : القيام . والثاني : الركوع . والثالث : السجود . وأهل المعرفة يرون هذه الثلاثة اشارة الى التوحيدات الثلاثة ، ونحن ذكرنا تلك المقامات في كتاب (سر الصلاة) على حسب الذوق العرفاني والان نبين هذه المنازل بلسان آخر يناسب العامة فنقول :

بما أن الصلاة معراج كمالي للمؤمن مقرّب لاهل التقوى فهي متقوّمة بأمرين أحدهما مقدمة للآخر :

الاول : ترك رؤية النفس الذي هو باطن التقوى .

الثاني : حبّ الله وطلب الحق وهو حقيقة المعراج والقرب ، ولهذا ورد في الروايات الشريفة : الصلاة قربان كل تقيّ كما أن القرآن ايضا نور الهداية ولكن للمتقين : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين »[1] .

وبالجملة هذان المقامان ، يحصلان في هذه المقامات الثلاثة بالتدريج ، ففي حال القيام ترك لرؤية النفس على حسب مقام الفاعلية ورؤية فاعلية الحق وقيّومية الحق المطلق ، وفي الركوع ترك لرؤية النفس على حسب

مقام الصفات والاسماء ورؤية لمقام اسماء الحق وصفاته ، وفي السجود ترك لرؤية النفس مطلقا وحب لله وطلب لله مطلقا وجميع منازل السالكين من شؤون هذه المقامات الثلاثة كما هو واضح لاصحاب البصيرة ولأهل العرفان والسلوك ، فاذا توجّه السالك في هذه المقامات بأن سرّ هذه الاعمال والتوحيدات الثلاثة لكل مقام هو أدق وألطف ، فمن الضروري للسالك أن يراقبه مراقبة أكثر لان خطر المقام أشدّ والزلل فيه أكثر ، ففي مقام الركوع حيث أن للسالك دعوى أنه ليس في دار الوجود علم ولا قدرة ولا حياة ولا ارادة سوى من الحق تعالى ، وهذه الدعوى دعوى عظيمة والمقام دقيق للغاية ولا ينبغي هذه الدعاوى لامثالنا فلا بد أن نتوجه بباطن ذاتنا الى جناب الحق المقدّس بالتضرّع والمسكنة والذلّة ونعتذر عن القصور والتقصير ونجد نقصاننا بعين العيان وشهود الوجدان ، فلعله يصدر عن المقام المقدس توجّه وعناية ويصير حال الاضطرار سببا للمساعدة من الذات المقدسة : أمّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء .

الحواشي

١ ــ (البقرة ــ ٣)

الفصل الثالث

تعظيم وتنبيه وتحقيق

قد ورد في صلاة المعراج لرسول الله صلى الله عليه وآله انه خاطبه العزيز « فانظر الى عرشي » .قال رسول الله :«**فنظرت الى عظمة ذهبت لها نفسي وغشي عليّ فألهمت ان قلت سبحان ربي العظيم وبحمده لعظم ما رأيت . فلما قلت ذلك تجلّى الغشي عني حتى قلتها سبعا ألهم ذلك فرجعت اليّ نفسي كما كانت** » .

فانظر ايها العزيز الى مقام عظمة سلوك سيد الكلّ وهادي السبل صلى الله عليه وآله انه رأى في حال الركوع وهو حال النظر الى ما دون نفسه نور العرش ، وحيث أن نور العرش في نظر الاولياء عبارة عن تجلي الذات بلا مرآة ، فالتعين النفسي يرتفع وتحصل حالة الغشي والصعق فساعدت الذات المقدسة بالعنايات الازلية وجوده الشريف ولقّن سبحانه الذات النبوية المقدسة التسبيح والتعظيم والتحميد بالالهام الحبّي حتى سرى عنه الصعق بعدما قالها سبعا بعدد الحجب وعدد مراتب الانسان وحصلت له حالة الصحو . وهذه الاحوال كانت تداومه في جميع صلاة المعراج .

وحيث أنه لا سبيل لنا الى خلوة الانس ولا مكان لنا في مقام القدس

فالجدير أن نجعل رأس مالنا للوصول الى المقصد وعروتنا لحصول المطلوب عجزنا وذلّتنا (ولا نرفع اليد عن ذيل المقصود حتى نحصل ما يأمله القلب من اللذة)[1] واذا لم نكن من رجال هذا الميدان فلعله تستشم أرواحنا رائحة من المعارف ويهبّ نسيم لطف لقالبنا الميّت وذلك لان عادة الحق تعالى الاحسان وشيمته التفضّل والانعام وليعلم أن الركوع مشتمل على تسبيح الرب جلّ وعلا وتعظيمه وتحميده ، فالتسبيح تنزيه عن التوصيف وتقديس عن التعريف .. وان التعظيم والتحميد خروج عن حدّي التشبيه والتعطيل لان التحميد يفيد الظهور في المرائي الخلقية والتعظيم يرى سلب التحديد فهو الظاهر وليس في العالم أظهر منه وفي الوقت نفسه ليس متلبّسا بلباس التعيّنات الخلقية .

المراجع والحواشي

١ ــ لا أظن أن أحدا يستطيع أن يترجم هذه الجملة بما لها من الرقة والجمال لانه روحي فداه ركّبها من جملة كنائية لطيفة ومن قطعة من شعر الحافظ الشيرازي وهي (تاكام دل برآيد) فأصبحت ذات جمال وحسن لا يوصف ولها في نفس الحال من الوزن والموسيقى ما تهتز به أوتار وجود القارىء إن كان له قلب : « المترجم » .

الفصل الرابع

أدب الركوع

عن مصباح الشريعة ، قال الصادق عليه السلام « لايركع عبد لله ركوعا على الحقيقة الا زيّنه الله بنور بهائه وأظلّه في ظلال كبريائه وكساه كسوة أصفيائه ، والركوع أول والسجود ثان فمن أتى بمعنى الاول صلح للثاني ، وفي الركوع أدب وفي السجود قرب ومن لا يحسن الادب لا يصلح للقرب ، فاركع ركوع خاضع لله بقلبه متذلل وجِلٍ تحت سلطانه خافض له جوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين . وحكي أن الربيع بن خيثم كان يسهر بالليل الى الفجر في ركعة واحدة فاذا هو أصبح رفع « يزفر » وقال آه سبق المخلصون وقطع بنا ، واستوف ركوعك باستواء ظهرك وانحط عن همتك في القيام بخدمته الا بعونه وفرّ بالقلب من وساوس الشيطان وخدائعه ومكائده فان الله تعالى يرفع عباده بقدر تواضعهم له ويهديهم الى أصول التواضع والخضوع بقدر اطلاع عظمته على سرائرهم » .

وفي هذا الحديث الشريف اشارات وبشارات وآداب ووظائف ، كما أن التزين بنور بهاء الله بشارات للوصول الى مقام التعلم الاسمائي : وعلّم آدم الاسماء كلها .. والتحقق بمقام الفناء الصفاتي وحصول حالة الصحو من ذلك المقام لان تزيين الحق تعالى العبد بمقام نور البهاء هو تحقيق الله

العبد بمقام الاسماء الذي هو حقيقة تعليم الاسماء واظلاله في ظلّ الكبرياء وهو من الاسماء القهرية وتمكين الله العبد في فنائها افناء العبد عن نفسه وبعد هذا المقام إكساؤه بكسوة الاصفياء ابقاؤه بعد الافناء . ومن هنا يعلم أن السجود فناء ذاتي كما قال أهل المعرفة لان الركوع أول وهو هذه المقامات ، والسجود ثان فليس هو الا مقام الفناء في الذات ، ويعلم أيضا ان القرب المطلق الذي يحصل في السجود لا يتيسّر الا بحصول الركوع على الحقيقة ، ومن أراد أن يصلح للثاني لا بد أن يحصّل القرب الركوعي وأدب الركوع ، ثم انه عليه السلام بعد بيان لطائف الركوع والسجود وسرائرهما أشار الى آدابه القلبية للمتوسطين وهي أمور بعضها من الامور العامة ذكرناها في المقدمات وبعضها خاص بالركوع . وحيث أنّا بيّنّا أكثر هذه الامور أغمضنا النظر عن تفصيلها .

الفصل الخامس

في رفع الرأس من الركوع

وسرّه الرجوع عن الوقوف في الكثرات الاسمائية ، كما قال عليه السلام : وكمال التوحيد نفي الصفات عنه لان العابد السالك بعدما حصلت له حالة الصحو من الفناء الاسمائي يشاهد قصوره وتقصيره وذلك لان مبدأ الخطيئة الادمية التي على الذرّية أن تجبرها هو التوجه الى الكثرات الاسمائية التي هي باطن الشجرة فاذا عرف العبد لنفسه وهي ذرية آدم خطيئتها ولآدم وهو الاصل خطيئته فيطلع على مقام تذلّله ونقصانه ويتهيأ لرفع خطيئته بخفض الجناح في حضرة الكبرياء ويقيم صلبه عن هذا المقام ويرفع الكثرات الاسمائية بعد رفع الرأس بالتكبير ويتوجّه الى منزل الذلّة والمسكنة وأصل الترابية صفر اليد . وآدابه المهمّة هي عرفان عظم خطر المقام واذاقته القلب بالتذكر التام والمجاهدة في التوجّه الى حضرة الذات وترك التوجّه الى النفس حتى الى مقام ذلّة نفسه .

واعلم أيها العزيز أن التذكر التام لحضرة الحق والتوجّه المطلق بباطن القلب الى تلك الذات المقدسة موجب لانفتاح العين الباطنية للقلب ويحصل به لقاء الله وهو قرّة عين الاولياء « والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا »[1] .

المراجع والحواشي

١ ــ (العنكبوت ــ ٦٩)

الباب السادس

في الاشارة الاجمالية الى أسرار السجود وآدابه

وفيه
أربعة فصول

الفصل الاول

في سرّه الاجمالي

وهو عند أصحاب العرفان وأرباب القلوب ترك النفس وغمض العين عمّا سوى الحق والتحقق بالمعراج اليونسي الذي حصل بالنزول والدخول في بطن الحوت بالتوجّه الى أصله بلا رؤية الحجاب ، وفي وضع الرأس على التراب اشارة الى رؤية جمال الجميل في باطن قلب التراب وأصل عالم الطبيعة وآدابه القلبية عرفان حقيقة النفس وأصل جذر وجوده ووضع أم الدماغ وهي مركز سلطان النفس وعرش الروح على أدنى عتبة مقام القدس ورؤية عالم الارض والتراب عتبة لمالك الملوك ، فسرّ الوضع السجودي غمض العين عن النفس وأدب وضع الرأس على التراب اسقاط أعلى مقامات نفسه عن عينه ورؤيتها أقل من التراب واذا كان في القلب شائبة في الدعاوى التي تكون الاوضاع الصلاتية اشارة اليها فهو نفاق عند أرباب المعرفة ، وحيث ان خطر هذا المقام أعظم الاخطار فيلزم السالك الى الله ان يتمسّك بذيل عناية الحقّ جلّ وعلا بجبلته الذاتية وفطرته القلبية ويسأله العفو عن التقصيرات بالذلّة والمسكنة لان هذا المقام مقام خطير خارج عن عهدة أمثالنا وحيث ذكرنا في رسالة سر الصلاة هذه المقامات بالتفصيل فنكفّ عن التفصيل ها هنا ونكتفي في آدابه بالرواية الشريفة لمصباح الشريعة .

الفصل الثاني

آداب السجود عند الصادق (ع)

عن مصباح الشريعة ، قال الصادق عليه السلام : « ما خسر والله من أتى بحقيقة السجود ولو كان في العمر مرّة واحدة وما أفلح من خلا بربّه في مثل ذلك الحال تشبيها بمخادع نفسه غافلا لاهيا عمّا أعده الله للساجدين من أنس العاجل وراحة الاجل . ولا بعد عن الله أبدا من أحسن تقرّبه في السجود ولا قرب اليه ابدا من أساء أدبه وضيّع حرمته بتعلّق قلبه بسواه في حال سجوده فاسجد سجود متواضع لله تعالى ذليل علم أنه خلق من تراب يطؤه الخلق وانه اتخذك (ركب) من نطفة يستقذرها كل أحد وكوّن ولم يكن وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب اليه بالقلب والسرّ والروح فمن قرب منه بعد من غيره ، الا ترى في الظاهر انه لا يستوي حال السجود الا بالتواري عن جميع الاشياء والاحتجاب عن كل ما تراه العيون ، كذلك أمر الباطن فمن كان قلبه متعلقا في صلاته بشيء دون الله تعالى فهو قريب من ذلك الشيء بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته ، قال عز وجل : ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : قال الله تعالى : لا أطّلع على قلب عبد

فاعلم فيه حب الاخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي الا توليت تقويمه وسياسته ومن اشتغل بغيري فهو من المستهزئين بنفسه ومكتوب اسمه في ديوان الخاسرين » .

ففي هذا الحديث الشريف قد جمع عليه السلام بين بيان الاسرار والآداب ، والتفكر فيه يفتح للسالك طرقا من المعرفة ويهدم تأبّي المفكرين وجحودهم ويؤيد ويشيد أولياء العرفان وأصحاب الايقان ويقرع السمع بحقيقة الانس والخلوة مع الحق وترك غير الحق[1] .

المراجع والحواشي

١ ــ لقد ترجم المؤلف دام ظله بعد كلامه هذا الرواية الشريفة بالفارسية تركنا الترجمة حذرا من التكرار « المترجم » .

الفصل الثالث

في ذكر السجود

في الحديث الشريف انه لما نزلت فسبّح باسم ربّك العظيم قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله : اجعلوها في ركوعكم ، فلما نزلت : سبّح اسم ربك الاعلى ، قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله : اجعلوها في سجودكم .

وفي الحديث الشريف في الكافي : فأول ما اختار لنفسه العلّي العظيم « الحديث » . ولعل العلّي هو الاول في الاسماء الذاتية ، والعظيم الاول في الاسماء الصفاتية .

واعلم أن في السجود كسائر الاوضاع الصلاتية هيئة وحالة وذكراً وسرّاً وهذه الامور للكمّل على نحو ، وقد بيّنت في هذه الرسالة اشارة وأما بيانها تفصيلا فغير مناسب وأما للمتوسطين فهيئته إراءة المتربة وترك الاستكبار والعجب وكذلك ارغام الانف وهو من المستحبات المؤكدة بل تركه خلاف الاحتياط اظهارا لكمال التخضع والتذكّر والتواضع ، وايضا هو التوجّه الى أصله والتذلل لنشأته . ووضع رؤساء الاعضاء الظاهرة على أرض الذلّة والمسكنة وتلك الاعضاء هي محال الادراك ، وظهور التحريك والقدرة وهي الاعضاء السبعة أو الثمانية علامة التسليم التام وتقديم جميع القوى

والخروج عن الخطيئة الادمية فاذا قوي تذكر هذه المعاني في القلب فينفعل القلب بها تدريجا فتحصل حالة هي حالة الفرار من النفس وترك رؤية النفس ، ونتيجة هذه الحالة حصول حالة الانس وتعقبها الخلوة التامة وتظهر المحبة الكلية .

وأما ذكر السجدة فمتقوّم بالتسبيح وهو التنزيه عن التوصيف وعن القيام بالامر او التنزيه عن التكثير الاسمائي أو التنزيه عن التوحيد لان التوحيد تفعيل وهو الذهاب من الكثرة الى الوحدة وهذا لا يخلو عن شائبة التكثير والتشريك كما أن التوصيف بالعلو الذاتي والتحميد ايضا ليس خاليا عن شائبة هذه المعاني ، والعلّي من الاسماء الذاتية وعلى رواية الكافي هو أول اسم اتخذه الله لنفسه يعني هو أول تجلي الذات لنفسه ، والعبد السالك اذا فني عن نفسه في هذا المقام وترك العالم وما فيه فيناله الفخر بهذا التجلي الذاتي .

واعلم ان الركوع حيث إنه أول والسجود ثان فيفترق التسبيح والتحميد فيها بفروق وايضا يفرق الرب في المقامين لان الرب كما قاله أهل المعرفة من الاسماء الذاتية والصفاتية والافعالية بالاعتبارات الثلاثة ، فبناء على ذلك فالرب في الحمد لله رب العالمين لعله من الأسماء الفعلية بمناسبة مقام القيام وهو مقام التوحيد الافعالي وفي الركوع من الاسماء الصفاتية بمناسبة أن الركوع مقام توحيد الصفات وفي السجود من الاسماء الذاتية بمناسبة ان السجود مقام توحيد الذات . والتسبيح والتحميد الواقعان في كل مقام يكونان مرتبطين بذلك المقام .

تنبيه عرفاني :

نقل القيصري[1] في مقدمات شرح الفصوص عن انشاء الدوائر للشيخ الكبير ما معناه : ان الاسماء تنقسم بنوع من القسمة الى اسماء

الذات واسماء الصفات واسماء الافعال وان كانت كلها اسماء الذات ولكن باعتبار ظهور الذات فيها تسمى اسماء الذات وباعتبار ظهور الصفات فيها تسمى اسماء الصفات وبظهور الافعال تسمى اسماء الافعال واكثر الاسماء جامعة للاعتبارين او الاعتبارات الثلاثة لان فيها ما يدلّ على الذات باعتبار ويدل على الصفات باعتبار ثان ويدل على الافعال باعتبار ثالث مثل الرب فهو بمعنى الثابت من الاسماء الذاتية وبمعنى المالك من الاسماء الصفاتية وبمعنى المصلح من الاسماء الافعالية ..« انتهى كلامه » . ونحن ذكرنا في سالف الايام في حاشية الفصوص ان الميزان في تمييز الاسماء ليس ما يستفاد من ظاهر كلام الشيخ بل ما يقتضيه الذوق الاحلى العرفاني .

ان السالك الى الله اذا فني عن فعله بالقدم العرفانية وحصلت له حالة التوحيد الافعالي والمحو في الجمال الفعلي . فالحق تعالى يتجلى لقلبه على ما يناسبه وكل تجلّ يحصل له في هذه الحالة فهو تجلّ افعالي ، ومن الاسماء الافعالية فاذا تجاوز عن التجليات الافعالية وامّحى في حضرة الاسماء والصفات وحصل له الفناء الصفاتي فتجليات الحق تعالى لقلبه تجليات بأسماء الصفات واخباراته ايضا من الاسماء الصفاتية . فاذا حصل له مقام المحو الذاتي والفناء الذاتي يتجلى الحق تعالى لقلبه بالاسماء الذاتية وتكون مشاهداته مشاهدات الاسماء الذاتية واخباراته تكون عن هذا المقام .

والان نقول : ان تجليات الحق في حضرة الاحدية تجلّ بالاسماء الذاتية وتجلّيه في الحضرة الواحدية تجلّ باسماء الصفات وتجلّيه في حضرات الاعيان الخارجية تجلّ باسماء الافعال ، ولعل الآيات الشريفة في آخر سورة الحشر من : هو الله الذي لا اله الا هو .. الى آخر السورة تكون اشارة الى المقامات الثلاثة والله العالم .

وعلى السالك ان يكون منظور نظره في الاكوان الثلاثة في الصلاة وهي : الكون القيامي والكون الركوعي والكون السجودي حصول هذه المقامات وهذا يحصل من التذكر الذي هو مبدأ السلوك[1] .

المراجع والحواشي

١ ــ كتب المؤلف دام ظلّه في الهامش أن هذا التنبيه زائد يمحى .

الفصل الرابع

في بعض أسرار السجدة وذكرها ورفع الرأس منها

سجدة الغشي والصعق كما في حديث المعراج نتيجة مشاهدة أنوار العظمة للحق فاذا صار العبد بلا حواس عن نفسه وحصلت له حالة المحو والصعق فتشمله العناية الازلية ويلهم بالالهام الغيبي وذكر السجود وتكراره لحصول حالة الصحو والافاقة ، فاذا أفاق تشتعل في قلبه نار اشتياق مشاهدة نور الحق ويرفع الرأس عن السجدة فيرى في نفسه بقايا من الانانية فيشير باليد إلى رفضها فتتجلى له نور العظمة ثانيا ويحرق بقية الأنانية ويفنى من الفناء وتحصل له حالة المحو الكلي المطلق والصعق التام الحقيقي وهو يكبّر الله فالمساعد الغيبي بالهامه الاذكار يمكنه في المقام وتعرض له حالة الصحو في هذا المقام وهو صحو الولاية ومنزه عن كل احتجاب واختلاط خلقي وحالة التشهد والسلام وهما من أحكام الكثرة ، تحصل له أيضا في هذا الصحو بعد المحو وعند الوصول الى هنا تتم وتكمل دائرة السير الانساني .

الباب السابع

في الإشارة الاجمالية إلى آداب التشهُّد

وفيه

فصلان

الفصل الاول

في التشهّد

اعلم أن الشهادة بالوحدانية والرسالة في الاذان والاقامة وهما من متعلقات الصلاة ومهيّئات الورود فيها ، وفي التشهد وهو الخروج من الفناء الى البقاء ومن الوحدة الى الكثرة . في آخر الصلاة تذكّر العبد السالك أن حقيقة الصلاة حصول التوحيد الحقيقي والشهادة بالوحدانية من مقاماتها الشاملة التي تكون مع السالك من أول الصلاة الى آخرها وفيها أيضا سرّ أولية الحق جل وعلا وآخريته ، وفيها أيضا سرّ عظيم وهو أن سفر السالك من الله والى الله كما بدأكم تعودون .. فللسالك أن يتوجّه في جميع المقامات الى هذا المقصد ويوصل الى القلب حقيقة وحدانية الحق وألوهيته ويصنع القلب الهيا في هذا السفر المعراجي لتكون شهادته حقيقية وتتنزّه عن النفاق والشرك ، وفي الشهادة بالرسالة ايضا لعلها اشارة الى أن مساعدة الوليّ المطلق والنبي الخاتم في هذا المعراج السلوكي من المقامات الشاملة التي لا بدّ للسالك أن يتوجه اليها في جميع المقامات ويتضح سرّ الاولية والاخرية الذي هو من مقامات الولاية لاهلها وليعلم أن ثمة فرقا بين الشهادة في أول الصلاة والشهادة في التشهّد ، لان الشهادة في أولها شهادة قبل السلوك وهي شهادة

تعبدية او تعقلية وهذه التي في آخرها شهادة بعد الرجوع وهي شهادة تحققية أو تمكّنيّة فللشهادة في التشهد خطر عظيم لانها دعوى التحقق والتمكن ودعوى الرجوع الى الكثرة بلا احتجاب وحيث أن هذا المقام الشامخ غير حاصل لامثالنا بل ليس من المتوقع ايضا حصوله ونحن في هذه الحال ، فالادب في حضرة الباري أن ننظر الى قصورنا وذلّتنا ونقصنا وعجزنا ومسكنتنا ونتوجّه الى جنابه المقدس بحالة الانفعال ونقول : الهنا ليس لنا من مقامات الاولياء ومدارج الاصفياء وكمال المخلصين وسلوك السالكين حظ سوى ألفاظ معدودة ، واقتنعنا عن جميع المقامات بقيل وقال ولا تحصل منه كيفية ولا حال[1] ، الهنا ان حب الدنيا وتعلقاتها حجبنا عن حضرة القدس ومحفل الانس الا ان تساعدنا نحن الساقطين بلطفك الخفيّ وتجبر ما سبق منا فلعلنا نستيقظ من نوم الغفلة ونجد طريقا الى محضر القدس .

المراجع والحواشي

١ ــ اشارة الى البيت المعروف من الشيخ البهائي قدس سره :

علم رسمي سر بسر قيل است وقال
نه ازاو كيفيّتي حاصل نه حال

الفصل الثاني

آداب التشهُّد عند الصادق (ع)

عن مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : « التشهّد ثناء على الله فكن عبدا له في السرّ خاضعا له في الفعل كما أنك عبد له بالقول والدعوى وصل صدق لسانك بصفاء سرك فانه خلقك عبداً وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك وأن تحقق عبودتك له بربوبيته لك وتعلم أن نواصي الخلق بيده فليس لهم نفس ولا لحظ الا بقدرته ومشيئته وهم عاجزون عن اتيان أقل شيء في مملكته الا بإذنه وإرادته . قال الله عز وجل : وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة من أمرهم سبحان الله وتعالى عمّا يشركون فكن عبداً شاكراً بالفعل كما انك عبد ذاكر بالقول والدعوى وصل صدق لسانك بصفاء سرّك فانه خلقك فعز وجل ان تكون ارادة ومشيئة لاحد الا بسابق ارادته ومشيئته فاستعمل العبودية في الرضا بحكمه وبالعبادة في أداء أوامره وقد أمرك بالصلاة على نبيه (حبيبه) صلى الله عليه وآله فأوصل صلاته بصلاته وطاعته بطاعته وشهادته بشهادته وانظر لا يفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم فائدة صلاته وأمره بالاستغفار لك والشفاعة فيك إن أتيت بالواجب في الامر والنهي والسنن والاداب وتعلم جليل مرتبته عند الله عز وجل » .

وفي هذا الحديث الشريف اشارات الى الاداب القلبية للعبادات وحقائقها وأسرارها فيقول : التشهّد ثناء على الحق جل وعلا بل قد أشرنا سابقا ايضا ان مطلق العبادات ثناء على الحق اما باسم او باسماء او بتجل من التجليات وإما بأصل الهوية ، ويشير عليه السلام الى عمدة الاداب وهي أنه كما أنك تعبد الله في الظاهر وتدّعي العبودية فاعبده في السر ايضا حتى تسري العبودية السريّة القلبية الى الاعمال الجوارحية ايضا ويكون العمل والقول خارطة الباطن والسر وتسري حقيقة العبودية الى جميع أجزاء الوجود أعم من الاجزاء الظاهرية والاجزاء الباطنية ويحظى كل من الاعضاء بحظّ من التوحيد ويوصل اللسان الذاكر الذكر الى القلب ويفيد القلب الموحّد المخلص التوحيد والاخلاص الى اللسان ويطلب العبد الربوبية من حقيقة العبودية[1] ويخرج عن عبادة النفس ويوصل ألوهية الحق الى القلب وليعلم أن ناصية العباد بيد الحق ولا يقدرون على التنفس والنظر الا بقدرة الحق تعالى ومشيئته وانهم عاجزون عن التصرف في مملكة الحق بجميع أنواع التصرفات وان كان تصرفا تافها الا باذن وارادة من ذاته المقدسة كما قال تعالى : وربك يخلق ما يشاء ويختار كل ما اراد ليس لاحد اختيار في أمره استقلالا والله منزه عن الشريك في التصرف في مملكة الوجود فاذا أوصلت هذه اللطيفة الى القلب يكون شكرك للحق على الحقيقة ويسري الشكر الى اعضائك وأعمالك ، فكما أن اللسان والقلب لا بد أن يكونا مترافقين في طريق العبودية ففي هذا التوحيد الفعلي ايضا لابدّ ان يكون صدق اللسان موصولا بصفاء سرّ القلب لان الحق جل وعلا هو الخالق ولا مؤثر غيره . وجميع الارادات والمشيئات ظلّ ارادته ومشيئته الازلية السابقة .

ثم ان العبد بعد آداب الشهادة بوحدانية الحق وألوهيته يتوجّه الى

المقام المقدس للعبد المطلق والرسول الخاتم . وعلى المصلّي أن يتنبه من تقدّم مقام العبودية على الرسالة ان قدم العبودية مقدمة لجميع مقامات السالكين .. والرسالة شعبة من العبودية ، وبما أن الرسول الخاتم عبد حقيقي فانٍ في الحق فاطاعته اطاعة الحق والشهادة بالرسالة موصولة بالشهادة بالوحدانية ، والعبد السالك لا بد أن يراقب نفسه الا يقصّر في طاعة الرسول التي هي طاعة الله لئلا يحرم من مساعدة الوليّ المطلق في بركات العبادة وهي الوصول الى جناب القدس ويعلم انه لا يرخّص لاحد في الدخول الى جناب القدس ومحل الانس الا بمساعدة وليّ النعم والرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم .

المراجع والحواشي

١ ــ اشارة الى الحديث المشهور : العبودية جوهرة كنهها الربوبية « الحديث » .

٢ ــ (القصص ــ ٦٨)

الباب الثامن

في آداب السلام

وفيه

فصلان

الفصل الاول

آداب السلام

اعلم ان العبد السالك اذا رجع عن مقام السجود الذي سره الفناء وحصلت له حالة الصحو والشعور ورجع من حالة الغيبة عن الخلق الى حال الحضور فيسلم على الموجودات سلام من رجع من السفر والغيبة ففي ابتداء الرجوع من السفر يسلم على النبي الاكرم لانه بعد الرجوع من الوحدة الى الكثرة ، فالحقيقة الاولية هي تجلي حقيقة الولاية « نحن الاولون السابقون » ثم يتوجّه الى اعيان سائر الموجودات على طريق التفصيل والجمع ومن لم يكن في صلاته غائبا عن الخلق ولم يسافر الى الله فالسلام بالنسبة اليه بلا حقيقة وليس الا لقلقة لسان فالادب القلبي للسلام مرتبط بالادب في جميع الصلاة واذا لم يحصل له في هذه الصلاة التي هي حقيقة المعراج عروج ولم يخرج عن بيت النفس فلا سلام له ، وايضا اذا كان له السلامة من تصرفات الشيطان وتصرفات النفس الامّارة ولم يكن للقلب علة في طول هذا المعراج الحقيقي فسلامه حقيقي والا فلا سلام له . نعم السلام على النبي صلى الله عليه واله بناء على ذلك سلام حقيقي لانه ﷺ في هذا السفر المعراجي وفي هذا السير الى الله صعودا ونزولا متصف بالسلامة وفي جميع السير عار وبريء من تصرفات غير الحق كما أشرنا اليه في السورة المباركة « انّا أنزلناه »[1] .

المراجع والحواشي

١ ــ (القدر ــ ١)

الفصل الثاني

آداب السلام عند الصادق (ع)

عن مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام « معنى السلام في دبر كل صلاة الامان اي من أدّى أمر الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله خاشعا منه قلبه فله الامان من بلاء الدنيا وبراءة من عذاب الاخرة والسلام اسم من اسماء الله تعالى أودعه خلقه ليستعملوا معناه في المعاملات والامانات والاضافات وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم وصحة معاشرتهم ، واذا أردت ان تضع السلام موضعه وتؤدي معناه فلتتق الله وليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ولا تدنسها بظلمة المعاصي ولتسلم حفظتك من ألا تبرمهم[1] ولا تملّهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم ثم صديقك ثم عدوكّ فان مَن لم يسلم منه من هو الاقرب اليه فالابعد أولى ، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا تسليم (يسلّم) وكان كاذبا في سلامه وان افشاه في الخلق » .

يقول عليه السلام : معنى السلام عقيب الصلاة هو الامان بمعنى ان من أدّى الاوامر الالهية والسنن النبوية بالخشوع القلبي فيأمن من بلاء الدنيا وعذاب الاخرة ، أي يأمن من التصرفات الشيطانية في الدنيا لان أداء الاوامر بالخشوع القلبي موجب لقطع تصرف الشيطان : ان الصلاة تنهى عن

الفحشاء والمنكر .. ثم يشير عليه السلام الى سرّ من أسرار السلام ويقول : السلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه وهذه إشارة الى مظهرية الموجودات للاسماء الالهية ولابد للعبد السالك أن يظهر هذه اللطيفة الالهية التي أودعت واختفت في باطن ذاته وخميرته ويستعملها في جميع المعاملات والمعاشرات والامانات والارتباطات ويشير بها الى مملكة باطنه وظاهره ويستعملها في المعاملات مع الحق ودين الحق تعالى لئلا يخون الوديعة الالهية فتسري حقيقة السلام الى جميع قواه الملكية والملكوتية وفي جميع عاداته وعقائده وأخلاقه وأعماله لتسلم نفسه من جميع التصرفات ، وعرّف عليه السلام التقوى طريقا لتحصيل هذه السلامة .

وليعلم أن للتقوى مراتب ومنازل ، فتقوى الظاهر هي حفظ الظاهر عن القذارات وظلمة المعاصي القالبية وهذه هي تقوى العامة . وتقوى الباطن هي حفظه وتطهيره عن الافراط والتفريط وعن التجاوز عن حد الاعتدال في الاخلاق والغرائز الروحية وهذه تقوى الخاصة . وتقوى العقل حفظه وتطهيره عن الصرف في العلوم الالهية ، والمراد من العلوم الالهية ما يكون مرتبطا بالشرائع والاديان الالهية وهذه تقوى أخصّ الخواص ، وتقوى القلب حفظه عن مشاهدة غير الحق ومذاكراته وهذه تقوى الاولياء ..

والمقصود من الحديث الشريف الذي يقول الحق تعالى فيه أنا جليس من جالسني .. هذه هي الخلوة القلبية . وهذه الخلوة هي أفضل الخلوات ، والخلوات الاخر مقدمة لحصول هذه الخلوة . فمن اتصف بجميع مراتب التقوى يسلم دينه وعقله وروحه وقلبه وجميع قواه الظاهرة والباطنة وتسلم حفظته الموكلة به ولا تمل ولا تنضجر ولا تتوحش منه ، ومن كان بهذه الصفة تكون معاملاته ومعاشرته مع صديقه وعدوه بطريق السلامة بل ينقطع

جذر العداوة عن باطن قلبه وان كان الناس يعادونه ، ومن لم يكن سالما في جميع المراتب فهو محروم من فيض السلام بمقدار عدم سلامته وقريب من أفق النفاق بمقدار ذلك نعوذ بالله منه والسلام .

المراجع والحواشي

١ ــ تبرُمهم : تضجرهم .

خاتمة الكتاب

في آداب بعض الأمور الداخلة والخارجة للصلاة

وفيه

ثلاثة فصول

الفصل الاول

في التسبيحات الاربعة التي تقرأ في الركعة الثالثة والرابعة من الصلاة وأسرارها وآدابها القلبية بالمقدار المناسب وهي متقومة بأركان أربعة

الركن الاول : في التسبيح

التسبيح هو التنزيه عن التوصيف بالتحميد والتهليل . وهو من المقامات الشاملة ، والعبد السالك لابد أن يتوجّه اليه في جميع العبادات ويحفظ قلبه عن دعوى التوصيف والثناء على الحق ولا يظنن أن في امكان العبد القيام بحق العبودية فضلا عن القيام بحق الربوبية الذي انقطعت عنه أعين آمال الكمل وتقاصرت عن ذيله أيدي الاكابر من أصحاب المعرفة (عنقا شكاركس نشود دام بازكير)[1] فلهذه الجهة قالوا إن كمال المعرفة لاهل المعارف عرفان عجزهم . نعم حيث ان الرحمة الواسعة للحق جل وعلا شاملة لنا نحن العباد الضعاف فرخّص لنا نحن المساكين بالدخول الى جناب خدمته بسعة رحمته . وتفضل باجازة الورود في مثل هذا المقام المقدّس المنزّه الذي انقصمت ظهور الكروبيين عن الدنّو منه . وهذا من أعظم التفضلات والايادي للذات المقدسة لولي النعمة على عباده يعرف قدره أهل المعرفة والاولياء الكمّل وأهل الله على قدر معرفتهم وأمّا نحن

المحجوبين المتأخرين عن كل مقام ومنزلة والمحرومين المهجورين من كل كمال ومعرفة فعنه غافلون بالكلية . والاوامر الالهية ــ وهي في الحقيقة أفضل النعم العظيمة غير المتناهية نحسبها من التكلف والكلفة ونقوم بها بالضجر والكسالة . ومن هذه الجهة حرمنا وحجبنا عن نورانيته بالكلية .

وليعلم أن التحميد والتهليل حيث إنهما متضمنان للتوحيد الفعلي وفيهما شائبة التحديد والتنقيص بل شائبة التشبيه والتخليط فيلزم العبد السالك أن يجعل نفسه في حصن التسبيح والتنزيه الحصين ليتهيأ للورود فيه ويفهّم باطن قلبه أن الحق جلّت عظمته منزّه عن التعينات الخلقية والتلبس بملابس الكثرات كي يتنزّه وروده في التحميد عن شائبة التكثير .

الركن الثاني : التحميد

وهو مقام التوحيد الفعلي الذي يناسب حال القيام ويناسب القراءة ايضا . فلهذا كانت هذه التسبيحات في الركعتين الاخيرتين قائمة مقام الحمد والمصلي مختار أن يقرأ الحمد مكانها . ونستفيد التوحيد الفعلي كما ذكرنا في الحمد من حصر الحمد بالحق تعالى ، وتقصر يد العبد عن المحامد بالكلية ونوصل الى سامعة القلب : هو الاول والاخر والظاهر والباطن ، ونذيق ذائقة الروح حقيقة « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » ونضع رؤية النفس وحبها تحت قدمي السلوك كي نصل الى مقام الحمد ونخلّص القلب من مشقة تحمل ثقل منّة الخلق .

الركن الثالث : التهليل وله مقامات

احدها ، مقام نفي الالوهية الفعلية وهو عبارة اخرى عن لا مؤثر في الوجود الا الله ، وهذا يؤكد حصر التحميد بل يوجب الحصر ويسبب له ،

لان مراتب الوجود الامكانية ظلّ حقيقة وجود الحق جلت قدرته وربط محض وليس لشيء منها بوجه من الاستقلال والقيام بنفسه فلهذا لا يصح ان ينسب التأثير الايجادي اليها بوجه لان اللازم في التأثير الاستقلال في الايجاد والاستقلال في الايجاد مستلزم للاستقلال في الوجود ، وبعبارة أهل الذوق حقيقة الوجودات الظلّية ظهور قدرة الحق في المرائي الخلقيّة . ومعنى لا اله الا الله مشاهدة فاعلية الحق وقدرته في الخلق ونفي التعينات الخلقيّة وافناء مقام فاعلية الخلق في الحق وافناء تأثيرهم فيه تعالى .

ومن مقامات التهليل نفي المعبود غير الحق ولا إله الا الله أي لا معبود سوى الله . وبناء على هذا مقام التهليل نتيجة لمقام التحميد لانه اذا انحصرت المحمدة في ذات الحق المقدسة فالعبودية ايضا تنزل حملها في ذلك المقام المقدس وتنتفي جميع عبوديات الخلق للخلق وكلها لرؤية المحمدة ويكون هذا هو المعبود وتنكسر الاصنام بأجمعها .. وللتهليل مقامات أخر لا تناسب هذا المقام .

الركن الرابع : التكبير

وهو أيضا التكبير عن التوصيف ، فكأن العبد في بدء وروده في التحميد والتهليل ينزّه الله عن التوصيف وبعد الفراغ منه أيضا ينزهّه ويكبّره عن التوصيف حتى يكون تحميده وتهليله محفوفا بالاعتراف بالتقصير والتذلل ، ولعل التكبير في هذا المقام هو التكبير عن التحميد والتهليل لان فيه شائبة الكثرة كما ذكر . ولعل في التسبيح تنزيها عن التكبير ، وفي التكبير تكبيرا عن التنزيه لتسقط دعاوى العبد بالكلية ويتمكن في التوحيد الفعلي ويكون مقام القيام بالحق ملكة لقلبه ويخرج عن التلوين وتحصل له حالة

التمكين . والعبد السالك لابد أن يحصّل لقلبه في هذه الأذكار الشريفة ، وهي روح المعارف حالة التبتّل والتضرّع والانقطاع والتذلّل ويعطى لباطن القلب صورة الذكر بكثرة المداومة ، ويمكّن في باطن القلب حقيقة الذكر حتى يكون القلب متلبّسا لباس الذكر وينزع عن نفسه لباسها وهو لباس البعد . فيصير القلب الهيا حقانيا وتتحقق فيه حقيقة الآية : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم » وروحها .

المراجع والحواشي

١ ــ مصراع بيت للشاعر العارف الحافظ الشيرازي والمصراع الثاني « كانجا هميشه بادبه دست است دام را » يقول :

ليست العنقاء تصطاد فخذ فخك واذهب

انه ليس له حظ سوى هب الرياح

٢ ــ (التوبة ــ ١١١)

الفصل الثاني

في الآداب القلبية للقنوت

اعلم أن القنوت من المستحبات المؤكدة لا ينبغي تركه بل الاحوط الاتيان به لان بعض الاصحاب قال بوجوبه ، وظاهر بعض الروايات ايضا الوجوب وان كان الاقوى في الصناعة الفقهية عدم الوجوب كما هو المشهور بين العلماء الاعلام وهو على هذه الكيفية الخاصة المتعارفة بين الامامية رضوان الله عليهم بمعنى أنه متقوم برفع اليد حذاء الوجه وبسط باطن الكفين نحو السماء والدعاء بالمأثور أو غير المأثور ويجوز الدعاء بكل لسان عربيا كان أم غير عربي والعربي أحوط وأفضل وقال الفقهاء أفضل الادعية فيه دعاء الفرج ، ولم ير الكاتب دليلا فقهيا معتدا به للافضلية ولكن مضمون الدعاء دالّ على أفضليته التامة لانه مشتمل على التهليل والتسبيح والتحميد وهي روح التوحيد كما ذكرنا . وهو مشتمل ايضا على الأسماء العظيمة الالهية كالله والحليم والكريم والعليّ والعظيم والرب ، وهو ايضا مشتمل على ذكر الركوع والسجود وهو مشتمل ايضا على اسماء الذات والصفات والافعال ، وهو مشتمل أيضا على تجليات الحق جل وعلا ، وهو مشتمل ايضا على السلام على المرسلين ، وان كان الاحوط تركه ولكن الاقوى جوازه ، وهو مشتمل ايضا على الصلاة على النبي وآله عليهم السلام . فكان هذا الدعاء

باختصاره مشتملا على جميع الوظائف الذكرية للصلاة ، ويمكن اثبات افضليته . بقول الفقهاء رضوان الله عليهم ، إما بالتسامح في أدلّة السنن ، وان كان للكاتب فيه تأمّل وامّا بالكشف عن دليل معتبر خفي عنّا كما هو مبنى الاجماع في نظر المتأخرين .

ومن الادعية الشريفة التي لها فضل عظيم . وهو مشتمل ايضا على آداب مناجاة العبد الحق . ومشتمل على تعداد العطايا الكاملة الالهية الذي يناسب حال القنوت وهو حال المناجاة والانقطاع الى الحق مناسبة تامة وبعض المشايخ العظام رحمه الله كان مواظبا ومداوما عليه تقريبا ، وهو دعاء « يا من أظهر الجميل» . وهو من كنوز العرش وتحفة الحق تعالى لرسول الله ولكل من فقراته فضائل وثواب كثير كما في توحيد الشيخ الصدوق رحمه الله .

ومع أن الصلاة جميعها اظهار للعبودية وثناء على الله فان الذات المقدسة للحق جل وعلا فتح باب المناجاة والدعاء للعبد بالخصوص في حال القنوت وهو حال المناجاة والانقطاع الى الحق ، وشرّفه بهذا التشريف ، فالافضل في أدب عبودية العبد السالك ايضا أن يراعي أدب المقام المقدس الربوبي ويراقب أدعيته لتكون مشتملة على تسبيح الحق تعالى وتنزيهه ، وتتضمن ذكر الحق وتذكّره ويكون ما يسأل الحق تعالى في هذه الحالة الشريفة من سنخ المعارف الالهية وطلب فتح باب المناجاة والانس والخلوة والانقطاع اليه ويحترز عن سؤال الدنيا والامور الخسيسة الحيوانية والشهوات النفسانية فيصيبه الخجل في محضر الاطهار ويصير بلا حرمة ووقار في محضر الابرار .

ايها العزيز .. ان القنوت هو قطع اليد عن غير الحق والاقبال التام

على عزّ الربوبية ومدّ يد السؤال خالية الكف الى الغني المطلق والكلام عن البطن والفرج وذكر الدنيا في هذا الحال ، عين الانقطاع كمال النقصان وتمام الخسران .

أيا روحي .. حيث إنك الان بعدت عن وطنك وهجرت مجاورة الاحرار وابتليت بهذه الدار المظلمة ذات التعب والمحن الكثيرة فلا تنسج على نفسك كدود القزّ .

أيا عزيزي .. ان الله الرحمن قد خمّر فطرتك بنور المعرفة ونار العشق ، وأيّدها بأنوار كالانبياء وعشاق كالاولياء فلا تطفىء هذه النار بتراب الدنيا الدنيّة ورمادها ، ولا تكدّر ذاك النور بكدورة التوجّه الى الدنيا وظلمتها وهي دار الغربة ، فانك اذا توجّهت الى الوطن الاصلي وطلبت الانقطاع الى الحق من الحق وعرضت عليه حالة هجرانك وحرمانك بقلب موجع وأظهرت حال مسكنتك واضطرارك ووجعك فيدركك الامداد الغيبي وتساعد مساعدة باطنية وتجبر النقائص اذ من عادته الاحسان ومن شيمته التفضّل ، واذا قرأت في القنوت من فقرات المناجاة الشعبانية لامام المتقين وأمير المؤمنين وأولاده المعصومين عليهم السلام وهم أئمة المعارف والحقائق وخصوصا قوله عليه السلام : « الهي هب لي كمال الانقطاع اليك ..» الى آخره .. ولكن تقرؤه بحال الاضطرار والتبتّل والتضرّع ، لا بقلب ميّت كقلب الكاتب فهو أنسب لهذه الحال .

وبالجملة ، مقام القنوت في نظر الكاتب كمقام السجود ، فذاك توجّه واقبال على ذلّ العبودية وتذكّر مقام عزّ الربوبية ، وهذا إقبال على العز الربوبي وتذكر عجز العبودية وذلّها وهذا على حسب مقام المتوسطين ، وامّا على حسب مقام الكمّل فكما أن السجود مقام فناء العبد وترك الغير

والغيرية ، فالقنوت مقام الانقطاع الى الحق وترك الاعتماد على الغير وهو روح مقام التوكل .

وبالجملة ، حيث إن القيام مقام التوحيد الافعالي وهذا التوحيد يتمكن من الركعة الثانية ففي القنوت تظهر نتيجته فيقدم العبد كشكول[1] السؤال الى الحق وينقطع عن الخلق ويفرّ منهم .

المراجع والحواشي

١ ـــ الكشكول : وعاء يجمع فيه المتسول رزقه .

الفصل الثالث

في التعقيب

وهو من المستحبات المؤكدة ويكره تركه أيضا ، ويتأكد الاستحباب في الصبح والعصر ، والتعقيبات المأثورة كثيرة : منها التكبيرات الثلاثة الاختتامية والمشايخ العظام يواظبون بأن يرفعوا أيديهم في كل تكبيرة منها الى حذاء الاذن ويبسطون باطن كفهم حذاء القبلة كالتكبيرات الافتتاحية ، واثباتها مشكل ، وان أمكن استفادة رفع اليد ثلاث مرات من بعض الروايات ولعله يكفي رفع اليد والتكبير ثلاثا وقراءة دعاء « لا اله الا الله وحده » الى آخره ..

وإذا كان رفع اليد مستحبا كما يواظب عليه المشايخ فهو تمكين للاسرار التي ذكرناها .

ولعله اشارة الى طرد صلاته وعباداته لئلا يتطرق العجب ورؤية النفس الى قلبه . والتكبيرات الثلاثة لعلها اشارة الى التكبير عن التوحيدات الثلاثة التي هي مقومة روح جميع الصلاة ، فالادب القلبي لهذه التكبيرات هو أن يطرد المصلي في كل رفع لليدين توحيدا من التوحيدات الثلاثة ويكبر وينزه الحق جل وعلا عن توصيفات نفسه وتوحيداته ويعرض عجزه وذلّته وقصوره

وتقصيره في المحضر المقدّس للحق جل وعلا ، ونحن ذكرنا في رسالة سرّ الصلاة الاسرار الروحية لهذه التكبيرات ، وذكرنا رفع اليد على نحو لطيف في تلك الرسالة وهو من ألطاف الحق تعالى لهذا المسكين وله الشكر والحمد .

ومن جملة التعقيات الشريفة ، التسبيحات للصديقة الطاهرة سلام الله عليها التي علّمها رسول الله صلى الله عليه وآله لتلك المعظمة وهي أفضل التعقيبات . وفي الحديث « انه لو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله فاطمة عليها السلام » .

وعن أبي خالد القماط قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « تسبيح فاطمة عليها السلام في كل يوم في دبر كل صلاة أحب الي من صلاة ألف ركعة في كل يوم » . والمعروف عند الاصحاب في ترتيبها التكبير اربعا وثلاثين مرة والتحميد ثلاثا وثلاثين مرة والتسبيح ثلاثا وثلاثين مرة ، ولا يبعد أن يكون هذا الترتيب أفضل لا المتعين ، بل الانسان مخير في التأخير والتقديم في التحميد والتسبيح ، بل لعله مخير في تأخير التكبير وتقديم التسبيح ايضا ، ولكن الافضل والاحوط هو الترتيب المشهور ، وآدابها القلبية هي التي ذكرت في التسبيحات الاربعة و الزائد عليها ان هذه الاذكار حيث أنها وردت بعد الصلاة والتسبيح فيها هو التكبير والتنزيه عن القيام بحق العبودية ، وفي التكبير ايضا تنزيه وتكبير عن اللياقة للعبادة لمحضر قدسه ، وأيضا تنزيه وتكبير عن المعرفة وهي غاية العبادة ، فعلى العبد السالك ان يتفكر في تعقيب الصلاة في نقصه وعبادته وغفلانه في حال الحضور وهي بنفسها ذنب في مذهب العشق والمحبة ويتوجه الى حرمانه من حظوظ الحضور والمحضر المقدس للحق جل جلاله ويجبره بالمقدار الميسور في التعقيبات التي هي فتح باب آخر للرحمة من الحق تبارك وتعالى ،

ويوصل هذه الأذكار الشريفة الى القلب ويحيي بها قلبه فلعله تختم خاتمته بالحسن والسعادة .

وفي التحميد لتسبيحات الصديقة عليها الصلاة والسلام تثبت هذه المحمدة ــ وهي القيام بالعبودية ــ يثبتها للهوية الالهية ويراها ويعدّها من تأييد الذات المقدسة وحولها وقوّتها ويوصل حقائق هذه الامور الى سر القلب ويذيق الفؤاد سر هذه اللطائف ليحيي القلوب بذكر الحق ويجد القلب الحياة الدائمة بالحق ، وحيث أن الصبح افتتاح الاشتغال بالكثرات والورود على الدنيا ، والانسان مواجه لمخاطرة الاشتغال بالخلق والغفلة عن الحق فينبغي للانسان السالك اليقظان ان يتوسّل الى الحق تعالى في ذلك الوقت الدقيق للورود في هذه الدار المظلمة وينقطع الى حضرته ، فاذا رأى نفسه غير وجيه في ذلك المحضر الشريف فيتوسل بأولياء الامر وخفراء الزمان وشفعاء الانس والجان يعني الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله والائمة المعصومين عليهم السلام ، ويجعل تلك الذوات الشريفة شفيعا وواسطة ، وحيث إن لكل يوم خفيرا ومجيرا فيتعلق يوم السبت بالوجود المبارك لرسول الله صلى الله عليه وآله ، ويوم الاحد لامير المؤمنين عليه السلام ويوم الاثنين للأمامين الهمامين السبطين عليهما السلام ، ويوم الثلاثاء للحضرات السجاد والباقر والصادق عليهم السلام ، ويوم الاربعاء للحضرات الكاظم والرضا والتقيّ والنقيّ عليهم السلام ، ويوم الخميس للعسكري عليه السلام ، ويوم الجمعة لوليّ الامر عجّل الله فرجه الشريف(1) ، فيناسب ان يتوسل بعد صلاة الصبح للورود في هذا البحر المهلك الظلماني والمصيدة المهيبة الشيطانية بخفراء ذلك اليوم ويسأل الحق تعالى رفع شر الشيطان والنفس الامارة بالسوء بشفاعتهم فانهم مقربون لجناب القدس والمحارم لخلوة

الانس ويجعلهم وسائط في الاتمام وقبول العبادات الناقصة والمناسك غير اللائقة ، فالحق تعالى شأنه كما جعل محمدا صلى الله عليه وآله وأهل بيته وسائط الهداية وعيّنهم الهداة لنا ونجّى الامة ببركاتهم من الضلالة والجهل فيرمّم بشفاعتهم قصورنا ويتمم نقصنا ويقبل اطاعاتنا وعباداتنا غير اللائقة انه وليّ الفضل والانعام .

والتعقيبات المأثورة مذكورة في كتب الأدعية فلينتخب كل ما يناسب حاله ويتم هذا السفر الشريف بالخير والسعادة .

المراجع والحواشي

١ ــ هؤلاء الائمة الاثنا عشر الواردة على لسان النبي صلى الله عليه وآله في الخبر المتواتر او المستفيض عن طرق العامة ان الخلفاء من بعدي او الائمة من بعدي اثني عشر كلهم من قريش وقد استقصينا البحث عن هذه الروايات في رسالتنا أولي الأمر .

اختتام ودعاء

كان من المناسب ان نتمم هذه الرسالة بذكر الموانع المعنوية للصلاة من قبيل الرياء والعجب وأمثالهما ولكن بما أنّا ذكرنا في كتاب الاربعين في شرح بعض الاحاديث شرحا لهذه الموضوعات .

والان بسبب كثرة الاشتغال وتشتت القوى الفكرية نعتذر عن هذه الخدمة ، فلذا نختم هذه الاوراق مع الاعتراف بالنقص والتقصير ونطلب من أرباب الانظار النقية العفو عن الخطأ ونحتاج الى دعاء الخير منهم والنفس الكريم لهم .

إلهنا أنت الذي ألبستنا نحن العبيد الضعفاء لباس الوجود بالتفضل والعناية ومحض الرحمة والكرامة من دون أن تسبقنا خدمة وطاعة أو نحتاج الى عبودية وعبادة ، وشرّفتنا بأنواع النعم الروحانية والجسمانية وأصناف الرحمات الباطنية والظاهرية من دون أن يتطرق من عدمنا خلل في قدرتك وقوّتك أو أن يزيد بوجودنا شيىءعلى عظمتك وحشمتك ، فالان وقد فاز منبع رحمانيتك وتشعشعت عين شمس جمالك الجميل وأغرقتنا في بحار رحمتك ونوّرتنا بأنوار الجمال فاجبر أيضا نقائصنا وخطيئاتنا وذنوبنا وتقصيراتنا بنور التوفيق الباطني ، والمساعدة والهداية السرية واخلص قلوبنا التي هي كلها تعلّق من التعلقات الدنيوية وزيّنها بالتعلق بعز القدس .

إلهنا انه لا يحصل من طاعتنا نحن الاقلّين بسط في مملكتك، ولا يعود اليك نفع من عذاب المذنبين وايلامهم ، ولا يحصل من العفو والرحمة للساقطين نقصان في قدرتك فالعين الثابتة للخاطئين طالبة للرحمة وفطرة الناقصين طالبة لتماميتهم ، فعاملنا باللطف العميم ولا تنظر الى سوء استعدادنا ..

الهي ان كنت غير مستأهل لرحمتك فأنت أهل أن تجود علي بفضل سعتك .. الهي قد سترت عليّ ذنوباً في الدنيا وأنا أحوج الى سترها عليّ منك في الاخرة .. الهي هب لي كمال الانقطاع اليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها اليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل الى معدن العظمة .

هاهنا أختتم كلامنا بتقدير الله حامدا شاكرا على نعمائه مصليّا على محمد وآله الطاهرين في تاريخ يوم الاثنين من ربيع الثاني سنة ألف وثلاثمئة واحدى وستين ١٣٦١ هـ . ق .

خاتمة المعرّب

أقول وقد وفّقني المولى المنعم لتعريب هذا السفر الجليل من اللغة الفارسيّة في بلدة دمشق وقد تمّت ترجمته في صبيحة يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال سنة ألف وأربعمئة وثلاث من الهجرة النبوية على هاجرها الصلاة والسلام ، والحمد لله أولا وآخرا ، وأنا العبد المفتاق الى رحمة ربه

: السيد احمد الفهري

فهرست